

أبتون سنكلير

١٠٠٪

قصة مناضل وطني

ترجمة أحمد عبد المنعم

١٠٠٪

قصة مناضل وطني

تأليف

أبتون سنكلير

ترجمة

أحمد عبد المنعم

مراجعة

محمد حامد درويش



100%

Upton Sinclair

٪١٠٠

أبتون سنكلير

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦/١/٢٠١٧

يورك هاوس، شبييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٢٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٧٣٥ ٠

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٠.

صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص

هذا الكتاب مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُنْصَف، الإصدار ٤.٠. جميع

حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١١	القسم الأول
١٥	القسم الثاني
١٩	القسم الثالث
٢١	القسم الرابع
٢٥	القسم الخامس
٢٩	القسم السادس
٣١	القسم السابع
٣٥	القسم الثامن
٣٧	القسم التاسع
٤١	القسم العاشر
٤٣	القسم الحادي عشر
٤٧	القسم الثاني عشر
٥١	القسم الثالث عشر
٥٥	القسم الرابع عشر
٥٩	القسم الخامس عشر
٦٣	القسم السادس عشر
٦٥	القسم السابع عشر
٦٩	القسم الثامن عشر
٧٣	القسم التاسع عشر
٧٧	القسم العشرون

٨١	القسم الحادي والعشرون
٨٣	القسم الثاني والعشرون
٨٧	القسم الثالث والعشرون
٩١	القسم الرابع والعشرون
٩٥	القسم الخامس والعشرون
٩٧	القسم السادس والعشرون
١٠١	القسم السابع والعشرون
١٠٥	القسم الثامن والعشرون
١٠٧	القسم التاسع والعشرون
١٠٩	القسم الثلاثون
١١٣	القسم الحادي والثلاثون
١١٧	القسم الثاني والثلاثون
١٢١	القسم الثالث والثلاثون
١٢٥	القسم الرابع والثلاثون
١٢٩	القسم الخامس والثلاثون
١٣٣	القسم السادس والثلاثون
١٣٧	القسم السابع والثلاثون
١٤١	القسم الثامن والثلاثون
١٤٥	القسم التاسع والثلاثون
١٤٩	القسم الأربعون
١٥٣	القسم الحادي والأربعون
١٥٧	القسم الثاني والأربعون
١٥٩	القسم الثالث والأربعون
١٦٣	القسم الرابع والأربعون
١٦٧	القسم الخامس والأربعون
١٧١	القسم السادس والأربعون
١٧٥	القسم السابع والأربعون
١٧٩	القسم الثامن والأربعون
١٨١	القسم التاسع والأربعون

المحتويات

١٨٥	القسم الخمسون
١٨٩	القسم الحادي والخمسون
١٩٣	القسم الثاني والخمسون
١٩٩	القسم الثالث والخمسون
٢٠٣	القسم الرابع والخمسون
٢٠٧	القسم الخامس والخمسون
٢١١	القسم السادس والخمسون
٢١٥	القسم السابع والخمسون
٢١٩	القسم الثامن والخمسون
٢٢٣	القسم التاسع والخمسون
٢٢٧	القسم الستون
٢٣١	القسم الحادي والستون
٢٣٥	القسم الثاني والستون
٢٣٩	القسم الثالث والستون
٢٤٣	القسم الرابع والستون
٢٤٧	القسم الخامس والستون
٢٥١	القسم السادس والستون
٢٥٥	القسم السابع والستون
٢٥٩	القسم الثامن والستون
٢٦٣	القسم التاسع والستون
٢٦٧	القسم السبعون
٢٧١	القسم الحادي والسبعون
٢٧٥	القسم الثاني والسبعون
٢٧٩	القسم الثالث والسبعون
٢٨٣	القسم الرابع والسبعون
٢٨٧	القسم الخامس والسبعون
٢٩١	القسم السادس والسبعون
٢٩٥	القسم السابع والسبعون
٢٩٩	القسم الثامن والسبعون

٣٠٣	القسم التاسع والسبعون
٣٠٧	القسم الثمانون
٣١١	القسم الحادي والثمانون
٣١٥	القسم الثاني والثمانون
٣١٩	القسم الثالث والثمانون
٣٢٣	القسم الرابع والثمانون
٣٢٧	القسم الخامس والثمانون
٣٣١	القسم السادس والثمانون
٣٣٧	مُلْحَق

إلى زوجتي

مُبكرة الشخصية الأكثر جاذبيةً في هذه القصة، «السيدة جود»، التي رفضت رفضاً قاطعاً أن تسمح بطباعة هذا الكتاب حتى يتم توضيح أن الشخصية سُميت على اسم إلهة يونانية وليست إلهة عبرية، حتى لا يتهم أحدُ المؤلف بتدنيس المقدسات.

القسم الأول

يفكر المرء أحياناً في تسلسل الأحداث الصغيرة التي يعتمد عليها أهم ظروف حياته، ويتأمل ما مضى من حياته ويرتجف، مدرِّكاً كم كان قريباً من حافة العدم. قد يسير شابٌ في الشارع مصادفةً، لا تشغل ذهنه فكرةٌ محدّدة ولا يتجه إلى وجهةٍ محدّدة؛ ثم يصل إلى تقاطع طرق، ومن دون سبب يمكنه ذكره، ينحرف ناحية اليمين بدلاً من اليسار؛ ومن ثمّ يلتقي فتاةً ذات عَيْنَيْنِ زرقاوين، تجعل قلبه ينبض. يلتقي بالفتاة ويتزوَّجها؛ وتُصبح هذه الفتاة والدتك أنت. ولكن دعنا نفترض أن الشاب انحرف نحو اليسار بدلاً من اليمين، ولم يلتقِ بالفتاة ذات العَيْنَيْنِ الزرقاوين؛ أين ستكون أنت الآن، وماذا كان سيحدث لتلك القدرات الذهنية التي تعتبرها مهمةً للعالم، وتلك الأعمال التجارية الجديّة التي تتركس وقتك لها؟

حدث شيءٌ من هذا القبيل لبيتر جادج؛ مجرد حادثٍ شبيه بما ذكرتُ سابقاً، ولكنه غير مسار حياته بالكامل، وبدأ سلسلة الأحداث التي تتناولها هذه القصة. كان بيتر يمشي في الشارع عصر أحد الأيام عندما اقتربت منه امرأة وقدمت له نشرة مطبوعة، وقالت: «اقرأ هذا، من فضلك».

وبغلظةً أجابها بيتر، الذي كان جائعاً، وفي خلاف مع العالم بأسره: «لا أملك أي مال». فقد حسبها نشرة إعلانية. «لا يمكنني شراء أي شيء».

أجابته المرأة: «لا أعرض عليك سلعةً لأبيعها. إنها رسالة».

قال بيتر: «هل لها علاقة بالدين؟ لقد طردتُ من كنيسةٍ للتو».

قالت المرأة: «لا، ليست كنيسة. إنها شيءٌ مختلف؛ وضعها في جيبك». كانت امرأةً مسنة ذات شعرٍ رمادي، وكانت تتبع هذا الغريب الضعيف الذي يبدو عليه الفقر وهي تبسم بلطف، ولكنها ظلّت تُلح عليه قائلة: «اقرأه في وقتٍ ما عندما لا يكون لديك شيءٌ آخر

تفعله.» فأخذ بيتر النشرة منها فقط لكي يتخلص منها، ووضعها في جيبه، ومضى في طريقه، وفي غضون بضع دقائق، كان قد نسي كل شيء عن الأمر.

كان بيتر يفكر، أو بالأحرى كانت مَعْدَة بيتر تفكّر بالنيابة عنه؛ لأنه إذا لم يدخل جوفك شيءٌ طوال اليوم، واليوم الذي سبقه سوى كوب من القهوة وساندويتش واحد، فستنتقل مراكز تفكيرك من أعلاك إلى وسطك. كان بيتر يفكر أن حياته هذه مريضةٌ أشبه بالجحيم. من كان يتوقع أنه مجرد أنه سرق كعكة دونات مقلية بائسة واحدة، سيفقد وظيفته السهلة وفرصته في الارتقاء في العالم؟ كان وجود بيتر بأكمله يتمحور حول بذل الجهد للارتقاء في العالم؛ وتحقيق النجاح، الذي يعني المال، والذي يعني الدعة والراحة؛ تلك الأسماء السحرية التي تجذب جميع البشر إليها.

ولكن من كان يمكنه أن يتوقع أن السيدة سميثرز كانت تُحْصِي كعك الدونات المقلي كلما مرَّ أحدٌ عبرَ خزانة مؤنّها؟ كان هذا هو الظرف السخيف الوحيد الذي أغرق بيتر في حالته البائسة الحالية. ولولا ذلك، لربما كان يتناول غداءً مكوّنًا من الخبز والرنجة المجفّفة والشاي الخفيف في منزل زوجة صانع الأحذية، ولربما كان لا يزال منشغلاً بعمله في إثارة الفتن داخل الكنيسة الرسولية الأولى، المعروفة أيضًا باسم الرولرز المقدّسة، وعزل القس جماليل لونك، وتعيين صانع الأحذية سميثرز في وظيفة القس، وبيتر جادج مساعدًا له.

دائمًا ما كان الحال على هذا المنوال طوال حياة بيتر التي تبلغ عشرين عامًا. فكَم من مرة تمكّن من تثبيت قبضته الضعيفة على سلّم الرخاء، ثم يحدث شيءٌ ما — شيءٌ مؤسف مثل سرقة كعكة دونات مقلية — لنقلت قبضته ويسقط مجددًا في حفرة البؤس.

لذا ظل بيتر يمشي، بحزامه المشدود، وعينيه الزرقاوين الدائمّي النظر هنا وهناك، باحثًا عن مكان لتناول وجبة. كانت ثمّة وظائفٌ متاحة، ولكنها كانت وظائفَ صعبة، وكان بيتر يريد وظيفةً سهلة. ثمّة أناسٌ في هذا العالم يعيشون بفضل عضلاتهم، وآخرون يعيشون بفضل ذكائهم؛ كان بيتر ينتمي إلى الفئة الثانية؛ وفُضِّل تفويت الكثير من الوجدات على الانحدار في السُّلّم الاجتماعي.

نظر بيتر في وجوه كل من مرّوا به، مفتشًا عن بارقة أمل. بادلّه بعضهم النظر، ولكن لما لا يزيد على ثانية واحدة؛ فقد رأوا أمامهم رجلًا متواضع المظهر، وضئيل الحجم، ويعاني من سوء التغذية، وإحدى كتفيه أعلى من الأخرى، ذا نَقْنٍ وفمٍ أعجفٍ، وأسنانٍ معوجّة، وشاربٍ بُني خفيف لم يستطع الحفاظ على كثافته نفسها عند ركنّيه. كانت قُبعة بيتر القشّية تفتقد الكثير من القش، وأصبحت بدّلته البُنّية المُستعملة مهترئة تمامًا من

كثرة الاستخدام، وتآكل نعل حذائه من الجانبين. في مدينة كان الجميع فيها «يهرعون»، الجميع حرفياً، أو كما يصوغون الأمر، «يسعون»، لِمَ قد يُلقَى أحد نظرةً ثانيةً على بيتر جادج؟ لِمَ قد يهتم أحد بالروح القلقة المختفية في داخله، أو يتخيل أن بيتر كان عبقرياً من نوعٍ ما، بأسلوبه الغامض الخاص؟ لِمَ يهتم أحد؛ لِمَ يتخيل أحد.

كانت الساعة تشير إلى الثانية تقريباً بعد ظهر أحد أيام شهر يوليو، وكانت الشمس تُلَفِّحُ شوارع المدينة الأمريكية. كانت الشوارع مزدحمة، ولاحظ بيتر الأعلام والزينة المنتشرة في كل مكان. وسمع مرةً أو مرتين أصداً الموسيقي الآتية من بعيد وتساءل عما «يحدث». لم يكن بيتر يقرأ الصحف؛ فقد كان اهتمامه منصباً على الخلافات بين طائفة سميثرز وطائفة لونك في الكنيسة الرسولية الأولى، المعروفة أيضاً باسم الرولرز المقدسة، ولم تكن الأحداث الكبرى التي تحدث في العالم الخارجي تهمةً. كان بيتر يعرف دون يقين أنه على الجانب الآخر من العالم كانت نصفُ دُرَّيْنَة من الأمم العظيمة متشابكة معاً في نزاعٍ مميت؛ كانت الأرض كلها ترتجّ بسبب صراعات تلك الأمم، وكان بيتر قد شعر ببعض الارتجاج من حين لآخر. ولكن بيتر لم يكن يعرف أن لبلاده أيّ علاقة بهذا النزاع الأوروبي، ولم يكن يعرف أن بعض أصحاب المصالح الكبار في جميع أنحاء البلاد بذلوا جهداً كبيراً لحث الجمهور على التحرك.

وصلت هذه الحركة إلى المدينة الأمريكية، وغزت العروض الوطنية الشوارع. وعرضت جميع واجهات المتاجر لوحات تقول: «استيقظي يا أمريكا!» وعبر الشارع الرئيسي الواسع كانت هناك راياتٌ تقول: «استعدّي يا أمريكا!» وفي الساحة التي تقع عند أحد طرفي الشارع كان يتجمّع جيشٌ صغيرٌ مكوّنٌ من قدامى محاربي الحرب الأهلية المسنين، وقدامى محاربي الحرب الإسبانية الذين كانوا في منتصف العمر، وأفواج من ميليشيات الولاية، وكتائب من مشاة البحرية والبجّارة من السفن الراسية في الميناء، وأعضاء من الجمعيات الأخوية مع رؤسائهم العظماء الرئيسيين الكبار على صهواتٍ خيولٍ مزينةٍ بأشرطةٍ ذهبيةٍ وريشٍ أبيضٍ متمایل، وكانت جميع الشخصيات المعروفة في المدينة تستقل عربات، وكان العديد من الفرق تمشي بالخطوة العسكرية وعشرة آلاف علم ترفرف فوق رءوسهم. «استيقظي يا أمريكا!» وها هو ذا بيتر جادج، بمعدته الفارغة، يصادف فجأةً الحشود المزدحمة في الشارع الرئيسي، ولم تكن لديه أدنى فكرة عما يدور حوله الأمر.

دَكَرَ أحد تلك الحشود بيتر بشيءٍ ما. فطوال سبع سنوات من شبابه، كان مساعداً لبريكليس بريام، وطاف أنحاء أمريكا لبيع مسكّن آلام بريام الذي لا يُضاهى؛ كانا

يسافران في سيارة، وأينما صادفا مهرجاناً أو مؤتمراً أو رحلة أو نزهة، كانا يشاركان، وكان بيريكليس بريام يتوقّف في مكان حيث تكون الحشود أكثر كثافة، ويقرع جرس العشاء، ويقدم رسالته البليغة للإنسانية؛ لقد ظهر إكسير الحياة، ونُفي الألم من الأرض، وستنتهي جميع المتاعب الدنيوية هذه مقابل دولارٍ واحدٍ للزجاجة التي تحتوي على أفيون بنسبة خمسة عشر بالمائة. وكانت وظيفة بيتر هي توزيع الزجاجات وجمع النقود؛ لذا، عندما رأى الحشود، بدأ ينظر حوله بشغف. فربما يرى بائعاً للاصقات مسمار القدم أو مزيلات بقع الحبر، أو رجلاً يلعب لعبة البطاقات الثلاث يمكن أن يعمل معه بيتر مقابل بعض المال الذي يكفي لشراء ما يسد به رمقه.

تسلّل بيتر بين الحشود لمسافة حيّين أو ثلاثة، ولكنه لم يرَ شيئاً واعدًا أكثر من بائعي الأعلام الأمريكية المرفوعة على عصي صغيرة، والشارات الوطنية المكتوب عليها «استيقظي يا أمريكا!» ولكن سرعان ما رأى بيتر، على الجانب الآخر من الشارع عند أحد التقاطعات، رجلاً يقف على شاحنة يُلقي خطاباً، فتوغّل بين الحشود، دافعاً الناس بكوعه، ومنزلقاً بينهم هنا وهناك، معتدراً للجميع؛ حتى خرج أخيراً من بين الحشود، ووقف على الطريق المفتوحة التي أُخليت من أجل الموكب، الطريق التي بدت وكأنه لا نهاية لها، المحاطة بجدران صُلبة من البشر، ورجال الشرطة بزِيهم الأزرق يدفعونهم إلى الخلف. بدأ بيتر يعدو عابراً الطريق؛ وفي اللحظة نفسها جاءت نهاية العالم.

القسم الثاني

مَنْ يُحاول وصف الأحداث بالكلمات يواجه أحياناً صعوبةً جوهرية. قد يقع دفعةً واحدةً حدثٌ ذو أهمية هائلة وساحقة، ولكن الكلمات التي تصفه يجب أن تخطر عليك واحدةً تلو الأخرى في سلسلةٍ طويلة. قد يكشف الحدث عن نفسه دون تحذيرٍ مسبقٍ ولو للحظةٍ واحدة؛ ولكن إذا كان على المرء أن يصفه بالكلمات، فعليه أن يستعدَّ له، ويمهِّد له، ويزيد الترقب له، وينشئ لحظة ذروة. إذا كان وصف هذا الحدث الذي ألقاه القدر على بيتر جادج أثناء عبوره الشارع مقتصرًا على كلمة «بانج» التي تصف صوت الاصطدام، المكتوبة على بضع بوصاتٍ عبر الصفحة، فلن يكون الانطباع الذي ستُخلِّفه كافيًا.

نهاية العالم، بدا الأمر هكذا لبيتر عندما أصبح قادرًا على السيطرة على ذهنه المرتعب للتفكير فيما حدث. ولكن في البداية لم يكن ثمَّة تفكير؛ كان هناك إحساسٌ فقط، زئيرٌ هائل، كما لو أن الكون بأكمله تحوَّل فجأةً إلى صوت؛ ووميضٌ أبيضٌ مبهر، كأنه كل البروق في السماء مجتمعة؛ وصدمة قذفته كما لو كان ريشةً في مهب الريح وألقت به عبر الشارع ليصطدم بجانب أحد المباني. سقط بيتر على الرصيف متكومًا، وزاهلاً وقد صُمَّت أذناه، وعميت عيناه؛ وظل راقداً في مكانه لفترة لم يتبيَّن لها حتى بدأت حواسُّه تعود إليه تدريجياً، وفي خضمِّ الفوضى بدأت بعض التفاصيل تبرز؛ دخان رمادي خفيف بدا وكأنه جاثم فوق الأرض، ورائحة مُرَّة تلسع الأنف واللسان، وصرخات الناس، والأنين والبكاء والصخب العام. كان ثمَّة شيءٌ ملقى على صدر بيتر، وشعر أنه يكاد يخنق، واستجمع قواه ليدفعه بعيداً؛ شعرت يداها اللتان استخدمهما في الدفع بشيءٍ ساخن، ورطب، ولزج، وارتعب بيتر عندما أدرك أنه كان نصف جسم إنسانٍ مُشوَّهاً.

نعم، كانت نهاية العالم. قبل بضعة أيام فقط، كان بيتر جادج عضواً متديناً في الكنيسة الرسولية الأولى، المعروفة أيضاً باسم الرولرز المقدَّسة، وكان يستمع في اجتماعات

الصلاة إلى تصورات مشاهد تهز المشاعر من سَفَر الرؤيا. لذا، كان بيتر يعلم أنها نهاية العالم؛ وكانت ثمة خطايا كثيرة تُثقل ضميره ولم يكن مستعداً بأي حال من الأحوال لمواجهة ربه، فنظر إلى أجساد القتلى والجرحى المتألمين ورأى صفًا من الصناديق الموضوعة بجوار المبنى، كان قد وضعها أناسٌ كانوا يرغبون في رؤية الموكب من فوق رعوس الحشد. بدأ بيتر يزحف، واكتشف أنه لا يزال قادرًا على فعل ذلك، فانسلَّ خلف أحد هذه الصناديق ودخله ليرقد مختبئًا من ربه.

كان عليه دم، ولم يكن يعرف إذا ما كان دمه أم دم آخرين. كان يرتجف من فَرَط الخوف؛ وكانت أسنانه المَعْوَجَّة تصطك معًا كما لو كانت أسنان مرموط أرض غاضب. ولكن استمرَّت تأثيرات الصدمة في الزوال، وبدأ يستعيد إدراكه، وأدرك بيتر أخيرًا أنه لم يأخذ أفكار الكنيسة الرسولية الأولى للمدينة الأمريكية على محمل الجد أبدًا. كان يسمع أنين الجرحى، وصيحات وصخب الحشد، وبدأ التفكير بجدية في الأسباب المحتملة لما حدث. كان قد وقع زلزالٌ ذات مرة في المدينة الأمريكية؛ هل يمكن أن يكون هذا زلزالاً آخر؟ أم أن بركانًا قد انفُتِح واندَلع في وسط الشارع الرئيسي؟ أم أنه خط غاز؟ وهل انتهى الأمر، أم أن هناك انفجاراتٍ أخرى؟ هل سيستمر البركانُ في الثوران، ويُلقِي بيتر وصندوقه الهش عبر جدران متجر جوجنهايم المتعدد الأقسام؟

لذا، انتظر بيتر، وظل يستمع إلى الأصوات المروعة للناس وهم يتألمون ويتوسلون لآخرين لإنهاء معاناتهم. سمع بيتر أصوات رجالٍ يُلقون الأوامر، وأدرك أن هؤلاء لا بد أن يكونوا رجال شرطة، وأصبح واثقًا من أن سيارات إسعاف قادمة في الطريق. ربما كان مصابًا، ويجب أن يزحف خارجًا من الصندوق ليتلقى الرعاية التي يحتاج إليها. فجأة، تذكَّر بيتر معدته؛ وأدرك عقله — الذي شحذته المعركة التي خاضها في مواجهة هذا العالم المعادي على مدار عشرين عامًا — في لمح البصر الفرصة التي جلبها القدر له. لا بد أن يتظاهر بأنه مصاب، مصاب بشدة؛ يجب أن يكون فاقدًا الوعي، ويعاني من صدمة وأعصابه محطمة؛ ومن ثم، سيأخذونه إلى المستشفى ويضعونه في سريرٍ ناعم ويُعطونه طعامًا؛ وربما يقيم هناك لأسابيع، وربما يعطونه مالًا عندما يخرج.

أو ربما يحصل على وظيفة في المستشفى، وظيفه سهلة لا تتطلب إلا سرعة البديهة. ربما يرغب كبير الأطباء في المستشفى في شخصٍ ما لمراقبة الأطباء الآخرين، ليخبره إذا ما كانوا يهملون المرضى، أو ربما يغازلون بعض المرضات؛ من المؤكد أن شيئًا من هذا القبيل يحدث. كان الحال على هذا المنوال في دار الأيتام التي قضى بيتر فيها جزءًا من طفولته حتى

هرب. وكان الحال على هذا المنوال أيضًا في معبد جيمجامبو العظيم، الذي يُديره باشتيان الكالاندر، الكاهن الأكبر لمذهب الغرائبية اليوثرائية. كان بيتر يعمل خادماً في المطبخ في تلك المؤسسة الصوفية، وشق طريقه صعودًا حتى اكتسب ثقة توشبار أكروجاس، المسئول الأول عن المؤسسة والذراع اليمنى للنبي نفسه.

أينما وُجِدَت مجموعة من الناس، وكنزٌ يحتاج إلى إدارة، كان بيتر يعرف أنه ستُوجد هناك غيبة، فضائح، ومؤامرات، وتجسس، وتتوفر فرصة لشخصٍ ذي عقلٍ «واعٍ تمامًا». قد يبدو غريبًا أن يفكر بيتر في مثل هذه الأمور بمجرد أن انفتحت الأرض أمام ناظره، وتحول الهواء إلى ضوضاء مدوية ولهبٍ أبيض مبهر وألقى به ليصطدم بمبنى وأسقط على صدره نصف جسم امرأة داميًا؛ لكن بيتر اعتمد على نكائه منذ نعومة أظفاره لا على أي شيءٍ آخر، ويتعين على شابٍ مثله أن يتعلم كيفية استخدام نكائه في جميع الظروف، بغض النظر عن مدى الحيرة التي يشعر بها. غطت تدريبات بيتر تقريبًا جميع حالات الطوارئ التي يمكن أن يفكر فيها الإنسان؛ حتى إنه في بعض الأحيان كان يشغل نفسه بتخيُّل ما سيفعله إذا كانت طائفة الرولرز المقدسة على حق، وإذا ما نُفِخَ بوق القيامة فجأة، ووجد نفسه يقف أمام الرب في ثوب نوم أبيض طويل.

القسم الثالث

توقفت تخيلات بيتر عندما سُحب الصندوق الذي كان يختبئ فيه من الجدار. وسمع صوتًا يقول: «مرحبًا!»

أنَّ بيتر ولكنه لم يرفع بصره لأعلى، فسُحب الصندوق أكثر إلى الخارج، وأطلَّ وجهه داخله، وقال الصوت: «لماذا تختبئ هنا؟»

تلعثم بيتر بضعف قائلاً: «م... م... ماذا؟»

سأله الصوت: «هل أنت مصاب؟»

تأوّه بيتر وقال: «لا أعرف.»

سُحبَ الصندوق إلى الخارج أكثر، فانزلق ساكنه منه. نظر بيتر لأعلى، ورأى ثلاثة أو أربعة من رجال الشرطة ينحنون فوقه؛ فتأوّه مرةً أخرى.

سأله أحدهم: «كيف دخلت الصندوق؟»

«زحفتُ إلى داخله.»

«لماذا؟»

«للاختباء من ... ماذا كان ذلك؟»

قال أحد رجال الشرطة: «قنبلة!»؛ فشعر بيتر بدهشةٍ مفرطةٍ لدرجة أنه نسي للحظة أنه يتظاهر بأنه محطّم الأعصاب.

صاح قائلاً: «قنبلة!» وفي اللحظة نفسها رفع أحد رجال الشرطة بيتر لينهض واقفًا.

سأله الشرطي: «هل يمكنك الوقوف؟»؛ وحاول بيتر أن يقف، فوجد أنه قادرٌ على

الوقوف، ونسي تظاهره بأنه لا يستطيع. كان مغطىً بالدم والأوساخ، وكان مظهره غير مقبول على الإطلاق، ولكنه كان في واقع الأمر مرتاحًا لاكتشافه أن أطرافه سليمة.

سأله أحد رجال الشرطة: «ما اسمك؟» وعندما أجابه بيتر، سأله: «أين تعمل؟»

أجابه بيتر: «أنا عاطل».

سأله الشرطي: «أين كانت وظيفتك الأخيرة؟» ثم قاطعهما شرطي آخر قائلاً: «لماذا زحفتَ إلى داخل الصندوق؟»

فصرخ بيتر قائلاً: «يا إلهي! أردتُ أن أختبئ!»

بدا أن رجال الشرطة شعروا بأن بقاءه مختبئاً لفترةٍ طويلة أمرٌ مثير للشبهات. وبدا أنهم كانوا منفعلين هم أيضاً؛ فقد ارتكبت جريمةً شنيعة، وكانوا يبحثون عن أي أثر لمرتكبها. ظهر رجل شرطة آخر، ولكنه لم يكن يرتدي زيّاً رسمياً، ولكن كان يبدو أنه أعلى سلطةً من الآخرين، ووجهه سيلاً من الأسئلة إلى بيتر، مطالباً بمعرفة مَنْ يكون، ومن أين أتى، وماذا كان يفعل وسط هذا التجمهر. ولا شك في أن بيتر لم يكن يملك أي إجاباتٍ مرضية على أيٍّ من هذه الأسئلة. كانت المهنة التي كان قد عمل فيها غير عادية، ولم يكن من السهل فهمها تماماً، وكان من الصعب تفسير أهدافه لمحققٍ مرتاب. كان الرجل ضخم الجثة قوي البنية، وكان أطول من بيتر بقدمٍ كاملة على أقل تقدير، وعندما تحدّث انحنى فوق بيتر وحدّق في عينيه كما لو كان يبحث عن أسرارٍ مظلمة مخبأة في أعماق جمجمته. تذكّر بيتر أنه من المفترض أن يكون مريضاً، فأغمض جفنيه، وترنّح قليلاً بحيث تعيّن على رجال الشرطة أن يسندوه.

قال المحقّق: «أريد التحدث إلى ذلك الرجل. خُذاه إلى الداخل.» أمسك أحد رجال الشرطة ببيتر من إحدى ذراعيه، وأمسكه الآخر من ذراعه الأخرى، وسار ثلاثتهم لنصف المسافة، ثم حملاه لنصفها الآخر عبر الشارع ودخلا به إلى مبنى.

القسم الرابع

كان المبنى متجرًا كبيرًا فتحتهُ الشرطة ليكون مركزًا لعملياتها. وفي داخله كان ثمة أشخاص مصابون ملقون على الأرض، وأطباء وأشخاص آخرون يداوونهم. قاد الشرطيان بيتر عبر الممر، وأدخل إلى غرفةٍ حيث كان هناك رجالٌ آخرون يجلسون أو يقفون، وكانوا في حالة انهيار مثله؛ أشخاص لم يتمكّنوا من إقناع الشرطة ببراءتهم فتحفظت عليهم.

ثبّت الشرطيان بيتر إلى الجدار وبدأ في تفتيش جيوبه مُخرجين محتوياتها المخزية؛ قطعة قماشٍ متسخة، وعقبَي سيجارتين التقطهما من الشارع، وعلبونا مكسورًا، وساعةٌ كانت تساوي ذات يومٍ دولارًا، ولكنها الآن أصبحت معطّلة ومضرّرة لدرجة أنه لا يمكن رهنها. كان ذلك كل ما لديهم الحق في تفتيشه، على حد علم بيتر. ولكن خرج من جيوبه شيءٌ آخر؛ النشرة المطبوعة التي كان بيتر قد وضعها في جيبه. ألقى الشرطي الذي أخرجها نظرةً عليها، ثم صاح: «يا إلهي!» وحدّق في وجه بيتر، ثم إلى الشرطي الآخر وأعطاه الورقة. في تلك اللحظة، دخل الرجل الذي لا يرتدي الزيِّ الرسميّ الغرفة، فصاح الشرطي مخاطبًا إياه: «سيد جوفي! انظر!» أخذ الرجل الورقة، وألقى نظرةً عليها، ورأى بيتر، الذي كان يرمقهم بعيونٍ ناهلةٍ شاردة، مشهدًا مرعبًا للغاية. بدا الأمر وكأن الرجل جنّ فجأة. حدّق في وجه بيتر، وبدت عيناه الكبيرتان من تحت حاجبيه الأسودين وكأنهما على وشك القفز من محجريهما.

ثم صرخ قائلاً: «أها! لقد أمسكتُ بك!» كانت يده التي تحمل الورقة ترتجف، ومد يده الأخرى كمخلبٍ كبير، وأنشبهها في ياقة معطف بيتر وضم طرفيها معًا حتى شعر بيتر بالاختناق، وقال الرجل بصوتٍ كالفحيح: «أنت الذي ألقيت بتلك القبلة!» شهق بيتر، وقال بصوتٍ يكاد يختنق: «م... ماذا؟ ق... ق... قنبلة؟»

صاح الرجل مقرباً وجهه من وجه بيتر، وأسنانه تلمع وكأنه كان على وشك أن يقضم أنف بيتر: «اعترف. اعترف! أسرع! مَنْ ساعدك؟»
قال بيتر: «يا إلهي! لا أعرف ما تعنيه.»
نهره الرجل قائلاً: «أتجرؤ على الكذب عليّ؟» ثم رجَّ بيتر كما لو كان يريد أن يُخرج أسنانه من فمه، وقال: «توقّف عن الهراء على الفور! مَنْ ساعدك في صنع تلك القنبلة؟»
ارتفع صوت بيتر وتحوّل إلى صرخة رعب وهو يقول: «لم أرَ أيّ قنبلة في حياتي! لا أعرف عمّا تتحدث!»

قال الرجل: «أنت، تعالَ معي»، واتجه فجأة نحو الباب. ربما كان من الأسهل لو أنه كان قد أدار بيتر حول نفسه، وأمسكه من ياقة معطفه من الخلف؛ ولكن من المؤكّد أنه كان يرى أن جسم بيتر ضئيلٌ للغاية لا يستحق وضعه في الاعتبار؛ فكل ما فعله أن قبض على صدر سترة بيتر، ورفعَه لنصف المسافة نحو خارج الغرفة وألقى به على طول نصفها الآخر، وعلى طول ممرٍّ طويل يؤدي إلى الجزء الخلفي من المبنى. طوال تلك الفترة، كان يُقرّب وجهه من وجه بيتر ويُحادثه بصوتٍ كالفحيح قائلاً: «سأجعلك تتحدث! لا تظن أنك قادرٌ على الكذب عليّ! عليك أن تعي ذلك جيداً، ستتحدّث لا محالة!»
فتح الرجل باباً. كان باب مخزنٍ ما، ودفع بيتر إلى الداخل وأغلق الباب خلفه. ثم قال الرجل: «الآن، تحدّث!» دسَّ الرجل يده في جيبه وأخرج النشرة المطبوعة، أو أيّاً كانت؛ لم يرَ بيتر تلك النشرة مرّةً أخرى، ولم يكن يعرف ما كان مطبوعاً عليها. أمسك الرجل إحدى يدي بيتر بيده الخالية، أو بالأحرى بإحدى أصابع يده، وثناها فجأةً إلى الخلف بعنفٍ مُفْرِط. أطلق بيتر صرخةً عالية وقال: «أه! توقّف!» ثم أطلق عواءً وحشياً وقال: «ستكسرهما.»

«أنا أقصد كسرهما! وسأكسر كل عظمة في جسدك! وسأقتلع أظافرك؛ وسأقتلع عينيك من محجرَيْهما، إن اضطرتُّ لذلك! وستُخبرني مَنْ ساعدك في صنع تلك القنبلة!»
انخرط بيتر في عاصفة من الاحتجاج المتألم؛ لم يكن قد سمع عن أي قنبلة، ولا يعرف عما يتحدث الرجل؛ كان يتلوّى ويتقلّب ويُلقي بنفسه إلى الخلف محاولاً تجنّب الألم المروع الضاغط على إصبغه.

قال جوفي في إصرار: «أنت تكذب! أعرف أنك تكذب. أنت أحد أفراد تلك العصابة.»
«أي عصابة؟ أه! لا أعرف ماذا تعني!»
«أنت أحد الحُمُر، ألسنت كذلك؟»

«الحُمُر؟ ومن يكون الحُمُر؟»

«هل تقول إنك لا تعرف من هم الحُمُر؟ ألم تكن تُوزِّع تلك المنشورات في الشارع؟»
قال بيتر مكرراً: «لم أر تلك النشرة من قبل! لم أقرأ كلمةً منها ولا أعرف ماذا تكون.»
«هل تُحاول خداعي بهذا الكلام؟»

«أعطتني امرأة تلك النشرة في الشارع! أه! توقَّف! يا إلهي! أقول لك إنني لم أنظر إلى
النشرة مطلقاً!»

انتابت الرجل نوبةً غضبٍ جديدة، وصرخ قائلاً: «هل تجرؤ على الاستمرار في الكذب؟
أتعلم، لقد رأيتك مع أولئك الحُمُر؟ أعرف المؤامرة التي تحيكونها، وسأجعلك تتكلم.» ثم
أمسك بمعصم بيتر وبدأ يلويه، كاد بيتر يقلب نفسه على ظهره في محاولة منه لحماية
نفسه، وصرخ مرةً أخرى بصوتٍ أكثر حدَّةً قائلاً: «لا أعرف! لا أعرف!»
سأله الرجل: «ماذا فعل لك هؤلاء الرجال حتى تحميهم؟ ما الخير الذي سيعود عليك
إذا شنقناك وتركناهم يهربون؟»

ولكن كل ما فعله بيتر هو أن صرخ وبكى بصوتٍ أعلى.

قال الرجل في إصرار: «سيتوفَّر لهم الوقت الكافي للخروج من المدينة. إذا تكلمتَ
بسرعة، فسيمكننا أن نقبض عليهم جميعاً، ثم سأدعك تذهب. افهم ما أقول، لن نمسَّ
شعرةً منك إذا ما كنتَ صريحاً وأخبرتنا بهويةٍ من دَفَعك للإقدام على هذه الفعلة. نعلم
أنك لستَ من خَطَّط لهذه العملية؛ نحن نريد القادة.»

بدأ الرجل في استمالة بيتر وترغيبه؛ ولكن عندما كان بيتر يُجيبه بعبارة «لا أعرف»
المزعجة، كان يلوي معصمه، وكان بيتر يصرخ، ويكاد يفقد وعيه من فَرَط الرعب والألم،
لكنه ظل يقول إنه لا يستطيع أن يخبر الرجل بشيءٍ لأنه لا يعرف شيئاً عن أي قنبلة.
لذا، في نهاية المطاف، تعب جوفي من هذا التحقيق العقيم؛ أو ربما تذكَّر أنه في مكانٍ
عام لا يصلح لإجراء تحقيق من «الدرجة الثالثة»؛ فقد يكون هناك من يتنصَّت على الجهة
الأخرى من الباب، فتوقف عن ليِّ معصم بيتر وأمال رأس بيتر للخلف حتى أصبحت عيناه
المرتعبتان تُحدِّقان به.

قال جوفي: «اسمع أيها الشاب. ليس لديَّ وقت لأضيعه عليك، ولكنك ستذهب إلى
السجن، أنت سجينني، وتذكَّر دائماً، سأحصل على ما أريد منك إن عاجلاً أو آجلاً. قد
يستغرق ذلك يوماً، أو قد يستغرق شهراً، لكنك ستخبرني عن مؤامرة تلك القنبلة، وعمَّن
طبع هذا البيان المعارض لحالة التأهب، وبكل شيءٍ عن هؤلاء الحُمُر الذين تعمل معهم.

أنا أخبرك بذلك الآن؛ لذا فكّر في الأمر جيدًا؛ وخلال ذلك، أطبق فمك، ولا تقل كلمة واحدة لأي إنسان، وإذا فعلت فسأقتلع لسانك من حلقك.»

ثم، دون أن يهتم بصرخات بيتر، أمسك ياقته من الخلف ودفعه عبر الردهة مجددًا، وسلّمه إلى أحد رجال الشرطة، وقال: «خذ هذا الرجل إلى سجن المدينة، وضعه في الحفرة، واتركه فيها حتى آتي، ولا تدعّه يتحدث مع أي شخص، وإذا حاول أن يفعل، فحطّم فمه.»

ومن ثم، أمسك الشرطي بيتر الباكي من ذراعه وسار به إلى خارج المبنى.

القسم الخامس

بحلول ذلك الوقت، كانت الشرطة قد أجبرت الحشود على التراجع، ومدت حبالاً عبر الشارع لمنعها عن التقدم، وداخل المساحة التي تحوطها الحبال، كانت تقف عدة سيارات إسعاف وبضع عربات دورية. أُلقي بيتر داخل واحدة من عربات الدورية، وجلس شرطي بجانبه، ورنّ جرسها، واضطرت عربة الدورية للتقدم ببطء عبر الحشد الكثيف. بعد نصف ساعة، وصلوا إلى سجن ضخم مبني بالحجارة، واقتيد بيتر إلى داخله. لم تكن هناك أي إجراءات رسمية، ولم يدخلوا بيتر في سجلاتهم، أو يأخذوا اسمه أو بصمات أصابعه؛ فقد تلقوا الأوامر من سلطة أعلى، وتحدّد مصير بيتر بالفعل. اقتيد بيتر إلى مصعدٍ هبط به إلى القبو، ثم اقتيد لهبوط درجٍ حجري يؤدي إلى قبوٍ أعمق، وكان هناك بابٌ حديدي به فتحةٌ صغيرة بعرض بوصة وطول ست بوصات قرب قمته. كانت هذه هي «الحفرة». فُتح الباب، ودُفع بيتر عبره إلى ظلامٍ تام. ثم انغلق الباب خلفه بدوي، وأصدرت مزاليجه صريخاً؛ ثم ساد الصمت. سقط بيتر على أرضٍ حجرية باردة ككومة من البؤس الشنيع والمروع.

وقعت كل تلك الأحداث بسرعةٍ مرعبة لدرجة أن بيتر جادج لم يمتلك الوقت الكافي لتتبعها. ولكن الآن، أصبح يملك الكثير من الوقت، في الواقع، لم يكن يملك شيئاً سوى الوقت. يمكنه التفكير في الأمر من جميع جوانبه وإدراك الخدعة الرهيبة التي لعبها القدر عليه. ظل راقداً في مكانه، والوقت يمر؛ لم يكن يملك طريقةً لقياسه، ولم يكن يملك أدنى فكرة عمّا إذا كانت قد مرّت ساعات أو أيام. كانت الزنزانة الحجرية باردة ورطبة؛ كانوا يُطلقون عليها اسم «المبرد»، وكانوا يستخدمونها لتهدئة المجرمين الذين يتّسمون بالعنف والعناد. كانت وسيلةً لتجنّب المتاعب؛ كان كل ما يفعلونه هو أن يتركوا الرجل في داخلها وينسوا أمره، وسيؤدي عقله المعذب الباقي.

ومن المؤكد أنه لم يوضع عقل أكثر عذاباً من عقل بيتر جادج في تلك الحفرة السوداء. كان وضعه أكثر فظاعةً لأن ما حدث له لم يكن مستحقاً أو معقولاً على الإطلاق. لم يكن معقولاً أن يحدث ذلك له هو، بيتر جادج، من بين جميع الناس؛ فقد كان يسعى جاهداً لتجنب أي شيء قد يورق حياته، وكان على استعداد دائم لإرضاء أي شخص وفعل أي شيء يؤمر به، فقط لكي يعيش حياةً سهلة، ويحصل على ما يكفيه من الطعام، ويمتلك ركنًا دافئًا يزحف إلى داخله! ما الذي أقنع القدر بأن يختاره ضحيةً لهذه الخدعة القاسية؛ أن يضعه في هذا الموقف العصيب حيث لا يستطيع تجنب المعاناة بغض النظر عما يفعل؟ إنهم يريدون منه أن يخبرهم بشيء ما، وكان بيتر مستعداً تماماً لإخبارهم بأي شيء؛ ولكن كيف يمكنه أن يخبرهم بما لا يعرف؟

كلما زاد تفكير بيتر في الأمر، تأجج غضبه أكثر. كان موقفه مروّعاً! جلس مكانه يُحدِّق في الظلام الدامس. وتحدث مع نفسه، وتحدث مع العالم الخارجي، ومع الكون الذي كان قد نسي وجوده. ثم غلبه الانفعال، فبكى. نهض واقفاً وبدأ يجوب أركان الزنزانة التي تبلغ مساحتها ستُّ أقدامٍ مربعة، وكان سقفها يسمح له بالكاد بأن يقف منتصباً. طرَّق على الباب بيده التي لم يكسرها جوفي، وركله، وصرخ. ولكن لا حياة لمن تنادي، فحمن أنه لم يكن أحدٌ يسمعه.

عندما بلغ منه الإرهاق مبلغه، انهار على الأرض وغطَّ في نومٍ أرقته الكوابيس؛ ثم استيقظ مجدداً على واقعٍ أسوأ من جميع كوابيسه. سيأتي ذلك الرجل الرهيب من أجله مجدداً! وسيعذبه ليجبره على إخباره بما لا يعرف! كان بيتر يرى أن ذلك المدعو جوفي لا يُقارن بجميع الأوغاد والشياطين الذين ابتكرتهم قريحة البشر لإرهاب خيال الأطفال. بعد مرور مدةٍ طويلةٍ للغاية من حبس بيتر، سمع أصواتاً آتية من الخارج، وفتح باب الزنزانة. كان بيتر يقف مرتجفاً في أحد الأركان معتقداً أن جوفي قد أتى. سمع صوت صرير على الأرض، ثم سمع صوت الباب يُغلق مجدداً، وساد الصمت. تقصَّى بيتر الأمر واكتشف أنهم وضعوا قطعة خبز ووعاء ماء.

ثم مرَّت مدَّةٌ طويلةٌ أخرى، وتكرَّرت نوبات غضب بيتر التي لم تثمر شيئاً؛ ثم أحضروا له الخبز والماء مرةً أخرى، فتساءل بيتر، هل كانوا يُحضرون الخبز والماء مرتين في اليوم، أم أن هذا يومٌ جديد؟ ولكم من الوقت يعتزمون حبسه في هذه الزنزانة؟ هل يريدون أن يُصيبوه بالجنون؟ طرح هذه الأسئلة على الرجل الذي يُحضِر الخبز والماء، ولكن الرجل لم

يجبه، بل لم ينبس ببنت شَفَة. لم يكن لبيتر رفيق في تلك «الحفرة» سوى ربه؛ ولم يكن بيتر وثيق الصلة بربه ولم يكن يستمتع بمناجاته.

كان البرد هو أكثر ما يُزعج بيتر؛ فقد كان يتخلل عظامه، وكانت أسنانه تصطك طوال الوقت. وعلى الرغم من حركته الدعوية، لم يتمكن من إبقاء جسده دافئاً. عندما فتح الرجل الباب، صاح فيه متوسلاً للحصول على بطانية؛ وكلما جاءه الرجل، كان بيتر يتوسل بشكل أكثر هياجاً من ذي قبل. كان مريضاً؛ فقد أصيب في الانفجار، وكان بحاجة إلى طبيب؛ فقد كان يُحترس! لكنه لم يكن يتلقَى أي رد. كان بيتر يرقد في مكانه يرتجف ويبيكي، ويتأوه، ويهذي، ويفقد الوعي لفترة، ثم يدخل في حالة لا يكون مدرگاً فيها إذا ما كان مستيقظاً أو نائماً، إذا ما كان حياً أو ميتاً. كان التشويش على عقله يزداد، وأصبحت الأمور التي كانت تحدث له، والأشخاص الذين كانوا يعذبونه، وحوشاً وأصدقاء يأخذونه في رحلات بعيدة، ويُغرِقونه في غياهب الرعب والعذاب.

ومع ذلك، بقدر ما كانت الأشباح التي تصوّرُها خيال بيتر المريض غريبة وكثيرة، لم يكن أيٌّ منها أكثر بشاعة من الواقع الذي كان سائداً في ذلك الوقت في حياة المدينة الأمريكية، والذي كان بصدد تحديد مصير ذلك الرجل المسكين الذي يدعى بيتر جادج. ففي المدينة الأمريكية، كانت ثمة مجموعة من الرجال الذين هيمَنوا على صناعاتها وسيطروا على مصائر سكانها. كانت هذه المجموعة، التي تحصّنت بسطوتها على مجال التجارة في المدينة وكذلك على حكومتها، تواجه معارضة من قوة جديدة صاعدة بسرعة الصاروخ، قوة العمالة المنظمة، التي كانت مُصرّة على إنهاء سيطرة رجال الأعمال الذين يمثلون الأقلية والاستيلاء على سلطاتهم. كان الصراع بين هاتين المجموعتين يقترب من ذروته. كانت المجموعتان أشبه بمصارعين عظيمين يقبض كلٌّ منهما على عنق الآخر؛ أو بعملاقين يقتتلان، فيقتلعان الأشجار من جذورها ويحملان جلاميد الصخر من الجبال ليحطم كلٌّ منهما جمجمة الآخر. ولكن، ماذا كان بيتر المسكين؟ مجرد نملة تصادف مرورها بالمنطقة التي يتصارع فيها المتقاتلان. كانت الأرض تهتز تحت أقدامهما، وكان التراب يتناثر في كل اتجاه، وكانت النملة التعسة تتلقى ضرباً مُبرحاً، وتتنقلب رأساً على عقب حتى دُفنت تحت الأنقاض؛ وفجأة... طراخ! هبطت قدمٌ عملاقة على المكان الذي كان يجاهد من أجل التقاط أنفاسه فيه!

القسم السادس

ربما قضى بيتر في «الحفرة» ثلاثة أيام، وربما أسبوعاً؛ لم يعرف، ولم يخبره أحدٌ مطلقاً. فُتِحَ البابُ مجدداً، وللمرة الأولى على الإطلاق سَمِعَ صوتاً يقول: «تعال هنا.» كان بيتر يتوق إلى سماع صوت إنسان؛ لكنه انكمش خائفاً في أحد أركان الزنزانة عندما سمعه؛ فقد كان صوتٌ جوفي، وكان بيتر يعرف ما يعنيه ذلك. بدأت أسنانه تصطك مجدداً، فصرخ: «أنا لا أعرف أي شيء! لا أستطيع إخبارك بأي شيء!» مُدَّت يداً وأمسكت ياقته، ووجد نفسه يسير في الممر أمام جوفي الذي قال له: «أخرس!» رداً على كل ولولته، ثم أدخله غرفةً وألقاه على كرسي كما لو كان كومة من المفروشات وسحب كرسيّاً آخر وجلس في مواجهة بيتر. وقال: «والآن، اسمعني. أريد أن أعقد معك اتفاقاً. هل تريد العودة إلى تلك الحفرة مجدداً؟»

صاح بيتر: «ل... ل... لا.»

«حسناً، أريدك أن تعرف أنك ستقضي بقية حياتك في تلك الحفرة، فيما عدا الفترات التي ستقضيها في الحديث معي. وأثناء حديثك معي، سيُلوى ذراعاك، وستُدخل شظايا تحت أظافرك، وسيُحرق جلدك بأعواد الثقاب، حتى تخبرني بما أريد أن أعرف. لن يساعدك أحد، ولن يعرف أحدٌ ما يحدث لك. ستبقى هنا معي حتى تخبرني بما أريد.»

لم يستطع بيتر التعبير عما يعتل في صدره إلا بالنشيج والبكاء. واصل جوفي حديثه قائلاً: «والآن، أصبحتُ أعرف كل شيء عنك، وحصلتُ على قصة حياتك كاملةً منذ يوم ولادتك، ولا فائدة من محاولة إخفاء أي شيء. أعرف الدور الذي لعبته في مؤامرة القنبلة، ويمكنني إرسالك إلى المشنقة دون أن يؤرقني ضميري. ولكن ثمة بعض

الأمر التي لا يمكنني إثباتها على الرجال الآخرين. إنهم القادة، الشياطين الحقيقيون، وهم الذين أريدهم؛ لذا لديك فرصة لتنقذ نفسك، وعليك أن تكون ممتناً لذلك.»
 واصل بيتر النسيج والبكاء.

صاح الرجل: «أخرس!» ثم استطرد مثبتاً عينيه في عيني بيتر المذعورتين قائلاً: «فلفتهم أن لديك فرصة لإنقاذ نفسك. كل ما عليك فعله هو أن تخبرني بما تعرف. ثم يمكنك الخروج من هنا ولن تواجه أي مشكلةٍ أخرى. سنعتني بك جيداً؛ وسيكون كل شيء سهلاً بالنسبة إليك.»

ظلت نظرة الأرنب الداهل تطل من عيني بيتر. ونما في داخله شوق لأن يكون حرّاً، وتنتهي متاعبه، وأن يتم الاعتناء به! كل هذا كان سيتحقق لو كان يعرف أي شيء ليفصح عنه؛ لو كانت ثمة طريقة تساعد في أن يعرف شيئاً ليفصح عنه!

القسم السابع

فجأة، مد الرجل يده وأمسك بإحدى يدي بيتر. ولوى رسغها مرةً أخرى، الرسغ نفسه الذي كان لا يزال يؤلمه منذ جولة التعذيب السابقة، وقال: «هل ستُفصح؟»
صرخ بيتر قائلاً: «كنتُ سأفصح لو استطعت! يا إلهي، كيف يمكنني أن أخبرك بما لا أعرف؟»

همس الرجل بصوتٍ كالفحيح: «لا تكذب عليَّ. أصبحتُ أعرفُ حاليًّا ما حدث، ولا يمكنك خداعي. أنت تعرف جيم جوبر.»

صرخ بيتر: «لم أسمع به في حياتي!»

قال الرجل الآخر وهو يلوي رسغ بيتر: «أنت تكذب!»

صاح بيتر: «نعم، نعم، أعرفه!»

قال الآخر: «أه، هكذا أفضل! بالطبع تعرفه. كيف يبدو الرجل؟»

«أنا... لا أعرف. إنه رجلٌ ضخم.»

«أنت تكذب! أنت تعرف أنه رجلٌ متوسط الحجم!»

«إنه رجلٌ متوسط الحجم.»

«أسمر البشرة؟»

«نعم، أسمر البشرة.»

«وتعرف السيدة جوبر، معلمة الموسيقى؟»

«نعم، أعرفها.»

«وهل ذهبتَ إلى منزلها؟»

«نعم، ذهبتُ إلى منزلها.»

«أين يقع منزلهما؟»

«لا أعرف ... أعني ...»
 «هل يقع في الشارع الرابع؟»
 «نعم، إنه في الشارع الرابع.»
 «وقد استأجرك لحمل تلك الحقيبة التي تحوي القنابل، أليس كذلك؟»
 «نعم، هو مَنْ استأجرني.»
 «وأخبرك بمحتوياتها، أليس كذلك؟»
 «لقد ... إنه ... أعني ... لا أعرف.»
 «هل تقول إنك أنت لا تعرف إذا ما كان قد أخبرك أم لا؟»
 «نـ... نـ... نعم، لقد أخبرني.»
 «كنت تعرف كل شيء عن المؤامرة، أليس كذلك؟»
 «نـ... نـ... نعم، كنتُ أعرف.»
 «وهل تعرف إسحاق، اليهودي؟»
 «نـ... نـ... نعم، أعرفه.»
 «كان هو سائق الحافلة الجيتني، أليس كذلك؟»
 «نـ... نـ... نعم، كان هو سائق الجيتني.»
 «أين قادهَا؟»
 «في كل مكان.»
 «قادهَا إلى هنا مع الحقيبة، أليس كذلك؟»
 «نعم، لقد فعل.»
 «وتعرف بيدل، وتعرف ما فعل، أليس كذلك؟»
 «نعم، أعرفه.»
 «وأنت مستعد لأن تخبرنا بكل ما تعرف، أليس كذلك؟»
 «نعم، سأفصح عن كل شيء. سأخبرك بكل ما تريد ...»
 «ستُخبرني بكل ما تعرف، أليس كذلك؟»
 «نـ... نـ... نعم، يا سيدي.»
 «وستُصر على أقوالك؟ ولن تُحاول التراجع عنها؟ إنك لا تريد أن تعود إلى الحفرة، أليس كذلك؟»
 «نعم يا سيدي.»

فجأة، أخرج جوفي من جيبه ورقة مطوية، كانت عبارة عن عدة صفحات مكتوبة بالآلة الكاتبة، وقال: «بيتر جادج، لقد كنتُ أبحثُ في ملفك، واكتشفتُ ما اقترفتَه في هذه القضية. وسترى عندما تقرأ هذه الصفحات أنني قد توصلتُ إليه بشكلٍ مثالي. لن تجد فيه خطأً واحداً.» قال جوفي ذلك تفاخراً بذكائه، ولكن بيتر المسكين كان شاردًا من فرط رعبه لدرجة أنه نسي أن هناك شيئاً يُسمى الابتسام في هذا العالم.

واصل جوفي حديثه قائلاً: «هذه قصتك، هل تراها؟ خذها واقرأها الآن.» فأمسك بيتر الورقة بيده المرتجفة، اليد التي لم تَلوِى، وحاول أن يقرأها، ولكن يده كانت ترتجف لدرجة أنه اضطرَّ إلى وضعها على ركبته، ثم اكتشف أن عينيه لم تعتادا على الضوء بعد، فلم يستطع رؤية الكلمات المطبوعة، فصرخ قائلاً: «لا أستطيع.» أخذ الرجل الآخر الورقة منه، وقال: «سأقرأها عليك، اسمع، وانتبه لما أقول، وتأكد من أنني فهمتُ الأمر بالشكل الصحيح.»

وبدأ جوفي يقرأ وثيقة قانونية معقدة: «أقر أنا، بيتر جادج، بعد أن أديتُ القسم... إلى آخره. كانت قصة مفصلة ومعقدة عن رجل يدعى جيم جوبر، وزوجته، وثلاثة رجالٍ آخرين، وكيف استخدموا بيتر لشراء بعض المواد اللازمة لصنع القنابل، وكيف ساعدتهم بيتر في صنع القنابل في منزلٍ بعينه في عنوانٍ محدد، وكيف وضعوا القنابل في حقيبة، مع مؤقت لتفجيرها في وقتٍ محدد، وكيف قادهم إسحاق، سائق الحافلة الجيتني، إلى ناصيةٍ بعينها في الشارع الرئيسي، وكيف تركوا الحقيبة التي تحتوي على القنابل في الشارع أمام موكب يوم الاستعداد الوطني.»

كانت القصة بسيطة وواضحة، وكاد بيتر يبكي من الفرح أثناء الاستماع لها، فقد أدرك أن هذا هو كل ما عليه فعله لكي ينجو من تلك الورطة الرهيبة. أصبح يعرف الآن ما كان يُفترض عليه أن يعرفه؛ وكان يعرفه بالفعل. لماذا لم يخبره جوفي بذلك منذ فترةٍ طويلة؛ بحيث كان سيعرف ما عليه فعله دون كسرٍ لأصابعه وليُّ لرسغه؟

قال جوفي: «والآن، هذا اعترافك، أليس كذلك؟»

قال بيتر: «نعم... نعم...»

«وسوف تُصر عليه حتى النهاية، أليس كذلك؟»

«نعم... نعم يا سيدي.»

«هل يمكننا الاعتماد عليك الآن؟ لا مزيد من الهُراء؟»

«نعم... نعم يا سيدي.»

«هل تُقسِم بأن كل ما ذُكر به صحيح؟»

«نعم.»

«ولن تدع أي شخص يقنعك بالتراجع عنه ... بغض النظر عما قد يُقال لك؟»

قال بيتر: «ل... ل... لا يا سيدي.»

قال جوفي: «حسنًا.» وبدت الراحة في صوته كما لو كان رجل أعمالٍ يُرم صفقَةً مهمة. ثم أصبح أكثر إنسانيةً بينما استمر في الكذب قائلاً: «والآن يا بيتر، أنت رجلنا، وسنعتد عليك. أنت تفهم بالطبع أننا يجب أن نحفظ بك كشاهد، ولكنك لن تكون سجيناً، وسنُعاملك معاملة حسنة. سنضعك في مستشفى السجن، وستحصل على طعامٍ جيد ولن يُطلب منك فعل أي شيء. وفي غضون أسبوع أو نحوه، سنطلب منك أن تظهر أمام هيئة المحلفين. وحتى يحين ذلك الوقت، أنت تفهم ... لا تتفوه بكلمة واحدة لأي إنسان! قد يُحاول أناس استخراج معلومات منك، ولكن إياك أن تفتح فمك بشأن هذه القضية إلا لي فقط. أنا رئيسك، وسأخبرك بما يجب عليك فعله، وسأعتني بك طوال الوقت.

هل فهمت كل شيء بشكلٍ صحيح؟»

قال بيتر: «ن... ن... نعم يا سيدي.»

القسم الثامن

تقول الأسطورة إنه كان ثمة رجلٌ أسود يقول إنه يحب أن يصدّم إصبع قدمه لأنه يشعر بالراحة عندما يتوقف الألم. وبناءً على المبدأ نفسه، قضى بيتر وقتاً سعيداً في مستشفى سجن المدينة الأمريكية. فكان ينام على سريرٍ مريح، ويحصل على طعامٍ وفير، ولا يُطلب منه فعل أي شيء على الإطلاق. بدأت مفاصله المتألّمة تُشفى تدريجياً، وكان وزنه يزداد نصف رطل يومياً، وبدأ عقله المشوّش يعمل لدراسة الظروف المحيطة به، ولاكتشاف كيف يمكنه أن يجعل هذه الظروف المريحة تستمر وأن يضيفَ إليها الرفاهيات الصغيرة التي تجعل الحياة تستحق العيش حقاً.

كان المسئول عن المستشفى رجلاً عجوزاً يُدعى دوبمان، عُيّن في هذا المنصب لأنه عمُّ أحد أعضاء بلدية المدينة، وظل في منصبه طوال السنوات الست الماضية، وزاد وزنه خلال تلك الفترة بسرعةٍ تماثل تقريباً سرعة زيادة وزن بيتر. وكان قد أصبح في حالةٍ لا يُحب معها النهوض من كرسيه المريح إذا كان يمكنه تجنب ذلك. اكتشف بيتر ذلك؛ ومن ثم، وجد أنه قادرٌ على أن يجعل نفسه مفيداً بطرقٍ غير ملحوظة. وأيضاً كان السيد دوبمان يمارس رذيلةً سراً؛ إذ كان يستنشِق مسحوق التبغ، ومراعاةً للانضباط لم يرغب في أن يعرف أحدٌ تلك الحقيقة المخزية عنه. لذا، كان ينتظر حتى ينشغل الجميع عنه قبل أن يستنشِق بعض التبغ؛ وعرف بيتر ذلك، وكان يُشّيح بوجهه بعيداً عنه في مراعاة.

كان جميع العاملين في المستشفى يمارسون رذائلٍ سرية، وكان من واجب السيد دوبمان قمع رذائل الآخرين. كان نزلاء المستشفى يضمّون العديد من السجناء الذين يملكون الكثير من المال ويمكنهم دفع مقابل توفير الراحة لأنفسهم. كانوا يريدون التبغ، والويسكي، والكوكايين وأنواعاً أخرى من المخدرات، وكان بعضهم يتحين الفرصة لممارسة

أهوال لا يمكن ذكرها. كانوا على استعداد لإنفاق كل المال الذي يمكنهم تهيئته إلى داخل المستشفى مقابل أن يُشبعوا رغباتهم بحرية. أما بالنسبة إلى العاملين في المستشفى، فكانوا جميعاً إما معيّنين لأسباب سياسية، أو منبوذين فُشِلوا في الحفاظ على وظيفة في مجال التجارة، وكانوا يبحثون عن وظيفة مريحة، مثل بيتر نفسه. كانوا يتقاضون الرشاوى وكانوا على استعداد لتقديم رشوة إلى بيتر ليخدع السيد دويمان؛ أما السيد دويمان، فعلى النقيض، كان على استعداد لمكافأة بيتر بالعديد من المزايا إذا ما وافق على أن يجلب له معلومات سرية. في مثل هذا الوضع، كان من الممكن لرجلٍ في مثل ذكاء بيتر أن يجمع مبلغاً معقولاً من المال.

كان بيتر يأخذ صف دويمان في أغلب المواقف؛ فقد علّمته تجربةٌ مريرة أن النزاهة تؤتي ثمارها في نهاية المطاف. كان بقية أفراد الطاقم يُطلقون على دويمان اسم «العجوز»، ولم تخلُ حياة بيتر، منذ نعومة أظفاره، من بضعة «عجائز» من هذا القبيل يكونون مصدر السلطة ومنبع راحة الإنسان. كان أولهم هو «العجوز» دراب، الذي كان يرتدي نظارة خضراء من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من الليل، ويضع على صدره لافتة تقول «أنا كفيف»، وكان يجعل طفلاً صغيراً مُتعباً يسحبه من يده في الشوارع. وفي الليل، عندما يعودان إلى غرفتهما فوق السطح، كان «العجوز» دراب يخلع نظارته الخضراء، وكان قادراً تماماً على رؤية بيتر، وإذا ما ارتكب بيتر أي خطأ ولو طفيفاً خلال اليوم، كان يضره.

عندما قُبِضَ على دراب، نُقل بيتر إلى دار أيتام، وكان هناك «عجوز» آخر، ودرس الخضوع القاسي نفسه الذي يتعيّن تعلّمه. هرب بيتر من دار الأيتام؛ ثم جاء بيريكليس بريام مع مُسكّن الألم الخاص به، وكان بيتر يدرُس أهواءه ويخدم مصالحه. عندما تزوج بيريكليس من أرملة ثرية وطردت بيتر من المنزل، ذهب ليعيش في معبد جيمجامبو؛ حيث كان «العجوز» هذه المرة هو توشبار أكروجاس، المدير العام، وكان مخيفاً عندما تُعارضه، ولكنه كان منبغاً سخياً للخيرات عندما تتعلم كيفية مدهنته، وتستغل نقاط ضعفه، وتُسَهّل حصوله على مُتّعه. طوال تلك السنوات، كان على بيتر أن «يثني ركبتيه خضوعاً» وأصبح يفعل ذلك غريزياً؛ غريزة تعود إلى ما يزيد عن العشرين عاماً من حياته الواعية التي تعود إلى عشرين ألف سنة، وربما عشرة أضعاف العشرين ألف سنة تلك، وصولاً إلى العصر الذي كان فيه بيتر يجلس عند مدخل أحد الكهوف يشحذ حجر الصوان ليصنع رءوس الرماح، ويشوي نخاع العظم من أجل «عجوز» عند أطراف القبيلة، ويرى الشباب المتمردون يُطردون ليصبحوا فرائس للنمور السيفية الأسنان.

القسم التاسع

اكتشف بيتر أنه شخصٌ ذو حيثية في هذا المستشفى؛ فقد كان «الشاهد الرئيسي» في قضية جوبر المثيرة التي كانت المدينة برمّتها تتحدث عنها، بل البلاد بأكملها في واقع الأمر. كان معروفًا أنه أصبح «شاهد ملك»؛ ولكن ظل ما كان يعرف وما أفصح عنه سرًا عظيمًا، وكان بيتر «يُطبِقُ فمه» وتظاهر بالخطورة واستمتع بكونه شخصيَّةً مهمة.

ولكن في الوقت نفسه لم يكن هناك سببٌ يمنعه من الاستماع إلى أحاديث الآخرين؛ لم يكن هناك سببٌ يمنعه من تعريف نفسه بجميع تفاصيل تلك القضية حتى يتمكَّن مستقبلًا من الاعتناء بنفسه. استمع إلى ما قاله ذلك «العجوز» دويمان، وإلى ما قاله جان كريستيان، مساعده السويدي، وإلى ما قاله جيرالد ليزلي، مدمن الكوكايين. كان لكل هؤلاء، من بين آخرين، أصدقاء في الخارج، أشخاص «مطلعون». كان بعضهم يقول شيئًا، وكان البعض الآخر يقول نقيضه تمامًا؛ ولكن كان بيتر يجمع تلك المعلومات معًا ويستخدم ذكاءه المشحوذ بالدهاء في تفنيدها، ولا تُمرُّ فترةٌ طويلة قبل أن يصبح مقتنعًا بأنه قد توصل إلى الحقائق.

كان جيم جوبر زعيمًا عماليًا بارزًا تمكَّن من تنظيم صفوف شركة تراكشن تراست ودعا إلى إضراب هائل وتولى قيادته. كما دعا أيضًا إلى إضرابات في مجال البناء، وقال البعض إنه فجَّر المباني غير المكتملة بالديناميت وجعلها مادة لسخريته. على أي حال، كان رجال الأعمال في المدينة يريدون وضعه حيث لا يعود بوسعه إزعاجهم أكثر من ذلك؛ وعندما ألقى بعض المجانين الجهولين قنبلة ديناميت على مسار موكب يوم الاستعداد الوطني، قرَّر كبار رجال الأعمال في المدينة أن تلك هي الفرصة التي كانوا يبحثون عنها. كان جوفي، الرجل الذي تولى مسؤولية بيتر، رئيس الخدمة السرية في شركة تراكشن تراست، ومنحَه كبار رجال الأعمال في المدينة السلطة الكاملة للتصرف. كانوا يريدون نتائج؛ لذا،

لم يُحاولوا أن يجربوا حظوظهم مع شرطة المدينة الفاسدة العديمة الكفاءة. أودعوا جوبر السجن، مع زوجته وثلاثة من جماعته، واستخدموا صحافة المدينة في نشر حملة دعائية هدفها إعداد الرأي العام لإعدام أولئك الخمسة جميعهم شنقًا.

ولا شك في أن كل هذه المعلومات لم تكن لتؤرق بيتر، فقد كان جيم جوبر مجرد اسم بالنسبة إليه، وكان أقل أهمية من وجبة واحدة من وجباته. فهم بيتر ما فعله جوفي، وكانت الضغينة الوحيدة التي أكنّها له هي أن جوفي لم يكن نكيًا بما يكفي لكي يُخبره بقصته من البداية، بدلًا من أن يبدأ بليّ ذراعه حتى يكاد يخلعها من مكانها. ولكن عندما أمعن بيتر في التفكير، أدرك أن جوفي كان يقصد، بلا أدنى شك، تعليمه درسًا، لكي يضمن ولاءه. وتعلّم بيتر الدرس بالفعل، وأصبح هدفه حاليًا أن يوضّح ذلك لجوفي ودوبمان.

كان جوفي قد قال له: «أطبق فمك»، ولم يتفوه بيتر بكلمة واحدة عن قضية جوبر. ولكنه تحدّث، بالطبع، عن أمور أخرى. لا يمكن للمرء أن يتجوّل مثل المومياء طوال اليوم، وكانت نقطة ضعف بيتر هي أنه يُحب أن يحكي عن مغامراته، وعن الطرق الذكية التي استخدّمها في خداع آخر «عجوز» التقاه. ومن ثم، قصّ على جيرالد ليزلي، مدمن الكوكايين، قصة بيريكليس بريام، وكيف ساعد في خداع الشعب ليُخرجوا من جيوبهم آلاف الدولارات ويعطوه إياها، وكيف قبض عليه وعلى بيريكليس مرتين بتهمة الاحتيال. كما حكى عن معبد جيمجامبو، وجميع الأمور الغربية التي لا تُصدّق التي حدثت فيه. قدّم باشتيان إلكالندرا، الذي نصّب نفسه كاهنًا أكبر لمذهب الغرائبية اليوترائية، نفسه لأتباعه على أنه في الثمانين من عمره، بينما كان عمره في الواقع أقل من أربعين عامًا. كان يقول إنه أميرٌ فارسي، ولكن الحقيقة أنه وُلد في بلدة صغيرة في إنديانا وبدأ حياته كصبي بقال. وكان يقول إنه يعيش على بضع ثمار من الفاكهة، ولكن كانت مهمة بيتر اليومية أن يساعد في تحضير شريحة لحم كبيرة أو دجاجة مشوية من أجله. كان اللحم أو الدجاج «بغرض التضحية»، كما كان النبي يقول لمساعديه؛ وكان بيتر يحصل على بقايا لحم ودجاج التضحية، وكان يضحّي بها في معدته خلف باب المخزن. كانت هذه واحدة من المزايا التي اكتسبها، حفظ سر بعض السرقات التي اقترّفها المدير العام توشبار أكروجاس وعدم إخبار النبي بها.

كان معبد جيمجامبو مكانًا رائعًا. كانت هناك مذابح غامضة مع سبعة ستائر أمامها، وكان الكاهن الأكبر يظهر من بينها مرتديًا رداءً طويلًا كريمي اللون مع حوافّ ذهبية وبنفسجية، وحُفّ مطرّز باللون الوردي وغطاء رأس يحمل رمز المذهب. كانت محاضراته

وطقوسه الدينية يحضرها المئات، العديد منهم من سيدات المجتمع الثريّات اللاتي كُنّ يأتين إلى المعبد في سيارات الليموزين الخاصة بهن. كما كانت هناك مدرسة؛ حيث كان يتعلم الأطفال أساسيات الطقوس الغامضة للطائفة. كان النبي يأخذ هؤلاء الأطفال إلى مسكنه الخاص، وكانت ثمة شائعاتٌ رهيبة انتهت بمداهمة الشرطة للمعبد، وهروب النبي، وكذلك الكاهن الأكبر، وبيتر جادج، خادمه وكاتم أسرارهم.

ظن بيتر أيضًا أنه من الممتع أن يخبر جيرالد ليزلي عن مغامراته مع كنيسة هولي رولرز التي انجرف نحوها أثناء بحثه عن وظيفة. كان بيتر قد انضم إلى هذه الطائفة، وتعلّم فن «التحدث بلغاتٍ غير مفهومة»، وكيفية السقوط من على المقعد أثناء نوبات تشنّج المجد السماوي. كان بيتر قد اكتسب ثقة القس جماليل لوند الذي وظفه سرًا للترويج بين أعضاء الجماعة لفكرة زيادة راتب ذلك المتشنّج الذي لا يتقاضى راتبًا كافيًا. ولكن تسببت بعض الأمور التي عرفها بيتر في أن ينتقل إلى طائفة شوميكر سميثرز الذي كان يُحاول إقناع الجماعة بأنه يمكنه الدوران بسرعة أكبر بكثير من القس جماليل. لم يحتفظ بيتر بهذه الوظيفة الأخيرة إلا لبضعة أيام قبل أن يتم فصله بسبب سرقة الدونات المقلية.

القسم العاشر

أفصح بيتر عن كل هذه الأشياء وأكثر؛ ظناً منه أنه أصبح آمناً تحت حماية السلطات. ولكن بعد أن قضى حوالي شهرين في المستشفى، استدعي ذات يوم إلى مكتب الإدارة حيث وجد جوفي يرمقه بعينين يتطاير منهما الشرر. وكانت أولى كلمات جوفي: «أنت أحمق لعين!»
تخبّطت ركبنا بيتر، واصطكّت أسنانه مجدداً، ثم صرخ قائلاً: «م... م... ماذا؟»
بدا كما لو أن جوفي سيلوي معصم بيتر مرةً أخرى وهو يقول: «ألم أقل لك أن تُطبّق فمك؟»

«سيد جوفي، لم أخبر أحداً! لم أنطق بكلمة واحدة عن قضية جوبر، لم أنطق بكلمة واحدة!»

بدأ بيتر يتكلم بسرعة متفوهها بالكثير من الاعتراضات. ولكن قاطعه جوفي قائلاً: «أخرس، أيها المجنون! ربما لم تتحدث عن قضية جوبر، لكنك تحدّثت عن نفسك. ألم تخبر أحداً أنك عملت مع ذلك الرجل إلكالاندر؟»

«ن... ن... نعم يا سيدي.»

«ألم تكن تعرف أن الشرطة تبحث عنه، وعنك أيضاً؟»

«ن... ن... نعم يا سيدي.»

«ألم تقل إنه قبض عليك وأنت تبيع عقاقير زائفة؟»

«ن... ن... نعم يا سيدي.»

صاح جوفي: «يا إلهي! وهل تظن أنك بذلك ستظل شاهد ملك؟»

صرخ بيتر في يأس: «ولكنني لم أخبر أحداً بأي معلومات مهمة. قلت فقط...»

صرخ المحقّق بصوت كالزئير: «كيف ستعرف المعلومات التي قد تكون مهمة؟» ثم

أضاف سيلاً من السباب الغاضب، وقال: «لجماعة جوبر جواسيس بيننا، أحدهم هنا في

هذا السجن. على أي حال، لقد كشفوا أمرك وعرفوا ماضيك. لقد دمّرت كل ما فعلنا بفمك
الثرثرا!»

همس بيتر بصوت يكاد يتلاشى: «يا إلهي!»

قال جوفي: «تخيّل نفسك جالساً على منصة الشهادة! تخيّل ما سيفعلونه بك أمام
هيئة المحلّفين! كنت تجوب أنحاء البلاد تحتال على الناس بالأدوية الزائفة، ودخلت السجن
لهذا السبب! وعملت لصالح ذلك المحتال اللعين إلكالاندرا...» ثم أضاف بعض الكلمات
المريعة، واصفاً الرذائل الكريهة التي اتُّهم بها الكاهن الأكبر، ثم قال: «وأنت متورط في
مثل هذه الأمور!»

صرخ بيتر منهاراً: «لم أفعل أيّاً من تلك الأمور! بل لم أكن أعرف حتى بوجودها بكل
تأكيد.»

قال جوفي ساخراً: «قل هذا لهيئة المحلّفين! لقد ذهبوا حتى إلى المدعو شوميكر سميثرز،
وسيضعون زوجته على منصة الشهادة لتُثبت أنك لصّ دنيء وتروي قصة طردها إياك.
حدث كل ذلك لأنك لم تستطع أن تطبق فمك كما أخبرتُك!»

انفجر بيتر باكياً، وخر ساقطاً على ركبتيه، يتوسل قائلاً إنه لم يقصد أي ضرر؛ وإنه
لم يكن يعلم أنه لم يكن من المفترض عليه أن يتحدث عن حياته الماضية؛ وإنه لم يكن
يعلم ما يعنيه أن يكون شاهداً، أو ما كان من المفترض عليه أن يفعل. كل ما قيل له كان
ألاً يذكر قضية جوبر، وقد فعل. بكى بيتر وتوسّل، ولكن دون جدوى. أمر جوفي بأن يعود
بيتر إلى الحفرة، وأعلن عن عزمه على إثبات أن بيتر كان من ألقى القنبلة، وأن بيتر، وليس
جيم جوبر، كان العقل المدبر للمؤامرة ومنفّذها. ألم يوقّع بيتر اعترافاً بأنه ساعد في صنع
القنبلة؟

القسم الحادي عشر

مرةً أخرى، لم يعرف بيتر كم مضى عليه من الوقت وهو راقد يرتجف في الزنزانة السوداء. كان كل ما يعرفه هو أنهم أحضروا له الخبز والماء ثلاث مرات، قبل أن يأتي جوفي مرةً أخرى ويستدعيه. جلس بيتر متجمداً في كرسي، عاقداً يديه المرتجفتين معاً، بينما كان المحقق الرئيسي في شركة تراكشن تراست يشرح له موقفه الجديد. كان موقف بيتر كشاهد في القضية قد ذهب دون رجعة. وكان المتآمرون من العمال قد جمعوا أموالاً ضخمة للدفاع عن أنفسهم؛ وكانت تؤازرهم جميع النقابات العمالية في المدينة، بل كانت تؤازرهم جميع النقابات العمالية في البلاد، في واقع الأمر، وكانوا يستأجرون جواسيس ومخبرين، ويحاولون معرفة كل ما يمكنهم عن الادعاء، والأدلة التي جمعها والخطوات التي كان يستعد لها. لم يفصح جوفي عن خوفه من ترك بيتر يذهب لأن بيتر قد يأخذ صفَّ جوبر ويخبره بكل ما يعرف؛ ولكن توقَّع بيتر ذلك بينما كان يجلس يستمع إلى تفسير جوفي ويُدرك متحمساً أنه وصل أخيراً إلى مكانةٍ على سَلْم الرخاء. لم تذهب إصبعه التي كادت تنكسر ومعصمه الذي كاد ينخلع هباءاً!

قال جوفي: «والآن، إليك فكرتي: أصبح موقفك ضعيفاً كشاهد، ولكن كجاسوس، أنت أكثر شخصٍ مناسب. إنهم يعرفون أنك ثرثرت، وأناي عرفتُ ذلك؛ ويعرفون أنني وضعتُ في الحفرة. لذا ما أريد فعله الآن هو أن أحولك إلى شهيد. هل تفهم ما أقول؟»
أوماً بيتر برأسه أن نعم، كان يفهم. كان هذا ما يبرع فيه، أن يفهم أموراً على هذه الشاكلة.

«أنت شاهد صادق، هل تفهم؟ حاولتُ أن أجعلك تكذب، ولكنك لم تفعل؛ لذا، والآن تنتقل إلى الجانب الآخر، وسيقبلونك، وعليك أن تكتشف كل ما تستطيع، وسأرتب لقاءً بينك وبين شخصٍ ما من وقتٍ لآخر وسُترسل لي معه ما عرفت. هل تفهمني؟»

قال بيتر متحمسًا: «أفهمك.» لم تكن الكلمات لتتمكّن من وصف مدى ارتياحه. أصبحت لديه وظيفة حقيقية الآن! كان سيصبح جاسوسًا، مثل جوفي نفسه.

قال جوفي: «والآن، أول ما أريد معرفته هو مَنْ الذي يُنرث في هذا السجن؛ لا يُمكننا فعل أي شيء، لكن المعلومات تصلهم. لديّ شهود أريد أن أبقِيهم مختفين، ولا أجرؤ على وضعهم هنا خوفًا من جماعة جوبر. أريد أن أعرف مَنْ هم الخونة. أريد أن أعرف الكثير من الأمور التي سأخبرك بها من وقتٍ لآخر. أريد منك أن تقترب من هؤلاء الحُمر، وتتعرّف على أفكارهم حتى تتمكن من التحدث بلغتهم.»

قال بيتر: «سأفعل بالطبع.» لم يستطع أن يمنع ابتسامة خفيفة من الارتسام على شفتيه. كان من المفترض أن يكون أحد «الحُمر» بالفعل، أن يكون أحد قادة المؤامرة. لكن جوفي تخلى عن ذلك التظاهر، أو ربما نسيه!

كانت المهمة التي تنتظر بيتر سهلة للغاية. لم يكن بحاجة إلى التظاهر بأنه مختلف عما هو عليه حقيقةً. سيُدعى أنه ضحية للظروف وسيكون ناعمًا بحقّ على أولئك الذين سعوا لاستخدامه لحياكة مؤامرة ضد جيم جوبر. وسيتبعه الباقون تلقائيًا. سيكتسب ثقة العمال، وسيُخبره جوفي بما يجب فعله بعد ذلك.

قال كبير المحقّقين: «سنضعك في إحدى زنازين هذا السجن، وسنتظاهر بأننا نعاملك «معاملةً قاسية». سترغي وتُزبد وتقول إنك لن تُخبرنا بشيء، وسنستسلم في نهاية المطاف ونُطلق سراحك. كل ما عليك فعله بعد ذلك هو التجول. وهم من سيتقربون منك، وإلا فسيكون تخميني خاطئًا.»

وهكذا، رُتبت المسرحية الصغيرة وبدأ تنفيذها. أمسك جوفي ببيتر من ياقته وجرّه إلى الجزء الرئيسي من السجن وألقى به داخل واحدة من صفّ من الزنازين المفتوحة. أمسك ببيتر من معصمه وتظاهر بأنه يلوّيه، وتظاهر بيتر بالاحتجاج على هذا الفعل. لم يحتج إلى الاعتماد على خياله؛ فقد كان يعرف هذا الشعور، وكيف من المفترض أن يتصرّف، وقد فعل. بكى وصرخ، وأقسم مرارًا وتكرارًا أنه قد قال الحقيقة، وأنه لا يعرف شيئًا آخر غير ما أفصح عنه بالفعل، وأنه لا يُوجد شيءٌ من شأنه أن يجعله يقول أكثر مما قاله. تركه جوفي في الزنزانة حتى عصر اليوم التالي، ثم جاء مجددًا، وأمسكه من ياقته، وجرّه إلى درج السجن وركّله إلى الخارج.

أصبح بيتر حرًّا! وما أروع الشعور بالحرية! يا إلهي! هل يوجد أي شيء يضاهي هذا الشعور؟ أراد أن يصرخ ويعوي فرحًا. ولكنه ظل يتعثّر وهو يسير في الشارع، وانهار

القسم الحادي عشر

على حافةٍ حجريةٍ يبكي واضعاً رأسه بين يديه، ينتظر حدوث شيءٍ ما. وقد حدث بالطبع. ربما مرّت ساعة قبل أن يشعر بلمسةٍ خفيفةٍ على كتفه. وسمع صوتاً هادئاً يقول: «أيها الرفيق»، ورأى بيتر، من بين أصابعه، تنورة فتاة. ووضعت ورقةً مطويةً في يده وقال الصوت الهادي: «تعال إلى هذا العنوان.» انصرفت الفتاة وقفز قلب بيتر في صدره من فرط الانفعال. لقد أصبح بيتر مخبراً سرّياً أخيراً!!

القسم الثاني عشر

انتظر بيتر حتى بعد أن خيم الظلام قبل أن يستسلم لحسه الرومانسي؛ كما أنه أطرى على نفسه بمدى أهميته عبر النظر حوله بحدَر أثناء سيره في الشارع. لم يكن يعرف بالضبط من قد يكون في إثره، ولكن أراد بيتر أن يظل متخفياً.

كما أنه كان يشعر ببعض القلق الحقيقي. فقد قال الحقيقة عندما أخبر جوفي بأنه لا يعرف ماذا يكون «الأحمر»، ولكنه بدأ في تقصي الأمر منذ ذلك الحين، وأصبح يعرف الآن. «الأحمر» هو الشخص الذي يتعاطف مع النقابات العمالية والإضرابات؛ الشخص الذي يريد قتل الأغنياء وتوزيع ممتلكاتهم، ويعتقد أن الطريقة الأسرع لتحقيق هذا التوزيع هي استخدام الديناميت. جميع «الحمر» يصنعون القنابل، ويحملون أسلحة مخفية، وربما سموماً مخفية؛ من يمكنه أن يعرف؟ والآن كان بيتر يندس بينهم، كان سيصبح واحداً منهم! كان الأمر مثيراً للغاية، لشخص كل هدفه في الحياة هو الراحة. سمع صوتاً يهمس في داخله قائلاً: «لِمَ لا تتخلّى عن تلك المهمة؛ تخرج من المدينة وتنسى الأمر برمته؟» ولكنه تذكّر المكافآت والأوسمة التي وعده بها جوفي. هذا بالإضافة إلى روح الفضول؛ قد يتخلّى عن المهمة في أي وقت، ولكنه يريد أولاً أن يعرف المزيد عن كونه «مخبراً سرياً».

وصل إلى المبنى ذي الرقم الذي أُعطيَ إياه. كان بيتاً صغيراً من طابق واحد في حيّ فقير، ودقّ جرس الباب. فتحت له فتاة، ومن النظرة الأولى، أدرك بيتر أنها الفتاة التي تحدّثت إليه. لم تنتظر أن يُعرّفها بنفسه، بل صرخت فجأة: «السيد جادج! أوه، أنا سعيدة للغاية بقدمك!» ثم أضافت: «أيها الرفيق!» كما لو كان بيتر صديقاً تعرفه حق المعرفة. ثم قالت: «ولكن هل أنت رفيق بالفعل؟»

سألها بيتر: «ماذا تعنين؟»

قالت الفتاة: «ألسَتَ اشتراكياً؟ لا بأس، سنجعلك واحداً.» ثم أدخلته وأشارت له بالجلوس على كرسي وهي تقول: «أعرف ما فعلوه بك، ولقد صمَدتَ في مواجهتهم! أوه، لقد كنت رائِعاً! رائِعاً!»

لم يدرِ بيتر ماذا يقول. كان صوت الفتاة يحمل نبرة حب، بالإضافة إلى الإعجاب؛ ولم تكن حياة بيتر الصعبة تزخر بالكثير من الخبرات مع مشاعرٍ من هذا النوع. كان بيتر يُشاهد الانفعال والتحمس اللذين يظهران على الفتيات اللاتي يبحثن عن الغزل، ولكنه شعر من فوره أن أسلوب هذه الفتاة لم يكن مغازلةً. كان صوتها، رغم نعومتها، يحمل نبرة حزن لا تُناسب فتاة في مثل عمرها، وكانت عينها الرماديتان العميقتان الحزینتان مثبتتین على بيتر وتطل منهما نظرة قلقة من أم نجا ابنها من الموت للتو.

نادت قائلة: «سادى، لقد وصل السيد جادج.» ثم دخلت فتاةً أخرى أكبر سنًا وأطول قامة، لكنها نحيلة وشاحبة مثل أختها. عرف بيتر أن اسميهما جيني وسادي تود؛ كانت الشقيقة الكبرى تعمل سكرتيرة، وهي التي تُعول العائلة. كان القلق الشديد بادياً على الفتاتين. وبدأتا تسألان بيتر عما مرَّ به، لكنه لم يتحدث سوى لدقيقة أو دقيقتين قبل أن تذهب الشقيقة الكبرى إلى الهاتف. كان ثمة العديد من الأشخاص الذين يجب أن يلتقوا بيتر على الفور، أشخاص مهمون كان يجب إبلاغهم بوصوله على الفور. أمضت بعض الوقت تتحدث عبر الهاتف، ولا بد أن الأشخاص الذين تحدّثت إليهم اتصلوا بآخرين؛ فعلى مدار الساعة أو الساعتين التاليتين، كان هناك تدفقٌ مستمرٌّ من الزوار، وكان على بيتر أن يروي قصته مرارًا وتكرارًا.

كان أول الزوار رجلًا عملاقًا ذا شفاهٍ قاسية وصوتٍ جهوري للغاية لدرجة أنه أخاف بيتر. لم يُفاجأ بيتر عندما عرف أن هذا الرجل زعيمٌ إحدى أكثر النقابات العمالية الكبيرة في المدينة تطرفًا، البحارة. نعم، كان أحد «الحمر» ولا شك؛ كان يتوافق مع ما تخيَّله بيتر؛ رجلًا متجهماً وخطيرًا، يمكن تخيُّله في صورة شمشون يقبض على أعمدة المجتمع ويُسقطها على رأسه. قال الرجل بعدما لاحظ إجابات بيتر المترددة على أسئلته: «لقد أربوك أيها الصبي. لا بأس، لقد أربوني طوال خمسة وأربعين عامًا، لكنني لم أدعهم يعرفون ذلك حتى الآن.» ومن أجل التخفيف عن بيتر وتقوية أعصابه، أخبره أنه بحارٌ هارب تعرَّض للملاحقة عبر منطقة إيفرجليدز في فلوريدا بواسطة الكلاب البوليسية، ثم رُبط إلى شجرة وضرب حتى فقد الوعي.

جاء من بعده ديفيد أندروز، الذي سمع بيتر أنه أحد المحامين في قضية جوبر، وكان رجلًا طويل القامة، ذا مظهرٍ أنيق، وملامحٍ حادة تدل على الذكاء. ماذا يفعل رجلٌ على

شاكلته بين هؤلاء المنبوذين؟ قرّر بيتر أنه يجب أن يكون أحد الأذكياء الذين يكسبون المال من تحريض الساخطين. ثم جاءت فتاة صغيرة، هزيلة وضعيفة، ولديها بعض الإعاقة. انهمرت الدموع على خديها أثناء عبورها الغرفة لمصافحته، ووقف بيتر محرّجاً، يتساءل عما إذا كانت قد فقدت أحد ذويها أخيراً، وما عليه أن يقوله لمواساتها. ولكنّه استنتج من أوّل كلماتها أنها كانت تبكي متأثرةً بقصّته عن المعاناة التي مرّ بها، الأمر الذي أثار دهشته بشدّة.

كانت أدا روث شاعرة، وكانت هذه نوعيّة جديدة بالنسبة إلى بيتر؛ بعد الكثير من التفكير، اعتبرها واحدةً من الأغبياء في الحركة؛ طفلة صغيرة عاطفية، لا تملك أدنى فكرة عن الشر المحدق بها. جاء معها صبي ينتمي إلى جماعة الأصدقاء ذو وجهٍ شاحب تدلّ ملامحه على الورع وخُصلات شعرٍ سوداء كان عليه أن يهزّ رأسه كل فترة لإبعادها عن عينيه؛ كان يرتدي ربطة عنق مربوطةً بعقدة وندسور، وقُبعةً سوداء من الصوف، وغيرها من الأشياء التي تدلّ على غرابة الأطوار، ومن حديثه، استنتج بيتر أنه مستعد لتفجير جميع حكومات العالم من أجل أن يُعم السلام. انطبق الأمرُ نفسه على ماكورميك، زعيم اتحاد العمال الصناعيين العالمي الذي خرج من السجن للتو بعد أن قضى فيه ستين يوماً، وكان شاباً أيرلندياً صموتاً بشفتين مزومتين وعينين سوداوين لا تكلان، غرس القلق في صدر بيتر بسبب مراقبته له عن كثب وعدم التفوه بأي كلمة تقريباً.

القسم الثالث عشر

واصل الضيوف القدوم فرادى أو في مجموعات؛ نساءً مسنات وشابات، رجالٌ مسنون وشباب، متعصبون وحالمون، محرّضون لا يستطيعون فتح أفواههم دون أن تتسرّب الكلمات الثورية منها كاشفةً عن نيران الحماسة المتأججة في أعماقهم. زاد قلق بيتر أكثر فأكثر؛ فقد أدرك أنه بين أخطر «الحمر» في المدينة الأمريكية. هؤلاء هم من يخشاهم المواطنون الذين يحترمون القانون، وهؤلاء هم من تهتم بهم الشرطة أكثر من جميع اللصوص وقطّاع الطرق العاديين. أدرك بيتر السبب في ذلك الآن؛ فلم يكن يتخيل أن في العالم أشخاصًا غاضبين أعمتْهم الكراهية لهذه الدرجة. ومثل هؤلاء قد يُقدّمون على فعل أي شيء! ظل جالسًا ينقل بصره من وجه إلى آخر. من هؤلاء الحاضرين ساعد في تفجير القنبلة؟ وهل سيتفاخر بهذه الفعلة هذا المساء؟

كان بيتر نوعًا ما يتوقع ذلك، ولكنه عاد يتشكك فيه. كانوا مجرمين غربيي الأطوار! كانوا يُطلقون عليه لقب «الرفيق»، وكانوا يتحدثون بنفس العاطفة التي أربكته عندما تحدثت بها الصغيرة جيني. هل كانت تلك مجرد خدعة لكسب ثقته، أم أن هؤلاء الناس يظنون حقًا أنهم يُحبونه هو، بيتر جادج، الغريب والعدو السري؟ كان بيتر يبذل جهدًا كبيرًا لخداعهم، لكن بدا له أنه من السهل خداعهم لدرجة أنه لم يكن بحاجة إلى اكل هذا الجهد. وكان يحتقرهم لهذا السبب، وطوال الوقت الذي قضاه في الاستماع لهم كان يقول لنفسه: «يا للمجانين المساكين!»

كانوا قد أتوا لسماع قصته، وأمطروه بالأسئلة، وجعلوه يروي جميع التفاصيل مرارًا وتكرارًا. وكانت تعليمات بيتر واضحة تمامًا؛ لم يكن من المفترض عليه أن يذكر الاعتراف المفصّل الذي أُجبرَ على توقيعه؛ فهو بذلك يضع سلاحًا خطيرًا للغاية في يد أعداء القانون

والنظام هؤلاء. كان عليه أن يروي قصة قصيرة قَدَّر الإمكان عن الصُدفة التي وضعته بالقرب من موقع الانفجار، وكيف حاولت الشرطة إجباره على الاعتراف بأنه يعرف شيئاً عن القضية. قصَّ بيتر تلك القصة القصيرة، كما أمر؛ لكنه لم يكن مستعداً للتحقيق الدقيق الذي تعرَّض له من قبل أندروز، المحامي، بمساعدة العجوز جون دوراند، قائد البحارة. كانا يريدان معرفة كل ما حدث له، ومن فعله، وكيف ومتى وأين ولماذا. كان بيتر يمتلك حساً تمثلياً، وكان يستمتع بكونه مركزَ الاهتمام والإعجاب، حتى إن كان ذلك في غرفة مليئة «بالحُمَر» المجرمين. فأخبرهم بجميع التفاصيل البارزة المتعلقة بليّ جوفي لمعصمه وحبسه في زنزانه، والألم الشديد الذي لا يزال يشعُر به وكأنه قد حدث له للتو، وقصَّ القصة بواقعية كان من شأنها أن تهيج مشاعر مجموعة أكثر تَبَلُّداً في المشاعر من تلك المجموعة.

لم يمر وقتٌ طويل حتى دخلت كل هذه النساء في نوبة من البكاء والغضب. وحضّر الإلهام أدا روث الصغيرة فبدأت تُلقِي قصيدةً على أسماعهم؛ أم أنها كانت تنظمها هنا، أمام عينيه؟ بدت وكأن الاستياء يُلهمها. كانت القصيدة تتحدث عن انتفاضة العمال ... ثورة الجماهير ...

«صبرتُ على عدوِّ لا يبالي فعُضَّ الطرف، أو ذُق من وَبالي!»

فكَّر بيتر وهو يستمع إلى القصيدة، «يا للمجنونة المسكينة!» ثم أخذ دونالد جوردون، الصبي من جماعة الأصدقاء، الكلمة، وبدأ يهزُّ خُصلات شعره الطويلة السوداء، وبدأ أنه يرتجل خطاباً. فكَّر بيتر مجدداً وهو يستمع إلى الخطاب، «يا للمجنون المسكين!» ثم كشف رجلٌ آخر، محرر إحدى الصحف العمالية، عن حقيقة تأليفه لمقالة افتتاحية؛ فقد كان يعرف جوفي، وكان سينشر صورته ويصفه بأنه «محقِّق من عصر محاكم التفتيش». وطلب من بيتر أن يلتقط صورته، فوافق بيتر، وأن يُعْنون الصورة بعنوان «ضحية محقق محاكم التفتيش». لم يكن بيتر يملك أدنى فكرة عما تعنيه العبارة؛ لكنه وافق، وفكَّر مرةً أخرى، «يا للمجنون المسكين!» كانوا جميعاً في نظره «مجانين» يتقبلون مشاكل الآخرين بمثل هذا الحماس!

ولكن بيتر كان خائفاً أيضاً؛ لم يستطع الاستمتاع بكونه بطلاً على الإطلاق، ليس بهذه الطريقة الحيوية المدهشة، وقد انتشر اسمه وشهرته في طول البلاد وعرضها، حتى يعرف العمال التابعون للمنظمات الأساليب التي تستخدمها المشروعات الربحية الكبرى في المدينة

الأمريكية لإرسال قائد عمالي معروف إلى المشنقة! بدا أن الأمر يتفاقم أكثر فأكثر أمام عيني بيتر المرتعبتين. شعر بيتر، النملة، بالأرض تهتز تحت قدميه، وانتبه فجأة للعاملين الضخمين بحجم جبلين اللذين كانا يدوسان على رأسه أثناء قتالهما. تساءل بيتر، هل أدرك جوفي الضجة الكبيرة التي ستثيرها قصته، وأنه كان يضع في أيدي أعدائه سلاحاً قوياً؟ ماذا كان يتوقع جوفي أن يحصل من بيتر مقابل التعويض عن الضرر الذي لحق بقضيته؟ وبينما كان بيتر يستمع إلى الخطابات العاصفة التي تلقى في الغرفة الصغيرة المزدهمة، وجد نفسه يفكر مراراً وتكراراً في الهرب. لم يكن قد رأى خلال حياته مثل ذلك الغضب الذي يشحن به هؤلاء الناس أنفسهم، الأشياء الرهيبة التي قالوها، الإدانات، ليس لشرطة المدينة الأمريكية فحسب، بل أيضاً للمحاكم والصحف، الكنائس والكلبات، وجميع رموز الاحترام والقدسية من وجهة نظر المواطنين المنصاعين للقانون مثل بيتر جادج نفسه.

أصبح خوف بيتر واضحاً. ولكن لِمَ لا يكون خائفاً؟ عَرَضَ عليه أندروز، المحامي، أن يأخذه إلى مكان بعيد ويخفيه، تحسباً لمحاولة أعدائهم أن يتخلصوا منه. سيكون بيتر أهم شهود هيئة الدفاع عن جوهر، وعليهم أن يعتنوا به جيداً. لكن بيتر استعاد رباطة جأشه وتقبل دوره النبيل. لا، سيُجرب حظوظه مع بقيتهم؛ فلم يكن خائفاً لهذه الدرجة.

كافأته سادي تود، كاتبة الاختزال، على بطولته. كانت ثمة غرفة نوم احتياطية في منزلها الصغير، وإذا أراد بيتر البقاء معهما لبعض الوقت، فستسهران على راحته. قبل بيتر دعوتها، وانقضّ التجمع في ساعة متأخرة من الليل. وذهبت كلُّ من مجموعات «الحمر» المختلفة في حال سبيلها بأيدٍ مضمومة ووجوه تعبر عن عزم لا يلين على تحويل قصة بيتر إلى وسيلة لإثارة العمال المستائين وإدخالهم في نوباتٍ جديدة من الحماسة. أمسك الرجال بيد بيتر بؤد، ونظرت السيدات إليه بأعينٍ مليئة بالعطف، وهمسن له بكلمات تعبر عن إعجابهن بمسيرته الشجاعة، وأملهن، بل قناعتهن، في أنه سيُنَاصِرُ الحقيقة حتى النهاية، وأنه سيدرس أفكارهن وينضم إلى «حركتهن». طوال تلك الفترة كان بيتر يراقبهم ويستمر في القول لنفسه: «يا للمجانين المساكين!»

القسم الرابع عشر

لم تُضَيِّع الصحف المحترمة في المدينة الأمريكية، بالطبع، أي مساحة في مطبوعاتها على الاتهامات الوهمية التي قدّمها المتطرفون عن تعذيب السلطات الشرطة للشهود. لكن كانت ثمّة جريدة اشتراكية تصدر كل أسبوع في المدينة الأمريكية، ونشرت هذه الجريدة موضوعاً طويلاً عن التجربة التي مرّ بها بيتر في صفحتها الأولى إلى جانب صورته. كما نشرت ثلاث صحفٍ عمالية القصة، وأعدّت لجنة الدفاع عن جوهر منشورًا يتحدث عن القصة وأرسلت آلاف النسخ منه إلى جميع أنحاء البلاد. كان هذا المنشور بقلم دونالد جوردون، الصبي التابع لجماعة الأصدقاء. أحضر دونالد لبيتر نسخةً منه ليتأكد من أنه ذكر جميع التفاصيل بشكلٍ صحيح، وقرأ بيتر المنشور، ولم يستطع منع نفسه من الشعور بالانفعال عندما اكتشف أنه بطل. لم يقل بيتر شيئاً عما كان يفعل قبل ذلك، واختار أعضاء لجنة الدفاع عن جوهر الذين عرفوا تلك التفاصيل التزام الصمت الدبلوماسي. ابتسم بيتر في نفسه عندما واتته تلك الفكرة. يا لهم من مكرين، هؤلاء الناس! كانوا يمارسون لعبتهم ببراعةٍ تامة، وأُعجب بهم بيتر لهذا السبب. في المنشور الذي كتّبه دونالد جوردون، صور بيتر عاملاً فقيراً؛ وابتسم بيتر. كان معتاداً على كلمة «العمل»، ولكن عندما كان يتحدث عن «العمال»، كان يعني شيئاً مختلفاً عما يعنيه هؤلاء الاشتراكيون.

انتشرت القصة، وأراد كثيرون، بلا شك، لقاء بيتر وحضروا إلى منزل الأختين تود. لذا، بدأ بيتر يؤدي وظيفته بأن يعرف كل ما يمكن أن يعرفه عن هؤلاء الزوار، أسماءهم ومهنتهم، وعلاقاتهم بالحركة الراديكالية. كان جوفي قد نصّحه بالألّا يدوّن أي ملاحظات خوفاً من فضح أمره، ولكن لم يستطع بيتر حفظ كل هذه المعلومات في ذاكرته؛ لذا، كان يعتكف في غرفته ويدوّن ملاحظاتٍ مفصلة على قصاصاتٍ صغيرة من الورق، ويخيطها بعناية في بطانة معطفه شاعراً بإثارة من يُخفي سرّاً.

فيما عدا تدوين الملاحظات، كان عمل بيتر الجاسوسي سهلاً؛ فقد كان يبدو أن جميع هؤلاء الناس حريصون على البَوح بما يفعلون؛ كان هذا يُخيف بيتر في بعض الأحيان؛ فقد كانوا منفتحين ومتحدّين لأبعد حد! لم يكونوا يُفصِّحون عن أفكارهم لبعضهم لبعض وله فحسب، بل كانوا يُفصِّحون عنها أيضاً على المنصات العامة، وفي منشوراتهم سواء كانت كُتبيات أو نشرات ... ما يطلقون عليه اسم «الأدب». لم يكن بيتر يعلم أن «حركتهم» واسعة الانتشار أو قوية لهذا الحد. كان يتوقع أن يكشف عن مؤامرة سرية، وربما قنبلة ديناميت أو اثنتين، ولكن يبدو أنه كان يكشف عن بركان!

على أي حال، فعل بيتر أفضل ما في وسعه. فقد حصل على أسماء وتفاصيل حوالي أربعين أو خمسين شخصاً من جميع الطبقات؛ عمال مجهولين من الرجال والنساء، وخياطين يهود، وعمال روس وإيطاليين يعملون في صناعة السيارات، ومشغلي آلات ومطابع أمريكيي المولد، بالإضافة إلى بعض «الحُمُر الأرستقراطيين»؛ نساء ضخام، أنيقات لامعات جئن يتدحرجن إلى المنزل الصغير في سياراتٍ ضخمة، وأنيقة، ولامعة، وسائقوهن في أزيائهم الرسمية في الخارج ينتظرونهن لساعاتٍ طوال، بينما يستمعن هن إلى قصة بيتر عن «العاملة القاسية» التي تعرّض لها. خطر في بال سيدة كريمة ترتدي عباءةً رمادية طويلة، وتفوح منها رائحةٌ عطرة عبقت الغرفة، أن بيتر قد يكون في حاجة إلى المال، فوضعت ورقة نقد بقيمة عشرين دولاراً في يده. كان بيتر متحمساً، ولكنه كان متحيراً أيضاً، عندما أدرك العجائب الجديدة لذلك الشيء الذي يُسمى «الحركة»، فقرر أنه قد يصبح من «الحُمُر» لبعض الوقت بعدما يفرغ جوفي منه.

أثناء ذلك، ارتاح بيتر للإقامة مع الأختين تود. كانت سادي تذهب إلى عملها قبل الثامنة صباح كل يوم، قبل حتى أن يستيقظ بيتر؛ ولكن كانت جيني تبقى في المنزل، وتُعدّ فطوره، وتفتح الباب لزواره، وكانت تؤدي دور المُصَيِّفة بشكلٍ عام. تأكّد أمر مرضها؛ فقد كانت تذهب مرتين أسبوعياً إلى الطبيب ليفعل شيئاً ما لعمودها الفقري، وكان من المفترض أن ترتاح في الفراش بقية الوقت، ولكن نادراً ما رآها بيتر تفعل ذلك. كانت دائماً ما تكتب منشورات، أو تكتب خطابات لصالح «القضية»، أو تخرج لبيع الكتب وجمع التبرّعات في الاجتماعات. عندما لا تكون مشغولة بعملٍ ما، كانت تتجادل مع شخصٍ ما — غالباً مع بيتر — في محاولةٍ منها لجعله يفكر بأسلوب تفكيرها نفسه.

يا للصغيرة المسكينة، كانت شديدة التأثير بالأفكار التي اعتنقتها عن ظلم الطبقات العاملة. لم تمنح نفسها وقتاً ترتاح فيه من تلك الأفكار، ليلاً أو نهاراً، وهذا كان مزعجاً

لبيتر، بالطبع؛ لأنه كان يرغب في الهدوء أكثر من أي شيءٍ آخر. ففي ربوع أوروبا، كان الملايين من الرجال يُنظَّمون في جيوش، وينخرطون في قتل بعضهم بعضًا. هذا كان أمرًا مروِّعًا للغاية ولا شك، ولكن ما الفائدة المرجوة من التفكير فيه؟ لم تكن ثمَّة طريقة لإيقافه، ولم يكن ذلك خطأً اقترفه بيتر بالتأكيد. ولكن كانت هذه الطفلة المسكينة المضلَّلة تتصرف طوال الوقت وكأنها المسئولة عن هذا الصراع الدائر في أوروبا وكأنها هي المكلفة بمهمة إنهائه. فكانت الدموع تنهمر من عينيها الرماديتين العميقتين، وكان ذقنها الناعم يرتجف من الألم كلما تحدثت عنه؛ وبدا لبيتر أنها تتحدَّث عنه طوال الوقت. كانت فكرتها أن الحرب لا بد أن تُوقَّف عبْر انتفاضات يُجريها عمال أوروبا. ويبدو أنها كانت تظن أنه يمكن تسريع هذا الأمر إذا ما انتفض عمال المدينة الأمريكية وضربوا مثلاً لأقرانهم في أوروبا!

القسم الخامس عشر

كانت جيني تتحدث عن هذه الخطة علناً؛ كانت تضع شريطاً أحمر في شعرها، وتثبّت شارة حمراء على صدرها، وتذهب إلى أماكن التجمعات وتبيع كتيبات صغيرة ذات أغلفة حمراء. لذا، كان من واجب بيتر، بالطبع، أن يبلغ عنها رئيس جهاز الأمن السري لشركة تراكشن تراست. ندم بيتر على هذه الفعلة وكان يشعر بالعار من اضطراره لفعلها؛ فقد كانت فتاة صغيرة لطيفة، وجميلة أيضاً، وصديقة ربما كان سيستمتع بقضاء وقته معها لو لم تكن في تلك الحالة الهستيرية الدائمة. كان يجلس ويراقبها وهي تجلس مُنكبّة على ألتها الكاتبة. كان شعرها ناعماً وأزغب في لون الغسّق، وكانت أسنانها بيضاء، وكانت حُمرّة خفيفة تظهر وتختفي في خديها؛ نعم، ليست قبيحةً مطلقاً؛ كل ما عليها فعله هو أن ترفع رأسها وتنفق بعض الوقت على تحسين مظهرها، كما تفعل الفتيات الأخريات. ولكن لا، كانت دائماً في حالة توتر، والأدهى أنها كانت تُحاول أن تُدخل بيتر في الحالة نفسها. كانت عاقدة العزم على أن بيتر يجب أن يتأثر بالظلم الواقع على الطبقات العاملة. وكانت ترى أن وصوله إلى حالة التأثر تلك أمرٌ مسلّم به، بعدما يتعلم كيفية فعل ذلك. كانت تروي له قصصاً مروّعة، وكان واجبه أن يبدو مرتاعاً بحق؛ كان يجب أن يتصرف دائماً بشكلٍ عاطفي. كانت تعطيه بعضاً من «أدبها» ليقراها، ثم كانت تمنعه عن الحركة وتتأكد من أنه قد قرأه. كان يعرف القراءة؛ كان بيريكليس بريام هو من علّمه القراءة؛ لأنه أراد منه أن يشرف على طباعة منشوراته وإعلاناته في صحف القرى التي كان يسافر إليها. لذا، كان بيتر محاصراً حالياً في أحد أركان الغرفة مجبراً على تركيز انتباهه على «مبادئ الاشتراكية»، أو «الرأسمالية والبروليتاريا»، أو «الطريق نحو السلطة».

قال بيتر لنفسه إن جمع هذه المعلومات جزءٌ من مهمّته. كان سينتمي إلى «الحُمُر»، وعليه أن يتعلم لغتهم؛ ولكنه وجدّها متعبة للغاية؛ فقد كانت مليئةً بالمصطلحات

المتخصّصة الطويلة التي لم يسمعها من قبل. لمَ لا يتحدّثون باللهجة الأمريكية العادية على الأقل؟ كان يعلم أن من بينهم اشتراكيين، وكذلك «فوضاويين»، كما كان يدعوهم، وكان يراهم جميعهم متشابهين. لكنه تعلّم الآن، ليس عن الاشتراكيين و«الفوضاويين» فقط، بل أيضاً عن اشتراكيي الدولة، والشيوعيين الفوضويين، والشيوعيين النقابيين، والفوضويين النقابيين، والاشتراكيين النقابيين، والاشتراكيين الإصلاحيين، والاشتراكيين النقابيين، ناهيك عن دعاة الضريبة الموحّدة الواحدة، والليبراليين، والتقدميين، والعديد من أصحاب التوجّهات الأخرى الذين كان مضطراً للقائهم، وتصنيفهم، والاستماع إليهم باحترام وتعاطف. كان كل فصيلٍ منهم مُصرّاً على الفروق التي تجعله مختلفاً عن الباقين، كما أصرَّ كلُّ منهم على أنه يملك الحقيقة الدامغة؛ ومَلَّ بيتير من أحاديثهم التي لا تنتهي؛ كان من الأسهل جمعهم جميعاً معاً، كما فعل جوفري وماكجيفني، ووصفهم جميعاً بجماعة «الحُمُر»!

فهم بيتير بوضوح أن ما يريده هؤلاء «الحُمُر» هو توزيع ممتلكات الأغنياء. كان هذا هو انطباع كلِّ مَنْ سأله عنهم. لكنه أصبح يعرف الآن أن الأمر ليس كذلك بالضبط. كان ما يريده هو أن تفرض الدولة هيمنتها على الصناعات، أو أن تفعل النقابات العمالية ذلك، أو أن يدعوا العمال بشكلٍ عام يفعلون ذلك. كانوا يشيرون إلى البريد، والجيش، والبحرية؛ كأمثلة على قدرة إدارة الدولة للأمور. كانت جيني تسأل، ألا تعتقد أنه هدفٌ جيد؟ فكان بيتير يجيبها، نعم، إنه جيد؛ ولكن كان ثمة صوتٌ في نفس بيتير يهمس طوال الوقت بأنه لن يكون ثمة فرقٌ على الإطلاق. كان يُولد شخصٌ سانج كل دقيقة، ويجدر بك أن تثق في أنه أيّاً كانت طريقة ترتيبهم للأمور، فسيظل هناك دائماً أشخاص يرون أنه من الأسهل العيش على ما يبذل الآخرون من جهد. هذه الفتاة المسكينة، على سبيل المثال، كانت مستعدة لإلقاء نفسها في التهلكة في سبيل أي فكرة غبية، أو في سبيل أي شخصٍ يظهر ويروي لها قصةً حزينة؛ هل سيصل هذا المجتمع إلى حالةٍ لا يراها فيها الرجال لقمةً سائغةً يسهُل التهامها؟

كانت جيني تبقى وحدها في المنزل طوال اليوم مع بيتير، وكانت تزداد جمالاً في عينيه كلما تعرّف عليها أكثر. كما بدا أنها تزداد إعجاباً ببيتير كلما مَثَّل بيتير دوره كما ينبغي. فقد تظاهر بيتير بأنه شخصٌ يتعاطف من أعماق قلبه، وأنه قد تحوّل بسرعة لمنصرة القضية؛ وكان يفهم كل ما تشرّحه له جيني، كان يرتاع من القصص المروّعة، وكان على استعداد لمساعدتها في إنهاء الحرب الأوروبية عبر إشعال ثورة بين صفوف العمال في المدينة

الأمريكية. كما حدثها عن نفسه، وأيقظ تعاطفها مع حياته القاسية، والعشرين عامًا التي قضاها في الحرمان والعبودية؛ وعندما أبكتها قصته، أحب بيتر ذلك. فقد تملكه شعورٌ رائع عندما جعلها تشعر بالأسى الشديد عليه؛ وساعد ذلك في تعويضه عن الملل الذي ينتابه من سماعها تتأسى على الطبقة العاملة بأكملها.

لم يعرف بيتر إن كانت جيني قد عرفت بأمر ماضيه الإجرامي، ولكنه لم يرغب في ترك شيءٍ للصدفة؛ فأخبرها بكل شيء، وتفادى الأذى الذي قد يطاله من هذه الجهة. كان قد وقع أسيرًا للنشر بالفعل، ولكن لم يكن ذلك ذنبه؛ فلم يكن هناك من يوجّهه إلى وجهةٍ أفضل، كان ضحيةً للظروف يستحق الشفقة. قصّ عليها قصة تجويعه، وتعنيفه، وضربه من قبل «العجوز» دراب، فاغرورقت عينا جيني الرماديتان بالدموع وسالت على وجنتيها. حدثها عن وحدته، وحزنه، وبؤسه في دار الأيتام. وعن إدراكه، هو الصبي المسكين، أنه كان من الخطأ أن يساعد بيريكليس بريام في بيع مسكّن الآلام الذي لا مثيل له؟ كيف كان باستطاعته أن يعرف إذا ما كان الدواء مفيدًا أم لا؟ لم يعرف ذلك حتى الآن في الواقع. أما بالنسبة إلى معبد جيمجامبو، فكل ما كان بيتر يفعله هو غسل الأطباق والعمل كعبد مطبخ، كما هو الحال في أي فندق أو مطعم.

كانت قصةً من السهل تأليفها وترتيبها، وما زادها سهولةً أن المادة الأولى في عقيدة جيني الاشتراكية تنص على أن الظروف الاقتصادية هي المسؤولة عن ضعف النفس البشرية. فتحت هذه العقيدة البابَ أمام جميع أنواع المحتالين، وجعلت الفتاة سهلة المنال لدرجة أن بيتر كان سيخجل من جعلها ضحية، لولا أنها كانت تقف في طريق أهدافه الأعلى؛ كما أنها كانت شابة، في السابعة عشرة من عمرها فحسب، ذات عيْنين رماديتين رقيقتين، وشفَتين عذبتين مُغريتين، وكانت تبقى وحدها في المنزل طوال اليوم.

القسم السادس عشر

كانت مغامرات بيتر العاطفية حتى ذلك الوقت مماثلةً تقريباً لبقية تجارب حياته؛ كانت مفعمة بالأمل والأحلام الوردية، ولكن دون الكثير من الإنجازات. كان بيتر يعرف الكثير عن هذه الأمور، وفي دار الأيتام، كانت تحدث بضع ممارسات خبيثة لم يشهدها بنفسه مطلقاً، والقليل من التخيُّلات الفاحشة التي لم يكن يألُفها. كما أن بيريكليس بريام كان رجلاً أشبه ببَحَّارٍ تقليدي يرتبط بفتاة في كل ميناء؛ وعادةً، لم يكن في هذه البلدات والقرى مكانٌ يذهب إليه بيتر إلا في صحبة بيريكليس؛ لذا، كان بيتر شاهداً على العديد من علاقات سيده العاطفية وكاتماً لأسراره. ولكن لم تُبدِ أيُّ من تلك الفتيات والنساء اهتماماً ببيتر. كان بيتر مجرد «صبي»، وعندما كبر ولم يُعد طفلاً، بل شاباً معذباً بالرغبات الجامحة، ظلَّ لا يُعرنه اهتماماً؛ ولماذا يفعلن ذلك؟ كان بيتر نكرة، لم يكن ذا منصب، أو ثروة، أو جاذبية، بل كان ضعيف الجسم ضئيل الحجم، وكانت أسنانه معوجةً، وإحدى كَنَفَيْهِ أعلى من الأخرى. فماذا كان يتوقَّع من النساء والفتيات إلا السخرية والرفض؟

انتقل بيتر بعد ذلك إلى معبد جيمجامبو، وهناك مرَّ بتجربةٍ مدمرة؛ وقع في الحب بشكلٍ مؤلم ومفاجئ. كانت هناك خادمة في المعبد، فتاةٌ متألمة من بلدة إمبرالد آيلز ذات شعر بلون الشروق ووجنتين كالنفاج، وضحكة كانت ترُجُّ الأطباق المعلقة على جدران المطبخ. كانت تسخر من بيتر، وتسخر من الكاهن الأكبر، وتسخر من جميع الرجال في المعبد الذين حاولوا الإمساك بها من الخصر. ربما كانت تسمح لهم بفعل ذلك مرةً أو مرتين في الشهر، فقط لكيلا يفقدوا اهتمامهم بها، ولتصقل مهاراتها.

الوحيد الذي كانت تفضُّله حقاً كان عامل توصيل المغسلة، وسرعان ما أدرك بيتر السبب. كان لعامل المغسلة هذا إمكانية استخدام سيارة في أيام الأحد، وكانت نيل ترتدي أكثر ملابسها إغراءً، وتخرج معه في فَاخَر. وكان ينفق كل ما جناه على مدار الأسبوع في

سبيل الترفيه عنها على الشاطئ؛ كان بيتر يعرف؛ لأنها كانت تُخبر المؤسسة بأكملها صباح الإثنين. كانت تقول: «يا إلهي، لقد قضيتُ وقتاً رائعاً!» وكانت تعدد عدد مرات شرائه للملحقات، وعدد مرات ركوبها دوارة الخيل، وعدد مراوح الأطفال وكل الأشياء الغريبة التي اشتراها لها. وكانت تتحدث عن الرجال المشغولين والعجل ذي الأرجل الخمس والمرأة التي نصفها رجل، وكانت تضحك طوال الوقت والأطباق المعلقة على جدران المطبخ ترتج. كانت مخلوقة رائعة بلا شك، وأدرك بيتر فجأة أن أعظم رغباته في الحياة هي الحصول على «صديقة رائعة» مثل نيل. ولكنه أدرك أن ثمة شرطاً أساسياً، المال. لن تلتفت أيُّ امرأة إليك إن لم تكن تملك المال. خرجت نيل معه مرةً واحدة فقط أنفق فيها مخرات ستة أشهر، ولم يتمكّن بيتر من إخفاء كم كان صعباً عليه إنفاقها بالكامل. لذا صنّفته كرجل «بخيل»، ولم يحرز أي تقدم معها.

اختفت نيل، وكذلك الجميع عندما داهمت الشرطة المعبد. لم يعرف بيتر مطلقاً ما حدث لها، ولكن كان شوقه القديم لها لا يزال يملكه، وكان يجد نفسه يتخيل؛ لنفترض أن الشرطة قد أمسكت بها؛ أو لنفترض أنها في السجن، سيُمكنه «وضعه» الجديد من إخراجها من السجن وإبعادها عن رجل المغسلة وإخفائها عن عينيه! كانت تلك أضغاث أحلام؛ ولكنه في الوقت نفسه كان يعيش الواقع، كان يعيش في عالم جديد. كان بيتر قد استقر في منزل الأختين تود، فما هو موقفهما من أغاز الحب الرهيبة تلك؟

القسم السابع عشر

كان بيتر قد رتّب مع جوفي أن يحضر اجتماعاً سريعاً مع أحد رجال كبير المحققين نهاية الأسبوع. فقال بيتر للفتاتين إنه قد ملّ من بقائه في المنزل طوال الوقت ويجب أن يتنشق بعض الهواء النقي.

صاحت سادي وقد ازداد وجهها النحيل القلق نحولاً وقلقاً: «أرجوك يا سيد جادج، لا تُقدِّم على هذه المغامرة! ألا تعرف أن هذا المنزل مُراقَب؟ إنهم يأملون في أن يقبضوا عليك بمفردك، وستكون هذه نهايتك.»

قال بيتر: «أنا لستُ مهمماً لهذه الدرجة»، ولكنها أصرّت على أنه مهم، وكان بيتر سعيداً؛ فعلى الرغم من ملله، كان يُحب أن يسمعها تُصر على أهميته.

صاحت قائلة: «أوه! ألم تدرك بعدُ كم يعتمد عليك الدفاع عن جوبر كشاهد؟ هذه القضية تهم ملايين الناس في جميع أنحاء العالم! إنها قضية اختبار يا سيد جادج؛ هل نسمح لهم بقتل قادة الطبقة العاملة دون قتال؟ لا، يجب أن نريهم أن هناك حركةً كبيرة، ونهضةً عالمية للعمال، وكفاحاً من أجل حرية عبيد الأجر...»

ولكن بيتر لم يكن قادراً على تحمُّل المزيد من هذه الشعارات، فقال فجأةً مقاطعاً استرسال سادي في الحديث: «حسناً، أظن أن من واجبي أن أبقى في المنزل حتى لو قتلني مرض السُّل بسبب سَجْني في المنزل من دون هواءٍ نقي.» كان يتظاهر بأنه شهيد؛ الأمر الذي لم يكن صعباً بالنسبة إليه؛ لأنه كان كذلك بالفعل، وكان يبدو شهيداً بالفعل بهيئته النحيلة وملابسه البالية. فرمقته كلُّ من سادي وجيني بإعجاب وتنهَّدتا في ارتياح.

ولكن بعد ذلك واتت بيتر فكرة. فقال لسادي إنه يمكنه الخروج ليلاً والتسلل عبر المدخل الخلفي للمنزل بحيث لا يراه أحد؛ ولن يتجول بين الحشود أو يسير في الشوارع المضاءة بأضواءٍ مبهرة؛ لذا، لن تكون ثمة فرصة لأن يتعرف عليه أحد. ثمة رجل يجب أن

يلتقيه؛ فهو مدين له ببعض المال، ويعيش في الجانب الآخر من المدينة؛ وكان هذا هو سبب رفضه عرض جيني لمرافقته.

ومن ثم، في تلك الليلة، تسلق بيتر سورًا خلفيًا، وتسَلَّلَ عَبْرَ حظيرة دجاج أحد الجيران وابتعد. قضى وقتًا ممتعًا في استخدام الحشود في الاختباء والتلمص ليضمن أن لا أحد يتعقبه إلى اجتماعه السري؛ يجب ألا يشك أي «أحمر» في «ولائه». كان الاجتماع في فندق «البيت الأمريكي»، وهو فندق غير معروف، وكان من المفترض أن يستقل بيتر المصعد إلى الطابق الرابع، دون أن يتحدث إلى أي شخص، وأن يطرق باب الغرفة ٤٢٧ ثلاث مرات. فعل بيتر ذلك، وفتح الباب، فانسل عبَّره إلى داخل الغرفة حيث التقى جيرى ماكجيفني بوجهه الذي يشبه وجه الجُرْد.

سأله ماكجيفني: «حسنًا، علامَ حصلت؟» جلس بيتر وبدأ في إخباره بما لديه من معلومات. وبأصابع مرتعشة، فك الخياطة غير المتقنة في بطانة معطفه وأخرج ملاحظاته التي تحمل أسماء وأوصاف الأشخاص الذين جاءوا لرؤيته.

ألقى ماكجيفني نظرة سريعة على الملاحظات، ثم قال: «يا إلهي! ما فائدة كل هذا؟» صاح بيتر: «جميعهم من الحُمرا!»

قال الرجل الآخر: «أعرف ذلك، ولكن ما فائدة هذه المعلومات؟ يمكننا الذهاب لسماعهم يتحدثون في الاجتماعات كل ليلة. ولدينا قوائم بأعضاء في هذه المنظمات على اختلافها. ولكن ماذا عن قضية جوبر؟»

قال بيتر: «إنهم يتحدثون عنها طوال الوقت، وكانوا يطبعون منشوراتٍ تتحدث عني.» قال ماكجيفني: «نعرف ذلك بالطبع. لقد قصصت عليهم قصة رائعة للغاية؛ لا بد أنك استمتعتَ بسماع نفسك تتحدث. ولكن كيف سيُفيدنا ذلك؟»

صاح بيتر في زعر: «ماذا تريد أن تعرف؟»

قال الآخر: «نريد أن نعرف خططهم السرية، ونريد أن نعرف ماذا يفعلون لمعرفة هويات شهودنا؛ ونريد أن نعرف الخائن بيننا، وهوية الجاسوس في السجن. ألم تكتشف أيًّا من ذلك؟»

قال بيتر: «لا، لا، لم يقل أحدُ شيئًا عن ذلك.»

قال المحقق: «يا إلهي! هل تتوقع منهم أن يقدموا لك المعلومات على صينية من الفضة؟» بدأ يتصفَّح ملاحظات بيتر مجددًا، ثم ألقاها على السرير في نهاية المطاف مشمئزًا. بدأ في استجواب بيتر، وتحول الذعر الذي يشعر به بيتر إلى يأس. لم يكن يعرف أيًّا من المعلومات التي يريدتها ماكجيفني. كان قد أضع أسبوع «التجسس» بأكمله هباءً!

لم يحاول المحقق تجميل الكلمات وهو يقول: «من الواضح أنك غبي، ولكن ليس لدينا غيرك، علينا أن نحقق أفضل النتائج الممكنة باستخدامك. والآن، فكّر في الأمر وحاول أن تستوعبه بالشكل الصحيح؛ نحن نعرف من يكونون هؤلاء الحُمر، ونعرف ما يُبشرون به، ولكن لا يمكننا سجنهم لهذا السبب. ما نريد منك أن تكتشفه هو اسم جاسوسهم، وأسماء شهودهم في قضية جوبر، وما الشهادات التي سيُدلون بها.»
صاح بيتر: «ولكن كيف يمكنني معرفة مثل هذه المعلومات؟»
قال ماكجيفني: «عليك أن تستخدم ذكاءك، ولكني سأُنصحك بشيء، اجعل فتاة تُحبك.»

صاح بيتر في دهشة: «فتاة؟»

قال الرجل الآخر: «بالتأكيد. هذه هي الطريقة التي نستخدمها دائماً. يقول جوفي إن هناك ثلاث حالات لا رابع لها يُفصح الناس فيها عن أسرارهم؛ الأولى عندما يكونون في حالة سُكر، والثانية عندما يكونون في حالة حُب ...»
ثم صمت ماكجيفني، فسأله بيتر الذي أراد أن يتعلم الدرس كاملاً: «والثالثة؟»
أجابته: «الثالثة هي عندما يكونون في حالة سُكر وحُب.» ظل بيتر صامتاً وقد ألجم الانبهار لسانه. كانت عملية التجسس تُفصح عن نفسها بأنها تزداد تعقيداً وتشويقاً كلما مرّ الوقت.

سأله الرجل الآخر: «ألم تجد فتاة تُعجبك في تلك المجموعة؟»

قال بيتر في خجل: «حسناً ... ربما ...»

استطرد المحقق قائلاً: «الأمر بسيط، الحُمر جميعهم عشاقُ أحرار، ألم تكن تعرف ذلك؟»

صاح بيتر: «عشاقُ أحرار! ماذا تعني؟»

ضحك الرجل الآخر وقال: «ألم تكن تعرف ذلك عنهم؟»

جلس بيتر يحدّق في وجهه. كانت جميع النساء اللاتي عرفهن بيتر أو سمع عنهن يأخذن المال مقابل حبهن. إما يأخذنه مباشرة، أو يأخذنه في شكل رحلات بالسيارة، وزهور، وحلوى، وتذاكر لركوب الألعاب الغريبة. ألا تُوجد نساء لا يأخذن المال في أي صورة، ويكون حُبهن مجاناً تماماً؟

أكد المحقق له أن هذه هي حالهم، قائلاً: «إنهم يتفاخرون بذلك، ويعتقدون أنه التصرفُ الصائب.» وبالنسبة إلى بيتر، كان هذا أكثر شيءٍ صادم سمعه عن الحُمر.

في واقع الأمر، عندما أمعن التفكير في الأمر رأى بعض الجوانب الإيجابية؛ كان مريحاً من وجهة نظر الرجال بكل تأكيد، فكان يعني المزيد من النساء في جعبته. إن اختارت نساءً أن يَكُنَّ بذلك الحمق ... ووجد بيتر نفسه يفكر فجأةً في الصغيرة جيني تود. نعم، ستكون حمقاء بهذا القدر، كان الأمر شديد الوضوح. لقد تخلت عن كل ما تملك؛ فلا شك في أنها ستكون «عاشقة حرة!»

غادر بيتر اجتماعه مع ماكجيفني متحمساً لفكرة جديدة ورائعة. لم يكن بإمكان أحد أن يحمله على التخلي عن وظيفته الآن. أصبح التحري هو العمل المناسب له! كان الوقت متأخراً عندما عاد بيتر إلى المنزل، لكنَّ الفتاتين كانتا تجلسان في انتظاره، وبدت عليهما الراحة عندما عاد إلى المنزل آمناً. لاحظ أن القلق كان بادياً على وجه جيني أكثر من أختها، الأمر الذي غرس في نفسه مشاعرَ فجائيةً جديدة. كانت أنفاسُ جيني تتسارع لأنه دخل الغرفة، وأثر هذا على تنفُّسه بالطريقة نفسها. كان يشعر باندفاع نحوها، ورغبةٍ إثاريةٍ تماماً في طمأننتها والتخفيف من قلقها؛ ولكن بفهم غريزي للعبة الجنس لم يكن يعرف من قبلُ أنه يمتلكه، كبح هذا الدافع والتفت بدلاً من ذلك إلى الشقيقة الكبرى وطمأننها أنه لم يتبعه أحد. وقصَّ عليها قصةً معقدة، أعدّها في الطريق، عن أنه عمل لمدة عشرة أيام لدى رجل في قطع الخشب؛ عمل شاق، بلا شك، ثم حاول الرجل التهرُّب من دفع أجره! فاجأه بيتر في منزله تلك الليلة ونجح في أن يحصل منه على خمسة دولارات، ووعدَه بمنحه بضعة دولاراتٍ أخرى كل أسبوع. كان ذلك لتغطية زيارته المستقبلية لماكجيفني.

القسم الثامن عشر

ظل بيتر مستيقظاً قسماً كبيراً من الليل يفكر في مهمته الجديدة ... أن يدخل في علاقة حُب مع فتاة. وأدرك أن حُب الصغيرة جيني كان ينمو في قلبه منذ فترة، ولكنه أراد أن يكون عقلانياً وعملياً؛ أراد أن يستخدم عقله في اختيار فتاة. كان يسعى للحصول على معلومات، أولاً وقبل كل شيء. ومَن يملك أكبر كم من المعلومات ليمنحها له؟ فكَّر في الأنسة نيبينز سكرتيرة أندروز المحامي؛ فلا شك في أنها تعرف أسراراً أكثر من أي شخصٍ آخر؛ ولكن كانت السيدة نيبينز عانساً ترتدي نظارات وحذاءً عريضاً المقدمة، وكان من المُستبعد أن تدخل في علاقة حُب. ثم فكَّر في الأنسة ستانديش، وكانت امرأةً جميلةً شقراءً طويلة القامة تعمل في مكتب تأمين وتنتمي إلى الحزب الاشتراكي. كانت امرأةً «أنيقة»، وكان بيتر سعيداً بالحصول على امرأةٍ مثلها ليتفاخر بها أمام ماكجيفني وبقيّة رجال جوفي، ولكن لم يتمكن بيتر من تخيل نفسه يقنع السيدة ستانديش بالنظر إليه من دون أن يتخلى عن كرامته. وكانت أمامه أيضاً الأنسة يانكوفيتش، واحدة من الحُمر الحقيقيين، والتي تدرّبت في اتحاد العمال الصناعيين العالمي، لكنها كانت يهوديةً ذات عينين سوداوين حادثين تدلان على عصبيتها، وكانتا تُخيفان بيتر. كذلك، كان لديه شك في أنها مهمّمة بماكورميك، ولكن لا يمكنك أن تخمّن ما قد يحدث مع هؤلاء «العشاق الأحرار».

ولكن كان بيتر واثقاً من فتاةٍ واحدة بصورةٍ تامة، وهي الصغيرة جيني؛ لم يكن يعرف إذا كانت جيني تعرف الكثير من الأسرار، ولكن لا شك في أنها قادرة على كشف بعضها من أجله. بمجرد أن يجعلها فتاته، سيُمكنه استخدامها في استجواب الآخرين. ومن ثم، بدأ بيتر يتخيل كيف ستكون علاقة الحب بينه وبين جيني. لم تكن ما قد تُسمّيه «أنيقة»، ولكن كان ثمة شيءٌ ما يتعلق بها ويجعله واثقاً من أنه لا يحتاج إلى الشعور بالخجل منها. سيظهر جمالها مع بعض الملابس الجديدة، وكان سلوكها راقياً؛ لم يظهر

عليها أدنى رهبةٍ من السيدات الثريات اللاتي كن يحضرن إلى المنزل في سياراتهن؛ كما أنها كانت تعرف الكثير بالنسبة إلى فتاة في عمرها ... رغم أن أغلب ما تعرفه لم يكن صحيحًا! لم يضيّع بيتر وقتًا للاستعداد لمهمته الجديدة. في صنف الصباح التالي، نُشِرت التفاصيل المعتادة عن مقاطعة فلاندرز؛ كان آلاف الرجال يُمَرِّقون إربًا كل ساعة سواء ليلاً أو نهارًا، وعلّق مليون رجل من كل جانب في قتالٍ محموم استمر لأسابيع، وقد يستمر لأشهرٍ أخرى. وكانت جيني الصغيرة العاطفية تجلس مكانها دون حراك وعيناها مُغرورقتان بالدموع، تتحدث عما يحدث بينما يأكل بيتر الشوفان والحليب المنزوع الدسم. تحدّث بيتر أيضًا عما يحدث، وعن مدى قسوته، وأنه يجب عليهما أن يُوقفاه، هو وجيني معًا. أصبح يُوافقها الرأي حاليًا؛ فقد أصبح اشتراكياً، ودعاها بلقب «رفيقة»، وأخبرها بأنها حولته إلى الاشتراكية. فأشرفت عيناها فرحًا كما لو أنها فعلت شيئًا لإنهاء الحرب بالفعل.

كانا يجلسان على أريكة، يقرآن الجريدة، وكانا وحدهما في المنزل. رفع بيتر عينيه فجأة عن الموضوع الذي يقرؤه وقال بحرجٍ شديد: «ولكن أيتها الرفيقة جيني ...» فقالت ناظرةً إليه بعينيهما الرماديتين الصريحتين: «نعم.» كان بيتر يشعر بالخجل، وبالخوف إلى حدٍّ ما؛ فقد كان هذا النوع من أعمال المحققين جديدًا بالنسبة إليه. قال: «أيتها الرفيقة جيني، أنا ... أنا ... لا أعرف كيف أقولها بالضبط، لكنني أخشى أنني بدأتُ أقع في الحب.»

سحبت جيني يديها بعيدًا عنه، وسمع بيتر أنفاسها تتلاحق، وهي تصيح قائلة: «سيد جادج!»

تلثم بيتر قائلاً: «أنا ... لا أعرف ... أمل ألا تمانعي.»

صاحت: «أوه، لا تَضْعنا في هذا الموقف!»

قال بيتر: «ولمَ لا، أيتها الرفيقة جيني؟»، ثم أضاف: «لا أعرف إن كنتُ قادرًا على كبح مشاعري.»

«أوه، كنا نقضي وقتًا سعيدًا معًا يا سيد جادج! ظننتُ أننا سنعمل معًا من أجل تحقيق مسعانا!»

«بالطبع، لن يتداخل حُبنا مع مسعانا ...»

«أوه، بل سيفعل، سيفعل؛ إنه يجعل الناس تعساء!»

تهدج صوت بيتر وهو يقول: «إنن ... إنن، أنتِ لا تهتمين لأمرِي على الإطلاق، أيتها الرفيقة جيني؟»

تردّدت للحظة، ثم قالت: «لا أعرف، لم أفكر في الأمر ...»
قفز قلب بيتر في صدره. كانت تلك هي المرة الأولى على الإطلاق التي تتردّد فيها فتاة في الإجابة عن هذا السؤال لبيتر. شجّعته شيءٌ ما ... كما لو كان يعمل في «التجسس» طوال حياته. فمد يده، وأمسك يدها بلطفٍ شديد، وقال هامسًا: «هل تهتمين لأمرى ولو قليلًا؟»
أجابته قائلةً: «أوه، أيها الرفيق جادج»، فقال بيتر: «ادعيني باسم «بيتر». أرجوك، فلتفعلي أرجوك.»

قالت: «أيها الرفيق بيتر.» وتهدّج صوتها قليلًا، ونظر بيتر نحوها، ورأى أنها خفضت عينيها نحو الأرض.

قال معترفًا: «أعرف أنني لستُ جديرًا بحبك. فأنا فقير ونكرة ... ولست وسيما ...»
صاحت قائلة: «أوه، الأمر ليس كذلك! أوه، لا، لا! لماذا تُجبرني على التفكير في مثل هذه الأمور؟ أنت أحد رفاقي!»

كان بيتر يعرف، بالطبع، كيف ستكون ردّة فعلها على ما يُقال، فقال في حزن: «لم يحبّني أحدٌ من قبل، ولن يهتم لأمرك أحد عندما تكون فقيرًا، ولا تملك شيئًا لتقدّمه ...»
فقالت في إصرار: «أقول لك إن الأمر ليس كذلك! أرجوك لا تفكر بهذه الطريقة! أنت بطل، وقدمتِ تضحيات من أجل القضية، وسوف تتقدم أكثر وتصبح قائداً.»
قال بيتر في تواضع: «أمل ذلك، ولكن، ما الأمر، أيتها الرفيقة جيني؟ لماذا لا تهتمين لأمرى؟»

رفعت بصرها نحوه، والتقت عيونهما، وقالت بصوتٍ متهدج: «أنا لستُ بصحةٍ جيدة، أيها الرفيق بيتر. أنا عديمة الفائدة، وسأكون ظالمةٌ إن تزوّجت.»
في مكانٍ ما في أعماق بيتر حيث تربض ذاته الداخلية، شعر وكأنه قد سُكب عليه ماءٌ بارد كالثلج فجأةً. «الزواج!» من قال أي شيء عن الزواج؟ وجاءت ردة فعل بيتر مناسبةً للعبارة الشائعة في مجلات القصص المصوّرة: «هذا مفاجئٌ للغاية!»
ولكن بيتر كان ذكيًا، فلم يكشف عن صدمته، وابتسم للصغيرة جيني، قائلاً: «ليس علينا أن نتزوَّج على الفور. يمكنني أن أنتظر ما دمتُ عرفتُ أنك تهتمين لأمرى؛ وذات يوم، عندما تتحسّن صحتك ...»

هزّت رأسها في حزن، وقالت: «أخشى أن صحتي لن تتحسّن أبدًا. هذا بالإضافة إلى أن كلينا لا يملك أي أموال، أيها الرفيق بيتر.»
فهم بيتر الأمر، هذا ما في الأمر! المال، دائمًا المال! هذا «العشق الحر» ليس سوى حلم.

قال بيتر، تمامًا مثلما قد يفعل أي متقدم للخطبة متواضع وتقليدي: «يمكنني أن أحصل على وظيفة.»

عارضته الفتاة قائلة: «لكنك لن تتمكن من كسب ما يكفي لنا نحن الاثنين،» ثم قفزت فجأة، وقالت: «أوه، أيها الرفيق بيتر، لا يجدر بنا أن يقع أحدنا في حب الآخر! لا يجدر بنا أن نجعل حياتنا تعيسة، دعنا نعمل من أجل تحقيق مسعانا! عِدني أنك ستفعل ذلك!»

وعدها بيتر، ولكن لم يكن لديه أي نية للوفاء بهذا الوعد بالطبع، فهو لم يكن محققًا فحسب، بل كان رجلًا أيضًا؛ وكان يريد الرفيقة جيني بكلتا صفتيه. كان لديه بقية اليوم، وأثناء مهمة كتابة العناوين على أطرف الخطابات التي أداها معها، كان يرمقها من وقت لآخر بنظرات حب؛ وأصبحت جيني تعرف الآن ماذا تعني هذه النظرات، وكانت حُمرة خفيفة تتسلل على خديها وتنزل إلى عنقها ورقبتها. كانت تشع بجمالٍ أخاذٍ للغاية وهي تقع في الحب، ووجد بيتر أن مهمته الجديدة هي الأكثر سعادةً في حياته. كان يراقب بعناية، ويلاحظ العلامات، وكان واثقًا من أنه لم يرتكب أيَّ أخطاء، وقبل أن تعود سادي عند وقت العشاء كان يلفُّ ذراعيه حول الرفيقة جيني يكيل القبلات على عنقها الأبيض الجميل، وكانت الرفيقة جيني تبكي بهدوء، وأصبحت توسُّلتها له أن يتوقف ضعيفة وغير مقنعة.

القسم التاسع عشر

كانت ثمّة مسألة تتعلق بسادي يجب حلها. كان ثمّة تعبيرٌ قاسٍ يظهر أحياناً على شفّتي سادي، جعل بيتر واثقاً من أن الرفيقة سادي لا تملك أي تعاطف مع «العشق الحر»، بل تعاطفاً قليلاً للغاية مع أي حب غير حبها لجيني. فقد ظلت ترعى «أختها الصغيرة» وتعتني بها باعتبارها أمّاً لسنواتٍ عدة، وكانت تُخرِج الطعام من فمها لتعطي جيني أياه ... وفي المقابل تمنح جيني حبها لأي مشاغِبٍ عابر يأتي إلى منزلها ويبقى حتى يحين موعد الطعام. لم يكن بيتر يريد أن تعرف سادي بما يحدث في غيابها، ولكنه كان يخشى أن يقترح على جيني أنها يجب أن تخدع أختها.

تعامل بيتر مع الأمر بلباقة. فعندما بدأت جيني تتوسل إليه مجدداً، قائلة: «لا يجدر بنا أن نفعل ذلك، أيها الرفيق بيتر!» وافقها بيتر وقال إنه ربما يجب ألا يفعل ذلك، ولن يفعلاه مجدداً. ومن ثم، رتبت جيني شعرها، وعدلت سترتها، وأدرك عشيقها أنها لن تخبر سادي.

وفي اليوم التالي كانا يتبادلان القبل مجدداً ويتفقان مجدداً على أنه لا يجدر بهما أن يفعل ذلك؛ وعليه، لم تخبر جيني سادي مجدداً. ولم تمر فترةٌ طويلة قبل أن يُلمح لها بيتر همساً أن حبهما هو شأنهما الخاص، وأنه لا يجدر بهما أن يخبرا أي شخص في الوقت الحالي، وأنهما سيحتفظان بسرهما اللذيذ لنفسيهما، ولن يضرّ ذلك أحداً. كانت جيني قد قرأت في مكانٍ ما عن شاعرة تُدعى السيدة براونينج التي ظلت مريضة طوال حياتها، واستعادت صحتها بالكامل بفضل حبٍّ عظيم ورائع. وها قد جاءها هذا الحب الآن، ولكن قد لا تتفهّم سادي الأمر؛ فقد تظن سادي أن أحدهما لا يعرف الآخر بما يكفي، وأنهما يجب أن ينتظرا. ولكنهما كانا يعرفان، بالطبع، أن أحدهما يعرف الآخر جيداً؛ لذا لم يكن

ثمة سببٌ للشك أو الخوف. تمكّن بيتر ببراعة من غرس هذه الأفكار في ذهن جيني كما لو كانت أفكارها الخاصة.

وظل طوال تلك الفترة يُعبّر لها عن حبه الشديد؛ طوال اليوم، بينما كان يساعدها في كتابة العناوين على أطرف الخطابات وإرسال النشرات الدعائية للجنة الدفاع عن جوهر. كان يعمل بجدٍ حقيقي؛ فهو لم يكن يمانع العمل عندما تكون جيني بجواره على الطاولة، فكان يمسك بيدها من وقتٍ لآخر أو يضمها بين ذراعيه ويهمس لها بكلماتٍ مفعمة بالحب. لقد تملّكته تلك المتع والنشوات اللذيذة، وكانت آماله ترتفع مثل المد العالي ... ولكنها، للأسف، انحسرت مرةً أخرى! فقد كان يصل إلى هذا الحد في كل مرة، ولكن كان الأمر يبدو وكأنه قد اصطدم بجدارٍ حجري. التقدّم أكثر من ذلك ممنوع!

أدرك بيتر أن حديث ماكجيفني عن «العشق الحر» كان خطأً كبيراً. فقد كانت الصغيرة جيني مثل جميع النساء الأخريات — لم يكن حبها «حرّاً». كانت الصغيرة جيني تريد زوجاً، وكلما قبّلتها، يبدأ حديثها عن الزواج على الفور، ولم تكن لتجرؤ على التلميح إلى أي شيءٍ آخر لأنك تدرك أن ذلك سيُفسد كل شيء. لذا، استعان بيتر بأساليبٍ أقدم من تعاليم أيٍّ من جماعات «الحُمر». لاحق بيتر الصغيرة جيني، ولكن ليس بأسلوب «العشاق الأحرار»، بل بأسلوب رجلٍ وحيدٍ في منزلٍ مع فتاةٍ في السابعة عشرة من عمرها ويرغب في إغوائها. أقسم أنه يُحبها حباً جماً وأبدياً. وأقسم أنه سيلتحق بوظيفة ويعتني بها. ثم سمح لها بأن تكتشف أنه يتعدّب، ولا يستطيع العيش من دونها. لقد استغل تعاطفها، واستغل براءتها الطفولية، واستغل تلك العاطفة الضعيفة المثيرة للشفقة التي جعلتها تؤمن بمناهضة العنف، والإيثار، والاشتراكية وجميع «المصطلحات» الأخرى المختلطة في ذهنها.

وهكذا، في غضون بضعة أسابيع، نجح بيتر في هدفه وتمكن من اقتحام قلب الصغيرة جيني بالقوة. وبعد ذلك، يا للبهجة التي شعر بها! وقرّر بيتر، بعدما حصل على فتاته الأولى، أن وظيفة المحقق هي الوظيفة المناسبة له! أدرك بيتر أنه أصبح محققاً حقيقياً الآن يستخدم أساليب خفية حقيقية، وأنه أصبح على المسار الصحيح المؤدي إلى الأسرار الحقيقية لقضية جوهر!

لم يُضِع بيتر لحظةً واحدة ليحصل على تلك الأسرار. كانت جيني في حالة حب؛ كانت جيني، كما يمكنك أن تصفها، «ثملة بالحب»، ومن ثمّ استوفت كلا الشرطين اللذين وضعهما جوفي. لذا، أخبرته جيني بالحقيقة! كانت جيني جالسة على ركة بيتر محيطة

إياه بذراعيها، وكانت تتحدث عن طفولتها، تلك الأيام السعيدة التي سبقت مقتل والدتها
ووالدها في المصنع حيث كانا يعملان، وذكرت جيني الصغيرة اسم شاب، إيببتس.

قال بيتر: «إيببتس؟» فقد كان اسمًا غريبًا، ولكنه بدا مألوفًا.

قالت جيني: «إنه أحد أقربائنا.»

سألها بيتر، محاولاً التذكُّر: «هل التقيتُ به من قبل؟»

«لا، لم يأتِ إلى هذا المنزل من قبل.»

كرَّر الاسم، وهو لا يزال يحاول التذكر: «إيببتس؟»، ثم تذكَّر فجأة. وقال: «هل اسمه

الأول جاك؟»

لم تُجبه جيني للحظات. فنظر نحوها، والتقت عيناها، ورأى أنها خائفة، ثم همست
قائلة: «بيتر! لم يكن من المفترض أن أخبرك بذلك! لم يكن من المفترض أن أخبر أحدًا
بذلك!»

كان هناك شيءٌ داخل بيتر يصيح طربًا. ولكي يُخفي مشاعره، كان عليه أن يدفنَ
وجهه في عنقها الأبيض الناعم. وهمس لها قائلاً: «حبيبتي! عزيزتي!»

فصاحت قائلة: «أوه، بيتر! أنت تعرف — أليس كذلك؟»

ضحك وهو يقول: «بالطبع أعرف! لكنني لن أخبر أحدًا. ثقي بي.»

قالت جيني: «أوه، لكن السيد أندروز كان حازمًا جدًّا! جعلني وسادي نُقسِم على أننا

لن نتفوه بكلمةٍ واحدة عن هذا الأمر لأحد.»

قال بيتر: «حسنًا، إنك لم تخبريني بشيء، لقد اكتشفته بالصدفة. لا تقولي لأحد
إنني عرفت، ولن يعرف أحد بذلك. وإذا ما اكتشفوا أنني أعرف، فلن يُلقوا باللوم عليك،
وسيدركون أنني أعرف جاك إيببتس؛ فقد قضيتُ فترةً طويلةً في السجن.»

ومن ثم، نَسيت جيني كل شيء عن الموضوع، وواصل بيتر تقبيلها ليجعلها تشعُر
بالسعادة، وليُخفي سعادته بالنصر الذي حققه. لقد أنجز المهمة التي أرسله جوفي
لإنجازها! لقد حل اللغز الأول الكبير في قضية جوبر! كان الجاسوس في سجن المدينة
الأمريكية الذي ينقل الأخبار إلى لجنة الدفاع، هو جاك إيببتس، أحد حراس السجن، وأحد
أقرباء الأختين تود!

القسم العشرون

كان من حسن الطالع أن موعد اجتماع بيتر مع ماكجيفني كان في ذلك اليوم نفسه. فلم يكن يستطيع أن يحتفظ بهذا السر الرائع لنفسه طوال الليل. قال للفتاتين بعض المبررات لتغيُّبه، ثم تسلل عبر الفناء الخلفي كما يفعل دائماً، وتوجه إلى مبنى بلدية المدينة الأمريكية. وأثناء سيره، كان عقل بيتر يعمل بنشاط. كان قد قبض فعلياً على الدرجة الأولى من سلم الرخاء الآن، وعليه ألا يفشل في إحكام قبضته.

بمجرد أن نظر ماكجيفني في وجه بيتر، أدرك أن شيئاً قد حدث، فسأله: «ما الأمر؟»
صاح بيتر: «لقد حصلتُ عليه!»

«علام حصلت؟»

«اسم الجاسوس في السجن.»

صاح الآخر: «يا إلهي! لا تمازحني!»

قال بيتر: «لا مجال للشك.»

«من يكون؟»

ضم بيتر يديه معاً واستجمع تصميمه، وقال: «أولاً، أنا وأنت يجب أن نتوصل إلى اتفاق. قال السيد جوفي إنني سأتقاضى أجرًا، لكنه لم يقل كم، أو متى.»

قال ماكجيفني: «اللعنة! إذا كنت حصلت على اسم ذلك الجاسوس، فلا تقلق بشأن مكافأتك.»

قال بيتر: «حسنًا، جيد، لكنني أود أن أعرف علامَ سأحصل وكيف سأحصل عليه.»
سأله الرجل ذو الوجه الشبيه بالجرذ: «كم تريد؟» ثم كالجُرذ، تراجع إلى أحد أركان الغرفة، وعيناه السوداوان الحادّتان تراقبان عدوّه، وكرّر سؤاله: «كم تريد؟»

حاول بيتر قَدْر إمكانه أن يستعد لهذه المناسبة. ألم يكن يعمل لأكبر وأغنى مؤسّسة في المدينة الأمريكية، تراكشن تراست؟ المؤسّسة التي تبلغ قيمتها عشرات، بل مئات الملايين من الدولارات — لم يكن يدري كم يطلب، ولكنه كان يعرف أنهم قادرون على دفع المال مقابل سرّه، فقال: «أعتقد أن المعلومة تساوي مائتي دولار.»

قال ماكجيفني: «بالتأكيد، لا بأس. سندفع لك ذلك المبلغ.»

وعلى الفور، غاص قلب بيتر في صدره. يا له من غبي! لماذا لم يتحلّ بالمزيد من الشجاعة ويطلب خمسمائة دولار؟ ربما كان سيطلب ألف دولار ويؤمّن استقلالته مدى الحياة!

قال ماكجيفني: «حسنًا، من هو الجاسوس؟»

بذل بيتر جهدًا مضمّنًا، واستجمع المزيد من الشجاعة، وقال: «أولًا، يجب أن أعرف، متى سأحصل على هذا المال؟»

قال ماكجيفني: «يا إلهي الرحيم! أعطنا المعلومات، وستحصل على مالك. هل ترانا بخلاء لهذه الدرجة؟»

قال بيتر: «حسنًا، لا بأس. لكنك تعلم، لم يُعطني السيد جوفي أي سبب يجعلني أعتقد أنه يحبني. ما زلتُ لا أستطيع استخدام هذا المعصم كما كنتُ أفعل في السابق.»
قال ماكجيفني: «كان يُحاول استخراج بعض المعلومات منك. كان يظن أنك أحد هؤلاء المُفجّرين؛ كيف يمكنك لومه؟ أعطني اسم هذا الجاسوس، وسأتأكد من حصولك على أموالك.»

لكن بيتر لم يستسلم. كان يخاف من ماكجيفني ذي وجه الجرّد، وكان قلبه ينبض بسرعة، ولكنه تمسّك بموقفه، وقال معانداً: «أظن أنه يجب أن أرى هذا المال.»

سأله المحقق: «أخبرني، هل تعتقد أنني أحمق؟ هل تعتقد أنني سأعطيك مائتي دولار، ثم تعطيني اسمًا مزيّفًا وتهرب؟»

صاح بيتر: «لن أفعل ذلك!»

«كيف أعرف أنك لن تفعل؟»

«أريد أن أستمّر في العمل لصالحكم.»

«بالتأكيد، ونحن نريدك أن تستمر في العمل لصالحنا. هذا ليس السر الأخير الذي سنحصل عليه منك، وسترى بنفسك أننا لا نتلاعب برجالنا؛ هل كنا سنُحقق أي شيء لو كنا نتعامل معهم خلاف ذلك؟ لقد خُصّص مليون دولار لشنق ذلك الحشد المناصر لجوبر، وإذا أديت مهمتك، فستحصل على حصتك، وستحصل عليها في الموعد المحدّد.»

كان يتحدث عن قناعة، واقتنع بيتر إلى حدٍّ ما. قضى بيتر معظم حياته في مشاهدة الناس أحدهم يتفاوض مع الآخر — في مشاهدة الأوغاد وأحدهم يحاول خداع الآخر — وعندما يتعلق الأمر بالحصول على بعض المال، كان بيتر أشبه بكلب بولدوج أنشب أسنانه بإحكام في أنف كلبٍ آخر؛ فلم يكن يهتم بمشاعر الكلب الآخر، ولا يهتم بما إذا كان الكلب الآخر معجباً به أم لا.

قال بيتر: «في الموعد المحدد؟ ماذا يعني «الموعد المحدد»؟»

قال ماكجيفني في اشمئزاز: «يا إلهي!»

قال بيتر: «لكني أريد أن أعرف، هل تعني عندما أخبرك بالاسم، أم تعني بعد أن

تذهب وتكتشف إذا ما كان هو الجاسوس حقاً أم لا؟»

كان أحدهما يناور الآخر، كلبا البولودوج العنيفان هذان، وكان غضبهما يزداد أكثر فأكثر. ولكن كان بيتر هو مَنْ تمكَّن من إنشابه أسنانه، وثبَّتْها جيِّداً. بمجرد أن لمَّح ماكجيفني بوضوح أن شركة تراكشن تراسست امتلكت القدرة الكافية لوضع بيتر في «الحفرة» في مناسبتين وتزكّه هناك، وربما تملك القدرة الكافية لتكرار ذلك للمرة الثالثة.

ارتجف قلب بيتر رعباً، ولكن على الرغم من ذلك، ظل مُنْشِباً أسنانه في أنف ماكجيفني.

أخيراً قال الرجل ذو وجه الجُرْد: «حسناً.» قالها بنبرة من الازدراء المُتَعَب، ولكنها لم

تُصَب بيتر بالقلق على الإطلاق. «حسناً، سأخاطر بتصديقك.» ومد يده إلى جيبه وسحب

لفة من النقود — كانت نقوداً من فئة العشرين دولاراً، وعدُّ عشرةً منها. رأى بيتر أنه لا

يزال الكثير من النقود متبقياً في اللفة، وأدرك أنه لم يطلب مبلغاً أكثر مما كان ماكجيفني

مستعداً لأن يعطيه؛ لذا، شعر بالحزن يملأ قلبه. وفي الوقت نفسه كان قلبه يقفز فرحاً —

ما أغرب القلب البشري!

القسم الحادي والعشرون

وضع ماكجيفني المال على السرير، وقال: «ها هو المال، وإذا أخبرتني باسم الجاسوس، يمكنك أخذه. ولكن من الأفضل لك أن تسمع نصيحتي ولا تنفقه؛ لأنه إذا تبين أنه ليس الجاسوس، فأقسم لك، أن إد جوفي سيقتلع ذراعك من جسمك!»

لم تقلق هذه الكلمات بيتر، وقال: «أنا واثق من أنه الجاسوس.»

«حسنًا، من يكون؟»

«إنه جاك إبييتس.»

صاح ماكجيفني غير مصدق: «ماذا تقول!»

«جاك إبييتس، أحد حراس السجن الليليين.»

قال الآخر: «أعرفه، ولكن ما الذي وضع تلك الفكرة في رأسك؟»

«إنه أحد أقرباء الأختين تود.»

«من هما الأختان تود؟»

قال بيتر: «جيني تود فتاتي.»

كرر الآخر الكلمة الأخيرة قائلاً: «فتاتك!» ثم نظر إلى بيتر، وانفجرت أساريره، وقال:

«لقد حصلت لنفسك على فتاة في خلال أسبوعين؟ لم أكن أعرف أنك تستطيع ذلك!»

كانت مديحًا أقرب إلى التشكُّك، ولكن ابتسامة بيتر لم تكن أقل انفراجًا، وأظهرت كل

أسنانه المعوجَّة، وقال: «لقد حصلتُ عليها بالفعل، وهي من أخبرتني بهذا السر في البداية

— إبييتس أحد أقربائها. وبعد ذلك شعرت بالذعر لأن أندروز، المحامي، جعلها وأختها

تُقَسِّمان أنهما لن تذكرًا اسمه لأي إنسان. لذا، كما ترى، فهم يستخدمونه كجاسوس؛ لا

شك في ذلك على الإطلاق.»

قال ماكجيفني، وحمل صوته دهشة حقيقية: «يا إلهي! من كان يظن أن هذا ممكن؟ عجبًا، إن إيببتس أكثر رجلٍ محترم تحدّثتُ إليه في حياتي؛ وهو في الحقيقة أحد أعضاء جماعة الحُمُر، وخائن أيضًا! أتعلم، هذا ما يجعل محاولة القضاء على هؤلاء الحُمُر شديدة الصعوبة؛ إنك لن تتمكّن أبدًا من توقُّع مَنْ سيُجنِّدون، لن تتمكّن أبدًا من تحديد مَنْ يمكنك أن تثق به. كيف يتمكّنون من فعل ذلك في اعتقادك؟»

قال بيتر: «لا أعرف، هناك غبيٌّ يُولد كل دقيقة، كما تعلم!»

قال الرجل ذو وجه الجُرَد وهو يشاهد بيتر بينما يأخذ لفة الأوراق النقدية من على السرير ويُخبئها في جيبه السري: «حسنًا، على أي حال، تأكّدتُ من أنك لست واحدًا منهم.»

القسم الثاني والعشرون

نَبَّه الرجل ذو وجه الجُرْدَ بيتر إلى أنه يجب أن يكون حذرًا فيما يتعلق بإنفاق هذا المال. لن يكون ثَمَّة شيءٌ أكثر تأكيدًا للشكوك التي تدور حوله من أن يُقال عنه إنه «ميسور الحال». يجب أن يكون قادرًا على إثبات كيفية حصوله على ما لديه من مال بنزاهة. ووافقَه بيتر على ذلك، وقال إنه سيُخفي المال في مكانٍ آمن حتى ينتهي من مهمته.

ثم بدأ بدوره يَنبُه ماكجيفني. إذا طردوا إيبيتس من وظيفته، فسيتسبَّب ذلك بالتأكيد في القيل والقال، وقد يثير الشكوك حول بيتر. أجابه ماكجيفني بابتسامة بأنه ليس غرًّا. «سُرِّقُون» جاك إيبيتس، ويمنحونه وظيفة لا يمكنه معها الوصول إلى أي أخبار تتعلق بقضية جوبر؛ ثم، بعد فترةٍ قصيرة، سيتصيِّدون له بعض الأخطاء، أو يُوقعونه في بعض المشاكل، ويطردونه.

خلال هذا الاجتماع، والاجتماعات اللاحقة، تحدَّث بيتر والرجل ذو وجه الجُرْدَ عن جميع جوانب قضية جوبر، التي كانت تزداد تعقيدًا وانتشارًا كونها قضية رأيٍ عام. كان عدد المتورطين الجدد فيها يزداد باستمرار، وكانت مشكلاتٌ جديدة تظهر باستمرار؛ كانت القضية أكثر إثارةً من مباراة شطرنج. ولم يكذب ماكجيفني عندما قال إن الشركات الكبرى في المدينة الأمريكية قد خصَّصت مليون دولار لشنق جوبر ورفاقه. عُرض في البداية سبعة عشر ألف دولار مكافآت مقابل المعلومات، وبطبيعة الحال، كان كثيرون قادرين على الحصول على هذه المكافآت. ولكن كانت المشكلة تكمن في أن الأشخاص الذين يريدون هذا المال عادةً لا تكون سجلاتهم الإجرامية جيدةً في نظر هيئة المحلِّفين؛ كان يتضح دائمًا تقريبًا أن النساء عاهرات، وأن الرجال إما مدانون سابقون، وإما مزورون، وإما مقامرّون، أو ما شابه. وفي بعض الأحيان، كانوا لا يكشفون عن سجلاتهم الإجرامية الماضية حتى

يكشف عنها الجانب الآخر، وبناءً على ذلك، يصبح من الضروري تزوير سجلات المحكمة، والاستعانة بالمعارف في جميع أنحاء البلاد.

كان هناك عشرات الشهود على هذه الشاكلة في قضية جوبر. وقد أدلوا بشهاداتهم أمام هيئة المحلفين الكبرى التي كشفت عن الكثير من العيوب والتناقضات فيها؛ الأمر الذي تسبّب في المزيد من الأعباء والمشاكل لجوفي ومساعديه. ومن سوء الطالع أنه تصادف أن جيم جوبر وزوجته كانا يشاهدان الموكب من فوق سطح أحد المباني يقع على بعد بضعة أميال من الموكب في الوقت نفسه الذي اتُّهما فيه بأنهما وضعا حقيبةً تحتوي على القنبلة في الموكب. كان شخصٌ ما قد التقط من فوق هذا السطح صورةً للموكب ظهر فيها جوبر وزوجته يشاهدان الموكب من فوق السطح، وكذلك كانت هناك ساعةٌ كبيرة أمام متجر للمجوهرات تشير بوضوح إلى الوقت بدقة. لحسن الحظ، حصل الادعاء على هذه الصورة أولاً؛ ولكن علم الدفاع بوجودها وكان يحاول رؤيتها. لم يجرؤ الادعاء على تدميرها؛ لأنه يمكن إثبات وجودها، لكنهم صوّروا الصورة فوتوغرافياً، وأعادوا تصويرها حتى أصبح وجه الساعة معتمًا ولا يمكن رؤية الوقت الذي تشير إليه. وكان الدفاع يحاول الحصول على دليل على أن هذه الخدعة قد حدثت.

ثم كان هناك جميع شهود الدفاع. فمن سوء الطالع أيضاً أن نصف دُزينة من أناسٍ مختلفين كانوا قد رأوا القنبلة تُلقى من فوق سطح متجر جوجنهايم؛ الأمر الذي تناقض تماماً مع نظرية الحقيبة التي بنى عليها الادعاء قضيته. لذا، أصبح من الضروري «الوصول» إلى هؤلاء الشهود الكُثُر. ربما كان لأحدهم رهنٌ عقاري على منزله يمكن شراؤه وسحب ملكية المنزل منه، وربما كان لآخر زوجة ترغب في الطلاق منه ويمكن إقناعها بالمساعدة في إيقاعه في المتاعب. أو ربما كان على علاقة بزوجة رجلٍ آخر، أو ربما يمكن إرسال امرأة لتوريطه في علاقة معها.

علاوةً على ما سبق، تبين أنه بعد حدوث الانفجار بفترةٍ قصيرة للغاية، استخدم بعض من رجال جوفي مطارِقَ كبيرة في تكسير الرصيف، وكذلك جدار المبنى الذي حدث الانفجار عنده. كان هذا بمثابة إعداد مسرح جريمةٍ يتناسب مع نظرية القنبلة الموضوعة في الحقيبة، كما أنهم التقطوا عدداً من الصور لما وقع من أضرار. ولكن تبين أن شخصاً ما التقط صورةً للمكان قبل إحداث هذه الأضرار الإضافية، وأن هذه الصورة وصلت للدفاع. من التقط هذه الصورة، وكيف يمكن «تصحيح» موقفه؟ إن تمكّن بيتر من تقديم يد المساعدة في مثل هذه الأمور، فسيخرج من قضية «جوبر» رجلاً ثرياً.

كان بيتر ينصرف من هذه الاجتماعات مع ماكجيفني وذهنه مليء بالتخيُّلات وكان يركِّز كل قدراته على جمع المعلومات. كان هو وجيني وسادي يتحدثون عن القضية باستمرار، وكانت جيني وسادي ترويان طواعيةً كل ما سمعته خارج المنزل. وكان آخرون يأتون؛ الشاب ماكورميك، وميريام يانكوفيتش، والسيدة نيبينز، سكرتيرة أندروز، ويروون ما عرفوه وما يشتهون به، وما كان الدفاع يأمل في اكتشافه. تمكَّنت هيئة الدفاع من الوصول إلى أحد أقرباء الرجل الذي التقط الصورة على السطح، وكانوا يُحاولون معه ليقنع صاحب الصورة بقول الحقيقة. في اليوم التالي، أتى دونالد جوردون، مطأطئ الرأس من فرط إحباطه؛ لأنه كان قد تبَيَّن أن أحد أكثر شهود الدفاع قيمة، بائع البقالة، اعترف ذات مرة ببيع الجبن الفاسد! ومن ثمَّ، كان بيتر يدون ملاحظاته كل مساء قبل أن يخلد إلى النوم، ويخيطها داخل سترته، وكان يذهب للقاء ماكجيفني مرةً واحدة كل أسبوع، وكان الاثنان يتجادلان ويتفاوضان على قيمة الأخبار التي ينقلها بيتر.

القسم الثالث والعشرون

أصبحت اللعبة ممتعة، ولم يكن بيتر ليمل منها مطلقاً لولا أنه كان مضطراً للبقاء طوال اليوم في المنزل مع الصغيرة جيني. سار شهر العسل بصورة جيدة لبضعة أسابيع، ولكن لا يمكن لأي رجل أن يتحمل مثل هذا الوضع إلى الأبد. بدا أن الصغيرة جيني لم تكن تملُّ القبلات أبداً، ولم تبدُ مكتفية أبداً من حب بيتر العميق لها. يملُّ الرجل من ممارسة الحب بعد فترة، ولكن يبدو أن المرأة لا تعرف كيف تُسقط الموضوع، فكانت دائماً ما تتذكَّر ما مضى وتستشرف المستقبل، وتحسب العواقب والمسئوليات، واجبها وسمعتها وأموراً من هذا القبيل. الأمر الذي كان ممللاً بالطبع.

لم تكن جيني سعيدة بخداع سادي؛ وأرادت أن تُخبر سادي، ولكن كان الاستمرار في خداع الشخص أسهل من الاعتراف له بأنه قد خُدِع. لم يكن بيتر يفهم السبب وراء ضرورة إخبار سادي بالأمر من الأساس، ولم يكن يدري لِمَ لا تبقى الأمور على ما هي عليه، ولمَ لا يمكنه وحبيبته أن يستمتعا من وقتٍ لآخر بدلاً من أن يظلا دائماً في حالة حزن، يعانيان باستمرار من الحرب الطبقيّة، ناهيك عن الحرب العالمية، واحتمالات تورط أمريكا فيها.

لم يكن هذا يعني أن بيتر قاسٍ وعديم الإحساس. لا؛ فعندما كان بيتر يحتضن الصغيرة جيني المرتجفة بين ذراعيه، كان يتأثر بشدة؛ كان لديه شعورٌ حقيقي بأنها روحٌ طيبة ورقيقة. كم كان سيسعد بمساعدتها؛ ولكن ماذا يمكنه أن يفعل حيال ذلك؟ كان الوضع يُجبره على عدم مجادلتها، لم يكن قادراً على محاولة تغييرها؛ كان عليه أن يستسلم لجميع أهوائها المجنونة ويتظاهر بالموافقة عليها. كان ضعف الصغيرة جيني سيودي بها للهلاك لا محالة، وما الفائدة التي ستعود عليه من الهلاك معها؟

أدرك بيتر بوضوح أن ثمة نوعين من الناس في العالم، المفترسون، والفرائس؛ وكان ينوي أن يصحح ضمن الفئة الأولى. كان بيتر قد توصل، خلال أعوام عمره العشرين، إلى فهم واضح للأشياء المسماة بـ «الأفكار» و«الأسباب» و«الأديان». كانت تلك الأشياء طعمًا لصيد الأغبياء، وكانت ثمة منافسة مستمرة بين الأغبياء، الذين بالطبع لا يريدون أن يُقبض عليهم، وأصحاب الذكاء الأعلى الذين يريدون القبض عليهم؛ لذا، يواصلون ابتكار أنواع جديدة أكثر قبولاً وجاذبية من الطعوم. كان بيتر قد سمع ما يكفي من الهراء الذي يتحدث به «الرفاق» ليدرك أن طعومهم كانت فعالة للغاية، وكانت الصغيرة جيني عالقة تمامًا في صنارتهم، وماذا يمكن لبيتر أن يفعل حيال ذلك؟

ولكن كانت جيني حب بيتر الأول، وعندما شعر بالتأثر الشديد، فهم حقيقة قول جوفي إن الرجل العاشق يميل إلى قول الحقيقة. كان بيتر يريد أن يقول لها: «توقّفي عن كل هذا الوعظ، وامنحي نفسك فترة راحة! دعينا نستمتع بالحياة قليلاً». نعم، كاد يُصرّح بكل ذلك على الرغم من علمه بأن ذلك سيُدمر كل ما سعى لتحقيقه. بمجرد أن ظهرت الصغيرة جيني مرتديةً فستانًا حريريًا جديدًا أحضرته لها إحدى السيدات الثريات التي ضاق صدرها من مظهرها البائس. كان الفستان مصنوعًا من الحرير الرمادي الناعم؛ حرير رخيص، ولكنه جديد ونظيف، ولم تضمّ ذراعا بيتر شيئًا يمثل هذا الجمال من قبل. كان لونه يتناسب مع عيني جيني الرماديتين، وكانت نضارتها تمنح بشرتها لونًا ورديًا؛ أم أن هذا ما رآه بيتر لأنه كان معجبًا بها، وازداد حبها في قلبه، فاندفع الدم إلى وجنتيها؟ انتابت بيتر رغبةٌ مُلحةٌ في أخذها خارج المنزل لُيرَي الجميع إياها، فضغط وجهه بين ثنايا الفستان الناعم وهمس: «فلتعلمي يا فتاة أننا أنا وأنتِ سنبتعد عن هذه الحياة العصبية ذات يوم!»

شعر بجسد الصغيرة جيني يتصلب، ثم ابتعدت عنه، وكان عليه أن يتصرف بسرعة لإصلاح الخطأ الذي وقع فيه، فقال متوسلاً: «أريد لصحتك أن تتحسن. إنك تعاملين الجميع جيدًا؛ تعاملين الجميع جيدًا إلا نفسك!»

شيء ما في نبرة صوته جعلها تخاف أكثر مما أخافتها الكلمات التي قالها، فصاحت قائلة: «بيتر! ما أهميتي، أو أهمية أي شخصٍ آخر بمفرده، في مقابل تمزيق أجساد ملايين الشباب بطلقات الرصاص، وفي مقابل ملايين النساء والأطفال الذين يموتون جوعًا!»
ها هما ذا يخوضان الحرب مجددًا؛ كان على بيتر أن يتحمّل عبئها، أن يكون بطلًا، وشهيدًا، و«أحمر». في عصر ذلك اليوم نفسه، شاء القدر أن يزورهم ثلاثة من «أعضاء

اتحاد العمال الصناعيين العالمي» العاطلين عن العمل، يا إلهي! كم سئم بيتر من أولئك المحرّضين الجائلين؛ كانوا «بغضاء» لا يُطاقون! كان بيتر يريد أن يقول: «توقفوا عن ذلك! إن ما تُطْلِقون عليه «قضيتكم» ليس إلا خطة أعددتموها لتعملوا بالكلمات بدلاً من المجرفة والمعول.» بدأ هذا شجارًا خياليًا في ذهن بيتر. وفي ذهنه سمع أحد الرجال يسأله: «ما مقدار العمل بالمعول والمجرفة الذي أدبته أنت؟» وسمع الآخر يقول: «بيدو لي أنك تتعثر في الوظائف السهلة أينما تذهب!» لم تُقلل حقيقة أن ما قيل كان صحيحًا من انزعاج بيتر، ولم تجعله أكثر قدرةً على مقابلة الرفيق سميث، والأخ جونز، والعامل براون الذي خرج للتو من السجن، والاستماع إلى قصصهم الموحية بالحظ العاثر، ومشاهدتهم يلتهمون الطعام الذي يشتهي بيتر، والأمر الأكثر مرارةً على الإطلاق كان تركهم يعتقدون أنهم يخدعونه بثرثرتهم!

جاء على بيتر وقتٌ لم يعد فيه قادرًا على تحمل المزيد. كان محبوسًا في المنزل طوال اليوم، وبدأ يهتاج ككلبٍ مقيدٍ. إذا لم يتمكّن من الخروج إلى العالم مجددًا، فسوف يكشف عن نفسه بالتأكيد. برّر موقفه بأن الأطباء حذروه من أن صحته لن تتحمل الحياة الحبيسة بين جدران، ويجب أن يتنشّق بعض الهواء الطلق. فخرج بمفرده، وبعد ذلك وجد أن الأمور أسهل بكثير. بوسعه أن ينفق قليلًا من أمواله، وبوسعه أن يعثر لنفسه على ركن هادئ في أحد المطاعم ويطلب شريحة من لحم البقر، ويأكل منها قدر ما أراد، دون القلق من أن عيون أيٍّ من «الرفاق» ترمقه بلوم. كان بيتر قد عاش في سجن، وفي دارٍ للأيتام، وفي بيت شوميكر سميثرز، ولكنه لم يلقَ معاملةً أكثر بؤسًا من التي تلقّاها في منزل الأختين تود اللتين كانتا تشاركان كل ما تملكان تقريبًا مع هيئة الدفاع عن جوبر، ومع جريدة «كلاريون»، الجريدة الاشتراكية في المدينة الأمريكية.

القسم الرابع والعشرون

ذهب بيتر لزيارة أندروز المحامي، وطلب منه وظيفة؛ قال إنه يريد أن يشارك في القضية، فعُيِّن في مكاتب لجنة الدفاع؛ حيث كان يسمع الناس يتحدثون عن القضية طوال اليوم، وحيث يمكنه الحصول على قدرٍ لا نهائي من المعلومات القيِّمة. جعل نفسه محبوبًا وكوَّن صداقات، ولم يمض وقتٌ طويل حتى أصبح صديقًا مقربًا لأحد أهم شهود هيئة الدفاع، واكتشف أن هذا الرجل كان مدرجًا ذات مرة باعتباره شريكًا لامرأة في جريمة زنا في قضية طلاق. توصل بيتر لاسم المرأة، وبدأ جوفي يعمل على إحضارها إلى المدينة الأمريكية. كان يجب أن يتم الأمر بمهارة، دون أن تعرف المرأة أنها كانت تُستغل. ستعتقد أنها تقضي عطلة قصيرة، وسيعود سحر الحب القديم إلى سابق عهده، وسيجهز جوفي نصف دُرينة من الرجال لنصب الفخ؛ سيقضي على شاهد هيئة الدفاع عن جوبر المهم تمامًا ويُخرجه من الصورة! قال ماكجيفني: «هناك دائمًا شيءٌ اقترفوه يمكنك أن تستخدمه ضدهم!» ودفع بسعادة لبيتر جادج خمسمائة دولار مقابل المعلومات التي جلبها.

كان بيتر سيطير فرحًا من فرط سعادته لولا أنه في نفس تلك اللحظة هبطت كارثة كالصاعقة على رأسه. كان حديث جيني عن الزواج يزداد أكثر فأكثر، وكشفت له سبب كون الزواج أمرًا ضروريًا. كشفت عن السبب بأن خفصت عينيها ناظرةً إلى أسفل بوجهٍ مُحمر وجسدٍ مرتجف؛ وألجم الرعبُ لسان بيتر لدرجة أنه لم يتمكن من أداء الدور المتوقع منه. حتى هذه اللحظة، كان في مثل هذه الأزمات العاطفية يضم جيني بين ذراعيه ويواسيها، ولكنه تركها هذه المرة ترى مشاعره الحقيقية.

اجتاحت جيني على الفور نوبة هلع. ما الذي ألمَّ به؟ ألن يتزوجها كما وعدتها؟ لا بد أن يدرك الآن أنه لم يعد أمامهما مجالٌ للتأجيل! أما بيتر، الذي لم يكن معتادًا على أعراض

الهستيريا، فقد فقد صوابه تمامًا ولم يستطع التفكير في أي شيء سوى الخروج من المنزل وإغلاق الباب من خلفه بقوة.

كلما فكر في الأمر، زاد وضوحًا إدراكه أنه وقع في مأزقٍ شيطاني. من منطلق كونه أحد رجال شركة تراكشن تراست، كان يرى أنه محصن من جميع العقوبات والالتزامات القانونية؛ ولكنه شعر أنه في هذه الحالة قد وقع في مشكلة لن يتمكن أصحاب السلطة في المدينة من حماية عميلهم منها. هل هم قادرون على ترتيب الأمر بحيث يتزوج شخص من فتاة، ثم ينهي زواجه منها عندما تنتهي مهمته؟

كان بيتر يشعر باضطرابٍ شديد لدرجة أنه اضطر إلى الاتصال بمكتب جوفي والتحدث مع ماكجيفني. كان هذا التصرف خطرًا؛ لأن الادعاء كان ينتصت على أسلاك الهاتف، وكانوا يخشون أن الدفاع ربما يفعل المثل. ولكن بيتر استغل الفرصة وأخبر ماكجيفني بأن يأتي ويلتقي به في المكان المعتاد؛ حيث ناقشا الموضوع، وتأكدت أسوأ مخاوف بيتر. عندما عرض الموضوع على ماكجيفني، فضحك الرجل ذو وجه الجرد بصوت عالٍ. وجد أن الأمر مضحك لدرجة أنه لم يتوقف عن الضحك حتى رأى السخط باديًا على وجه جاسوسه.

سأله بيتر: «ما الذي يُضحكك؟ إذا ما تهدم ما صنعت حتى الآن، فمن أين ستحصل على مزيد من المعلومات؟»

قال ماكجيفني: «ولكن، يا إلهي! ما الذي جعلك ترتبط بمثل هذه الفتاة؟»

أجاب بيتر: «كان عليّ أن أتقبل ما أُتيح لي. بالإضافة إلى ذلك، جميعهن متشابهات؛ يقعن في المشكلات، ولا يمكنك فعل شيء.»

قال ماكجيفني: «بالطبع، يمكنك فعل شيءٍ ما! لم لم تسأل منذ فترة طويلة؟ إذا كنت قد ألزمت نفسك بالتقدم للزواج، فهذه مشكلتك أنت؛ لا يمكنك أن تلقي باللوم عليّ.»

ظلا يتجادلان. كان الرجل ذو وجه الجرد واثقًا من أنه لا توجد طريقة تمكن بيتر من التظاهر بأنه سيتزوج جيني من دون أن يتزوجها. وقد يتورط في مشكلات لا حصر لها، ولا شك في أن فائدته كجاسوسٍ ستنتهي. ما عليه فعله هو أن يُعطي الفتاة بعض المال ويرسلها إلى مكانٍ ما لتخلص من الجنين. وسيكتشف ماكجيفني اسم الطبيب الذي سيؤدي العملية.

صاح بيتر: «حسنًا، ولكن ما العذر الذي سأخبرها به؟ أعني، ماذا يمنع زواجي منها!»

قال ماكجيفني: «اخترع أي عذر. لماذا لم تتزوج حتى الآن؟» وعندما رأى الحيرة بادية على وجه بيتر: «لا شك في قدرتك على إصلاح الأمر. سأفكر لك في مبرر إذا كنت بحاجة

إلى ذلك. ولكنك لست مضطراً لتحمل هذا العناء — أخبر فتاتك بقصة تعسة. قل لها إنك متزوج، وكنت تعتقد أنك قادرٌ على إنهاء زواجك منها، ولكن اكتشفت الآن أنك لا تستطيع؛ وأن زوجتك علمت بما تفعله هنا، وشرعت في ابتزازك. رتب الأمر بحيث لا يمكن لفتاتك أن تفعل أي شيءٍ قد يضر بالدفاع عن جوهر. وإذا كان حبُّها لك صادقاً، فلن تضعك في موقفٍ مخزٍ، وربما تمتنع حتى عن إخبار أختها.»

كره بيتر فعل أي شيءٍ من هذا القبيل. كان يتخيل جيني الصغيرة راقدة على الأريكة في حالة هستيرية بعدما تركها، وكان يخشى المواجهة الطويلة المفعمّة بالمشاعر التي لا مفر منها. ولكن بدا أنه من المحتّم أن تحدث؛ لم يتمكّن من التفكير في طريقةٍ أفضل منها. علاوةً على ذلك، يجب أن ينتهي من هذا الأمر سريعاً؛ فبعد بضع ساعات ستعود سادي من عملها، وربما يكون الأوان قد فات.

القسم الخامس والعشرون

أسرع بيتر عائداً إلى منزل تود، ووجد الصغيرة جيني راقدة في فراشها بوجهٍ شاحب، وكانت لا تزال تبكي. قد يعتقد المرء أنها قد استنفدت مخزونها من العواطف الجياشة، ولكن لا، لا يُوجد حد للعواطف التي يمكن للمرأة أن تسكبها من عينيها. بمجرد أن بدأ بيتر اعترافه المهين بأنه متزوج، قفزت جيني الصغيرة من فراشها وأطلقت صرخةً مرتعبةً وواجهته ووجهها أشبه بوجه شبح مجنون هارب. حاول بيتر أن يوضّح لها أن ما حدث لم يكن خطأه؛ فقد كان يتوقع أن يتحرر من هذا الزواج متى أراد. ولكن كل ما فعلته جيني هو أن وضعت يديها على جبينها وصرخت: «لقد خدعتني! لقد خنتني!» كانت أفعالها أشبه بمشهدٍ تمثيلي من السينما، وكان الشيطان الصغير المتململ داخل بيتر يوسوس له.

حاول أن يمسك يدها ويتفاهم معها، لكنها اندفعت بعيداً عنه، وهُرعت إلى الجانب الآخر من الغرفة ووقفت في مكانها تحديق فيه بنظرات حيوان برّي محاصر ومهدّد بالقتل. أحدثت جلبّةً عالية لدرجة أنه خشي أن يأتي الجيران ليتبينوا ما يحدث، وكان عليه أن يوضّح لها أنه إذا تسرّبت هذه المسألة إلى العلن، فسينتهي دوره كشاهد في القضية إلى الأبد، وربما تصبح هي السبب في إرسال جيم جوبر إلى حبل المشنقة.

على إثر ذلك، صمتت جيني، وتمكّن بيتر من التحدّث إليها. أخبرها عن الاستمالة التي يتعرض لها؛ فقد أرسل إليه الطرف الآخر من القضية شخصاً وعرض عليه عشرة آلاف دولار إذا تخلّى عن هيئة الدفاع عن جوبر. ولأنه رفض، بدعوا بيتزونه باستخدام زوجته. لقد شكّوا بطريقةٍ ما في أنه متورط في علاقةٍ عاطفية، وكانت تلك هي الوسيلة التي سيَتبعونها في تدمير مصداقيته كشاهد.

كانت جيني لا تزال ترفُض أن يلمسها بيتر، ولكنها وافقت على الجلوس بهدوء في كرسي ومناقشة ما عليهما فعله. وقالت إنه بغضُّ النظر عما يحدث، يجب ألا يُعرضاً قضية جوبر للخطر. وإن بيتر أخطأ في حقها بشكلٍ فظيع عندما أخفى الحقيقة عنها، ولكنها ستتحمل العواقب أيّاً كانت، ولن تورطه في الأمر.

بدأ بيتر يوضِّح لها أن الأمور قد لا تكون خطيرةً كما تخشى. كان قد أمعن التفكير في الأمر؛ كان يعرف أين يعيش بيريكليس بريام، رب عمله القديم، وأصبح بيريكليس ثرياً حالياً، وكان بيتر واثقاً من أنه يمكن أن يُقرضه مائتي دولار، وأن هناك أماكن يمكن أن تذهب إليها الصغيرة جيني؛ كانت ثمة طرق لحل هذه المشكلة ...

ولكن أوقفته الصغيرة جيني عن إتمام حديثه. كانت طفلة في بعض جوانب شخصيتها، ولكنها كانت من جوانب أخرى امرأة ناضجة. كانت تعتنق أفكاراً ثابتة غريبة، وعندما تصطدم بها، يبدو وكأنك تصطدم بجدارٍ حجري. فأحجمت عن سماع الفكرة التي اقترحتها بيتر؛ لأن ذلك سيُعد قتلًا.

قال بيتر مكرراً ما قاله ماكجيفني: «محض هراء. الأمر بسيط، والجميع يفعلونه.» ولكن بدا أن جيني لم تكن منصته له. فقد كانت جالسةً تحدق فيه بعينيها الجامحتين المرتعبتين، وتُنشِب أصابعها في فستانها. رأى بيتر ما تفعله أصابعها، وأتعب ذلك أعصابه. فقد كانت تتصرف كأصابع مجنونة، وظهرت عليها جميع العواطف التي كانت الصغيرة جيني تخنقها وتكبتها.

قال بيتر متوسلاً: «أه لو لم تأخذي الأمر على محمل الجد لهذه الدرجة! إنه حادثٌ تعس، ولكنه حدث، والآن علينا أن نخرج منه بالاستفادة القصوى. يوماً ما سأحرر من هذا الزواج؛ يوماً ما سأتزوّجك.»

همست الفتاة، بصوتها المتوتر: «اصمت، يا بيتر! لا أريد أن أتحدث معك أكثر من ذلك، إذا كان هذا كل ما يمكنك قوله. لا أعرف إن كنت سأرغب في الزواج منك، بعدما عرفت أنك قادرٌ على خداعي، أنك قادرٌ على الاستمرار في خداعي يوماً بعد يوم لعدة أشهر.»
ظن بيتر أنها ستدخل في نوبة هستيرية أخرى، وكان خائفاً. حاول أن يتوسل إليها، ولكنها قفزت فجأة، وقالت: «ابتعد! أرجوك ابتعد واتركني وحدي. سأفكر في الأمر وأقرّر ما يجب فعله بنفسي. وأياً كان ما سأفعل، فلن أضعك في موقفٍ مخزٍ؛ لذا اتركني وحدي، أسرع!»

القسم السادس والعشرون

طردت جيني بيتر من المنزل، وغادَرَ بيتر، رغم تحفُّظاته الكثيرة. ظل يتجول في الشوارع، لا يدري ماذا يفعل، وظل يتأمل الأخطاء التي ارتكبها ويعدِّب نفسه بأكثر الأفكار تعذيباً؛ كيف كانت ستختلف حياتي لو كنتُ أملك ما يكفي من البصيرة التي توجِّهني لفعل أمورٍ أو تمنعني عن فعل أمورٍ أخرى! حان وقتُ العشاء، فتناول بيتر وجبةً مشبعة، ولكن حتى تلك الوجبة لم تُشعره بالراحة التامة. كان يتخيَّل عودةً سادي إلى المنزل في تلك الساعة. هل ستُخبرها جيني بما حدث أم لن تفعل؟

كان ثمة مؤتمرٌ عامٌ كبيرٌ دعت إليه لجنة الدفاع عن جوبر في ذلك المساء، وحضره بيتر، وتبيَّن أنه كان أسوأ شيءٍ يمكن أن يفعله. لم يكن ذهنه في حالةٍ تسمح له بتحمُّل الشغف المفرط لهذا الحشد الضخم. تخيَّل بيتر نفسه يتعرض للفضح والإدانة؛ لم يكن واثقاً بعدُ من أنه قد لا يتعرض لذلك. كان التجمُّع مكوناً من آلاف العمال، وحدادين ذوي أيدي خشنة، وعمال الموانئ بأكتافهم العريضة وسائقي الشاحنات ذوي القبضات التي في حجم مدقَّات الأسوار، ومتطرفين يُطيلون شعورهم من مائة طائفةٍ خطيرة، ونساء يرفعن مناديلَ حمراءَ ويصرخن صرخاتٍ جعلت بيتر يراهنَّ أشبه بغُولاتٍ نمت الثعابين على رءوسهن بدلاً من الشعر.

كان هذا هو جنون الغوغاء الذي أثارته قضية جوبر، وكان بيتر يعرف بالطبع أنه كان خائناً في نظر جميع هؤلاء الناس، مجرد دودةٍ سامة، ثعبانٍ يختبئ وسط العشب. وإذا ما اكتشفوا ما كان يفعله — إذا ما وقف شخصٌ ما، على سبيل المثال، أمام هذا الحشد وفضَّحه — فسيُمسكون به ويمزقونه إرباً. وربما كانت الصغيرة جيني تُخبر سادي بما حدث في هذه اللحظة؛ وستُخبر سادي أندروز، وسيرتاب أندروز في أمر بيتر، وسيكلف

جواسيسَ بمراقبة بيتر جادج! ربما كانوا قد كلفوا جواسيس بمراقبته بالفعل، وعرفوا بأمر اجتماعاته مع ماكجيفني!

رغم تلك الأفكار المرعبة التي تُوْرَقه، كان على بيتر أن يستمع إلى الخطب الطويلة التي ألقاها كلُّ من دونالد جوردون، وجون دوراند، وسورنسن، ورئيس عمال الموانئ. واستمع إلى كشف الحِجَل التي استخدَمها جوفي واحدةً تلو الأخرى، واستمع إلى اتهام المدعي العام في المقاطعة بالتحريض على الشهادة الزور، واتهام وكلائه بالابتزاز والتزوير. لم يفهم بيتر السبب وراء السماح بحدوث مثل هذه الأمور؛ لماذا لا يُقبض على جميع هؤلاء الخطباء. ولكنه ظل جالساً يستمع، واضطّر حتى إلى التصفيق والتظاهر بالموافقة! كان على جميع العملاء السريين الآخرين لشركة تراكشن تراست ومكتب المدعي العام أن يستمعوا ويتظاهروا بالموافقة! وفي داخل القاعة، التقى بيتر ميريام يانكوفيتش وجلس بجوارها. قالت ميريام: «انظر، ثمة رجلاً شرطة هناك. انظر إلى وجهيهما!»

قال بيتر: «من تقصدين؟»

أجابته: «ذلك الرجل الذي يبدو كالملاك، وذلك الذي بجانبه، ذو الوجه الشبيه بالجرذ». نظر بيتر إلى حيث أشارت ورأى ماكجيفني؛ ونظر ماكجيفني نحو بيتر ولكنه لم يُعطِ أي إشارة.

استمر الاجتماع حتى قرب منتصف الليل تقريباً، وجمعت خلاله تبرعاتٌ بعدة آلاف من الدولارات لصالح صندوق الدفاع عن جوبر واعتُمدت قراراتٌ شرسة أمرَ بطبعها وإرسالها إلى جميع فروع النقابات العمالية في البلاد. خرج بيتر قبل انتهاء الاجتماع؛ لأنه لم يُعد يستطيع كبت مخاوفه وقلقه أكثر من ذلك. شق طريقه عبر الزحام، وفي الردهة، التقى بات ماكورميك، زعيم اتحاد العمال الصناعيين العالمي.

كانت ملامح وجه هذا الصبي الصارمة تحمل انفعالاً أشد مما رأى بيتر من قبل طوال حياته. ظن بيتر أن السبب هو التجمع نفسه، إلا أن الآخر اندفع نحوه صائحاً: «هل سمعت الأخبار؟»

«أي أخبار؟»

«لقد انتحرت الصغيرة جيني تود!»

شهق بيتر متراجعاً إلى الخلف، وقال: «يا إلهي!»

«لقد أخبرتني أدا روث بالخبر للتو. عثرت سادي على رسالة عندما عادت إلى المنزل.

أما جيني، فقد غادرت المنزل بنية أن تُغرق نفسها.»

صاح بيتر ملتاغاً: «ولكن ماذا ... لماذا؟»

«كانت تعاني كثيراً، فصحَّتها كانت معتلة للغاية، وطلبت من سادي ألا تبحث عن جنتها، وألا تُثير جلبهً حول الأمر ... فلن يتمكَّن أحد من العثور عليها.»

على الرغم من شعور بيتر بالرعب والصدمة، ارتاح شيءٌ ما في داخله وأخذ شهيقاً عميقاً. لقد أوفت الصغيرة جيني، أوفت بوعدھا! وكان بيتر آمناً!

القسم السابع والعشرون

نعم، أصبح بيتر آمناً، ولكنه كان قد أفلت بأعجوبة، ولم تزل هناك مشاهدٌ مؤلمة عليه أن يؤدي دوره فيها. كان عليه أن يعود إلى منزل آل تود ويلتقي سادي المفجوعة، ويكي ويبدو مصدوماً مع بقيتها. سيصبح الأمر مثيراً للريبة لو لم يفعل ذلك، ولن يغفر له «الرفاق» ذلك أبداً. وما أفزعه أنه عرف أن سادي توصلت بطريقةٍ ما إلى قناعةٍ مؤكدة بشأن مشكلة جيني. حاصرت سادي بيتر في أحد الأركان واتهمته بأنه المسئول، ووقف بيتر المسكين يُصر بشدة على براءته، ولكم تمنى لو أن الأرض انشقت وابتلعتَه.

وفي خضم إصراره على براءته، طرأت على ذهنه خطةٌ ذكية. فخفض صوته متظاهراً بالخجل، وقال إن رجلاً، شائباً، كان يأتي لرؤية جيني من حين لآخر. قال بيتر: «طلبت مني جيني ألا أخبر أحداً.» ثم بدا عليه التردد للحظات قبل أن يضيف لمساته النهائية: «قالت لي جيني إنها عاشقةٌ حرة، وأخبرتني بكل شيءٍ عن العشق الحر. قلتُ لها إنني لا أومن به، ولكنك تعرفين يا سادي كيف تكون جيني عندما تؤمن بشيءٍ ما، كانت تُدافع عنه وتتصرف وفقاً له. لذا، كنت واثقاً من أن تدخلني لن يؤدي إلى شيءٍ.»

كادت سادي أن تفقد عقلها عند سماعها ما قاله بيتر. وحدقت في وجه بيتر بغضب، وصرخت قالت: «أيها المفترى! أيها الشيطان! من كان ذلك الرجل؟»

أجابها بيتر: «اسمه نيد. هكذا كانت جيني تناديه. لم يكن من شأنني أن أسألها عن يكون.»

«لم يكن من شأنك رعاية طفلةٍ بريئة؟»

قال بيتر: «جيني نفسها قالت إنها ليست طفلةً بريئة، وإنها تعرف جيداً ما تفعل؛ جميع الاشتراكيين يفعلون المثل.» وأضاف إلى هذه الجملة الأخيرة أنه ظن أنه ليس من

اللائق أن يكون المرء ضيفاً في منزل ويتجسس على أخلاق مضيّفيه. عندما أصرت سادي على التشكيك فيه، بل سبه، اختار الخروج من المأزق عبر الطريق السهل؛ استشاط غضباً وخرج من المنزل ثائراً.

كان بيتر واثقاً تقريباً من أن سادي لن تنشر القصة أكثر من ذلك؛ فقد كانت مهينة للغاية لأختها ولنفسها؛ وربما توصلت لتصديق قصة بيتر، عندما أمعنت التفكير في الأمر؛ فربما كانت هي نفسها «عاشقة حرة». أكد ماكجيفني على أن جميع الاشتراكيين على هذه الشاكلة، وكان يعرف الكثير عنهم. على أي حال، ستُضطر سادي إلى مراعاة عدم تعريض قضية جوبر للخطر، مثلما فعلت الصغيرة جيني تماماً. كان بيتر يملك زمام الأمور من هذه الجهة بلا شك، وأدرك أنه قادرٌ على أن يبدو متسامحاً، فذهب إلى الهاتف واتصل بسادي وقال: «أريدك أن تعرّفني أنني لن أقول أي شيءٍ عن هذه القصة، ولن يعرف أحدٌ شيئاً عنها إلا من خلالك.»

لا بد أن سادي أخبرت نصف دُرّينة من الأشخاص بالقصة. فقد تعاملت السيدة نيبينز مع بيتر ببرودٍ شديد خلال زيارته التالية للسيد أندروز؛ كما فقدت ميريام يانكوفيتش ودّها السابق نحوه، وعاملته عدة نساءٍ أخريات بتحفُّظٍ مقصود. ولكن الشخص الوحيد الذي تحدث عن الأمر كان بات ماكورميك، الصبي التابع لاتحاد العمال الصناعيين العالمي الذي نقل لبيتر خبر انتحار الصغيرة جيني. ربما لم يتصرف بيتر بصورةٍ مرضيةٍ في تلك المناسبة، أو ربما لاحظ الشاب شيئاً من تلقاء نفسه، كبعض نظرات الحب المتبادلة بين بيتر وجيني. لم يكن بيتر يرتاح لوجود ذلك الصبي الأيرلندي الصموت الذي كانت عيناه السوداوان تنتقلان من شخص إلى آخر في المكان وكأنها تستطلع أفكارك الأكثر سرية.

تحقّق أسوأ مخاوف بيتر. فقد حاصره «ماك» في أحد الأركان، ووضع قبضته تحت أنفه، وقال له إنه «كلبٌ قذر»، ولولا قضية جوبر، لكان، هو «ماك»، قتله دون تردّد.

لم يجرؤ بيتر على فتح فمه؛ فقد كان تعبير وجه الأيرلندي غاضباً لدرجة أنه خشي على حياته بالفعل. يا إلهي، يا لها من عصبة مليئة بالكراهية هؤلاء الحُمُر! والآن أصبح أسوأهم عدواً لبيتر! من الآن فصاعداً، ستظل حياته في خطر من هذا الأيرلندي المجنون! كان بيتر يكرهه، بصدق ومن كل قلبه لدرجة أنه ساعده على تحويل أفكاره بعيداً عن الصغيرة جيني ورؤية نفسه ضحية.

نعم، في ساعات الليل المتأخرة عندما كان وجه جيني الصغير اللطيف يستحوذ على تفكير بيتر ويؤنبه ضميره، كان يتأمل شبكة الأحداث المتداخلة، ويرى بوضوح أن هذه

المأساة كانت حتمية، وأنها نشأت بطبيعة الحال من ظروفٍ خارجةٍ عن إرادته. لم يكن نضال العمال في المدينة الأمريكية ذنبَ بيتر؛ ولم يكن تورطه فيه ذنبه أيضًا، لقد أُجبر على أن يكون شاهداً، ثم عميلاً سرّياً. كان بيتر يقرأ صحيفة «تايمز» المدينة الأمريكية كل صباح وعرف أن مسعى جوبر هو إثارة الفوضى والشغب، بينما كان مسعى المدعي العام وجهاز الأمن السري التابع لجوفي هو إنفاذ القانون وإرساء النظام. وكان بيتر يبذل قُصارى جهده لصالح هذا المسعى العظيم، فكان ينفذ تعليمات رؤسائه، فلمِ إذن يمكن أن يُلام بسبب فتاةٍ ضعيفةٍ اعترضت طريق قاطرة القانون العظيمة؟

كان بيتر يعرف أن ما حدث ليس ذنبه، ومع ذلك ظل الحزن والرعب ينخران في نفسه. فقد كان يشقائق للصغيرة جيني؛ كان يشقائق لها في النهار ويشقائق لها في الليل. كان يشقائق لصوتها الحنون، وشعرها الناعم الخفيف، وجسدها بين ذراعيه الفارغتين. كانت حبه الأول، وقد ماتت، ومن سمات الضعف البشري أن يزداد تقديراً للأشياء بعد فقدانها. كان بيتر يطمح إلى أن يكون رجلاً قوياً، «رجلاً صلباً» وفقاً للهِجَة العامية التي بدأت تنتشر في البلاد، وكان يُحاول حالياً أن يكون كذلك بالفعل. لم يكن يريد أن يواصل اجترار ذكرى هذا الحادث؛ ولكن ظل وجه جيني يلازمه؛ كان يتخيله أحياناً بملامح جنونية، كما رآه خلال لقاءهما الأخير، وبملامح لطيفة لائمه في أحيانٍ أخرى. سيظل بيتر يتذكّر كم كانت جيني طيبة، وكم كانت رقيقة، وكم كانت دائمة الاستجابة لأي بادرة حب من جانبه. أين سيعثر على فتاةٍ مثلها؟

كان هناك أمرٌ آخر يزعجه بشكلٍ خاص؛ أمرٌ غريب، لا يمكن تفسيره، ولم يتمكّن بيتر من العثور على كلماتٍ تصفه، ووجد نفسه يفكر فيه باستمرار. لقد قدّمت هذه الفتاة الضعيفة الهزيلة حياتها عن عمدٍ فداءً لمعتقداتها؛ لقد ماتت حتى ينجو هو ويؤدي دوره كشاهدٍ لصالح آل جوبر! لا شك في أن بيتر كان يعرف طوال الوقت أن الصغيرة جيني قد قدّر لها الهلاك، وأنها تضحّي بنفسها، وأن لا شيء يمكن أن ينقذها. ولكن ما قد يلقي الرعب في أقوى النفوس هو أن يكون الناس متعصّبين لدرجة أن يُضحّوا بحياتهم في سبيل تحقيق مسعىٍ ما. وجد بيتر نفسه ينظر إلى أفكار هؤلاء الحُمُر من منظورٍ جديد؛ كان يراهم سابقاً مجموعةً من «المجانين»، ولكنه أصبح يراهم الآن كائناتٍ قبيحة مشوّهة، مخلوقات شيطانية، أو مخلوقات إلهٍ جُن جنونه.

القسم الثامن والعشرون

كان ثمة شخص واحد فقط يمكن لبيتر أن يثق به، وهو ماكجيفني. لم يستطع بيتر أن يُخفي عن ماكجيفني حقيقة أن حزنه يؤرقه، فاحتواه ماكجيفني وأعطاه «تحفيزًا». كانت مهمة قمع الحُمُر خطيرة، وكانت خطورتها تكمن في كون مبادئهم غامضة للغاية، وكانوا بارعين للغاية في التأثير على عقول الناس. رأى ماكجيفني كثيرين ينخدعون بأفكارهم ويتحوّلون إلى أعضاء في جماعاتهم. وعلى بيتر أن ينتبه لهذا الخطر. قال بيتر موضحًا: «ليس الأمر كذلك. ليست أفكارهم. إنما كنتُ أشفق على تلك الصغيرة.»

قال ماكجيفني: «حسنًا، سنصل إلى النتيجة نفسها. ستشعر بالأسف عليهم، ثم فجأة، تجد نفسك تستمع إلى حججهم. بيتر، أنت الآن أحد أفضل الرجال الذين يعملون معي على هذه القضية؛ وهذا شرفٌ كبير؛ لأنني أتولى مسئولية سبعة عشر رجلًا آخرين.» كان الرجل ذو وجه الجُرذ يراقب بيتر ورأى وجهه يتورد سرورًا. فواصل حديثه قائلاً إنه صحيح أن أمام بيتر مستقبلًا، وسيكسب الكثير من المال، وسيُمنح مسئولياتٍ، ووظيفةً دائمة. ولكنه قد يُضيع كل شيء إذا ما انخدع بمبادئ الحُمُر. وعليه أن يدرك أيضًا أنه لن يستطيع خداع ماكجيفني أبدًا؛ لأن ماكجيفني كلّف جواسيس بمراقبته!

وهكذا، شبك بيتر بيديه معًا وشدّ من أزر نفسه. كان بيتر «رجلاً صلبًا»، ولن يضيع مستقبله. قال موضحًا: «كل ما في الأمر أنني لا أستطيع منع نفسي عن الاشتياق للفتاة!» فرد الآخر عليه قائلاً: «هذا طبيعي. كل ما عليك فعله هو الارتباط بفتاةٍ أخرى.»

واصل بيتر عمله في مكتب لجنة الدفاع عن جوهر. وبحلول موعد المحاكمة، كان الصراع بين الكيائين العملاقين قد وصل إلى ذروته. كان المدعي العام، الذي كان يتولى القضية، والذي كان يتوقع أن يصبح حاكم الولاية بفضل أهمية تلك القضية، يحظى بدعم

نصف دُرّينة من ألمع المحامين في المدينة الذين كانوا يتقاضون أتعابهم من كبار رجال الأعمال. كان يعمل على القضية جيشٌ صغير من المحققين، وكانت قاعة المحكمة التي تُجرى فيها المحاكمة تعجُّ بالجواسيس والعملاء. وتم التحقُّق من صلاحية كل شخص من مئات المحلِّفين المحتملين وتنصيفهم، وسُجِّلت جميع نقاط ضعفهم وميولهم، ولم يكتفوا بدراسة حالاتهم النفسية، فدرّسوا أوضاعهم المالية، والأوضاع المالية لأقاربهم وأصدقائهم. قابل بيتر نصف دُرّينة من العملاء الآخرين بالإضافة إلى ماكجيفني، والذين كانوا قد جاءوا لسؤاله عن بعض التفاصيل، واستشف من أحاديث هؤلاء الرجال لمحاتٍ من التفرعات اللانهائية للقضية. بدا له أن المدينة الأمريكية بأكملها قد وُظِّفت للمساعدة في إرسال جيم جوبر إلى المشنقة.

أصبح بيتر يتقاضى خمسين دولارًا في الأسبوع علاوةً على المصروفات، بالإضافة إلى إكرامياتٍ خاصةٍ مقابل الأخبار ذات القيمة العالية. لم يكن يمرُّ يوم من دون أن يتبادر إلى علمه تطوُّر مهم، وكان عليه أن يتواصل مع ماكجيفني كل ليلة. كان لدى الادعاء مكتبٌ سري حيث كان يعمل مشغل هاتف وساعة يتنقلون ما بين مكتب المدعي العام ومكتب جوفي؛ لجئوا إلى هذه الطريقة لتجنُّب التنصُّت على الهاتف. كان بيتر يذهب من مقر لجنة الدفاع عن جوبر إلى كشك هاتفيٍّ في أحد الفنادق، وهناك كان يذكر الرقم السري، ثم رقمه الخاص، الذي كان ستة وأربعين. كان جميع المعنيين معروفين بأرقام، الأشخاص الرئيسيون، سواء من جانب الادعاء أو الدفاع؛ لم يكن اسم «جوبر» يُذكر عبْر الهاتف مطلقًا.

بعد بداية المحاكمة، كان من الصعب إقناع أحد بالعمل في مكتب لجنة الدفاع؛ أراد الجميع أن يكونوا في قاعة المحكمة! كان يأتي شخص كل بضع دقائق حاملاً أحدث التقارير عن المستجدات. كان الادعاء قد نجح في التخلُّص من سجلات المحكمة الابتدائية التي أدانت شاهدَهم الرئيسي بإدارة بيت دعارة للزنج. وقَدَّم الادعاء العديد من الأدلة التي زُعمَ أن الشرطة وجدتها في الشارع بعد الانفجار؛ وكان من بينها زنبرك، من المفترض أن يدخل في صنع القنابل، لكن اتضح أنه يخصُّ أحد الهواتف! كما قدَّموا أجزاء من ساعة، لكن تبَيَّن أنهم قدَّموا أجزاء من ساعتين مختلفتين بسبب تحمُّسهم الزائد! كانت هناك إثارةٌ على هذه الشاكلة كل يوم.

القسم التاسع والعشرون

عندما حان وقت اختتام الادعاء لمرافعته، استُدعي بيتر إلى مكتب أندروز، ليتم تدريبه على دوره كشاهد. وأخبره المحامون أنه سيُطلب للشهادة في غضون يومين أو ثلاثة. لم يكن بيتر ينوي الظهور كشاهد على الإطلاق؛ فقد كان يخدم الدفاع طوال تلك الفترة؛ كان «يُجاريهم»، على حد تعبيره، لكي يحافظ على علاقته الجيدة معهم حتى النهاية. وفي الوقت نفسه، كان يُحاول معرفة ما سيقوله كمبرّر لرفضه النهائي. كان بيتر يتناول غداءه عندما طرأت على ذهنه تلك الخطة، وتحمّس بشدة لدرجة أنه ابتلع قطعة من الفطيرة بطريقة خاطئة وقفز خارجاً من غرفة الطعام. كانت الخطة أول فكرةٍ عبقريةٍ تخطر على ذهنه؛ فحتى تلك اللحظة، كان ماكجيفني هو من يفكّر في مثل هذه الأمور، ولكن بدأ بيتر حالياً يسلك طريقه نحو أن يصبح مدير نفسه! لماذا يواصل تلقي الأوامر من آخرين، بينما يملك عقلاً ذكياً؟ أخبر ماكجيفني بالخطة، ووصفها ماكجيفني بأنها «رائعة»، وكان بيتر فخوراً لدرجة أنه طلب زيادةً وحصل عليها.

كان لهذه الخطة ميزتان؛ لم تكن لتحافظ على مكانة بيتر وسمعته الطيبة بين الحُمر فحسب، بل كانت أيضاً ستدمر ماكورميك، الذي كان أحد أنشط العاملين في فريق الدفاع، وأحد أخطر الحُمر في المدينة الأمريكية، بالإضافة إلى كونه عدواً شخصياً لبيتر. تواصل ماكجيفني مع بعض معارفه السريين، فذكرت جريدة «تايمز» المدينة الأمريكية، في أحد تقاريرها عن القضية، شائعةً مفادها أن الدفاع يعتزم وضع رجلٍ على منصة الشهود يدّعي أنه تعرّض للتعذيب في سجن المدينة في محاولة لجعله يقدم شهادةً كاذبةً ضد جوبر، وأن الادعاء تحقّق من سجل هذا الرجل واكتشف أنه أغوى أخيراً فتاةً صغيرة انتحرت بسبب رفضه الزواج منها. أخذ بيتر نسخةً من صحيفة «تايمز» المدينة الأمريكية وذهب إلى مكتب ديفيد أندروز وأصرّ على مقابلة المحامي قبل أن يذهب إلى قاعة المحكمة؛ وألقى بالجريدة

على المكتب وقال إن هذه نهايةُ دوره كشاهد في قضية جوبر، وقال: «إنها كذبةٌ جبانةٌ حقيرة! والرجل المسئول عن نشرها هو بات ماكورميك.»

كانت تلك هي نوعية الأعباء التي تُلقى على عاتق المحامين في المحاكمات الجنائية الشعواء! بذل أندروز المسكين قُصارى جهده لتصحيح الأمور؛ فنأشدُّ بيتراً قائلاً إنه إذا كانت القصة كاذبة، فيجدُر ببيتراً أن يكون سعيداً بتوفُر فرصة الرد على من أساءوا لسمعته. سيضع الدفاع شهوداً على المنصة لنتفيتها. بل سيجعلون سادي تود تنفيها.

«ولكن سادي أخبرتني أنها تشك بي!»

قال أندروز: «نعم، ولكنها أخبرتني أخيراً أنها ليست متأكدة.»

قال بيتراً: «ما الفائدة التي ستعود عليّ من ذلك؟! سيسألونني إذا كان أحدٌ قد وجه لي اتهاماً، ومن يكون، وسأضطر لذكر ماكورميك، وإذا وضعوه على منصة الشهود، فهل سينفي أنه اتهمني؟»

صب بيتراً جام غضبه على ماكورميك الذي كان راديكالياً يدعي أنه مخلص للقضية، وأنه لا يملك حساً يمنعه عن تكرار تشويه سمعة أحد رفاقه بقسوة! كان بيتراً يعمل على هذه القضية في هذا المكتب طوال حوالي ستة أشهر، ولم يكن يحصل على مقابل إلا ما يسُد رمقه بالكاد، والآن يتوقعون منه أن يُوَضَّع على منصة الشهود ويُفصَح عن قصةٍ مثل هذه للصحافة، ويترك الادعاء يزيّف شهاداتٍ لإثبات أنه شرير. قال بيتراً: «لا، يا سيدي! لقد اكتفيتُ من هذه القضية. ضع ماكورميك على منصة الشهود ودعه ينقذ حياة جوبر. لا يمكنك الاستعانة بي، لن أشارك!» وصمَّ أذنيه عن توسُّلات المحامي، وخرج من المكتب ثائراً، وذهب إلى مكتب لجنة الدفاع عن جوبر، حيث كرَّر المشهد نفسه.

القسم الثالثون

بهذه الطريقة، نَفَضَ بيتر يَدَيْهِ من قضية جوبر، وكان سعيدًا بذلك للغاية. كان متعبًا من الضغوط، وكان بحاجة إلى قليل من الراحة والمتعة. كانت جيوبُه مليئةً بالمال، وكان حسابه المصرفي متخمًا، وكان يعتزم ألا يُجهد نفسه في أي عمل للمرة الأولى في حياته الصعبة والمنعزلة.

كانت الفرصة في متناول يده؛ كان قد استمع لنصيحة ماكجيفني بأن يدخل في علاقة مع فتاةٍ أخرى. كانت علاقةً رومانسيَّةً ممتعة. لفهم طبيعة العلاقة، عليك أن تعرف أن الإجراءات القضائية في المدينة الأمريكية تستخدم الرجال والنساء كمحلِّفين، ولأن رجال الأعمال المشغولين لم يرغبوا في إضاعة أوقاتهم في مقصورة المحلِّفين، وكذلك أوقات موظفيهم وعمالهم، نمت تدريجيًّا فئة من الرجال والنساء يجنون قُوتَ يومهم من العمل كمحلِّفين. فكانوا يتجولون في أنحاء المحكمة ويُسْتَدْعَوْنَ إلى لجنة محلِّفين بعد أخرى، وكانوا يتقاضون ستة دولارات في اليوم، مع توفُّر العديد من الفرص لكسب المال بطريقةٍ ملتوية إذا كانوا أذكياء.

نَشِبَتْ بين هذه المجموعة من المحلِّفين المحترفين منافسةٌ قوية للانضمام إلى منصة محلِّفي قضية جوبر. كان من المتوقع أن تكون قضيةً طويلةً ضروريًّا، وسيحظى كل المشاركين بها بمكانةٍ كبيرة، وكانت ثَمَّةُ أموالٍ طائلة تلوح في الأفق. وسيكون كل من يلتحق بمقصورة محلِّفيها، ويصوِّت بالشكل الصحيح، واثقًا من حصوله على دخلٍ يكفيه مدى الحياة، ناهيك عن عمله كمحلِّف طوال حياته إذا أراد.

تصادف وجود بيتر في المحكمة أثناء اختيار المحلِّفين. ورأى فتاةً خمريَّة البشرة ضئيلة الجسد وشديدة الجاذبية — وصفها بيتر بأنها «شديدة الأناقة» — تقف على المنصة محاولًا بذكاء أن تُرَضِّي كلا الجانبين. لم تكن تعرف شيئًا عن القضية، ولم تكن قد قرأت

شيئاً عنها، ولم تكن تعرف عن المشكلات الاجتماعية ولم تكن تهتم بها؛ لذا، قبلها الادعاء. ولكن تسلّمها الدفاع بعد ذلك، وتبيّن أنها تخلت عن حدّرها ذات مرة وأخبرت شخصاً ما عن قناعتها بأن جميع قادة العمال يجب أن يصطّفوا أمام جدار وتُغربلهم الرصاصات، فاعترض الدفاع على مشاركتها، وكانت تبدو محبّطة للغاية وهي تهبط من على المنصة، وجلست على المقعد المجاور لبيتر في قاعة المحكمة. رأى بيتر عينيها تغورقان بالدموع، وأدرك خيبة أملها، فتجراً وأظهر لها تعاطفه، وتعارفاً، وخرجا لتناول الغداء معاً.

كانت تُدعى السيدة جيمس، وكانت أرملة، زوجة مهجورة كما ذكرت بمرح. كانت ذكية ونشيطة ذات أسنان بيضاء لامعة، ووجنتين تتوهجان بحمرة الصحة، كانت هذه الحمرة تأتي من قنينة صغيرة، ولكن لم يتمكن بيتر من تخمين محتواها. كان بيتر قد اشترى بدلةً جيدة، وتجراً على إنفاق بعض المال على الغداء. وكما رأينا، كان بيتر والسيدة جيمس قد فرغا من أمر قضية جوبر، وكانا متعبين ويريدان بعض التغيير، واقترح بيتر بخجل أن الإقامة لبعض الوقت على الشاطئ قد تكون ممتعة. وافقت السيدة جيمس على الفور، وتمّ ترتيب الأمر.

كان بيتر قد شهد قدراً كافياً من أعمال التحري ليدرك ما يمكن فعله بأمان، وما لا يُفضّل فعله. لم يسافر برفقة الزوجة المهجورة، ولم يدفع لها أجره السيارة، ولم يفعل أي شيء آخر يجعلها تشعر بأنها من «الرقيق الأبيض». كل ما فعله هو أن ذهب إلى الشاطئ واستأجر شقةً مريحة؛ والتقى الأرملة في اليوم التالي صدفةً أثناء تجوّله على المشي الخشبي.

ومن ثم، عاش بيتر والسيدة جيمس معاً لبضعة أشهر. كانت تجربةً رائعة لبيتر؛ فقد كانت السيدة جيمس نموذجاً لما يُطلق عليه «سيدة أرستقراطية»؛ فقد كان لها أقارب أثرياء، وكانت تحرص على أن يعرف بيتر أنها عاشت حياةً مرفّهة قبل أن يهرب زوجها إلى باريس مع فتاة سيرك تمشي على الحبل. علّمت السيدة جيمس بيتر جميع الفنون الراقية التي يفتقر لها من ينشأ في دار للأيتام، وعلى الطريق مع بائع عقاقير مغشوشة. فقد علّمته بلطف، ومن دون إيذاء مشاعره، كيفية استخدام السكين والشوكة، ولون ربطة العنق الذي يجدر به اختياره. في الوقت نفسه، كانت تُعامله بطريقة جعلته يرى نفسه الرجل الأكثر حظاً بين البشر، وكان يغمّره الامتنان لكل قبلة من شفّتي الزوجة المهجورة. لا شك في أنه لم يكن يتوقع أن يُحاببه الحظ لهذه الدرجة من دون مقابل؛ فلم يتعلم قبل ذلك إلا أنه لا يوجد ما يُسمى بـ «الحب المجاني». لذا، دفع أموالاً طائلة؛ لم يدفع كامل تكاليف

شهر العسل غير الشرعي فحسب، بل اشترى أيضًا الكثير من الهدايا الثمينة التي اقترحها السيدة. كانت دائمًا ما تتألق وتتشع بالحب عندما يُهدىها بيتير هدية! كان بيتير يعيش في حُلم، وبدا أن ماله يخرج من جيوبه دون أن يُضطر إلى لمسه. في الوقت نفسه، كانت تقع تطوّرات كبيرة لم يُعرها بيتير والزوجة المهجورة اهتمامًا؛ فلم يكونا يقرآن الصحف. من بين هذه التطوّرات أن جيم جوبر وُجد مذنبًا وحُكم عليه بالإعدام، ووُجد شريك جوبر، بiddel، مذنبًا وحُكم عليه بالسجن المؤبّد. بالإضافة إلى ذلك، جرّت أمريكا إلى الحرب، وانتشرت موجة من الحماسة الوطنية كالنار في الهشيم في جميع أنحاء البلاد. لم يستطع بيتير تجاهل ذلك؛ فقد جذب انتباهه جانب من الأحداث؛ كان الكونجرس على وشك تمرير قانون التجنيد. وكان بيتير في سن التجنيد؛ وكان من المؤكد أن يُجنّد بيتير في الجيش!

لم يشعر بيتير برعبٍ مماثل من قبل في حياته. كان قد حاول نسيان الصور المروّعة للمعارك والمذابح، والرشاشات والقنابل اليدوية والطوربيدات والغازات السامة، التي ملأت الصغيرة جيني مخيلته بها، ولكن عادت هذه التخيّلات لتملأ عقله من جديد، وشعر للمرة الأولى بأنها ذات صلة به. ومنذ ذلك الحين، تعكّر صفو شهر عسله. كان بيتير والزوجة المهجورة أشبه بمتنزهين تعمّق كثيرًا في البراري، وأبصرا عاصفة رعدية سوداء تتقدم في السماء نحوهما!

علاوة على ذلك، كان حساب بيتير المصرفي يُوشك على النفاذ. لم يكن لدى بيتير أدنى فكرة عن كمّ الأموال التي يمكن إنفاقها على زوجة مهجورة «أنيقة» تعلم كل ما هو «مناسب». كان محرّجًا للغاية؛ وأجلّ إخبار السيدة جيمس بالوضع حتى اللحظة الأخيرة؛ في الواقع، حتى يصبح غير واثقٍ مما إذا كان يملك ما يكفي من المال في المصرف لسداد الشيك الأخير الذي أعطى المالكة إياه. ثم، حين أدرك أن اللعبة انتهت، أخبرها.

فوجئ بيتير بتقبّل الزوجة المهجورة «ذات التربية الراقية» للأخبار السيئة بروح مرحة. لا شك في أنها لم تكن المرة الأولى التي تذهب فيها السيدة جيمس إلى الشاطئ. فقد ابتمت في جدل وقالت إنها ستعود إلى مقصورة المحلّفين مجددًا. وأعطت بيتير بطاقتها وأخبرته أنها ستكون سعيدة لو زارها مرة أخرى، عندما يستعيد حظوظه. ثم حزمت حقيبتها وصندوقها الجديد المليء بالهدايا التي حصلت عليها من بيتير، وانصرفت بألفٍ طريقة وأرقى ذوقٍ ممكن.

القسم الحادي والثلاثون

وهكذا، عاد بيتر إلى الحضيض مجددًا. ولكن القدر كان رءوفًا به. في اليوم نفسه، وصله خطابٌ مُذيلٌ بالرقم «مائتان وثلاثة وأربعون»، وهو رقم ماكجيفني. كان «مائتان وثلاثة وأربعون» يريد تكليف بيتر ببعض الأعمال المهمة، فهل يمكنه الحضور على الفور؟ باع بيتر آخر قطعةٍ من المجوهرات يملكها لكي يشتري تذكرة السفر إلى المدينة الأمريكية، والتقى ماكجيفني في المكان المعتاد.

شرح ماكجيفني الهدف من الاجتماع بسرعة. كانت أمريكا في حالة حرب، وقد حان الوقت لإسكات هؤلاء الحُمُر بشكلٍ نهائي. يمكن للمرء فعل أمورٍ في زمن الحرب لا يمكنه فعلها في زمن السلام، ومن بين تلك الأمور التي كنت ستفعلها أن تضع حدًا للتحريض ضد الممتلكات. لعق بيتر شفنتيه، بالمعنى المجازي. فقد كان هذا أحد الأمور التي ظل يُلح على ماكجيفني لفعلها. لا بد من التخلص من بات ماكورميك بشكلٍ نهائي. إنهم جماعةٌ خطيرة، أولئك الحُمُر، وكان ماك هو أسوأهم. كان من واجب الجميع أن يقدموا يد المساعدة، وماذا بمقدور بيتر أن يفعل؟

أجابه ماكجيفني بأن السلطات كانت تُعد قائمةً كاملة تتضمن جميع المنظمات الراديكالية وأعضائها، وتجمع الأدلة استعدادًا للقبض عليهم. وكان جوفي هو المسئول عن تلك المهمة؛ مثلما كان الحال في قضية جوبر، كانت الشركات التجارية الكبرى في المدينة تمضي قدمًا بينما كانت الحكومة لا تزال تسمح آثار النوم من عينيهما وتستفيق. هل يقبل بيتر بوظيفة التجسس على الحُمُر في المدينة الأمريكية؟

صاح بيتر: «لا أستطيع! جميعهم غاضبون مني لأنني لم أشهد في قضية جوبر.» رد عليه الرجل ذو وجه الجُرذ: «يمكننا إصلاح ذلك بسهولة. قد يعني ذلك التسبب لك في بعض الإزعاج. وقد تُضطر إلى أن تدخل السجن لبضعة أيام.»

صاح بيتر مذعورًا: «أدخل السجن!»

قال الآخر: «نعم، يجب أن يُقبَضَ عليك، وتحوَّل إلى شهيد. ثم، كما تعلم، سيتأكَّدون جميعهم من نزاهتك، وسُعيديونك بينهم مرةً أخرى ويرحِّبون بك.»

لم يكن بيتر يُحبُّ فكرة دخول السجن؛ فقد كانت ذكرياتُه عن السجن في المدينة الأمريكية مؤلِّمة للغاية. ولكن ماكجيفني أوضح له أن هذا وقتٌ لا يملك فيه الرجال رفاهية التفكير في مشاعرهم؛ فالبلاد في خطر، ويجب حماية الأمن العام، ومن المتوقَّع من الجميع أن يقدِّموا بعض التضحيات الوطنية. كان جميع الأثرياء يشترون سندات الحرية، وكان الفقراء يُضحُّون بحياتهم، وماذا سيقدِّم بيتر جادج؟ قال بيتر: «ربما سأجنِّد في الجيش.»

قال ماكجيفني: «لا، لن تُجنِّد؛ ليس إذا قبلتَ بهذه المهمة. يمكننا تدبير الأمر. إن رجلاً مثلك، يملك ما تملكه من قدراتٍ خاصة، سيكون ثمينًا للغاية ولا يجبُ التفریط فيه.» قرَّر بيتر على الفور أن يقبل العرض. كان قضاء بضعة أيام في السجن أفضل بكثير من قضاء بضع سنوات في الخنادق، وربما قضاء ما تبقى من أيام هذا العالم تحت التراب في فرنسا.

رُتبت الأمور سريعًا. خلع بيتر ملابسه الأنيقة، وارتدى ملابس عامل، وذهب إلى غرفة الطعام حيث كان دونالد جوردون، الصبي التابع لجماعة الأصدقاء، يتناول غداءه دائمًا. كان بيتر واثقًا تمامًا من أن دونالد سيكون أحد المعارضين الرئيسيين للتجنيد الإجباري، ولم يُجانبه الصواب في ذلك.

لم يبدُ على دونالد الود وهو يستقبل بيتر؛ ودون أن يتفوَّه بكلمة واحدة، جعل الشاب المنتمي إلى جماعة الأصدقاء بيتر يدرك أنه خائن، جبان «تخلَّى» عن الدفاع عن جوبر. ولكن بيتر كان صبورًا ودبلوماسيًا، فلم يُحاول الدفاع عن نفسه، ولم يطرح أي أسئلة عن دونالد ونشاطاته. ولم يقل سوى إنه كان يدرس موضوع العسكرية وإنه توصل إلى وجهة نظر نهائية. كان اشتراكياً ودولياً؛ وكان يرى أن دخول أمريكا الحرب جريمة، وكان مستعداً للمشاركة في التحريض ضدها. كان سيتخذ موقف المعترض على أداء الخدمة العسكرية الإلزامية بدافع الضمير؛ قد يرسلونه إلى السجن إذا أرادوا، أو حتى يوقفونه أمام جدار ويطلقون عليه الرصاص، لكنهم لن يجبروه أبداً على ارتداء الزي العسكري.

كان من المستحيل أن يعارض دونالد جوردون رجلاً يتحدث بهذه الطريقة؛ رجلاً ينظر في عينيه مباشرة ويعبِّر عن قناعاته ببساطة وصدق. وفي ذلك المساء، ذهب بيتر لحضور اجتماع محليات المدينة الأمريكية للحزب الاشتراكي وجدَّ معرفته بجميع الرفاق. لم يُلِقْ خطبة أو يفعل أي شيء بارز، ولكنه ببساطة أصبح داخل مطبخ الأحداث، وفي اليوم

التالي، تمكّن من مقابلة بعض الأعضاء، وكلما وأينما سُئل، كان يعبر عن قناعاته بصفته معترضاً على أداء الخدمة العسكرية الإلزامية بدافع الضمير. لذا، وقبل أن يمر أسبوعٌ واحد، وجد بيتر أنه يتلقى قبولاً، وأن لا أحد سينعته بأنه خائن أو يطرده من المكان.

في الاجتماع الأسبوعي التالي لمطبات المدينة الأمريكية، تجرأ بيتر على قول بضع كلمات. كان اجتماعاً محمومًا، وكانت الحرب والتجنيد الإجباري هما الموضوعين الوحيدين المطروحين للنقاش. كان هناك بعض الألمان في الاجتماع، وبعض الأيرلنديين، وهندي واحد أو اثنان، وكانوا جميعهم، بطبيعة الحال، معترضين سلميين متحمسين. كما كان هناك محرضون مما سيُطلق عليه اسم «التيار اليساري»: الجماعة داخل الحزب التي اعتبرته محافظاً بإفراط، وكانت تطالب دائماً ببيانات أكثر راديكالية تدعو إلى «العمل الجماهيري» والإضرابات العامة ومناشدة البروليتاريا للنهوض دون إبطاء وكسر قيودهم. كانت تقع في تلك الأيام أحداثٌ جُلِي؛ فقد أثّرت الثورة الروسية تأثيراً كبيراً في العالم، وشعر هؤلاء الرفاق من «التيار اليساري» أنهم يطرون بأجنحة الأمل.

تحدث بيتر كشخص من الشارع يلتقي بالجمهور، ويمكنه التحدث نيابة عنهم. ما الفائدة من معارضة التجنيد الإجباري هنا في قاعة، في مكان لا يُوجد فيه أحدٌ سوى أعضاء الحزب؟ كان المطلوب هو أن يرفعوا أصواتهم في الشوارع لإيقاظ الناس قبل فوات الأوان! هل هناك شخصٌ في هذا التجمع يمتلك الجرأة الكافية لتنظيم اجتماع في الشارع؟

لم يستطع بعض الحضور تجاهل هذا التحدي، وفي غضون دقائق قليلة، كان بيتر قد حصل على تعهدات من نصف دُرّينة من الشباب المتهورين، ومن بينهم دونالد جوردون، بتنظيم هذا الاجتماع. وقبل أن يمرّ المساء وُضعت الخطة بحيث يستأجر هؤلاء الشهداء المحتملون شاحنة ولا يظهرون في الشارع الرئيسي إلا في الليلة التالية. وحذّره قدامى الحركة من أن الشرطة ستحطم رءوسهم. ولكن ردهم على ذلك كان واضحاً: أنهم يفضلون أن تحطم الشرطة رءوسهم بدلاً من أن تفجّرهما المدفعية الألمانية.

القسم الثاني والثلاثون

أبلغ بيتر ماكجيفني بالخطة، ووعده ماكجيفني بأن الشرطة ستكون حاضرة. وطلب منه بيتر أن يتوخى الحذر وأن يأمر رجال الشرطة بأن يتعاملوا بلطف؛ الأمر الذي رسم ابتسامة على وجه ماكجيفني، ثم قال إنه سيراعي ذلك.

كانت الخطة بسيطة للغاية ولم تستغرق إلا أقل من عشر دقائق. وقفت الشاحنة في الشارع الرئيسي، وتقدم متحدث شاب وأعلن لأقرانه من المواطنين أن الوقت قد حان لأن يعلن العمال عما يشعرون به تجاه التجنيد الإجباري. أبدأ لن يسمح الأمريكيون الأحرار لأنفسهم بأن يُجمعوا كالقطعان في جيوش ويُشحنوا خارج بلادهم ليُذبوا لأجل مصالح مصرفيين دوليين. كان هذا هو أقصى ما قاله المتحدث حتى تلك اللحظة عندما تقدم شرطي وأمره بالسكوت. وعندما رفض المتحدث الانصياع، طرّق الشرطي على الرصيف بعصاه، وظهر فريقٌ مُكوّن من ثمانية أو عشرة رجال عند ناصية الشارع، وقيل للمتحدث إنه قيد الاعتقال. فتقدم متحدثٌ آخر وأكمل الخطاب، وعندما اعتُقل أيضاً، خرج آخر، ثم آخر، حتى اعتُقل الستة جميعهم، ومن بينهم بيتر.

لم يتوفر للحشد وقتٌ لتحديد موقفه من أيّ من الجانبين، كانت عربية دورية في الانتظار، وجمع المتحدثون ونُقلوا إلى مركز الشرطة، وفي صباح اليوم التالي، عُرضوا على القاضي الذي حكم على كلّ منهم بالسجن خمسة عشر يوماً. كانوا يتوقعون أن يُسجنوا ستة أشهر؛ لذا كانوا مجموعةً سعيدة من «اليساريين».

وزادت سعادتهم أكثر عندما رأوا كيف كانوا يُعاملون في السجن. كان من عادة الشرطة أن تُلحق أكبر قدر ممكن من الألم والإذلال بالحُر. كانوا يضعونهم في الخزان الدوار، وهو هيكْلٌ فولاذي ضخم يحتوي على الكثير من الزنازين ويُدَار باستخدام ذراع تدوير. وليتمكن المرء من دخول زنزانه بعينها، كان يجب تدوير الخزان بأكمله حتى

تصبح تلك الزنزانة مقابلة للمدخل، ما يعني أن جميع مَنْ في الخزان كانوا يحصلون على رحلة مجانية تصاحبها أصواتٌ أُنِينٌ وصرير الآلة الصدئة التي لا تنقطع، وكان هذا يعني أنه لم يكن أيُّ من نزلاء تلك الزنازين ينامون نومًا متصلاً. كان الخزان مظلمًا، مظلمًا للغاية حتى إنه كانت تتعذر القراءة فيه، هذا إن كان النزلاء يملكون كتبًا أو أوراقًا من الأساس. لم يكن هناك ما يفعلونه سوى تدخين السجائر ولعب النرد، والاستماع إلى قصص المجرمين البذيئة، والتخطيط للانتقام من المجتمع عندما يخرجون إليه مجددًا. ولكن في الجناح الجديد من السجن كانت تُوجَد بعض الزنازين النظيفة التي تدخلها الشمس والهواء؛ فقد كانت على بُعد ثلاث أو أربع أقدام فقط من صف من النوافذ. كانت هذه الزنازين تُخصص عادةً للمجرمين من الطبقة العليا؛ النساء اللاتي قطعن رقابَ عشاقهن، واللصوص الذين أفلتوا بمسروقاتهم، والمصرفيين الذين نهبوا مجتمعاتٍ محلية بأكملها. ولكن ما أثار دهشة خمسة من إجمالي ستة مناهضين للحرب، هو أن المجموعة بأكملها وُضعت في إحدى هذه الزنازين الكبيرة ومُنحت امتياز الحصول على كتب لقراءتها والقدرة على شراء الطعام. في ظل هذه الظروف، تحوَّلت الشهادة إلى مزحة، واستقر أفراد المجموعة الصغيرة مستمتعين بالحياة. ولم تخطر على بال أيُّ منهم فكرة أن بيتر جادج قد يكون مصدر هذا الكرم. وأرجعوا ما يحدث معهم إلى «جمال طلعتهم»، كما يقول الفرنسيون.

ضمَّت هذه المجموعة دونالد جوردون، الذي كان ابن رجل أعمال ثري، وكان طالبًا جامعيًا، حتى طُرد لتنفيذه مبادئ المسيحية حرفيًا وإصراره على شرحها باستمرار في الحرم الجامعي. كما ضمَّت حطابًا ضخم الجسم قوي البنيان من شمال البلاد يدعى جيم هندرسون، كان قد طُرد من المخيمات للسبب نفسه، وكان يُقصد باستمرار قصصًا مروَّعة عن قسوة وصعوبة حياة الحطابين. وضمَّت المجموعة أيضًا بحارًا سويديًا يدعى جوس، زار جميع موانئ العالم، وعاملًا يهوديًا شابًا في مصنع للسيجار لم يغادر المدينة الأمريكية قط ولكنه سافر إلى العديد من الأماكن في ذهنه.

كان الرجل السادس أغرب شخصية في المجموعة من منظور بيتر؛ فقد كان رجلًا خجولًا وحالمًا ذا عَيْنَيْن مَلِيئَتَيْنِ بالألم ووجهٍ حزين لدرجة أنه كان يؤلم من ينظر إليه. كان اسمه دوجان، وكان معروفًا في الحركة باسم «الشاعر المُشرَّد». كتب دوجان قصائد، قصائد كثيرة عن حياة الناس المنبوذين من المجتمع؛ كان يطلب قلم رصاص وورقة ويظل جالسًا في أحد أركان الزنزانة لساعات، وكان بقية الرفاق يتحدثون همسًا حتى لا يزعجوه احترامًا لعمله. وبدا لبيتر أنه كان يكتب طوال الوقت بينما كان الآخرون نيامًا. كتب قصائد

عن مغامرات زملائه السجناء، وكان يكتب حالياً قصائد عن السجّانين، وعن سجناء آخرين في هذا الجزء من السجن. كان إلهامه متقلّباً، فكان يؤلف القصائد أثناء سيره؛ ثم يعود ليغرق في يأسه، ويقول إن الحياة جحيم، ويكتب قصيدةً عن سخافتها. لم يكن يُوجد جزء من أمريكا لم يزره توم دوجان، ولم تكن ثمة مأساة في حياة المنبوذين لم يُعانها. كان مشبّعاً بهذه المآسي لدرجة أنه لم يستطع التفكير في أي شيءٍ آخر. كان يحكي عن الرجال الذين ماتوا عطشاً في الصحراء، وعن عمال المناجم الذين حُبسوا لأسابيع في منجم تهدم فوق رؤوسهم، وعن عمّال مصانع الثقب الذين سُمّمت أجسادهم حتى سقطت أسنانهم، وأظافرهم وحتى عيونهم. لم يستطع بيتّر أن يرى مبرراً لهذه الكآبة وهذا الإصرار اللانهائي على الأمور المروّعة في الحياة الذي أفسد سعادته في السجن كاملة؛ كان حديث الرجل أسوأ من حديث الصغيرة جيني عن الحرب!

القسم الثالث والثلاثون

كانت إحدى قصائد دوجان تتحدث عن رجلٍ فقير يُدعى اسليم، كان «آكلًا للثلج»؛ أي إنه كان ضحية للكوكابين. كان اسليم هذا يتجول في شوارع نيويورك في فصل الشتاء بلا مأوى وكان يدخل مبنىً مكتبيًا في وقتٍ متأخر من الظهرية ويختبئ في أحد المراحيض ليقضي ليلته بها. إذا رقد على الأرض، فسيصبح ظاهرًا للعيان ويُطرد؛ لذا كانت فرصته الوحيدة في قضاء ليلته في الحمام هي الجلوس، ولكن عندما كان يغفو، كان يسقط من على مقعد الحمام؛ لذا كان يحمل في جيبه حبلًا، وكان يربط نفسه في وضع الجلوس.

ما الفائدة من قصة كهذه؟ لم يكن بيتر يرغب في سماع حكايات عن أناس على هذه الشاكلة! كان يريد أن يعبر عن استيائه، لكنه كان يعلم بالطبع أنه يجب أن يُخفيه. فكان يضحك وهو يصيح قائلًا: «يا إلهي، دوجان، ألا يمكنك أن تُلقِي علينا قصيدةً مبهجة؟ ألا تظن أنه من واجب الاشتراكيين أن يعثروا على علاجٍ لإدمان المخدرات؟ لا شك في أن هذه المشكلة ليست نتاج نظام الربح الرأسمالي.»

ارتسمت على وجه دوجان ابتسامته الأكثر مرارة. وقال: «إذا كان هناك أي بؤس في العالم اليوم لم يعمل نظام الربح الرأسمالي على استمراره، فكم أرغب في رؤيته! هل تظن أن المخدرات تباع نفسها؟ إذا لم تكن تُدر ربحًا، فهل كانت ستُباع لأي أحد غير الأطباء؟ أين تعلّمت اشتراكيتك، على أي حال؟»

فتراجع بيتر سريعًا، وقال: «آه، بالتأكيد، أعرف كل ذلك. ولكن ها أنت ذا مسجون لأنك تريد تغيير الأمور. أليس لديك الحق في أن تمنح نفسك بعض الراحة وأنت هنا؟» نظر الشاعر إليه، وبدت في عينيه نظرة جادة جعلته أشبه ببومة. وقال وهو يهز رأسه: «لا، هل تعني راحتنا في السجن أن لدينا الحق في نسيان شقاء من هم في الخارج؟»

ضحك الآخرون، ولكن دوجان لم يكن يعني أن يكون مضحكاً على الإطلاق. فنهض واقفاً في تتأقل ومدّ ذراعيه أمامه كما لو كان يقدم نفسه أضحياً، وهتف قائلاً:

«ما دامت هناك طبقة دنيا، فأنا منها.

ما دامت هناك جريمة، فأنا منها.

ما دامت هناك روح في السجن، فأنا لستُ حراً.»

ثم جلس ودقّن وجهه في يديه. وجلس أولئك الرجال الأشداء في صميتٍ مطبقٍ. وبعد قليل تحدّث جوس، البحّار السويدي، بخجل، مستشعراً أن العتاب الذي تلقّاه بيتر كان قاسياً للغاية، وقال: «لقد سُجن الرفيق جادج مرتين بالفعل.»

رفع الشاعر بصره مرةً أخرى، ومدّ يده إلى بيتر، وقال، وهو يصافح بيتر مصافحة الرفاق: «أعرف ذلك بالتأكيد!» ثم أضاف: «سأروي لك قصةً تدعو للابتسام!»

في الماضي، يبدو أن دوجان كان يعمل في أحد استوديوهات السينما، وكانوا يحتاجون إلى مشرّدين ومنبوزين وبشر من جميع الأنواع ليعملوا في مجاميع. كانوا يصورون مشهداً «تحضيرياً»، وكانوا يريدون تصوير محرضين ومثيري شغب يحاصرون قصرَ مصريّ. فجمعوا مائتين من الفقراء والمشرّدين وأخذوهم بالشاحنات إلى قصرٍ مصري حقيقي، وعلى مرج حديقة القصر الأمامية، ألقى المخرج خطاباً على الحشد شارحاً فيه أفكاره، فقال: «والآن، تذكّروا، الرجل الذي يملك هذا المنزل هو الرجل الذي يمتلك كل ما أنتجتم من ثروة. لقد وصلتم إلى الحضيض، وتعرفون أنه من سرقكم؛ لذا، أنتم تكروهونه. وها أنتم أولاء قد اجتمعتم في حديقة قصره، وتوشكون على الإغارة على منزله، وإذا استطعتم الإمساك به، فستمزقونه إزباً إزباً بسبب ما فعله بكم.» وهكذا، استمر المخرج في خطبته، حتى قاطعه دوجان أخيراً: «أيها الرئيس، لست بحاجة إلى تعليمنا أي شيء. هذا قصرٌ حقيقي، ونحن متشردون حقيقيون!»

يبدو أن الآخرين رأوا «الابتسام» في هذه القصة، فضحكوا عليها قليلاً. ولكن لم يؤدّ ذلك إلا إلى زيادة الكراهية في قلب بيتر تجاه أولئك الحُمُر؛ فقد جعله يدرك أكثر من أي وقتٍ مضى أنهم مجموعة من «النفوس المعقّدة»، لوّنهم الحقد باللونين الأخضر والأصفر. كانوا يكرهون جميع الناجحين في العالم؛ لمجرد أنهم نجحوا! ربما لن ينجحوا أبداً، ويمكنهم مواصلة التذمر إلى الأبد، ولكن يقدرّ العمال في أمريكا الكبير بطبيعتهم، ذلك الرجل الذي يمكنه تحقيق ما يريد. إنهم لا يريدون تدمير قصره، بل كانوا يُعجبون به لأنه يمتلكه، وكانوا سيتبعون قيادته بسعادة.

بدا وكأن هندرسون الحطاب قد قرأ أفكار بيتر، فقال: «يا إلهي! ما أصعب مهمة توعية طبقة العمال!» كان يجلس على حافة سريره، وقد انحنت كتفاه العريضتان وانعدت حاجباه الكثآن ممعناً التفكير في معضلة كيفية زيادة الاستياء في العالم. تحدث عن مخيم كان عمل فيه؛ كان العمل صعباً وخطيراً لدرجة أن سبعة رجال أسلموا أرواحهم خلال فصل شتاء واحد. كان الرجل الذي يمتلك هذه المنطقة، ويستثمر فيها، قد حصل على الأرض بأكثر أنواع سرقة المال العام فظاعة؛ كانت عنابر النوم قذرة، وملئثة بالحشرات، وكان الطعام فاسداً، وكانت الأجور ضعيفة والسبب لا يتوقف. ولكن، في فصل الربيع جاء ابن المالك الشاب في رحلة شهر غسل مع عروسه. قال هندرسون: «يا إلهي، لو رأيت تلك الأجساد المتيبسة تخرج وتهتف حتى تنجرح حلوقها! كانوا يفعلون ذلك بصدق، كانوا يحبون بالفعل هذين الطفلين العاطلين التافهين!»

استلم جوس البحار دفة الحديث، ذو الوجه العريض البشوش، والابتسامة المرتسمة عليه التي كشفت عن فراغ خُلفته أسنانه الأمامية الثلاث التي حطّمها وتد تثبتت حبال الشراع، قائلاً إن الوضع نفسه ينطبق على البحارة. لم يكن البحارة يعرفون أصحاب السفن، ولم يعرفوا حتى أسماء الأشخاص الذين كانوا يتربّحون من مجهودهم، ولكنهم كانوا مخلصين بجنون لسفنهم، كانت بعض الناقلات القديمة تُرسَل إلى عرض البحر بقصد إغراقها حتى يحصل أصحابها على مبلغ التأمين. ولكن كان البحارة المساكين يحبون تلك السفن القديمة حتى إنهم كانوا على استعداد للغرق معها؛ أو ربما يتمكنون من إنقاذها؛ الأمر الذي كان من شأنه أن يثير استياءً كبيراً في نفس مالكيها!

وهكذا، كان على بيتر أن يجلس ساعاتٍ طوال يستمع إلى تلك القصص المتكررة عن مظالم الفقراء وجرائم الأغنياء. فقد حُكِمَ عليه بالاستماع مدة خمسة عشر يوماً وليلة إلى مجادلات الاشتراكيين! كان لكل واحد من هؤلاء الرفاق تصورٌ مختلف عن كيفية إدارة العالم، وكان لكل واحدٍ منهم تصورٌ مختلف عن كيفية إحداث التغيير. لطالما كانت الحياة صراعاً لا ينتهي بين الأثرياء والفقراء، وكانت المسألة المتعلقة بكيفية تحويل الفقراء إلى أثرياء تُسمّى «استراتيجيات». وعندما تتحدث عن «الاستراتيجيات»، عليك أن تستخدم مصطلحاتٍ فنيةً طويلة تجعل حديثك غير مفهوم للإنسان العادي البسيط. بدا لبيتر أنه كلما نام كان ينام على ألحان البروليتاريا والقيمة الزائدة والزيادة غير المستحقة، والاحتمالية والاستحالة، والعمل السياسي، والعمل المباشر، والعمل الجماعي، والحلقة المفرغة من المذاهب النقابية الفوضوية، والفوضوية الشيوعية، والاشتراكية الشيوعية، والنقابية الاشتراكية.

القسم الرابع والثلاثون

وسط مجموعة مثل هذه، اكتملت إجبارًا، إذا جاز التعبير، دراسة بيتر لتأدية دور المحقق. فكان يستمع إلى كل ما يُقال، وعلى الرغم من أنه لم يجرؤ على تدوين أي ملاحظات، فقد خزن كنوزًا في ذاكرته، وعندما خرج من السجن، تمكّن من إعطاء ماكجيفني صورةً كاملة تقريبًا للمنظمات الراديكالية المختلفة في المدينة الأمريكية، وموقف كل واحدةٍ منها تجاه الحرب.

اكتشف بيتر أن خطة ماكجيفني كانت قد سارت على الوجه الأمثل. فقد أصبح يُنظر إلى بيتر على أنه شهيد وبطل، وتأكّد وضعه كأحد «اليساريين»، وأي شخص يجرؤ على التفوّه بكلمة ضده كان سيُوبّخ بشدة. في واقع الأمر، لم يرغب أحدٌ في قول الكثير عنه. فقد كان بات ماكورميك، عدو بيتر، في رحلةٍ تنظيمية لعمال النفط.

كان قد بدا أن دوجان أصبح معجبًا ببيتر، فصَحبه لمقابلة بعض أصدقائه الذين يعيشون في مخزنٍ قديم مهجور، كانت به فتحات في السقف يتخللها ضوء الشمس؛ الأمر الذي جعل من كل غرفة «استوديو»، واستأجر العديد من الراديكاليين هذه الغرف، ومارسوا في هذا المكان نوعًا من الحياة الخالية من المسؤوليات التي عرف بيتر أنها تُسمّى «بوهيمية». كان أغلبهم من الشباب، وكان من بينهم رجلٌ مُسنٌ أو رجلان، وكانوا مشردين؛ كانوا يرتدون قمصانًا صوفية خفيفة، وربطات عنق ناعمة، أو من دون ربطات عنق على الإطلاق، وكانت أصابعهم ملطّخة دائمًا بالألوان. كانت متطلبات حياتهم بسيطة؛ فكل ما كانوا يريدونه هو كمياتٍ غير محدودة من اللوحات والألوان، وبعض السجائر، وعلى فتراتٍ طويلة، كانوا يحتاجون إلى قطعة من الخيار أو الملفوف المخلّل وزجاجة من البيرة. كانوا يجلسون طوال اليوم أمام حوامل اللوحات يرسمون لوحات لا يمكن فهم المغزى منها؛ سماواتٍ ورديةٍ ونساء ذوات وجوه خضراء وعشبًا أرجوانيًا وإفراطًا خياليًا في الألوان،

وكانوا يسمُّون تلك اللوحات أسماء تتراوح من «المرأة مع وعاء الخردل» إلى «امرأة عارية تهبط الدرج». وكان ثمة آخرون، على غرار دوجان، يقرضون الشعر طوال اليوم؛ يطرقون على أزرار آلات كتابة، إذا استطاعوا استئجار واحدة أو استعارتها. وكان عديدون منهم يغنون، وكان أحدهم يعزف الناي ويجعل الآخرين يشعرون بشجنٍ بالغ. كان ثمة صبي جاء للتو من الريف، وقال إنه هرب من المنزل لأن أفراد عائلته كانوا يغنون الترانيم طوال أيام الأحاد، ولم يغنوها أبدًا بنغمتها الصحيحة.

كنت ستسمع الأقوال الأكثر ثورية من أشخاص على هذه الشاكلة؛ ولكن سرعان ما أدرك بيتر أنها لم تكن تمثل لهم في أغلب الأحيان إلا مجرد كلمات. كانوا يُفرغون فورات غضبهم ببضعٍ لطحاً من اللون على اللوحات أو بضع ضرباتٍ عنيفة على مفاتيح البيانو. لم يكن الأشخاص الخطرون فعلياً موجودين في هذا المكان، بل كانوا مختبئين في مكاتبهم أو أوكارهم التي يحرِّضون منها على الإضرابات والاضطرابات العمالية، ويُعدون المنشورات المحرّضة لتوزيعها بين الفقراء.

كان المرء يلتقي مثل هؤلاء الأشخاص في الاجتماع الاشتراكي العام، وفي المقر الرئيسي لاتحاد العمال الصناعيين العالمي، وفي العديد من الأندية وجمعيات الدعاية التي حَقَّق بيتر في أمرها، والتي رُحِّب به عضواً فيها. خلال الاجتماع الاشتراكي العام، كان هناك جدلٌ محتدم حول الحرب. ما الموقف الذي ينبغي أن يتخذه الحزب؟ كانت هناك مجموعة صغيرة نسبياً، تعتقد أن مصالح الاشتراكية ستتحقق بصورة أفضل عبر مساعدة الحلفاء على الإطاحة بالقيصر. وكانت هناك مجموعة أخرى أكبر وأكثر عزمًا تعتقد أن الحرب مؤامرةٌ دبرتها القوى الرأسمالية المتحالفة لإحكام قبضتها على العالم، وكانت هذه المجموعة تريد من الحزب أن يبذل كل نفيسٍ وغالٍ على مكافحة مشاركة أمريكا في هذه الحرب. كانت هاتان المجموعتان تتنافسان على عقول أعضاء الحزب بمختلف مراتبهم، الذين أصابهم الارتباك بسبب ضخامة القضية وتعقيد الحجج. كانت الأوامر التي تلقاها بيتر هي الانضمام إلى المناهضين المتطرفين للحرب؛ كانوا هم من يرغب في أن يحوز ثقتهم، كما أنهم كانوا مشاغبي الحركة، وكانت تعليمات ماكجيفني هي إثارة أكبر قدرٍ ممكن من الاضطراب.

في المقر الرئيسي لاتحاد العمال الصناعيين العالمي، كانت مجموعة أخرى يناقش أعضاؤها موقفهم من الحرب. هل يدعون إلى إضراب ويحاولون تعطيل الصناعات الرئيسية في البلاد؟ أم يواصلون عملهم التنظيمي في هدوء، واثقين من أن العمال سيفيضُ بهم

الكيل في نهاية المطاف من المغامرة العسكرية غير المحسوبة التي يُستدرجون إليها؟ بعض «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» هؤلاء كانوا أيضًا أعضاء في الحزب الاشتراكي وكانوا حاضرين في كلا الاجتماعين، وكان اثنان منهم، هندرسون الحطّاب، وجوس ليندستروم البحّار، قد أُودعا السجن مع بيتر، وأصبحا من أصدقائه المقربين منذ ذلك الحين.

التقى بيتر أيضًا بدعاة السلام؛ «مجلس الشعب» كما يطلقون على أنفسهم. كان كثيرًا من هؤلاء الناس متدينين، وكان اثنان أو ثلاثة منهم رجال دين، بالإضافة إلى دونالد جوردون، المنتمي إلى جماعة الأصدقاء، ونساء من أنواعٍ متعددة؛ شابات عاطفيات يجزعن من فكرة إراقة الدماء، وأمّهات حفرت الدموع أخايد في وجناتهن ولا يرغبن في أن يُجند أبناؤهن إجباريًا. رأى بيتر على الفور أن اعتراضات هؤلاء الأمّهات ليست «اعتراضات نابغة عن ضمير». فكل أم كانت تفكر في ابنها دون غيره. ضاقت نفس بيتر بطريقة التفكير هذه وكلف نفسه بمهمة خاصة وهي أن يتأكد من أن يؤدي أبناء أولئك الأمّهات واجبهم.

حضر اجتماعًا لدعاة السلام في منزل أحد المعلمين؛ حيث ألقوا خطابًا محزنة، وفي نهاية الاجتماع نهضت الشاعرة الصغيرة أدا روث وقالت إنها تريد أن تعرف، هل كل ما سيفعلونه هو الحديث، أم أنهم سيُنظّمون ويُعدون بعض الإجراءات لاتخاذها ضد التجنيد الإجباري؟ هل يمكن أن يخرجوا إلى الشارع على الأقل وينظموا موكبًا ويرفعوا لافتات الاحتجاج، ويُرَجّج بهم إلى السجن اقتداءً بالتصرف النبيل الذي أقدم عليه الرفيق بيتر جادج؟

دُعي الرفيق بيتر لقول «بضع كلمات»، فأوضح أنه ليس خطيبًا مفوهًا، وأن الأفعال أصدق إنباءً من الكلمات، وأنه حاول أن يتصرف وفقًا لما يؤمن به. تسببت هذه الكلمات في حرجٍ للآخرين وقرروا اتخاذ موقفٍ جريء على الفور. وانتُخبت أدا روث رئيسة «لرابطة مناهضة التجنيد الإجباري»، ودونالد جوردون سكرتيرًا لها؛ ووصلت قائمة بأسماء الأعضاء المؤسسين لهذه الرابطة إلى ماكجيفني في تلك الليلة نفسها.

القسم الخامس والثلاثون

كانت البلاد طوال تلك الفترة تتجه صوب الحرب. وكانت الآلة العسكرية الضخمة تتجهز للعمل، وكانت عواطف الجماهير تزداد تأججًا. وصوّت الكونجرس لصالح الحصول على قرضٍ ضخّم، وكان يجري تنظيم آلة الدعاية على مستوى البلاد، وكان صدى خطابات «رجال الدقائق الأربع» يتردد في ربوع البلاد من ماين إلى كاليفورنيا. واطب بيتر كل صباح على قراءة صحيفة «تايمز» المدينة الأمريكية التي كانت تنشرُ حُطَبَ رجال الدولة ومواعظ رجال الدين، إلى جانب الرسوم الكاريكاتورية والمقالات الرئيسية، والتي كانت تتقدّم جميعها بالحماسة الوطنية. بعدما استوعب بيتر هذه الأمور، تجلّت الحقيقة في روحه. حتى هذه اللحظة، كان بيتر يعيش لنفسه فقط، ولكن يأتي وقتٌ في حياة كل إنسانٍ عاقل يدرك فيه أن الكون لا يدور حوله، وأنه ليس الغاية الوحيدة التي يجب أن يصبوا إليها. كان بيتر يعاني كثيرًا من صراعاتٍ داخلية، موجات من التشكك في استقامته. فكان بيتر، مثل جميع البشر الذين عاشوا قبله، بحاجة إلى دين، إلى مثلٍ أعلى.

كان الحُمر يعتنقون دينًا، إذا جاز التعبير، ولكنه لم يستهو بيتر. فبادئ ذي بدء، كان وضيعًا، وكان أتباعه يفتقرون إلى نعم الحياة، والمكانة، وتلك الراحة التي تصحب طمأنينة الأقوياء. كانوا مزعجين في تعصبهم، ونفر منهم بيتر بقدر ما نفر من الهولي رولرز. كما أنهم كانوا يتحدثون دائمًا عن الحقائق المؤلمة والمخزية للحياة، ومَن قد يتحمل الاستماع إلى «القصص المثيرة للشفقة» غير المنحرفين، رغم أنهم قد يملكون بين أيديهم جميع الأشياء العظيمة، والمبهجة، والرائعة في العالم؟

ولكن الآن كان ثمة دين يريده بيتر. دين الكهنة الذين يرتدون الأثواب البيضاء الثلجية ويُلقون مواعظهم في الكنائس ذات المذابح الذهبية والنوافذ الملونة؛ ورجال الدولة الذين تُحيط بهم هالة الشهرة، ويتنقلون من مكان لآخر تصحبهم هُتافات الآلاف التي

ترنُّ في آذانهم؛ والقادة الصناعيين العظام هؤلاء الذين كان لأسمائهم تأثير السحر؛ إذ كانوا يملكون القدرة على إنشاء مدن وسط الصحاري ثم تسويتها بالأرض مجدداً تحت وابلٍ من القذائف والغاز السام، بمجرد التوقيع بأسمائهم على حفنة من الأوراق؛ ومحرري جريدة «تايمز» المدينة الأمريكية ورسامي كاريكاتيراتها، بكل ذكائهم وثقافتهم؛ اقترن كل أولئك الناس لإنشاء دين ومثالٍ أعلى لبيتر، ثم تسليمه له جاهزاً ومناسباً تماماً لقدرته على الفهم. سيستمر بيتر في فعل الأمور التي دائماً ما فعلها سابقاً، ولكنه لن يفعلها بعد الآن من أجل بيتر جادج، النملة التي لا تساوي شيئاً، بل سيفعلها من أجل أمةٍ عظيمة تضم مائة وعشرة ملايين مواطن، بكل ذكريات ماضيها الثمينة وآمالها المستقبلية التي لا حدود لها؛ سيفعل تلك الأمور باسم الوطنية المقدّس، وباسم الديمقراطية الأكثر قدسية. وفي ظل تلك الظروف، سيستمر رجال الأعمال الكبار في المدينة الأمريكية، الذين أنشئوا مكتب الخدمة السرية الذي يترأسه جوفي، في ضخ الأموال، وسيدفعون لبيتر خمسين دولاراً أسبوعياً بالإضافة إلى المصروفات أثناء خدمته للقضية المقدّسة!

كانت العادة في تلك الأيام أن يتنافس الخطباء والعامّة في إطلاق تعبيرات تصف أعلى مراتب الوطنية، وكان بيتر يقرأ هذه العبارات ويحفظها، وشعر أنها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من شخصيته، وشعر أنها كانت من قريحته هو. أصبح شرهاً للمزيد والمزيد من هذا الغذاء الروحي، ولم يكن إمداد هذا الغذاء الروحي ينقطع أبداً، حتى تضخمت روح بيتر، وانتفخت وكأنها نفخت بمنفاخ. أصبح بيتر أكثر الوطنيين وطنية، أصبح وطنياً خارقاً، كان بيتر أمريكياً متحمساً لانتمائه ولم يُولد وفي فمه ملعقة من ذهب؛ كان بيتر «أمريكياً حقيقياً»، أمريكياً بنسبة ١٠٠٪ - ولو كان ثمة أمريكي بنسبة مائة وواحد بالمائة، لكان بيتر هذا الأمريكي. كان بيتر أمريكياً لدرجة أن مجرد رؤية شخص أجنبي تملأ نفسه بالرغبة في القتال. أما فيما يخص الحُمر، فقد ظل بيتر يبحث لفترة طويلة قبل أن يصل أخيراً إلى صيغة تعبر عن مشاعره نحوهم. وكان رجلٌ دين شهير هو من صاغ له تلك الصيغة، فكان يقول إنه لو كان الأمر بيده، لجمع جميع الحُمر ووضعهم في سفينة مصنوعة من الحجر بأشعة من الرصاص وأرسلهم إلى الجحيم.

كان الضيق يزداد في نفس بيتر أكثر فأكثر بسبب عجزه عن فعل أي شيء. ما مقدار الأدلة الإضافية التي تحتاج إليها الخدمة السرية لشركة تراكشن تراست؟ ظل بيتر يطرح هذا السؤال على ماكجيفني مراراً وتكراراً، وكان ماكجيفني يُجيبه: «هدئ من روعك. أنت تحصل على راتبك كل أسبوع. ماذا دهاك؟»

فكان بيتر يقول: «ما دهاني أنني ضقتُ ذرعًا بالاستماع إلى ثرثرة هؤلاء الرفاق. أريد أن أُخرس أفواههم.»

نعم، كان بيتر قد بدأ في اعتبار استمرار أولئك الراديكاليين في التنديد بالقضية التي اعتنقها إهانةً شخصية له. كانوا جميعهم يعتبرون بيتر رقيقًا لهم، وأصبحوا أكثر ودًا معه، ولكن بيتر كان يعرف كيف سينظرون إليه عندما يكتشفون الحقيقة، وكان هذا الازدراء الذي يتخيله يحرقه مثل الحمض. كان يدور في بعض الأحيان حديثًا عن الجواسيس والمخبرين، وحينئذٍ كانوا جميعًا يستعرضون كامل مفرداتهم من السباب، وبالطبع كان بيتر يطبق كل كلمة منها على نفسه ويستشيط غضبًا. كان يتوق للرد، وكان ينتظر اليوم الذي سيقص فيه لنفسه وقضيته عبر لكم أولئك الحُمُر في الفم.

القسم السادس والثلاثون

قال ماكجيفني ذات يوم: «سأخبرك بأمرٍ مثير للاهتمام. سنتنصم إلى الطبقة الراقية لبعض الوقت!»

قال الرجل ذو وجه الجرد إن هناك شابًا في مدينةٍ مجاورة، يُقال إنه مليونير، أَلَف كتابًا مناهضًا للحرب، وكان مصدر تمويل الكثير من الحركات المحرّضة والداعية للسلام. قال ماكجيفني: «ينفق هؤلاء الناس الكثير من المال على المطبوعات، وسمعنا أن هذا الشاب لاكمان هو مصدر هذه الأموال. وعرفنا أنه سيكون في المدينة غدًا، ونريد منك أن تعرف كل شيء عنه.»

وعليه، كان بيتر على موعد مع مليونير! لم يكن بيتر قد تعرّف على أيّ من هذه الكائنات المحظوظة سابقًا، ولكنه كان معجبًا بهم؛ دائمًا ما كان معجبًا بهم. منذ أن تعلم القراءة، كان يحب أن يقرأ قصصًا تتحدث عنهم في الصحف مصحوبةً بصور لهم ولقصورهم. كان يقرأ هذه القصص كما يقرأ الطفل القصص الخيالية. كانوا كائنات أحلامه، كائنات تنتمي إلى عالم يسمو فوق الواقع، يسمو فوق الألم والمتاعب.

عندما كان بيتر خادمًا في معبد جيمجامبو، مكرسًا نفسه للطائفة الغرائبية اليوثرانية، وجد لوحةً معلقة في القاعة الرئيسية مكتوبًا عليها «جبل الأوليمب»، تعرض دُرّينة من الآلهة الذكور والإناث مستلقين في دعة على أرائك حريرية، يرشفون عصير الفواكه من كئوسٍ ذهبية وينظرون إلى أسفل إلى مشاكل العالم التي لا تهمهم كثيرًا. كان بيتر يتلصص من خلف الستائر ويرى الكاهن الأكبر يخرج من خلف الأستار السرية السبعة، ويرفع صوته المجلجل ملقبًا أنشودة تفسر الحياة لتابعاته من سيدات المجتمع الدائمت الإعجاب بكل ما يقول. كان دائمًا ما يشير إلى تلك اللوحة ويصف تلك العصور الأوليمبية الذهبية عندما نشأت الطائفة اليوثرانية. كان العالم قد تغيّر كثيرًا منذ ذلك الحين، ولكن للأسوأ؛ وعلى

أولئك الذين يملكون القدرة أن يجعلوا إعادة الجمال والروعة إلى العالم، وتطوير إمكانيات الوجود الرائعة، مهمتهم.

بالطبع لم يكن بيتر يؤمن فعلياً بأي شيء مما كان يحدث في معبد جيمجامبو، ولكنه كان معجباً بثرائه، وبالطابع الحصري لمرتابديه؛ وترسّخت بشكل نهائي في ذهنه فكرة أن جبل الأوليمب حقيقي، وعندما كان يحاول تخيل المليونيرات وأسلوب حياتهم، كانت تقفز إلى مخيلته صورة هؤلاء الآلهة من الذكور والإناث، المستقلين على الأرائك الحريرية ويشربون عصير الفواكه!

منذ أن عرف بيتر بأمر الحُمر الذين يريدون تفجير قصور المليونيرات، أصبحت مناصرته لآلهته من الذكور والإناث أكبر من أي وقت مضى. وكان تحمسه لهم يزداد أكثر كلما سمع هجوماً عليهم؛ كان يتمنى أن يلتقي ببعضهم، وأن يقدم لهم فروض الولاء والطاعة بكل حماسة، ولكن باحترام. شعر برضاً يتخلل نفسه عندما تخيل وجوده في أحد القصور مسترخياً على أريكة حريرية ويشرح للميونير كيفية إدراكه قيمة الجمال والروعة في هذا العالم.

أصبح الآن على وشك مقابلة أحدهم؛ فكان من بين مهامه أن يحقق في أمر أحدهم! كان ثمة خطبٌ ما يتعلق بهذا المليونير تحديداً؛ كان من أولئك المخبولين الذين يتعاطفون مع المفجّرين والقتلة لسبب ما. كان بيتر قد التقى «حُمراً أرسقراطيين» في منزل الأختين تود، وأولئك السيدات اللامعات الضخام اللاتي كن يحضرن في سيارات لامعة ضخمة للاستماع إليه وهو يحكي ما مر به في السجن. ولكنه لم يكن متأكداً مما إذا كن مليونيرات بالفعل أم لا، وعندما كان يسأل سادي عنهن تحديداً، كانت تحببه بغموض أن كل شخص في الحركة الراديكالية يستطيع شراء سيارة أو بدلة رسمية تمنحه الصحف لقب مليونير.

ولكن لاكمان الشاب كان مليونيراً حقيقياً، كما أكد له ماكجيفني بكل ثقة؛ ومن ثم، كان بيتر حراً في أن يُعجب به على الرغم من كل أفكاره الغريبة التي أوضحها الرجل ذو وجه الجرذ باستمتاع شديد. كان الشاب لاكمان يدير مدرسة للصبية، وعندما يُخطئ أحدهم، كان المعلم يعاقب نفسه بدلاً من الصبي! قال ماكجيفني إن بيتر لا بد أن يتظاهر باهتمامه بهذا النوع من «التعليم»، ويجب على الأقل أن يعرف عناوين كتب لاكمان.

سأله بيتر: «ولكن هل سيُعيرني أي اهتمام؟»

قال ماكجيفني: «سيفعل بالتأكيد. هذا هو المقصد؛ لقد كنت في السجن، وأقدمت حقاً على فعلٍ مناهض للحرب. ما عليك فعله هو محاولة أن تجعله يهتم برباطتك المعارضة

للتجنيد الإجباري. أخبره بأنك تريد تحويلها إلى منظمة قومية، وأنت تريد أن تفعل شيئاً غير الكلام.»

كان الشاب لاکمان يقيم في فندق هوتيل دي سوتو؛ ورقص قلب بيتر طرباً عندما سمع ذلك. كان فندق هوتيل دي سوتو هو جبل الأوليمب في المدينة الأمريكية! كان بيتر قد مر أمام المبنى الأبيض الضخم، ورأى أبوابه البرونزية التي تُفْتَح للخارج، وأسعد أهل الأرض حظاً يخرجون منه ليركبوا عرباتهم السحرية، ولكن لم يخطر بباله يوماً أنه قد يمرُّ عبر تلك الأبواب البرونزية ويرى بعينيه ما تُوارى خلفها من غموض!

سأل مخاطباً ماكجيفني: «هل سيسمحون لي بالدخول؟» فضحك الآخر. وقال: «ما عليك سوى أن تسير وكأنك تملك المكان. ارفع رأسك، وتظاهر بأنك عشتَ في هذا المكان طوال حياتك.»

كان من السهل على ماكجيفني أن يقول ذلك، لكن لم يكن من السهل على بيتر أن يتخيله. ومع ذلك سيحاول؛ لا بد أن ماكجيفني على حق، فقد كان ذلك الأمر نفسه الذي أكّده عليه السيدة جيمس عدة مرات. يجب أن تراقب ما يفعله الآخرون، وتدرب نفسك عليه، ثم تفعله وكأنك لم تفعل غيره في حياتك. الحياة برمته خدعةٌ كبيرة، وستحسّن من قدرتك على الخداع عبر ثققتك في أن جميع الآخرين يمارسون الخداع بالقدر نفسه من الجهد. في السابعة من مساء ذلك اليوم، كان بيتر يصعد الدرج المؤدي إلى الأبواب البرونزية السحرية، ويلمسها؛ وبالفعل، فتح الحراس بزئيم الأزرق الأبواب دون كلمة، ولم يرفع أولئك الأقدام ذوو الأزرار النحاسية أعينهم لينظروا إلى بيتر بينما يتجه بخطواتٍ واثقة إلى مكتب الاستقبال ويسأل عن السيد لاکمان.

أحاله موظفٌ يتعامل بتعالٍ إلى عامل هاتف أكثر تعالياً، الذي تكرّم وتحدث عبر بوقه وأخبره أن السيد لاکمان قد خرج، وأنه ترك رسالةً تقول إنه سيعود في الثامنة. كان بيتر على وشك الخروج والتجول في الشوارع لمدة ساعة، ثم تذكر فجأةً أن الجميع يخادعون، فسار عبر الردهة وجلس على أحد المقاعد الجلدية الضخمة، التي كانت كبيرة بما يكفي لتتسع لثلاثة رجال في مثل حجمه. جلس على المقعد، واستمر في الجلوس، ولم يتفوّه أحد بكلمة!

القسم السابع والثلاثون

نعم، كان هذا جبل الأوليمب، وهنا تعيش الآلهة؛ كانت الإناث يرتدين ملابس رائعة نصف عارية، وكان الذكور يرتدون في الغالب معاطف سوداء وصدور قمصان مطوية تبرز خارجها. كلما اتجه أحدهم إلى مكتب الاستقبال، كان بيتر يراقبه ويتساءل، هل هذا السيد لاكمان؟ ربما كان قادرًا على التعرف على مليونير وسط حشدٍ عادي؛ ولكن في هذا المكان كان جميع الآلهة الذكور قد هيئوا أنفسهم ليبدووا كمليونيرات، ومن ثم، كانت مهمة بيتر مستحيلة.

عبر أرضية الردهة في مقابله، كان يرتفع عمود يبلغ طوله عشر أقدام إلى سقفٍ عالٍ للغاية. كان العمود مصنوعًا من الرخام الأخضر الفاتح المخطَّط، ورفع بيتر عينيه إلى قمة العمود؛ حيث انتشرت سحابة من لونٍ أبيض كالثلج لا مثيل له. كانت هناك أربعة قرون وفرة، واحدٌ عند كل ركن، ويخرج من كل قرن وفرة حبال متشابكة مزينة بالورود، وتخرج من هذه الورود حبالٌ أخرى تحمل ما يبدو أنه ثمار تفاح وأوراق شجر والمزيد من الورود، ثم مزيد من الحبال تنتشر في تشابكٍ يمتد على كامل السقف. لم يقطع كل هذه الروعة في عدة أماكن إلا وجوه هادئة ضخمة لملائكة صبيان تبتسم؛ أطلَّ أربعة من هؤلاء الصبية الذين يبتسمون في هدوء من الجوانب الأربعة للسحابة البيضاء كالثلج، وتنقلت عينا بيتر من واحد إلى آخر مفتونتين بالحسابات الدقيقة لهذه العجيبة المعمارية. كان هناك أربعة عشر عمودًا مصطفة في صف واحد، وكانت هناك أربعة صفوف مماثلة في الردهة. يعني هذا أن إجمالي عدد الأعمدة ستة وخمسون عمودًا، أو مائتان وأربعة وعشرون رأسًا من رعوس الملائكة الصبية. أخفقت جميع محاولاته لحساب كم عدد قرون الوفرة وكم عدد الورود وكم عدد التفاحات. كانت رعوس الملائكة الصبية متطابقة تمامًا، كانت

جميعها بالحجم نفسه وشكل الابتسامة، وتعجّب بيتر — كم يوماً سيستغرق نحّات في نحت تفاصيل ابتسامات الملائكة الصبية البالغ عددها مائتَيْن وأربعة وعشرين؟ كانت هذه الروعة الباذخة تُغلف فندق هوتيل دي سوتو بأكمله، وشعر بيتر بالتأثير الذهني الذي صُمّمت خصوصاً لإحداثه؛ شعور بالانبهار والرهبة، وإدراك أن مَنْ يعيشون في مثل هذا البذخ أشخاص لا يعنيههم المال، وقادرون على صب الكنوز في فيض لا ينقطع. كان كل شيءٍ آخر في أنحاء المكان له الطابع نفسه؛ فكل شيء كان مصمماً لإحداث التأثير نفسه، حتى الآلهة من الذكور والإناث أنفسهم! قد تُمرّ بجوارك إحداهن مرتدية في شعرها تاجاً مرصعاً بالجواهر، وقد يُسلي المرء نفسه بحساب عدد الجواهر به، مثلما حسب عدد رءوس الملائكة الصبية. أو قد يُشدّ انتباه المرء فستانها المصنوع من الدانتيل الأسود المطرّز بفراشات ذهبية طُرّزت كلّ منها يدوياً بصيرٍ شديد؛ وقد ينخرط المرء في التفكير في أن هذه أمتارٌ كثيرة من القماش، وكل متر مطرّز عليه الكثير من الفراشات الذهبية! وقد يُعد المرء عدد النقاط اللامعة على نعلها السوداء أو يتتّع التصميمات المعقّدة على جواربها شبه الشفافة؛ كان يمكن للمرء رؤية جواربها كاملة فيما عدا بوضةً أو اثنتين فقط.

جلس بيتر يراقب هذه الكائنات السماوية الرائعة وهي تخرج من المصاعد وتتجه إلى غرفة الطعام في الخلف. قد ينصدم البعض من رؤية أزيائهم، ولكنها بدت لبيتر، الذي كان يتذكر صورة جبل الأوليمب، مناسبة تماماً. كل شيء يعتمد على وجهة النظر؛ سواء تخيلت الإناث من الآلهة مكسوات الملابس من ذقونهن إلى أصابع أقدامهن، ثم يمسن مقصاً ويقصّصن جزءاً كبيراً من ملابسهن، أو تخيلتهن من دون ما يستر أجسادهن، ويبدأن في لف أثواب من قماشٍ رقيق حول أنفسهن، ويضعن شريطاً فوق كل كتف من أكتافهن لتثبيت الأثواب في مكانها.

توجّه بيتر إلى مكتب الاستقبال مرتين للاستفسار عما إذا كان السيد لاکمان قد وصل، ولكنه لم يكن قد وصل بعد؛ وبدأ بيتر — الذي أصبح أكثر جرأة، مثل ثعلب خاطب أسداً وجهاً لوجه — يتجول في البهو محدّقاً في تجمعات الآلهة دون رهبة. كان قد لاحظ شرفهً كبيرة تدور حول الجوانب الأربعة لهذا البهو، «المشرف»، كما يُطلق عليها، فقرر أن يرى ما يحدث فيها، وصعد الدرج الرخامي الأبيض المؤدي إليها، ورأى المزيد من صفوف الكراسي والأرائك المصنوعة من المخمل الرمادي الداكن. لا بد أن هذا هو المكان الذي تأتي إليه الإلهات الإناث لتمضية الوقت، وجلس بيتر متوارياً عن الأنظار قدر الإمكان، وظل يراقب. كانت تجلس أمامه مباشرةً واحدة من تلك الآلهة تتكئ على أريكةٍ مخملية مائة ذراعها البيضاء العارية. كانت ذراعاً ضخمة وممتلئة، وكانت صاحبته ضخمة وممتلئة،

ذات شعرٍ ذهبي فاتح وترتدي الكثير من الجواهر اللامعة. وكانت تنقل بصرها بتكاسُل من مكانٍ إلى مكان. ثم استقر على بيتر للحظات، وعاد مجددًا إلى حالته الأولى، وشعر بيتر بأن هذا كان دليلًا على عدم أهميته.

ومع ذلك، استمر في اختلاس النظرات إليها من حين لآخر، ورأى بعد ذلك مشهدًا مثيرًا للاهتمام. في حجر هذه الإلهة، كانت تقبع حقيبة مطرزة بالذهب، وفتحتها لتكشف عن مجموعة من الأدوات الغامضة التي بدأت في استخدامها؛ أولًا مرآة صغيرة من الذهب، استعرضت فيها جمالها الأخاذ؛ ثم إسفنجة بيضاء صغيرة استخدمتها ببراءة في الترتيب على أنفها ووجنتيها؛ ثم شيء أشبه بقلم رصاص أحمر بدأت في تلوين شفثيها به؛ ثم قلم ذهبي اللون مرَّته بخفة على حاجبيها. ثم بدا وكأنها اكتشفت شعرةً صغيرة نمت بعدما غادرت غرفة ملابسها. لم يكن بيتر واثقًا مما تفعل، ولكنها كانت تمسك ملقطًا، وبدا أنها تسحب شيئًا من ذقنها. ثم واصلت عملية تزيين طويلة ومعقدة، دون أن تولي أي اهتمام لمن يمرُّون بجوارها.

جال بيتر ببصره أبعد ورأى أنه مثلما يحدث عندما يعطس شخص أو يتئأب، فيشعر جميع الموجودين في الغرفة بدافع لإرادي للعطس أو التثاؤب، تذكَّرت جميع إلهات الجمال والخصوبة والشباب الأبدي الموجودات على «المشرف» فجأة مراياهن الصغيرة الذهبية أو الفضية، وإسفنجات مساحيقهن التجميلية، وأقلامهن الحمراء أو الذهبية أو السوداء. وبدأت أكياس الزينة الصغيرة تخرج الواحد تلو الآخر، وفكَّر بيتر، الذي كان يحدث في دهشة، في أن جبل الأوليمب تحول إلى صالون تجميل.

نهض بيتر مجددًا وتجوّل مراقبًا الإلهات، الضخامات والضيئات، العجائز والشابات، السمينات والنحيلات، الجميلات والقبيحات، وبدا له أن أكثرهن سمنة، وشيخوخة، وقبحًا كن يحدثن بتركيز أكبر في المرايا الصغيرة. كان يراقبهن بعينين جائعتين لأنه كان يعلم أن وجوده في هذا المكان يعني وجوده وسط الحياة الراقية، الحياة الراقية الحقيقية، أقصى مجد قد يأمل الإنسان في تحقيقه، وكان يريد أن يعرف كل ما يمكن معرفته عنه. فظل يتجوّل، بمظهره البريء الواثق، ووجوه الملائكة البيضاء المائتين والأربعة والعشرين تُطل من السقف لترسل إليه ابتساماتها الهادئة الوديعة، وكان بيتر غافلًا مثلهم تمامًا عن التعقيدات التي أعدها له القدر فوق هذا المشرف!

كانت فتاة تجلس على إحدى الأرائك الكبيرة وكأنها كائنٌ مضيء من جزر الزمرد، وشعرها بلون الشروق ووجنتاها بلون التفاح. ألقى بيتر نظرةً خاطفة واحدة عليها، وتوقف قلبه عن النبض ثلاث مراتٍ متتالية، ثم لتعويض ما فاته من وقت، بدأ قلبه يقفز

كحصان سباق هارب. لم يصدق ما رأته عيناه، لكنهما أصرَّتا على ما تريان؛ فقد كانتا تعرفان جيداً ما تريان؛ نعم، كانت عيناه قد حدَّقتا لساعاتٍ طوال في هذا الشعر الذي بلون الشروق وهاتين الوجنتين اللتين بلون التفاح. كانت تلك الفتاة هي نيل، الخادمة من معبد جيمجامبو!

لم تكن قد نظرت في اتجاه بيتر؛ لذا كان ثَمَّة وقت يكفي للتراجع والتواري خلف أحد الأعمدة؛ وهناك وقف يتأملها غير قادر على تصديق عينيه. لا يمكن أن تكون نيل، ولكنها كانت هي! لقد تغيَّرت نيل وانتقلت للعيش في جبل الأوليمب، لقد تحوَّلت إلى إلهة يحيط بجسدها ثوبٌ رمادي فاتح، وشريط رمادي فاتح فوق كل كتف من كتفيها لتثبيته في مكانه! كانت نيل مستلقية في راحة تتحدث بحيوية مع شاب له وجه كلب بولدوج وسترة عشاء تشبه تلك التي تظهر في إعلانات المجلات!

ظل بيتر يحدق فيها وينتظر، ولم يتوقف قلبه عن الخفقان بطريقةٍ خاطئة. عرف بيتر خلال تلك الدقائق القليلة المخيفة كيف يكون الحب الحقيقي، إنه أكبر قوة غاشمة على الإطلاق. فقد نسي الصغيرة جيني، ونسي السيدة جيمس، الزوجة المهجورة، وأدرك بيتر أنه لم يُعجب فعلياً إلا بامرأةٍ واحدة في العالم، وهي نيل، الخادمة الأيرلندية في معبد جيمجامبو. كان الشعراء قد رأوا صورة رامٍ صغيرٍ مشاكسٍ يحمل سهاماً حادة ونافذة مناسبةً لوصف حُب الشباب، وأدرك بيتر في تلك اللحظة ما كانوا يعنون، لقد نفَذ ذلك السهم إلى قلبه، وكان عليه أن يتمسك بالعمود لكيلا يسقط.

القسم الثامن والثلاثون

في تلك اللحظة، نهض الاثنان واتجها ناحية المصعد، وتبعهما بيتر، ولكنه لم يجرؤ على الدخول إلى المصعد معهما؛ فقد تذكر فجأة الشخصية التي كان يتقمصها لكي يؤدي دوره باعتباره داعية بروليتارياً للسلام! ولكن بيتر كان واثقاً من أن نيل ومرافقها ليسا في طريقهما للخروج من المبنى لأنهما لم يرتديا القبعات أو المعاطف؛ فهبط إلى الطابق السفلي وبحث عنهما في البهو وقاعة الطعام، ثم هبط إلى القبو الذي سمع أصداً موسيقى آتية منه. كانت هناك قاعة ضخمة أخرى مزينة على طراز شرقي غامض، مع أضواء كهربائية مخفية في كومات من الزهور المقلدة على كل طاولة. كانت هذه الغرفة تُسمى «المطعم»، وكان جزء منها عارياً من الأثاث ليرقص فيه من في القاعة، وعلى منصة صغيرة كانت هناك فرقة تعزف الموسيقى.

كانت الموسيقى التي تُعزف أغرب موسيقى سمعتها أذن بشرية! لو سمع بيتر هذه الموسيقى قبل رؤية نيل، لما فهمها، ولكن الآن أصبحت إيقاعاتها الغريبة مناسبة تماماً لحالته الذهنية التي تعذبه. كانت هذه الموسيقى تتأوه، وكانت جلجلة وصريراً؛ كانت تُصدر أصواتاً أشبه بقماش يتمزق بسرعة، أو مثل صافرة تنبيه بخارية على عجلة من أمرها. كانت ترفعل عالياً نحو السماء وتعود لتلقي بك إلى أسفل سافلين. وكان كل شيء ينزلق ويبتلوى، ويرتج، ويهتز، ويقفز بحركات غريبة مُعذبة. لم يكن بيتر سيعرف كيفية الرقص على هذه الموسيقى لو لم يرها تتجسد أمام عينيه في صورة الحركات التي تؤديها الإلهات شبه العاريات والآلهة المرتدون معاطف سوداء على منصة الرقص. كانت هذه الكيانات السماوية تنزلق على الأرضية مثل المتزلجين، وكانوا يتلوون مثل الثعابين، وكانوا يختالون مثل الديوك الرومية، ويقفزون مثل الأرانب، ويسيرون بوقار مثل الزرافات. وكانوا يشبكون أذرع بعضهم ببعض مثل دبّين يحاول أحدهما أن يحتضن الآخر حتى الموت،

وكانوا يلوون أجسادهم كما لو كانوا أفاعي بوا تحاول ابتلاع بعضها بعضًا. وبينما كان بيتر يشاهدهم ويستمتع إلى موسيقاهم، اكتشف أمرًا غريبًا عن نفسه. كانت أشباح جميع أنواع الحيوانات مدفونةً بعمق في روح بيتر؛ فقد كان بيتر أفعى بوا ذات يوم، وكان ذات يوم دبًا، وكان ذات يوم أرنبًا وزرافة، وديكًا روميًا وثعلبًا؛ أعاد سحر هذه الموسيقى الحياة إلى هذه الكائنات الميتة في روحه. وهكذا، اكتشف بيتر معنى «موسيقى الجاز» بجميع مسمياتها الغريبة وتنوعاتها المذهلة.

اكتشف بيتر أيضًا أنه كان في السابق رجل كهوف، وأنه ضرب منافسه على رأسه بفأس حجرية وجرَّ امرأته من شعرها. اكتشف كل هذا بينما كان يقف عند مدخل مطعم فندق هوتيل دي سوتو يراقب نيل، الخادمة السابقة في معبد جيمجامبو، وهي تؤدي حركات الديك الرومي، والثعلب، الدب الأشهب، والأرنب بين ذراعي شاب يشبه كلب البولودج. ظل بيتر واقفًا لفترة طويلة في حالة ذهول. جلست نيل والشاب إلى إحدى الطاولات لتناول الطعام، بينما ظل بيتر واقفًا يراقب ويحاول اكتشاف ما يجدر به أن يفعله. كان يدرك أنه لا يجدرُّ به أن يتحدث معها بزيه الحالي، فلن تكون ثمَّة طريقة تجعلها تفهم أنه يؤدي دورًا فحسب؛ فرغم أنه كان يبدو وكأنه «ميت»، فهو في الواقع رجلٌ ثري لديه أعمالٌ مهمة، وهو وطني غيور على بلاده بنسبة مائة بالمائة متنكر في هيئة داعٍ للسلام من البروليتاريا. لا، يجب أن ينتظر، لا بد أن يرتدي أفضل ما لديه قبل أن يتحدث إليها. ولكن في الوقت نفسه، قد تختفي، وقد لا يتمكن من العثور عليها مرةً أخرى في هذه المدينة الضخمة!

بعد ساعة أو ساعتين، نجح في التوصل إلى طريقة، فأسرع إلى غرفة الكتابة ودوَّن رسالة:

«نيل: أنا صديقك القديم بيتر جادج. لقد أصبحت ثريًا ولديَّ أخبارٌ مهمة لك. تأكدي من مراسلتي. بيتر.» ثم وضع الرسالة في ظرف مكتوب عليه «الآنسة نيل دولين» وأضاف إليه عنوانه وختَّمه.

ثم خرج إلى البهو وأشار إلى أحد الخدم الصغار الذين يرتدون أزرارًا نحاسية كان يتجول في المكان مناديًا أسماء بطريقتهم غنائيةً مبحوحة؛ سحب بيتر هذا الصبي إلى أحد أركان البهو ووضع ورقة من فئة الدولار الواحد في يده. ثمَّة شابة في المطعم يجب أن تتلقى هذه الملاحظة على الفور. الأمر شديد الأهمية. هل يمكن أن يؤدي الخادم ذو الأزرار النحاسية تلك المهمة؟

قال الخادم الصغير إنه سيفعل بالتأكيد، ووقف بيتر عند المدخل يراقبه وهو يجوب أروقة المطعم زهابًا وإيابًا مناديًا بصوته الأشبه بالنعيق: «الآنسة نيل دولين! الآنسة نيل دولين!» مر بجوار الطاولة التي كانت نيل تجلس إليها تأكل؛ وصاح في وجهها مباشرةً، أو هكذا بدا الأمر لبيتر، ولكنها لم يبدُ على ملامحها أي اختلاج.

لم يكن بيتر يدري ما عليه أن يفعل، ولكنه كان مُصرًا على أن تحصل نيل على تلك الرسالة. لذا، عندما عاد الخادم، أشار نحوها، وذهب الخادم مرةً أخرى وسلمها الرسالة. رآها بيتر تأخذ الرسالة، ثم اندفع مبتعدًا، وقد تذكَّر فجأةً أنه من المفترض عليه أن يكون في مهمة، وأسرع إلى مكتب الاستقبال وسأل عن السيد لاکمان. ولكن تملكه الرعب عندما عرف أن السيد لاکمان عاد، ودفع فاتورته، وغادر بحقيبته إلى وجهةٍ مجهولة!

القسم التاسع والثلاثون

كان ثمّة موعدٌ بين بيتر وماكجيفني عند منتصف الليل، وكان عليه الآن أن يذهب إليه ويعترف بهذا الفشل المهين. قال إنه بذل قصارى جهده، وإنه سأل عنه مكتب الاستقبال، وظل ينتظر لفترة طويلة، ولكن لم يُبلِّغه موظّفو الفندق بوصول لاکمان. كان هذا ما حدث حقًّا، ولكنه لم يهدئ من غضب ماكجيفني الذي اكفهر وجهه غضبًا، وقال: «كان من الممكن أن نحصل منه على عدة آلاف من الدولارات! إنه أكبر سمكة كان يمكن أن تعلق في صنارتنا على الإطلاق.»

سأل بيتر الحزين: «ألن يأتي مرةً أخرى؟»

قال الآخر: «لا. سيمسكون به في مدينته الأصلية.»

سأل بيتر بسذاجة: «ولكن ألن يكون ذلك كافيًا؟»

رد عليه ماكجيفني قائلاً: «أيها الأحمق اللعين! كنا نريد الإمساك به هنا؛ حيث يمكننا أن نحصل على ما لديه من معلومات بأنفسنا.»

لم يكن الرجل ذو وجه الجرد ينوي أن يخبر بيتر بكل هذا، ولكن في خضم غضبه، أفصح بكل شيء. كان قد خطط واثنان من أصدقائه لأن «يدينوا» هذا الشاب المليونير بشيء، ويخوفوه حتى يفقد عقله، ويؤهموه بأنه يجب أن يدفع آلافًا كثيرة من الدولارات ليتركوه يمضي في حال سبيله. وكان بيتر سيحصل على حصته من هذه العملية، ولكنه كان أحمق كبيرًا وسمح للطائر بالهروب من شبكته!

اقترح بيتر أن يتبع الشاب إلى مدينته الأصلية ويعثر على طريقة لاجتذابه مرةً أخرى للدخول في نطاق سلطة ماكجيفني. وبعد أن ثار ماكجيفني لبعض الوقت، قرّر أن هذا الاقتراح قد يكون صائبًا، وقال إنه سيعرض الاقتراح على الآخرين، وسيخبر بيتر بالنتيجة. ولكن للأسف، عندما كان بيتر يقرأ الجريدة المسائية في اليوم التالي، قرأ خبرًا في الصفحة

الرئيسية يتحدث عن اعتقال الشاب لاکمان بمجرد خروجه من القطار في مدينته الأصلية في صباح اليوم نفسه، كما دُوهمت مدرسته، وُزج بنصف دُرّينة من معلمها في السجن، وصُودر طُنٌّ من كتب الحُمُر، وكُشف النقاب عن عددٍ كبيرٍ للغاية من المؤامرات الخطيرة لزعزعة الأمن القومي!

قرأ بيتر هذا الخبر وأدرك أنه سيقضي ساعةً عاصفةً أخرى مع رئيسه. ولكنه لم يُطل التفكير في الأمر بسبب أمر حدث قبل بضع دقائق، أمر يحمل أهميةً أكبر بكثير. جاءه رسول برسالةٍ خاصة، وبقلب يقفز من صدره، فتحها وقرأ:

«حسنًا. قابلني في غرفة الانتظار في متجر جوجنهايم في تمام الثانية بعد الظهر اليوم. ولكنني أستحلفك بالله أن تنسى اسم نيل دولين. مع تحياتي، إديث يوستاس.»

ارتدى بيتر أفضل ملابسه، كما فعل أثناء شهر عسله المؤقت مع الزوجة المهجورة، وانطلق قبل الموعد بساعة كاملة. ووصلت نيل، متأنقةً أيضًا، وكانت كل قطعة قماش في الثوب مصممة بحيث تجعل نظرة واحدة تقع عليها تخبر الناظر بأن من يرتديها من أعلى الطبقات الاجتماعية، وأنه لا يهتم بالتكلفة. كانت نيل تنظر خلفها من وقت لآخر أثناء الحديث، وأوضحت أن تيد كروثرز، الرجل ذا وجه البولودج، لا يُطاق، ومن الصعب التملص منه؛ لأنه لا يوجد ما يفعله طوال اليوم.

لم تكن قاعة الانتظار في متجر شاملٍ هي المكان الذي كان بيتر سيختاره للتعبير عن مكنونات صدره؛ ولكنه كان مضطرًا للاستفادة منه قدر الإمكان، فأخبر نيل أنه يحبها، وأنه لن يستطيع أن يحب غيرها أبدًا، وأنه أصبح يملك الكثير من المال الآن، وأنه وصل إلى درجةٍ عالية على سلم الرخاء. لم تسخر نيل منه كما كانت تفعل سابقًا في معبد جيمجامبو؛ لأنه كان من الواضح أن بيتر جادج لم يُعد خادمًا، بل أصبح رجلًا اختبر العالم بطابعٍ غامضٍ مثير. أرادت نيل أن تعرف على الفور ماذا يعمل، فأجاب أنه لا يستطيع إخبارها بذلك؛ فهو سرٌّ على جانب كبير من الخطورة، وأنه أقسم على ألا يخبر أحدًا. كانت تلك الفترة هي فترة الجواسيس الألمان ومؤامرات القنابل، عندما كان الملوك، والقيصرة، والأباطرة، والحكام يُغرقون أمريكا بالكنوز للكثير من الأغراض المبالغ فيها، كما كانت فترة التعاقدات الحكومية والصفقات السرية، عندما كانت الأروقة وأماكن الاجتماعات الخاصة في الفنادق مثل فندق دي سوتو تشهد جمع ثروات وخسارتها طوال الوقت. لذا، كان من السهل على

نيل أن تصدق في وجود سرِّ حقيقي، ولأنها امرأة، فقد كرست كامل قدراتها لمهمة تخمين هذا السر.

لم تطلب مرةً أخرى من بيتر أن يخبرها بالسر، ولكنها تركته يتحدث، ووجهت دفة الحديث بذكاء، ولم تمر فترة طويلة قبل أن تكتشف أن بيتر كان على علاقةٍ وثيقة بعدد كبير من الحُمُر الأشد إحباطاً، كما أنه يعرف كل شيء عن أدق تفاصيل قضية جوبر، وعن كبار المدينة الأمريكية الذين رصدوا مليون دولار لشنق جوبر، وعن الطرق المختلفة التي أنفق عليها هذا المال وعمليات التلاعب التي جرت لضمان إدانته. ربطت نيل المعلومات التي توصلت إليها معاً، ولم تُمر فترة طويلة قبل أن تتوصل إلى الحقيقة، وواجهت بيتر فجأةً بهذه الحقيقة، وألجم بيتر من فرط ذهوله، ثم انهار واعترف لنيل بكل شيء، وأخبرها بجميع خطئه، وإنجازاته، ومغامراته، ولكنه لم يذكر الصغيرة جيني أو الزوجة المهجورة. أخبرها عن الأموال التي يجنيها والتي من المتوقع أن يجنيها، كما أخبرها عن لاكمان وعرض على نيل الصحيفة التي تحتوي على صور المليونير الشاب ومدرسته. قالت نيل: «يا له من شاب وسيم! يا للخسارة!»

سألها بيتر متحيراً: «ماذا تعنين؟» هل يمكن أن تكون نيل متعاطفة مع هؤلاء الحُمُر؟ أجابت: «أعني أن قيمته عندك أكثر من بقيتهم أجمعين.» كانت نيل امرأة، وكان عقلها يفكر من المنظور العملي للأمر. قالت: «اسمع يا بيتر، لقد سمحتَ لهؤلاء «الأوغاد» بخداعك. إنهم يحصلون على الغنائم، ويعطونك الفتات. إنك بحاجة إلى شخصٍ يعتني بك.»

قفز قلب بيتر بين ضلوعه، وصاح: «هل تفعلين ذلك؟» قالت الفتاة: «أنا مرتبطة بتيد. سيقطع رقبتي، ورقبتك أيضاً، إن عرف أنني هنا. ولكنني سأحاول تحرير نفسي من قبضته، وبعد ذلك ربما أفعل؛ لن أعدك بشيء، ولكنني سأفكر في مشكلتك يا بيتر، ولا شك في أنني سأحاول مساعدتك حتى لا يتمكن ماكجيفني وجوفي وأولئك الرفاق من خداعك أكثر من ذلك.»

قالت إنها لا بد أن تحصل على بعض الوقت للتفكير في الأمر ملياً، ولإجراء بعض التحقيقات عن الأشخاص المعنيين؛ على ما يبدو، كانت تعرف بعضهم. وستلتقي بيتر مرةً أخرى في اليوم التالي، وفي مكان أكثر خصوصية من هذا المكان. وذكرت اسم مكان في حديقة المدينة من السهل العثور عليه، ولكنه في الوقت نفسه بعيد بما يكفي لعقد اجتماع هادئ.

القسم الأربعون

كان بيتر قد اكتسب بعض الجرأة بفضل مديح نيل له وما قالته عن أهميته، حتى إنه لم يُعد إلى ماكجيفني ليتلقَى توبيخه الثاني على قضية لاكمان. كان قد بدأ يفيض به الكيل من توبيخ ماكجيفني له؛ إذا لم يكن ماكجيفني يعجبه ما يفعل بيتر، فليذهب ويتظاهر بأنه أحد الحُمُر لبعض الوقت. ظل بيتر يتجول في الشوارع طوال اليوم وقسمًا من الليل، يفكر في نيل، ويتشوق لأن تنفذ نصف الوعود التي وعده بها.

التقيا في اليوم التالي في الحديقة. لم يكن أحد يتبعهما، وعثرا على مكان خاص، وسمحت نيل له بتقبيلها عدة مرات، وأثناء القبلات، كشفت له عن خطة مرعبة. كان بيتر يرى أنه يُعد مدبرًا بارعًا للمكائد، ولكن احترامه لنفسه انهار إلى العدم عندما سمع الفكرة الرائعة التي نضجت في خلال أربع وعشرين ساعة في عقل نيل دولين، المعروفة أيضًا بإديث يوستاس.

كان بيتر يضطلع بالعمل الشاق، وكان هؤلاء الكبار يستغلونه، ويمنحونه إكراميةً من حين لآخر، بينما يجمعون هم ثرواتٍ من المعلومات التي كان يجلبها لهم. لقد كشف ماكجيفني الأمر في قضية لاكمان؛ ولتكن على يقين في أنهم يجنون أموالاً، أموالاً طائلة، من جميع القضايا الأخرى. ما يجب على بيتر فعله هو أن يعمل على قضية خاصة به، ويجني منها الكثير من المال، ويجعل نفسه واحدًا من الكبار. كان بيتر يعرف الحقائق، وكان يعرف الناس، وشاهد في قضية جوبر تحديدًا كيف تم «تلفيق» التُّهم، وعليه الآن أن يلفق تهمة لأحد من أجل صالحه هو، تهمة تُدر عليه المال. كان من واجبه تخليص البلاد من جميع هؤلاء الحُمُر، ولكن لم لا يجني بعض المال أيضًا؟

قضت نيل الليلة بطولها تفكر في الأمر، وتحاول اختيار الشخص المناسب. واستقر تفكيرها على المصرفي العجوز «نيلس» أكيرمان. كان أكيرمان فاحش الثراء؛ فكان يُطلق

عليه ملك المال في المدينة الأمريكية. كما أنه كان مسنًا، وكانت نيل تعرف أنه جبان، وكان طريح الفراش في الوقت الحالي، وعندما يمرض الرجل، فإنه يصبح أكثر جبنًا. ما على بيتر أن يفعله هو أن يكتشف مؤامرة تفجير ضد العجوز «نيلس» أكيرمان. قد يتحدث بيتر عن الفكرة مع بعض الحُمر الذين يعرفهم ويجعلهم يهتمون، أو قد يلفق بعض الرسائل ليُعثر عليها معهم ويخفي بعض الديناميت في غرفهم. وعندما تُكتشف المؤامرة، ستحدث ضجة كبيرة، ولا شك في أن الملك سيسمع بها، وبالدور الذي لعبه بيتر في اكتشافها، ومن المؤكد أنه سيكافئ بيتر على ذلك. وربما يرتب بيتر الأمور بحيث يصبح عميلًا سرّيًا لحماية الملك من الحُمر. وبذلك، يجمع بيتر أموالًا طائلة، بل وقد يُوظّف جوفي وماكجيفني ليعملوا تحت إمرته، بدلًا من توظيفهم هم له.

لو أن بيتر كان وحده، فهل كان سيجرؤ على التفكير في فكرة خطيرة كهذه؟ أم كان سيظل «رعديًا»؛ شخصًا جبانًا، ضحية خوفه وغروره؟ على أي حال، لم يكن بيتر وحيدًا؛ كانت معه نيل، وكان من الضروري أن يظهر أمام نيل كشخص جريء ومقدام. ومثلما كان الحال في أيام المعبد الخوالي، كان من الضروري أن يجمع بيتر الكثير من المال لكي يبعد نيل عن جميع الرجال الآخرين. لذا، قال بيتر حسنًا، سيُنْفَذ هذه الخطة، وبدأ يناقش نيل حول الشخصيات المختلفة التي يمكنه استغلالها.

كان الخيار الأكثر احتمالًا هو بات ماكورميك. فقد كان «ماك»، بوجهه القاسي وعاداته الغامضة الخفية، مناسبًا تمامًا لتصوير بيتر لمفجر الديناميت. هذا بالإضافة إلى أن «ماك» كان عدو بيتر الشخصي. كان «ماك» قد عاد للتو من رحلته التنظيمية في حقول النفط وكان يسيء لبيتري ويثير الشائعات حوله في مختلف الجماعات الراديكالية. كان «ماك» هو الأحمر الأكثر خطورة بينهم جميعًا! ولا بد أن يكون أحد المفجرين!

كان الخيار المحتمل الآخر هو جو أنجيل، الذي التقاه بيتر أخيرًا في أحد تجمعات «رابطة أدا روث المناهضة للتجنيد الإجباري». كان الناس يتمازحون حول اسم هذا الشاب فقد كان اسمًا على مُسمّى من ناحية مظهره؛ فاسم «أنجيل» يعني ملاكًا، وكان يبدو كذلك بعينيه الزرقاوين الفاتحتين اللتين كانتا تبدوان وكأنهما هبطتا من السماء، وشعره الذهبي اللامع، وحتى الغمازتين الصغيرتين في وجنتيه. ولكن عندما كان جو يفتح فمه، كنت تكتشف أنه ملاك من الطبقة الدنيا. فقد كان الأكثر جرأة وتحديًا من بين جميع الحُمر الذين قابلهم بيتر حتى الآن. كان قد سخر من أدا روث وموقفها الأدبي العاطفي تجاه موضوع التجنيد الإجباري. فلم يكن نظم القصائد وتمير القرارات يفيدان القضية،

ولم يكن حتى رفض الرجال ارتداء الزي العسكري مفيداً للقضية، بل ما سيفيدها هو قبول الرجال للبنادق التي تُقدم لهم، ثم يدربون أنفسهم على استخدامها، ثم يوجهون بنادقهم نحو الاتجاه الآخر عندما يحين الوقت المناسب. كان التحريض والتنظيم مقبولين في موضعهما المناسب، ولكن عندما تتجرأ الحكومة على تحدي العمال وإجبارهم على الانضمام إلى الجيش، ستحتاج الحركة الراديكالية إلى الرجال العمليين.

كان جو أنجيل قد ذهب إلى منطقة الحطابين وكان يعرف مزاج العمال الحقيقيين، أولئك الرجال «الأقوياء» من الغابات. لم يكن هؤلاء الرجال يتكلمون كثيراً، وكانوا قد كونوا لجاناً سرية مستعدة للسيطرة على الأمور بمجرد إخراج الرأسماليين وحكوماتهم من الصورة. وفي الوقت نفسه، إذا تصرف مأمور أو مدعٍ عام بطريقة غير لائقة، فإنهم «سيتخلصون منه». كانت هذه هي العبارة المفضلة لدى «أنجيل ذي العينين الزرقاوين». فقد كان يستخدمها كل نصف ساعة تقريباً بينما يحكي عن مغامراته. كان يقول: «نعم، أصبح يتصرف بطريقة غير لائقة، ولكننا تخلصنا منه دون مشكلات.»

القسم الحادي والأربعون

وهكذا بدأت نيل وبيتر العمل على تفاصيل «تلفيق» التهم لكل من جو أنجيل وبات ماكورميك. كان على بيتر أن يجمع مجموعة منهم معًا ويجعلهم يتحدثون عن القنابل وقتل الناس، ثم يضع رسالة في جيب كل من أظهر اهتمامًا يدعوه للقاء لمناقشة مؤامرة حقيقية. كانت نيل هي من سيتولى كتابة الرسائل حتى لا يتمكن أحد أن يربط بيتر بها. أخرجت نيل قلم رصاص ودفترًا صغيرًا من حقيبة يدها وبدأت تكتب: «إذا كنتَ تؤمن حقًا بتوجيه ضربة قاصمة من أجل حقوق العمال، فقابلني في ...» ثم توقفت عن الكتابة، وسألت بيتر: «أين؟»

قال بيتر: «في الاستوديوهات.»

فكتبت نيل: «في الاستوديوهات. هل هذا كافٍ؟»

قال بيتر: «الغرفة ١٧.» فقد كان يعرف أن هذه غرفة نيكيتين، وهو رسَّامٌ روسي يدَّعي أنه تابع للمذهب الفوضوي.

فكتبت نيل: «الغرفة ١٧.» وبعد مناقشةٍ أخرى أضافت:

«صباح الغد في تمام الثامنة. لا أسماء ولا حديث. عمل فقط!» حدَّد هذا الموعد لأن بيتر تذكَّر أنه كان من المقرر عقد تجمع «لأعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» في مقرهم مساء اليوم نفسه. كان من المفترض أن يكون اجتماع عمل، ولكن على مدار فترة طويلة، لم يجتمع هؤلاء الرفاق دون أن يتطرقوا إلى موضوع «التخطيط». كان ثمة عددٌ كبيرٌ منهم غير راضين عما أطلقوا عليه اسم «حالة الاستسلام» التي تتبعها المنظمة، وكانوا يطالبون دائمًا بضرورة التحرك. كان بيتر واثقًا من أنه سيتمكن من جعل بعضهم يهتمون بفكرة مؤامرة التفجير بالديناميت.

وبالفعل، لم يواجه بيتر أي مشكلة على الإطلاق؛ فقد انفتح الموضوع دون أن يُضطر إلى إثارته ولو بكلمة واحدة. هل من المفترض أن يُساق العمال مثل الأعمام إلى المذبح، ولا يُقدّم «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» على التحرك؟ طرح «أنجيل ذو العينين الزرقاوين» هذا السؤال متحمسًا، وأضاف أنهم إذا كانوا سيتحركون، فلا فارق بين المدينة الأمريكية وأي مكانٍ آخر. وأنه تحدث مع عددٍ كافٍ من جميع فئات العمال جعله يدرك أنهم مستعدون للتحرك، وأن كل ما يحتاجونه هو دعوة للقتال ومنظمة لتوجيههم. تحدث هندرسون، النجار الضخم، وقال إن هذه هي العقبة الحقيقية؛ فلا يمكنك تكوين منظمة لهذا الغرض تحديدًا، فستزرع السلطات جواسيس بينكم، وستكتشف ما تفعلون، وستجبركم على العمل في الخفاء.

صاح جو: «لا بأس، سنعمل في الخفاء!»

وافقه الآخر قائلاً: «نعم، ولكن بعد ذلك ستنهار منظمتك، وستندم الثقة بين أعضائها، وسيبدأ الجميع في تبادل الاتهامات بأنهم جواسيس.»

قال جو أنجيل: «اللجنة على كل هذا! لقد سُجِنْتُ لأجل الحركة، وسأواجه أي شخص يتهمني بأنني جاسوس. ولكن ما لن أفعله هو الجلوس ومشاهدة العمال يُساقون إلى الجحيم لأنني أخشى أن تُمس منظمتي الثمينة بسوء.»

عندما اعترض آخرون، تحدث أنجيل على نحو أسرع وأكثر حدة، وقال ماذا لو أنهم فشلوا في تحقيق انتفاضة جماعية، وماذا لو أنهم أُجبروا على اللجوء إلى الاغتيالات والإرهاب؟ على الأقل سيُعلمون المستغلين درسًا ويقللون، ولو قليلًا، من السعادة في حياتهم. رأى بيتر أنه من الأفضل أن يتظاهر بأنه محافظ في الوقت الحالي، فسأل: «هل تظن حقًا أن الخوف قد يردع الرأسماليين؟»

أجاب الآخر: «بالتأكيد! أقول لك إننا لو كنا جعلنا الجميع يدركون أن كل عضو في الكونجرس صوّت في صالح مشاركة هذا البلد في الحرب سيُرسل إلى الخنادق على الجبهة، لظل بلدنا في حالة سلام.»

تدخل بيتر ببراعة وقال: «ولكنهم ليسوا أعضاء الكونجرس. إنهم أشخاص أعلى منهم.»

تدخل جوس، البحّار السويدي، وقال: «بالتأكيد. أنت محق! يمكنني أن أذكر لكم أسماء دُزينة من الأشخاص المهمين في هذا البلد — لقد أوضحت أننا لن ننعّم بالسلام إلا بعد أن يُقتلوا جميعًا — من المؤكد أننا سننعّم بالسلام حينئذٍ!»

وبهذا، كان بيتر قد رتّب الأمور كما أراد تمامًا. ثم سأل: «ما أسماؤهم؟» وجعل المجموعة تتجادل حول الأسماء. لم يستمر الجدل طويلًا قبل أن يذكر أحدهم اسم «نيلس» أكيرمان، الذي كان الحُمر يمقتونه بشدة لأنه تبرع بمبلغ مائة ألف دولار إلى صندوق معاداة جوبر. تظاهر بيتر بأنه لا يعرف من يكون نيلس؛ وعلّق جيري رود، «المشرّد» الذي كان رأسه ما يزال يؤلّه بسبب الضربة التي تلقاها خلال إضراب الحاصدين الأخير، قائلاً إنه إذا سيق بضعة رجال مثل هؤلاء إلى الخنادق، لظهرت حركة سلام قوية في أمريكا بكل تأكيد.

بدا وكأن جو أنجيل قد جاء إلى هنا لدعم هدف بيتر. فقد قال: «ما نريده هو بضعة رجال يقاتلون بقوة من أجل أنفسهم مثلما يقاتلون من أجل الرأسماليين.» وافقه هندرسون، عابسًا، بقوله: «نعم. إننا صالحون؛ ننتظر حتى يُخبرنا أسيادنا أننا يمكن أن نقتل، فنقتل.»

كانت هذه هي نهاية النقاش، ولكنه بدا كافيًا لبيتر. لقد تحيّن فرصته، وتمكّن من وضع رسائله الصغيرة، الواحدة تلو الأخرى، في جيوب معاطف كل من جو أنجيل، وجيري رود، وهندرسون، وجوس، البحّار. ثم هرب بيتر وجسده يرتجف من فرط الانفعال. لقد بدأت مؤامرة تفجير الديناميت العظيمة! وكان يهمس لنفسه قائلاً: «يجب التخلص منهم! يجب التخلص منهم بأي وسيلة كانت! أنا أؤدي واجبي.»

القسم الثاني والأربعون

كان بيتر على موعد للقاء نيل عند ناصية شارع في الحادية عشرة من مساء الليلة نفسها، وعندما خرجت من العربة، رأى بيتر أنها تحمل حقيبة. فسألته سريعاً: «هل أتممت مهمتك؟» وعندما أجاب بيتر بالإيجاب، أضافت: «إليك قبلك!»

فغر بيتر فاه في نهم. وبدا خائفاً للغاية لدرجة أنها أسرعت تطمئنه قائلةً إن القبلة لن تنفجر، بل إن هذه كانت مكونات القبلة فحسب، ثلاثة أعواد من الديناميت وبعض الفتائل وجزء من ساعة. كانت أعواد الديناميت ملفوفة بعناية، واحتمالية انفجارها منعدمة؛ إن لم يُسْقَطْها! ولكن لم يشعر بيتر بالاطمئنان التام. لم يكن يملك أدنى فكرة عن أن نيل ستنمادى إلى هذا الحد، ولا أنه سيضطّر فعلياً لحمل الديناميت. تساءل من أين وكيف حصلت على الديناميت وتمنى لو كان خارج هذا الأمر برمته.

ولكن كان الأوان قد فات بالطبع. قالت نيل: «عليك أن تُدْخِلَ هذه الحقيبة إلى المقر، و عليك أن تُدْخِلَها دون أن يراك أحد. سيغلقون المقر قريباً، أليس كذلك؟» قال بيتر: «لقد أغلقناه عندما انصرفنا.»

«ومن معه المفتاح؟»

«جرادي، السكرتير.»

«ألا توجد طريقة يمكنك بها الحصول عليه؟»

قال بيتر بسرعة: «أستطيع الدخول إلى الغرفة. يُوجَد سَلَمٌ نجاة، والنافذة ليست محكمة الغلق. بعضنا يعرف هذا الطريق ويدخل المقر عبْرَه عندما يكون المكان مغلقاً.»

قالت نيل: «حسنًا. سننتظر قليلاً؛ يجب ألا نخاطر بعودة أحدهم.»

بدأ يسيران في الشارع، ونيل لا تزال تحمل الحقيبة وكأنها غير واثقة من ثبات أعصاب بيتر، وفي الوقت نفسه قالت شارحةً: «معي ورقتان يجب أن ندُسَّهما في الغرفة. يجب أن

تُمزق الورقة الأولى وتُرمى في سلة المهملات. من المفترض أنها جزء من رسالة تتحدث عن خطة كبيرة قيد التنفيذ، وهي موقعة باسم «ماك». هذا اختصار لماكورميك، بالطبع. اضطررتُ لكتابتها على الآلة الكاتبة لأنني لم أكن أملك عينة من خط يده. أما الورقة الأخرى، فهي رسم؛ لا توجد علامات تُظهر ماذا يكون، ولكن سرعان ما ستكتشف الشرطة ماذا يكون. إنه مخطط لمنزل أكبرمان القديم، وهناك علامة صليب تشير إلى شرفة غرفة نومه. والآن، ما نريد القيام به هو تثبيت هذه التهمة على ماكورميك. هل هناك أي شيء في الغرفة يخصه؟»

أطرق بيتر قليلاً ثم تذكر أن هناك بعض الكتب التي تبرع بها ماكورميك بين الكتب المرصوفة على الرفوف، وأن اسمه مكتوبٌ فيها. صاحت نيل قائلة إن هذا هو المطلوب! سيُخفيان الورقة في أحد هذه الكتب، وعندما تُجري الشرطة بحثها المدقق، ستعثر عليها. سألته نيل عما تتحدث عنه هذه الكتب، وأطرق بيتر، وتذكر أن أحدها يتحدث عن التخريب. قالت نيل: «ضع الورقة في هذا الكتاب. وعندما تعثر الشرطة عليها، ستطبع الصحف الكتاب بأكمله.»

كانت ركبتا بيتر ترتعشان لدرجة أنه لم يكن يستطيع المشي إلا بمشقةٍ شديدة، ولكنه استمر في تذكير نفسه أنه «رجل بحق»، أمريكي بنسبة مائة بالمائة، وأنه في أوقات الحرب مثل تلك يجب على كل وطني أن يؤدي دوره. وكان دوره هو المساعدة في تخليص البلاد من هؤلاء الحُمُر، ويجب ألا يتراجع. اتجها إلى المبنى القديم الذي يُوجد به مقر اتحاد العمال الصناعيين العالمي، وتسلق بيتر السياج وقفز من فوق سلم الهروب من الحريق، وسلمته نيل الحقيقية بعناية، وفتح بيتر النافذة المكسورة وتسلل إلى داخل الغرفة.

كان يعرف مكان الخزانة تحديداً، وسرعان ما أخفى الحقيقية في أحد أركانها وكدس بعض الأشياء أمامها وألقى قطعة قديمة من القماش فوقها. أخرج من جيبه الأيمن رسالة مكتوبة بالآلة الكاتبة ومزقها إلى قطع صغيرة وألقاها في سلة المهملات. ثم أخرج من جيبه الأيسر الورقة الأخرى، التي تحمل مخططاً لمنزل أكبرمان. اتجه بيتر نحو خزانة الكتب، وبأصابع مرتجفة أشعل عود كبريت، وانتقى الكتاب الصغير ذا الإطار الأحمر الذي يحمل عنوان «التخريب»، ودس الورقة داخله، وأعاد الكتاب إلى مكانه. ثم خرج عبر النافذة إلى سلم الهروب من الحريق ونزل منه إلى الأرض، ثم قفز فوق السياج، وأسرع الخطى في الزقاق إلى حيث كانت نيل تنتظره.

وكان يهمس لنفسه طوال الوقت قائلاً: «كل هذا من أجل بلادي!»

القسم الثالث والأربعون

أصبحت الخطة الآن مكتملة باستثناء جلب ماكورميك إلى الاجتماع في صباح اليوم التالي. كانت نيل قد أعدت خطاباً مستعجلاً موجَّهاً إلى منزل ماكورميك سُرسل عبر مكتب البريد. وحددت موعد تسليمه في نحو السابعة صباحاً، وبداخله رسالة مكتوبة بالآلة الكاتبة كان نصها كالآتي:

«ماك: تعالَ إلى الغرفة ١٧ من الاستوديوهات في الثامنة صباحاً. الأمر مهمٌ للغاية. أصبحت خطتنا جاهزة الآن، لقد أنجزت الجزء الذي كُلفت به. جو.»

كانت نيل ترى أن ماكورميك سيظن أن أنجيل هو من أرسل هذه الرسالة. إنه لن يعرف ما الأمر الذي تتحدث عنه الرسالة، ولكن هذا سيجعله أكثر حرصاً على الحضور لاكتشافه. الخطوة الجوهرية هي أن يُداهم المحققون المكانَ لحظة اجتماع المتأمرين معاً؛ لأنهم بمجرد أن يقارنوا الرسائل التي وصلتهم سيرتابون في الأمر وقد يتفرقون على الفور. يجب أن يكون رجال ماكجيفني جاهزين، ويجب أن يُبلغ بذلك قبل فترة تكفي لتجهيزهم.

ولكن كانت ثمة عقبة كبيرة؛ إذا توفّر لماكجيفني وقتٌ كافٍ، فسيطلب التحدث إلى بيتر، وكانت نيل واثقةً من أن بيتر لن يتحمل أن يخضع لاستجوابٍ تفصيلي على يد ماكجيفني. بالطبع وافقها بيتر على هذه الخطة؛ وكاد قلبه أن يتوقف لمجرد التفكير في مثل هذه المحنة. ما كان بيتر يريدُه حقاً هو الانسحاب من الأمر برُمَّته على الفور، ولكنه لم يجرؤ على قول ذلك، لم يجرؤ على مواجهة الاحتقار الشديد الذي ستصُبه عليه شريكته. شبكُ بيتر يديه وجزَّ على أسنانه، وعندما سقطت إنارة الشارع على وجهه، أشاح به بعيداً حتى لا ترى نيل الرعب المهين البادي عليه. ولكن نيل رأتُه على أي حال، وفكرت في أنها

تتعامل مع جبانٍ رعديدٍ ممتنعٍ الوجه، وبدأت العمل على هذا الأساس، فخطّطت للأمر، وكلفت بيتر بمهام، ولازمته لتتأكد من أنه نفّذها.

كان مع بيتر رقم هاتف منزل ماكجيفني، والذي كان من المفترض ألا يستخدمه إلا في أقصى الحالات الطارئة. وكان عليه أن يستخدمه الآن ليخبر ماكجيفني بأنه قد كشف للتو مؤامرةً دبرها بعض أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي، تحت قيادة بات ماكورميك، وهم يستعدون حالياً لتفجير بعض الأشخاص بقنابل الديناميت. كانت معهم بعض القنابل في حقيبة ملابس في مقرهم، وهم يهْمون بالخروج واضعين قنابلٍ أخرى في جيوبهم. وعلى بيتر أن يتبعهم وإلا فسيفقد أثرهم، وقد تُرتكب جريمةٌ قبل أن يتمكّن من التدخل لمنعها. وعلى ماكجيفني أن يأمر عملاءه بتجهيز سياراتهم ليهجموا على أي مكانٍ يحدّده بيتر. سيتبع بيتر المتأمرين، وسيتصل بماكجيفني مرةً أخرى عند أول فرصةٍ سانحة.

أصرت نيل بشدة على أن يتصل بيتر بماكجيفني في اللحظة الأخيرة، وألا يكون ثمّة وقتٌ لطرح الأسئلة، وألا يجيب عن أي أسئلة تُطرح عليه. يجب أن يتظاهر بأنه في حالة من الهياج والإثارة، وكان بيتر واثقاً من أنه لن يكون في حاجة إلى التظاهر! تدرّب مع نيل على كل كلمة سيقولها، وكيف سيقطع المكالمة وينهيها. ثم دخل إلى صيدليةٍ تعمل طوال الليل تقع على مرمى حجرٍ من المقر، ومن كشك هاتف داخل الصيدلية، اتصل بمنزل ماكجيفني.

كان ماكجيفني يسكن في شقة، ومَر بعض الوقت قبل أن سمع بيتر صوت رئيسه في العمل المتذمر الناعس. ولكن جعله بيتر يُفوق سريعاً بأن قال: «سيد ماكجيفني، هناك مؤامرة لتفجير قنابل ديناميت!»

«ماذا...؟»

«أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي معهم قنابل في حقيبة! وهم على وشك تفجير شخصٍ ما الليلة.»

«يا إلهي! ماذا تعني؟ من تحديداً؟»

«لا أعرف بعد. لقد سمعتُ جزءاً من المؤامرة فحسب، ويجب أن أذهب. بدءوا يتحركون، ويجب أن أتبعهم. قد أفقد أثرهم، وحينئذٍ سيكون الوقت قد فات. هل تسمعني، يجب أن أتبعهم!»

«أسمعك. ماذا تريد مني أن أفعل؟»

«سأتصل بك مرةً أخرى عند أول فرصةٍ سانحة. جهّز رجالك، عشرة رجال! جهّز سيارات حتى تتمكن من الحضور سريعًا. هل تفهمني؟»

«نعم، ولكن...»

«لا أستطيع التحدّث أكثر من ذلك، قد أفقد أثرهم، لا يمكنني إضاءة ثانية واحدة! ابقَ بجوار الهاتف واجعل رجالك مستعدين؛ جهّز كل شيء. هل تفهمني؟»

«نعم، ولكن اسمع يا رجل! هل أنت واثق من أنك لست مخطئًا؟»

صاح بيتر، وصوته يرتفع من فرط الانفعال، وقال: «نعم، نعم، أنا واثق! أقول لك إن معهم قنابل ديناميت ... الكثير منها! إنه رجلٌ يدعى نيلس.»

«نيلس ماذا؟»

«الرجل الذي سيقتلونه. يجب أن أذهب الآن، كن جاهزًا. وداعًا!» أنهى بيتر المكالمة. جعله الدور الذي كان يؤديه ينفعل بشدة لدرجة أنه خرج من الصيدلية قفزًا، كما لو كان يجدرُ به حقًا أن يلحق ببعض المتأمّرين من اتحاد العمال الصناعيين العالمي الذين يحملون قنبلة ديناميت!

ولكن كانت نيل تنتظره، وسارا معًا في الشارع مجددًا حتى وصلا إلى منتزه صغير، وجلسا على إحدى الأرائك؛ لأن ساقبي بيتر لم تعودا قادرتين على حمله. تجوّلت نيل في المنتزه لتتأكد من أن أحدًا لا يجلس على أيٍّ من الأرائك الأخرى المحيطة بهما، ثم عادت وراجعت المشهد التالي مع بيتر. يجب أن يراجعا ذلك المشهد بعنايةٍ شديدة لأنه سرعان ما سيحين الوقت الذي لن تكون فيه نيل مع بيتر لتدريبه، ويجب أن يكون مستعدًا للاعتماد على نفسه. كان بيتر يعرف ذلك، ولم تستطع ساقاه حمله. كان يريد أن يتراجع ويعلن أنه لا يستطيع المضي قدمًا في تنفيذ الخطة، وكان يريد الذهاب إلى ماكجيفني والاعتراف بكل شيء. شعرت نيل بما يدور في نفسه وأرادت أن توفّر عليه الإنزال الذي سيتعرض له إذا ما كُشفت الخطة، فجلست بجواره على الأريكة ووضعت يدها على يده بينما تتحدث إليه، وبعد قليل شعر بيتر برعشةٍ سحريةٍ تملكه. فتجرّأ على إحاطة نيل بذراعيه ليرتشف المزيد من هذا الشعور اللذيذ؛ وسمحت نيل بهذا العناق، بل شجّعته على ذلك للمرة الأولى على الإطلاق. كان بيتر بطلًا الآن، وكان يُقدّم على مغامرة جريئةٍ ومستميتة، وكان سيُنمّنها كرجلٍ حقيقي ويفوز بإعجاب نيل الحقيقي. صاحت نيل قائلة: «بلادنا في حالة حرب! وهؤلاء الشياطين يحاولون إيقافها!»

سرعان ما كان بيتر جاهزًا لمواجهة العالم بأسره؛ كان على استعداد لأن يذهب بنفسه إلى ملك المدينة الأمريكية ويُفجّرهُ بقنبلة ديناميت! ظل على تلك الحالة حتى ساعات الصباح

٪١٠٠

الأولى، جالسًا على الأريكة معانقًا فتاته بين ذراعيه، متمنيًا لو زادت من الوقت المكرّس للاهتمام بحبه لها، وقلّلت من الوقت المكرّس للتدرب على الدور الذي يؤديه.

القسم الرابع والأربعون

بدأ الصباح يُشرق والعصافير تُغرّد. وسقطت أشعة الشمس على وجه بيتر الشاحب بفعل الإرهاق واختفت التفاحتان الأيرلنديتان الحماوان من وجنتي نيل. ولكن وقت العمل كان قد حان، فذهب بيتر لمراقبة منزل ماكورميك حتى تحل الساعة السابعة، الوقت الذي كان من المفترض وصول الخطاب المستعجل فيه.

وصل الخطاب في الوقت المحدد، ورأى بيتر ماكورميك يخرج من منزله ويسير في اتجاه الاستوديوهات. كان الوقت يسبق موعد الاجتماع بفترة طويلة، ففكّر بيتر أنه سيتوقف لتناول إفطاره، وهذا ما حدث بالفعل؛ فقد توقف «ماك» لتناول وجبة صغيرة من منتجات الألبان، فأسرع بيتر إلى أقرب هاتف واتصل برئيسه.

قال بيتر عبر الهاتف: «سيد ماكجيفني، لقد فقدتُ أثر أولئك الرجال ليلة أمس، ولكنني عثرتُ عليهم مجددًا. يبدو أنهم قرّروا عدم فعل شيء حتى اليوم. إنهم يعقدون اجتماعًا صباح اليوم وبين أيدينا فرصة ذهبية للقبض عليهم جميعًا.»
سأله ماكجيفني: «أين؟»

«الغرفة السابعة عشرة في الاستوديوهات، ولكن لا تدع أيًا من رجالك يقترب من المكان حتى أتأكد من تجمّع الرجال المطلوبين.»

صاح ماكجيفني: «اسمع يا بيتر جادج! هل ما تقوله صحيح؟»

صاح بيتر: «يا إلهي! ما فكرتك عني؟ أقول لك إن معهم الكثير من الديناميت.»
«ماذا فعلوا به؟»

«إنهم يحتفظون ببعضه في مقرهم. أما البقية فلا أعرف عنها شيئًا. لقد نقلوه ثم فقدتُ أثرهم ليلة أمس. ولكنني عثرتُ بعد ذلك على رسالة في جيبتي؛ كانوا يدعونني للمشاركة.»

صاح الرجل ذو وجه الجرذ: «يا إلهي!»
«أقول لك إن الأمر برمته تحت سيطرتنا! هل جهّزت رجالك؟»
«نعم.»

«حسنًا، دُعهم يأتوا إلى ناصية الشارع السابع عند تقاطعه مع شارع واشنطن،
وتعال أنت إلى تقاطع الشارع الثامن وشارع واشنطن. القني هناك بأقصى سرعة ممكنة.»
جاءته الإجابة: «فهمت»، وأنهى بيتر المكاملة، وانطلق إلى المكان المتفق عليه. كان
متوترًا لدرجة أنه اضطر إلى الجلوس على سلّم أحد المباني. ومع مرور الوقت وعدم ظهور
ماكجيفني، بدأت تهاجمه تخيلاتٌ جامحة. ربما لم يفهمه ماكجيفني على النحو الصحيح!
أو ربما تعطلت سيارته! أو ربما خرج هاتفه من الخدمة في تلك اللحظة الحاسمة! سيصل
ورجاله متأخرين للغاية، وسيجدون الفخّ خاليًا، والفريسة قد هربت.

مرّت عشر دقائق، ثم أصبحت خمس عشرة دقيقة، ثم عشرين دقيقة. وفي نهاية
المطاف، جاءت سيارة تنطلق عبّر الشارع، وخرج منها ماكجيفني، ثم انطلقت السيارة
مجددًا. تأكد بيتر من أن ماكجيفني رآه، ثم تراجع ليتوارى في مدخل أحد الأبواب، وتبعه
ماكجيفني الذي صاح قائلًا: «هل وصلوا؟»

تلعّم بيتر وهو يقول: «لا ... لا ... لا أعرف! ق... ق... قالوا إنهم س... س... سيأتون
في الثامنة!»

قال ماكجيفني أمرًا: «دعني أرى تلك الرسالة!» فأخرج بيتر واحدةً من رسائل نيل
التي احتفظ بها معه:

«إذا كنتَ تؤمن حقًا بتوجيه ضربة قاصمة من أجل حقوق العمال، فقابلني في
الاستوديوهات، الغرفة ١٧، صباح الغد في تمام الثامنة. لا أسماء ولا حديث. عمل فقط!»

سأله ماكجيفني: «هل وجدتَ هذه الرسالة في جيبك؟»

«ن... نعم، يا سيدي.»

«ولا تملك أدنى فكرة عن دسها فيه.»

«ل... لا، ولكنني أظن أنه جو أنجيل ...»

نظر ماكجيفني إلى ساعته، ثم قال: «لم يتبقّ لك إلا عشرون دقيقةً فقط.»

سأله بيتر: «هل أحضرتَ رجالك؟»

«دُرّينة منهم. ماذا تقترح الآن؟»

تلعّم بيتر وهو يعرض اقتراحه. كان هناك متجرٌ بقالة صغير عبّر الشارع على
الجهة المقابلة لمدخل مبنى الاستوديوهات. سيذهب بيتر إلى البقالة، ويتظاهر بشراء شيءٍ

ما ليأكله، وسيراقب عبْر النافذة، وعندما يرى الرجال المطلوبين يدخلون، سيخرج سريعاً ويعطي إشارة لماكجيفني الذي سيكون في صيدلية على الناصية المقابلة. ويجب أن يبقى ماكجيفني بعيداً عن الأنظار؛ لأن «الحُمُر» يعرفون أنه أحد عملاء جوفي.

لم يكن من الضروري تكرار أيِّ مما قيل مرةً أخرى. فقد كان ماكجيفني متحمساً وجاهزاً للعمل، وأسرع بيتر عبْر الشارع، ودخل المتجر الصغير دون أن يراه أحد. طلب بعض البسكويت والجبن وجلس على صندوق بجوار النافذة يتظاهر بأنه يأكل. ولكن كانت يداه ترتجفان لدرجة أنه لم يستطع أن يضع الطعام في فمه، وكان هذا جيداً لأن فمه كان جافاً من الخوف، والبسكويت والجبن ليسا طعاماً يناسب هذه الحالة.

لم يرفع بيتر عينيه عن مدخل الاستوديو المظلم، وبعد قليل — مرحى! — رأى ماكورميك يسير في الشارع! ثم دخل الفتى الأيرلندي المبنى، وبعد بضعة دقائق وصل جوس البحار، وقبل أن تمرَّ خمسُ دقائق أخرى وصل جو أنجيل وهندرسون، اللذان كانا يسيران بسرعة مشغولين بمحادثة تدور بينهما، وتخيّل بيتر أنه سمعهما يتحدثان عن تلك الرسائل الغامضة، ومَن كتبها، وماذا تعني؟

كان بيتر يشعر بتوترٍ شديد، فكان يخشى أن يراه أحد في المتجر، وحاول جاهداً أن يركّز على أكل البسكويت والجبن وتناثر الفتات على جسده بالكامل وعلى الأرض. هل ينتظر وصول جيرري رود، أم يكتفي بمن وصلوا بالفعل؟ كان قد نهض من جلسته وبدأ يسير نحو الباب عندما رأى ضحيته الأخيرة تسير في الشارع. كان جيرري يسير ببطء، ولم يستطع بيتر الانتظار حتى يدخل. مرّت سيارة في الشارع، فاستغل بيتر الفرصة للخروج من متجر البقالة والركض نحو الصيدلية. قبل أن يصل بيتر إلى منتصف المسافة إلى الصيدلية، كان ماكجيفني قد رآه وبدأ يركض نحو ناصية الشارع التالي.

لم ينتظر بيتر طويلاً حتى رأى عدداً من السيارات تنطلق عبْر الشارع، كانت مليئة بالمحقّقين الضخام. ثم استدار وبدأ يسير مسرعاً في شارعٍ جانبي. تمكّن بيتر من الابتعاد لبضعة مبانٍ قبل أن تنهار أعصابه تماماً، فجلس على حافة رصيف وبدأ يبكي؛ كان يبكي مثلما بكت الصغيرة جيني عندما أخبرها أنه لا يستطيع الزواج منها! توقّف المارة يحدّقون به، واقترب منه رجلٌ مسنّ طيب القلب وربّت على كتفه وسأله عن مشكلته. فنشج بيتر، دون أن يبعد أصابعه الملتخّة بالدموع عن وجهه، وقال: «م... ماتت أمي!» فتركه المارة وشأنه، ثم نهض بعد قليل وسار مسرعاً مرةً أخرى.

القسم الخامس والأربعون

دخل بيتر في حالة من الكآبة الشديدة. فقد كان يدرك أنه سيُضطر لمواجهة ماكجيفني، ولم يكن قادرًا على تحمل ذلك. لم يكن يريد رؤية أحدٍ سوى نيل، وكانت نيل تدرك أنه سيحتاج إلى رؤيتها، فاتفقت معه على أن يلتقيها في المنتزه في الثامنة والنصف. ونهته ألا يتحدث إلى أحد قبل أن يتحدث إليها. وفي الوقت نفسه، كانت قد عادت إلى منزلها وجدّت حُمْرة شفّتها الأيرلنديّين بأحمر شفاه فرنسي، واستعادت حيويتها بالقهوة والسجائر، وها هي الآن جالسة في المنتزه تنتظره راسمةً على شفّتها ابتسامةً وديعةً، منتعشةً كحال جميع طيور وزهور المنتزه في ذلك الصباح الصيفي. سألته بنبرة هادئةٍ عما آلت إليه الأمور، وعندما بدأ بيتر يتلعثم قائلاً إنه لا يعتقد أنه قادر على مواجهة ماكجيفني، بدأت في تعزيز شجاعته مجددًا. فسمحت له بأن يطوّقها بذراعيه، مع أن ذلك كان في وضّح النهار؛ همست له أن يتماسك، وأن يكون رجلًا، وأن يكون جديرًا بها.

ما الذي كان يخشاه بيتر على أي حال؟ لا يملك أحدٌ أي شيء يدينه، ولا تُوجد أي طريقة يمكن لأحد بها أن يتوصل إلى أي شيء يدينه. كانت يداه نظيفتين، وكل ما عليه فعله هو الصمود، ويجب أن يقرر مسبقًا أنه لن ينهار أبدًا مهما حدث، ولن يحيد أبدًا عن القصة التي تدرّب عليها مع نيل. جعلته نيل يُعيد القصة مرّةً أخرى؛ أنهم تحدّثوا في الليلة السابقة، خلال الاجتماع في مقر اتحاد العمال الصناعيين العالمي، عن قتل نيلس أكيرمان كوسيلة لإنهاء الحرب. وبعد انتهاء النقاش، سمع جو أنجيل يهمس لجيري رود أن لديه مكّونات قنبلة بالفعل؛ كانت لديه حقيبةٌ مليئةٌ بالديناميت مخزّنة في الخزانة، وأنه وبات ماكورميك يخططان لفعل شيءٍ ما في تلك الليلة نفسها. كان بيتر قد خرج من المبنى، ولكنه وقف خارجه يراقب، ورأى أنجيل، وهندرسون، ورود، وجوس يخرجون.

كان بيتر قد لاحظ أن جيوب أنجيل منتفخة، وافترض أنهم بصدد تنفيذ عملية التفجير، فاتصل بماكجيفني من الصيدلية. وبسبب هذا الاتصال، فقد أثر المجموعة، وشعر بالخجل والخوف من أن يُخبر ماكجيفني بذلك، وقضى الليل بطوله يتجول في المنتزه. ولكن في ساعة مبكرة من الصباح، عثر على الرسالة وأدرك أنها لا بد وأن تكون قد دُست في جيبه، وأن المتأمرين يريدونه أن يشارك في مخطّطهم. كانت هذه القصة كاملةً، فيما عدا ثلاثاً أو أربع جمل أو أجزاء من جُمل سمعها بيتر تُقال بين جو أنجيل وجيري رود. جعلته نيل يحفظ هذه الجمل عن ظهر قلب، وأصرّت على أنه يجب ألا يحاول تذكّر أي شيءٍ آخر أو يسمح لأحد بأن يقنعه بذلك أيّاً كانت الظروف.

وأخيراً، رأت نيل أن بيتر أصبح جاهزاً لمواجهة هذه المحنة، فذهب إلى الغرفة ٤٢٧ في فندق البيت الأمريكي، وألقى بجسده على الفراش. كان مرهقاً لدرجة أنه غفا لمرة أو مرتين؛ ولكن كان ذهنه منشغلاً بالأسئلة الجديدة التي قد يطرحها عليه ماكجيفني، فكان يستفيق من غفوته فجأة. وفي نهاية المطاف، سمع صوت مفتاح يدور، فاستيقظ. دخل أحد المحققين، رجل يدعى هاميت. قال هاميت: «مرحباً يا جادج، يريد الرئيس أن ألقى القبض عليك.»

صاح بيتر: «تقبض عليّ يا إلهي!» تخيّل نفسه فجأةً محبوساً في زنزانة مع هؤلاء الحُمر مجبراً على الاستماع إلى «قصص الحظ العسير».

قال هاميت: «إننا نلقي القبض على جميع الحُمر، وإذا تجاهلناك، فسنُساورهم الشكوك. من الأفضل أن تذهب إلى مكان ما الآن ويُقبض عليك.»

رأى بيتر أن الفكرة منطقية، وبعد التفكير قليلاً اختار منزل ميريام يانكوفيتش. كانت ميريام واحدةً من الحُمر المخلصين ولم تكن تُحبه، ولكن إذا قُبِض عليه في منزلها، فسُتضطر إلى أن تُحبه؛ الأمر الذي سيثبت أنه «يساري قلباً وقالباً». أعطى بيتر العنوان لهاميت، وأضاف: «من الأفضل أن تأتي بأسرع ما يمكن؛ لأنها قد تطردني من المنزل.»

رد عليه هاميت قائلاً: «حسناً، أخبرها أن الشرطة تُطارِدك واطلب منها أن تخفيك.» وهكذا أسرع بيتر إلى الحي اليهودي في المدينة وطرق باباً في الطابق العلوي لمبنى سكني. فتحت الباب امرأةٌ بدينة شَمّرت أكامها وكانت ذراعها مُغطّأتين برغوة الصابون. كانت ميريام في المنزل. قالت السيدة يانكوفيتش إنها أصبحت عاطلة عن العمل في الوقت الحالي. فقد أُقيلت لأنها كانت تُروّج للاشتراكية. دخلت ميريام الغرفة، ورمقت الزائر غير المتوقع بنظرة غير ودودة تقول بوضوح: «جيني تود!»

ولكن أسلوب تعاملها معه هذا تغيّر على الفور عندما أخبرها بيتر أنه كان في مقر اتحاد العمال الصناعيين العالمي ووجد الشرطة تُغيّر على المكان. لقد داهمت الشرطة المقر وأدّعوا أنهم كشفوا مؤامرة ما، ولحسن الحظ، رأى بيتر التجمهر خارج المقر، فلاذ بالفرار. صَحِبته ميريّام إلى غرفة داخل المنزل، وطرحت عليه سيلاً من الأسئلة لم يستطع الإجابة عنه. لم يكن يعرف شيئاً سوى أنه حضر اجتماعاً في المقر الليلة الماضية، وفي الصباح ذهب إلى هناك ليحصل على كتاب ورأى التجمهر، ففر.

بعد نصف ساعة، سمعا طرقاً قوياً على الباب، فاخْتَبأ بيتر تحت السرير. انفتح الباب بعنف، وسمع أصواتاً تُوجّه أوامر، واحتجاجات حادة من ميريّام ووالدتها. ودلت الأصوات التي كان يسمعا على أن الرجال كانوا يرمون الأثاث يميناً ويسّرة، وفجأة امتدّت يد تحت السرير، وأمسكت بيتر من كاحله، وسحبته ليجد نفسه في مواجهة أربعة رجال شرطة بزيهم الرسمي.

كان موقفاً مخيفاً؛ فعلى ما يبدو لم يُخبر أحد رجال الشرطة هؤلاء أن بيتر جاسوس؛ فقد كانوا يظنون أنهم أمسكوا بأحد المدبرين الحقيقيين لمؤامرة التفجير! أمسك أحدهم بمعصمَي بيتر، وثبّته آخر في مكانه، وهُدّدت ميريّام بمسدس، بينما بدأ الرابع في تفتيش جيوبه بحثاً عن قنابل. عندما لم يجدوا شيئاً في جيوبه، بدا عليهم الضيق، فبدءوا يضغطون عليه ويهددونه موضحين أنهم سيكونون سعداء إذا ما منحهم ذريعةً ليحطموا رأسه. حرص بيتر على ألا يمنحهم هذه الذريعة؛ كان خائفاً مطأطئ الرأس، وظل يخبرهم بأنه لا يعرف شيئاً، وبأنه لم يتسبب في أي أذى.

قال الضابط وهو يُحكّم الأصفاد على معصمَي بيتر: «سنرى، أيها الشاب!» ثم ظل أحدهم يراقبه موجهّاً إليه مسدساً، بينما بدأ الثلاثة الآخرون يفتشون المكان، فكانوا يُخرجون أدراج المكتب من مكانها ويلقون بمحتوياتها هنا وهناك، وأخذوا كل قصاصة ورق كُنِبَ عليها شيء وكُدّسوها في حقيبتين. كانت ثمّة كُتَبٌ بأغلفة حمراء وعناوين مخيفة، ولكنهم لم يعثروا على قنابل، ولم تكن هناك أسلحة أكثر خطورة من سكين النحت ولسان ميريّام. وقفت الفتاة في مكانها وعيناها السوداوان تتقدان شرّاً، وأخبرت رجال الشرطة صراحةً برأيها فيهم. لم تكن تعرف ما حدث في مقر اتحاد العمال الصناعيين العالمي، لكنها كانت تعرف أنه مهما حدث، فلن يتخطى الأمر كونه مجرد تلفيق للتهم، وتحدّتهم أن يعتقلوها، وكادت تنجح في تحقيق هدفها الجامح. ولكن اكتفى رجال الشرطة بقلب حوض الغسيل ومحتوياته، وغادروا المكان تاركين السيدة يانكوفيتش تصرخ وسط فيضان.

القسم السادس والأربعون

جرَّ رجال الشرطة بيتر إلى الشارع عبْر تجمهُر من سكان المنطقة، وألقوه داخل إحدى السيارات، وانطلقوا به إلى مخفر الشرطة حيث سجَّله على النحو المناسب ووضعوه في زنزانه. شعر بيتر بالقلق على الفور لأنه لم يكن قد اتفق مع هاميت على الفترة التي سيقضيها في السجن. ولكن أتى أحد السجَّانين قبل أن يكمل عقرب الساعات دورة واحدة وأخذه إلى غرفة خاصة حيث وجد نفسه في مواجهة ماكجيفني وهاميت، بالإضافة إلى مأمور شرطة المدينة، وأحد نواب المدعي العام، وأخيراً الشخص الأهم وسط المجموعة، جوفي. فقد كان رئيس المحققين في شركة تراكشن تراسست المسئول عن بيتر.

قال جوفي: «جاذج، ما تلك العملية التي فرضتها علينا؟»

صدم السؤال بيتر وكأنه لكمة في وجهه. وسقط قلبه بين قدميه، وفغر فاه في نهل، وبدا كالأبله. يا إله الكون!

ولكنه تذكَّر آخر كلمات نيل: «اصمد، يا بيتر، اصمد!» فصرخ قائلاً: «ماذا تعني، يا

سيد جوفي؟»

قال جوفي: «اجلس على ذلك الكرسي هناك. والآن، أخبرنا بما تعرفه عن هذا الأمر برمته. ابدأ من البداية وأخبرنا بكل شيء، كل كلمة.» بدأ بيتر يقص ما حدث. كان في اجتماع في مقر اتحاد العمال الصناعيين العالمي في الليلة الماضية. ودار نقاش طويل حول عدم إقدام المنظمة على فعل شيء، وما يمكن فعله لمناهضة التجنيد الإجباري. ذكَّر بيتر بالتفصيل الجدل الذي دار، ومناقشة اللجوء للعنف، واستخدام الديناميت والقتل، وذكَّر نيلس أكيرمان ورجال الأعمال الآخرين الذين يجب التخلُّص منهم. أسهب بيتر في وصف هذه التفاصيل وبألغ فيها كثيراً؛ كان هذا هو الموضع الوحيد الذي كانت نيل قد قالت إن المبالغة فيه لن تضره.

ثم قال إنه لاحظ بعد انتهاء الاجتماع أن عدة رجال كانوا يتهامون فيما بينهم، فتظاهر بأنه يأخذ كتابًا من رف المكتبة، واقترب من جو أنجيل وجيري رود، وسمع كلمات متفرقة وجُملاً مبتورة، «ديناميت»، «حقيبة في الخزانة»، «نيلس»، وأشياء من هذا القبيل. وعندما خرجت المجموعة، لاحظ أن جيوب أنجيل منتفخة، ففكّر في أنه يضع فيها قنابل، وأنهم كانوا على وشك تنفيذ عملية ما. فهُرِع إلى الصيدلية واتصل بماكجيفني. استغرق الوصول إلى ماكجيفني فترةً طويلة، وعندما أبلغ رسالته وخرج إلى الشارع مجددًا، كانت المجموعة قد اختفت عن الأنظار. كان بيتر يائسًا، وكان يشعر بالخجل من مواجهة ماكجيفني، فظل يتجوّل في الشوارع لساعاتٍ بحثًا عن المجموعة. وأمضى بقية الليلة في المنتزه. ولكنه اكتشف في الصباح قصاصة الورق تلك في جيبه، وأدرك أن شخصًا ما دسّها له في جيبه ويريد منه أن يشارك في المؤامرة، فأبلغ ماكجيفني بالأمر، وهذا كل ما يعرفه.

بدأ ماكجيفني في استجوابه. بما أنه قد سمع جو أنجيل يتحدث إلى جيري رود، هل سمعه يتحدث إلى أي أحدٍ آخر؟ هل سمع الحديث الدائر بين أيٍّ من الآخرين؟ ما الذي سمع جو أنجيل يقوله بالضبط؟ يجب على بيتر أن يعيد كل كلمة من جديد. وكما أوصته نيل، تذكّر جملةً أخرى، وردد على أسمعهم هذه الجملة: «وضعها ماك في «قط التخ». ورأى الآخرين يتبادلون النظرات فيما بينهم، ثم قال: «هذا ما سمعته بالضبط، تلك الكلمات فقط. ولم أدرِ ماذا تعني!»

قال رئيس الشرطة الذي كان رجلًا ضخم الجثة ذا شاربٍ بني ويضع قطعةً من التبغ في جانب فمه: «قط التخ؟ هذا يعني «التخريب»، أليس كذلك؟»

قال الرجل ذو وجه الجرذ: «نعم.»

سأل جوفي بيتر: «هل لديك أي معلومات من المكتب تتعلق بالتخريب؟»

فكّر بيتر. ثم قال: «لا، ليس لدي.»

تحدثوا فيما بينهم لوضع دقائق. ثم قال الرئيس إنهم أخرجوا كل متعلقات ماكورميك من غرفته وقد يعثرون فيها على بعض الأدلة لحل ذلك اللغز. اتجه جوفي نحو الهاتف وطلب رقمًا يعرفه بيتر جيدًا، رقم مقر اتحاد العمال الصناعيين العالمي، وقال: «هل هذا أنت، يا آل؟ نريد أن نعرف إذا ما كان هناك أي شيء في تلك الغرف يتعلق بالتخريب. هل عثرتم على شيء — أجهزة أو صور، أو كتابات — أي شيء؟» جاء الرد بالنفي بالطبع؛ لأن جوفي قال: «استمر في عملك، زد من البحث، وإذا عثرت على شيء، فاتصل بي في مكتب الرئيس بسرعة، فقد يمنحنا دليلًا نحتاج إليه.»

وضع جوفي سماعة الهاتف، ثم التفت نحو بيتر، وقال: «والآن يا جادج، هذه هي قصتك كاملة، أليس كذلك؟ هل هذا كل ما تريد إخبارنا به؟»

«نعم، يا سيدي.»

«حسنًا، عليك أن تُوقِفَ هذا الهراء على الفور. إننا نعلم أنك دبَّرت المكيِّدة برمتها،

ولن نسمح لك بخداعنا.»

حدَّق بيتر في وجه جوفي، عاجزًا عن الكلام، وخطا جوفي خطوتين مقتربًا من بيتر، وحاجباه يجتمعان في تكتشيرة مريعة، وقبضتاه مضمومتان. انقلبت معدة بيتر رعبًا عندما تذكَّر ما حدَث له بعد حادث التفجير في يوم الاستعداد الوطني. هل سيتعرض لمثل ما تعرض له مرةً أخرى؟

استطرد رئيس المحققين في حديثه قائلاً: «سنكشف جميع الأوراق الآن يا جادج. لقد أخبرتنا بجميع هذه الأمور عن أنجيل — حديثه مع جيرى رود، وجيوبه الممتلئة بالقنابل وكل الأمور الأخرى — وهو ينكر كل كلمة منها.»

صاح بيتر: «ولكن، ي... ي... يا إلهي! سيد جوفي. بالطبع سينكرها!» لم يستطع بيتر تصديق ما سمع؛ أنهم يأخذون إنكار مُفجِّرٍ بجدية، بل ويُخبرونه بذلك!

رد عليه جوفي قائلاً: «هذا صحيح، يا جادج، ولكن قد يكون من الأفضل أن تعرف الحقيقة الآن بدلاً من لاحقًا؛ أنجيل أحد رجالنا، وهو يعمل متخفيًا بين «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» منذ العام الماضي.»

مادت الأرض ببيتر، وغاص رأسًا على عقب، لأسفل، حتى وصل إلى أعماق نقطة من الرعب واليأس اللانهائيين. كان جو أنجيل عميلًا سريًّا مثله! الملاك ذو العينين الزرقاوين، الذي تحدث عن التفجير بالديناميت والاعتيالات في مئات التجمُّعات الراديكالية، الذي أذهل الثوار الأكثر جرأة بكلماته المتهورة؛ أنجيل جاسوس، وكان بيتر قد دبر «مؤامرة» لإدانته!

القسم السابع والأربعون

كان كل شيء قد انتهى بالنسبة إلى بيتر. سيعود إلى الحفرة! سيتعرض للتعذيب بقية حياته! كانت ترن في أذنيه صرخات عشرة آلاف روح ضائعة وندمات عشرة آلاف بوق من أبواق الجحيم، ولكن في خضم كل هذه الضوضاء والفوضى، بطريقة ما سمع بيتر صوت نيل يهمس مرارًا وتكرارًا: «ابق مُصِرًّا على قصتك، يا بيتر، ابق مُصِرًّا عليها!» بسط بيتر يديه وتحرك نحو الرجل الذي أشار إليه بأصابع الاتهام، وقال «يا سيد جوفي، لا أعرف شيئًا عنه سوى ما أخبرتكم به، والله على ما أقول شهيد. هذا ما حدث، وإذا أخبركم جو أنجيل بغير ذلك، فهو كاذب.»

«ولكن لماذا يكذب؟»

«لا أعرف، لا أعرف شيئًا عن ذلك!»

في هذه اللحظة، كان بيتر يحصد ثمار تدرُّبه طوال حياته ليكون متممًا. رغم كل ما كان يشعر به بيتر من خوف ويأس، لم يتوقف عقله الباطن عن العمل، وظل يفكر في مؤامرات، فقال: «ربما كان أنجيل يدبر شيئًا ضدكم! ربما كان يضع خطة خاصة به، وأتيتُ أنا وأفسدتها، ربما كشفت مؤامرتة مبكرًا جدًا. لكنني أقول لكم إن ما أخبرتكم به حقيقي.» ومنح الارتياح الشديد بيتر القوة للتحقق من مدى ثقة جوفي فيما يقول. فبينما كان يقترب منه، استطاع بيتر أن يقرأ في عيني المحقق أنه ليس واثقًا حقًا كما قال بالكلمات.

سأل المحقق: «هل رأيت هذه الحقيبة من قبل؟»

أجاب بيتر: «لا، لم أر أي حقيبة! لا أعرف أصلًا بوجود حقيبة. كل ما أعرفه هو أنني سمعتُ جو أنجيل يقول «حقيبة»، وسمعتَه يقول «ديناميت».

«هل رأيت أي شخص يكتب شيئاً في المكان؟»
قال بيتر: «لا، لم أرَ أحداً يكتب شيئاً، لكنني رأيتُ هندرسون جالساً على الطاولة يعمل على بعض الأوراق التي أخرجها من جيبه، ورأيتُه يمزّق شيئاً ويُلقيه في سلة المهملات.»
رأى بيتر الآخرين يتبادلون نظراتٍ ذات مغزى، فأدرك أنه بدأ يحرز تقدماً.
بعد لحظة حدثت تشيتت ساعد في إنقاذه. رنَّ جرس الهاتف، فردَّ مأمور الشرطة وأوماً لجوفي الذي تحرك نحوه وأمسك سماعة الهاتف، وصاح بحماسة: «كتاب؟ مخطَّط من أي نوع؟ حسناً، فلتخبر أحد رجالك بأن يأخذ السيارة ويحضر ذلك الكتاب والمخطَّط إلينا هنا في مكتب المأمور في أسرع وقتٍ ممكن، ولا تُضِع لحظةً واحدة؛ فقد يعتمد كل شيء على ذلك.»

ثم التفت جوفي لينظر إلى الآخرين. وقال: «يقول إنهم وجدوا كتاباً عن التخريب في المكتبة، وفيه مخطَّط لمنزلٍ ما. اسم ماكورميك مُدوّن على الكتاب.»
ظهر التعجُّب على وجوه الجميع، وحصل بيتر على وقتٍ كافٍ ليفكّر قبل أن تلتفت إليه المجموعة مجدداً. ثم استجوبه مأمور الشرطة، واستجوبه نائب المدعي العام، ولكنه ظل مُصراً على قصته، ثم صاح قائلاً: «يا إلهي! هل تظنون أنني يمكن أن أفقد عقلي لدرجة تلفيق تهمة مثل هذه؟ من أين حصلتُ على كل هذه الأشياء؟ من أين حصلتُ على الديناميت؟»
كاد بيتر يعض لسانه حتى يقطعه عندما أدرك الزلة الفظيعة التي وقع فيها. لم يكن أحدٌ قد أخبره بأن الحقيبة تحتوي على ديناميت! كيف عرف إذن أنها كانت تحتوي على ديناميت؟ بدأ يحاول يائساً أن يفكّر في طريقة سمع تلك المعلومة بواسطتها، ولكن، لحسن الحظ، لم يلحظ أيُّ من الرجال الخمسة ذلك. كانوا جميعاً يعرفون أن ثمة ديناميتاً في الحقيبة؛ كانوا واثقين تماماً من ذلك، وأغفلوا تماماً حقيقة أنه ليس من المفترض أن يعرف بيتر ذلك. يمكن للمرء أن يقترب بشدة من حافة الهلاك ومع ذلك ينجو!

سارع بيتر بتحويل دفة الحديث بعيداً عن تلك النقطة الشائكة، فقال: «هل ينكر جو أنجيل أنه كان يهمس لجيري رود؟»

قال جوفي: «إنه لا يذكر أنه فعل، ربما تحدّث معه على انفراد، ولكن ليس بخصوص أمرٍ سري، لم تكن هناك أي مؤامرة.»

«هل ينكر أنه تحدّث عن الديناميت؟»

«ربما تحدّثوا عنه في نقاشٍ عام، ولكنه لم يهمس سرّاً بأي شيء.»

صرخ بيتر الذي تفتتت قريحته الألعية عن سبيل للهرب: «لكنني سمعته! أنا واثق مما سمعت! كان ذلك قبل أن يهْمُوا بالانصراف، بعدما أطفأ أحدهم الأتوار. كان يقف مولياً ظهره لي، بينما كنتُ في طريقي إلى رف الكتب خلفه.»

في تلك اللحظة، تدخل نائب المدعي العام. كان شاباً أكثر عرضةً للخداع من الآخرين، وسأل بيتر: «هل أنت واثق من أنه كان جو أنجيل؟»

قال بيتر: «يا إلهي! بالطبع، كان هو! لا يمكن أن أخطئ في ذلك.» لكنه ترك صوته يخفت، وسمح لنبرة تدل على الحيرة تظهر فيه.

«لقد قلتُ إنه كان يهمس، أليس كذلك؟»

«نعم، كان يهمس.»

«ولكن، أليس من الممكن أن يكون شخصاً آخر؟»

قال بيتر: «عجباً، لا أدري ما يجدر بي قوله. كنت واثقاً من أنه جو أنجيل؛ ولكنني أدتُ ظهري لأتحدث إلى جرادى، السكرتير، ثم استدرتُ وسرتُ نحو رف الكتب.»

«كم عدد الرجال الذين كانوا في الغرفة؟»

«حوالي عشرين، على ما أظن.»

«هل أطفئتُ الأتوار قبل أن تُعطيه ظهره، أم بعد ذلك؟»

قال بيتر: «لا أتذكر ذلك؛ ربما بعد ذلك.» ثم صرخ بيتر المرتبك المسكين فجأة قائلاً: «يجعلني ذلك أشعر وكأنني أحرق. لا شك في أنه كان يجدر بي أن أتحدث إلى الرجل وأتأكد من كونه جو أنجيل قبل أن أُعطيه ظهري مجدداً، لكنني كنتُ متأكداً أنه هو. لم تخطُر ببالي احتمالية أن يكون شخصاً آخر.»

«ولكنك واثق من أن جيري رود هو من كان يتحدث إليه، أليس كذلك؟»

«أجل، كان جيري رود؛ لأن وجهه كان في مواجهتي.»

«هل كان رود أم الرجل الآخر الذي أجاب بعبارة «قط الترخ»؟» أربك هذا السؤال بيتر وورطه، ما جعلهم يُخضعونه لعملية استجواب طويلة، جاء محقق في منتصفها يحمل كتاباً عن التخريب مع اسم ماكورميك مدوناً في صفحته الأولى، ومخططاً لمنزل ما بين صفحاته.

التفوا جميعهم حول مخطط المنزل ليلقوا نظرة عليه، وخطرت لعدد منهم الفكرة نفسها؛ هل يمكن أن يكون هذا مخططاً لمنزل نيلس أكيرمان؟ استدار مأمور الشرطة نحو هاتفه واتصل بسكرتير المصرفي الكبير. وطلب منه أن يتفضل بوصف منزل السيد أكيرمان،

واستمع المأمور إلى الوصف، وهو يقول: «هناك علامة صليب مرسومة على هذا المخطّط عند الجانب الشمالي من المنزل، ناحية الغرب قليلاً من وسط المنزل. إلّا يمكن أن يشير ذلك؟» ثم قال: «يا إلهي!» وعاد يقول: «هل يمكنك أن تأتي إلى مكتبي على الفور وتُحضر معك المخطّط الذي رسمه المهندس المعماري للمنزل حتى يُمكننا المقارنة بين المخطّطين؟» ألفت المأمور نحو الآخرين، وقال: «تشير علامة الصليب إلى شرفة غرفة نوم السيد أكرمان في الطابق الثاني!»

ومن ثم، نسوا شكوكهم حول بيتر لفترة قصيرة. فقد كان تتبّع تفاصيل المؤامرة وتجميعها مثل تجميع قطع أحجية. وبدوا جميعهم واثقين من أن هذا الرجل الصغير التافه الذي كانوا يستجوبونه لا يمكن أن يُعد مؤامرة ذكية ومعقدة مثل تلك. لا، لا بد من وجود عقلٍ مدبر، متآمر شيطاني يعمل على نشر دمارٍ هائل في المدينة الأمريكية!

القسم الثامن والأربعون

صرفوا بيتر مؤقتاً، وأرسلوه إلى زنزانته. بقي هناك لمدة يومين دون أن يُخبره أحد بما يحدث، أو بما سيؤول إليه مصيره. لم يسمحوا بدخول الجرائد إلى السجن، لكنهم تركوا لبيتر ما كان معه من مال؛ ومن ثم، نجح في اليوم الثاني في رشوة أحد حُرَّاسه الذي أحضر له نسخة من جريدة «تايمز» المدينة الأمريكية التي نشرت جميع تفاصيل الأحداث المثيرة على صفحتها الأولى.

ظلت جريدة «تايمز»، على مدار ثلاثين عاماً، تدعم القانون والنظام ضد جميع القوى الحمراء الداعية للفوضى والثورة؛ ظلت جريدة «تايمز»، على مدار ثلاثين عاماً، تعلن أن قادة العمال، والمفوضين الجائلين، والاشتراكيين، والفوضويين، يملكون التوجُّه نفسه، وأنهم جميعاً يعتمدون في الأساس على أداة واحدة، قنبلة الديناميت. وأخيراً، تأكَّدت مصداقية جريدة «تايمز» في ذلك اليوم، كان هذا اليوم أعظم يوم في تاريخ جريدة «تايمز»! لقد استغلوا الحدث أفضل استغلال، فلم ينشروا الخبر على الصفحة الأولى فحسب، بل في صفحتين أخريين أيضاً، مصحوباً بصور لجميع المتآمرين البارزين، بما في ذلك بيتر، وصور لمقر اتحاد العمال الصناعيين العالمي، والحقيبة، وأعواد الديناميت والفتيل والساعة، وكذلك «الاستوديو» الذي قُبض فيه على الحُمُر، وصورة لنيكيتين، الفوضوي الروسي الذي يملك هذا الوكر. كما نشرت أعمدة مليئة بالتكهنات بشأن القضية، وبيانات موقعة ومقابلات مع رجال دين ومصرفيين بارزين، رئيس غرفة التجارة وأمين بورصة العقارات. ونشرت أيضاً مقالاً رئيسياً مكوناً من عمودين، يشير إلى أن جريدة «تايمز» ظلت تخبر الناس بذلك طوال ثلاثين عاماً، وأنها من ربَط هذه القضية بقضية جوبر، وقضية لاكمان، وقضية رجال الدين الثلاثة المناهضين للحرب الذين اعتقلوا قبل عدة أيام لمحاولتهم قراءة عظة الجبل في اجتماع عام.

وكان بيتر يعلم أنه هو، بيتر جادج، مَنْ تسبَّب في كل هذا! كانت جميع قوى القانون والنظام مدينة بكل شيء لعملٍ سري غامض متواضع! لن يحصل بيتر على أي تقدير، بالطبع؛ فأمور الشرطة والمدَّعي العام كانوا يُصدرون البيانات الرسمية، وينسبون الشرف لأنفسهم، ودون أي تلميح بأنهم مدينون بأي شيء لقسم الخدمة السرية لشركة تراكشن تراست. كان ذلك ضرورياً، بالطبع؛ فمن أجل الحفاظ على المظاهر، كان يجب التظاهر بأن السلطات العامة هي مَنْ نفَّذت العملية برُمَّتها، وأنها قد أدَّت وظيفتها القانونية بشكلٍ رسمي ومناسب. ولا يجب بأي حالٍ من الأحوال أن يعرف المواطنون أن هذه الأنشطة مموَّلة وموجَّهة من قِبل الشركات التجارية الكُبرى في المدينة. ولكن هذا لم يمنع بيتر من الشعور بالضيق! كان، ماكجيفني، وبقية رجال جوفي ناقلين على المسؤولين الحكوميين؛ فقد كانوا يعتبرونهم «جبناء»؛ كان يتوفَّر للمسؤولين قُدْرٌ قليل جداً من المال لينفقوه، وقُدْرٌ محدود للغاية من السلطة. إذا كنتَ تريد أن تحقق أي شيء في أمريكا فعلياً، فلا تلجأ إلى أي مسئولٍ حكومي، بل تلجأ إلى كبار رجال الأعمال الذين يملكون «الإمكانات»، واعتادوا على تحقيق الأمور بسرعة وكفاءة. وكان ذلك ينطبق على الجاسوسية مثلما ينطبق على كل شيءٍ آخر.

بين الحين والآخر، كان بيتر يدرك مدى قربهِ من الهلاك التام. وكانت تنتابه نوباتٌ من الرعب يتخيل نفسه فيها حبيساً في الحفرة، وجوفي يُعذِّبه ليستخرج الحقيقة منه. ولكنه كان قادراً على تهدئة هذه المخاوف. كان متأكداً أن مؤامرة الديناميت هذه ستمثَّل إغراءً كبيراً للغاية للسلطات، وسيشاركون فيها رغم أنفهم. سيضطرون إلى مجاراتها، وسيضطرون إلى مناصرة بيتر.

وبالفعل، في مساء اليوم الثاني، جاء سجانٌ وقال: «سيُطلق سراحك.» واقتيد بيتر عبر الأبواب ذات القضبان وأُطلق سراحه دون كلمةٍ أخرى.

القسم التاسع والأربعون

توجّه بيتر إلى الغرفة ٤٢٧ في فندق البيت الأمريكي حيث كان ماكجيفني في انتظاره. لم يقل ماكجيفني أي شيء يدل على أي شكوك في بيتر، ولم يقل بيتر شيئاً؛ فقد أدرك أن صفحة الماضي قد طُويت. كانت السلطات ستستغل هذه الهدية التي قدّمتها لها الأقدار على طبق من فضة. فطوال سنوات كانت السلطات تريد القبض على هؤلاء الحُمُر، والآن، وبطريقةٍ سحرية وغير معقولة، تمكّنت من ذلك!

قال ماكجيفني: «جادج، إليك القصة التي ستقولها. لقد أُلقي القبض عليك كمشتبه به، وخضعتَ لتحقيق واستجوابٍ قاسٍ، ولكنك نجحتَ في إقناع الشرطة بأنك لا تعرف شيئاً عن المؤامرة، فأطلقوا سراحك. لقد أطلقنا سراح بعضٍ من الآخرين في الوقت نفسه حتى لا نثير الشكوك حولك، والآن، عليك العودة وسط الحُمُر واكتشاف كل ما يمكنك عنهم، وعما يفعلون، وعما يُخططون له. لا شك في أنهم يُصرون على أن التُّهم التي وُجّهت إليهم «ملفّقة». عليك أن تكتشف ما يعرفون. ويجب أن تكون حذراً، بالطبع، ولتقدّم على كل خطوة بحذر؛ لأنهم سيكونون مرتابين لبعض الوقت. لقد دخلنا مسكنك وقلبناه رأساً على عقب، فذلك سيُساعد في جعل الأمور تبدو طبيعية.»

خرج بيتر، ولكنه لم يذهب إلى مقر الحُمُر على الفور. بل أمضى ساعة في التجول في أنحاء المدينة للتأكد من أن أحداً لا يتبعه، ثم اتصل بنيل على رقم هاتفٍ كانت قد أعطته إياه، والتقى بعد ساعة في المنتزه، وركضت عندما رآته ملقياً نفسها بين ذراعيه وقبلته بسعادةٍ غامرة. كان عليه أن يُخبرها بكل شيء، بالطبع، وعندما عرفت أن جو أنجيل عميلٌ سري، حدّقت في وجهه في رعب في البداية، ثم انفجرت ضاحكة حتى كادت تبكي. وعندما أخبرها بيتر بكيفية مواجهته لهذا الوضع وتمكّنه من النجاة منه، تأكّد للمرة الأولى على الإطلاق من أنه فاز بقلبها.

عندما هدأ قليلاً، قالت نيل: «والآن، يا بيتر، علينا أن نتحرك على الفور. الصحف مليئة بالأخبار، ولا بد أن نيلس أكيرمان مرتعب حتى الموت. سأرسل هذا الخطاب الليلية؛ لاحظ أنني استخدمت آلة كاتبة مختلفة عن تلك التي استخدمتها المرة الماضية. لقد ذهبتُ إلى متجر للآلات الكاتبة ودفعتُ لهم المال مقابل السماح لي باستخدام إحدى الآلات الكاتبة لبضع دقائق؛ ومن ثم، لن يتمكنوا أبداً من تتبع هذا الخطاب ليصلوا إليّ.»

كان الخطاب موجهاً إلى نيلسون أكيرمان في منزله ومكتوباً عليه «شخصي». قرأه بيتر:

«هذه رسالة من صديق. للحُمر عميل داخل منزلك. لقد رسموا مخططاً لمنزلك. تخفي الشرطة أموراً عنك لأنهم لم يتمكنوا من التوصل إلى الحقيقة، ولا يريدون أن تعرف أنهم غير أكفاء. ثمّة رجل هو من اكتشف تلك المؤامرة بالكامل، وعليك أن تقابله. لن يسمحوا لك بلقائه إذا استطاعوا ذلك. ولكن يجب عليك أن تُطالب بلقائه. ولكن لا تذكر هذا الخطاب. إذا لم تلتقِ الرجل المقصود، فسأراسلك مرةً أخرى. إذا ما أبقيتَ على هذا الخطاب سرّاً، فثِق في أنني سأساعدك حتى النهاية. أما إذا أخبرتَ أحداً عنه، فلن أستطيع مساعدتك.»

قالت نيل: «والآن، عندما يصل إليه هذا الخطاب، سيبدأ العمل، وعليك أن تعرف ما يجدر بك فعله؛ لأن كل شيء يعتمد على ذلك، بلا أدنى شك.» وعليه، بدأت نيل تدرّب بيتر على ما سيفعله عندما يلتقي ملك المدينة الأمريكية. أصبح بيتر ينظر إلى رأي نيل بإعجاب شديد، فحفظ ما عليه فعله بصر، ووعده بأنه سيفعل ما قالت بحذافيره ولا شيء آخر. وكافأته نيل بسيلٍ من القبلات وعاد إلى منزله لينام قرير العين.

في صباح اليوم التالي، خرج بيتر ليؤدي بعض مهامّ كلفه بها ماكجيفني، حتى لا يدع لماكجيفني أي سببٍ للتذمر. ذهب للقاء ميريام يانكوفيتش، وهذه المرة أمسكت ميريام بكلتا يديه وصافحتها بحرارة، وأدرك بيتر أنها غفرت له جريمته ضد الصغيرة جيني. عاد بيتر مناضلاً مرةً أخرى. فقَص عليها أنه خضع لاستجوابٍ قاسٍ، وقصّت عليه هي أن الماء الذي تدفّق من حوض الغسيل تسرّب عبر السقف، وسقط الجص ودمّر عشاء عائلة عاملٍ فقير.

كما أخبرته بكامل تفاصيل التُّهم الملققة كما رآها الحُمر. طالب أندروز، المحامي، بحقه في رؤية السجناء، ولكن رُفض طلبه، وظلوا جميعهم محتجزين بدون كفالة. في الليلة السابقة، حضرت ميريام اجتماعاً في منزل أندروز؛ حيث نُوقشت القضية. وأعلن جميع أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي أن ما حدث ما هو إلا تلفيقٌ تهم ولكن بأبشع

صورة ممكنة، فكان من الجلي أن الرسائل مزيفة، وأن الديناميت مدسوس بكل تأكيد من قبل الشرطة. لقد استخدموا هذه التهم الملققة ذريعة لإغلاق مقر اتحاد العمال الصناعيين العالمي، ولاعتقال عشرات الراديكاليين. والأسوأ من كل ذلك، بالطبع، هو الدعاية السلبية، تلك القصص البشعة التي ملئوا بها الصحف. هل قرأ بيتر جريدة «تايمز» هذا الصباح؟ ثمّة دعوة غير قابلة للتفسير لإهدار دم الحُمُر!

القسم الخمسون

من منزل ميريام، عاد بيتر إلى الغرفة ٤٢٧. كانت فكرة نيل أن نيلس أكيroman لن يُضيع دقيقة في الصباح التالي؛ وبالفعل، وجد بيتر رسالةً على طاولة الرّينة تقول: «انتظرنِي، أريد لقاءك.»

لم ينتظر بيتر طويلاً قبل أن يدخل ماكجيفني الغرفة ويجلس أمامه، ويقول بجديّة تامة: «بيتر جادج، أنت تعلم أنني صديقك.»

«نعم، بالطبع.»

قال ماكجيفني: «لقد وقفتُ بجانبك. ولولاي لكان الرئيس قد ألقى بك في الحفرة محاولاً أن يُجبرك على الاعتراف بأنك زرعتَ قنبلة الديناميت تلك. أريدك أن تعرف ذلك، وأريدك أن تعرف أنني سأقف بجانبك، وأتوقع منك أن تقف بجانبني وتعاملني بالمثل.»

قال بيتر: «بالطبع! ما الأمر؟» بدأ ماكجيفني يشرح: يظن العجوز نيلس أكيroman أن الشرطة تُخفي شيئاً عنه. لقد أُرعبته هذه القضية بشدة دون شك. فكان يختبئ داخل خزانة في الليل، ويجعل زوجته تُسدل ستائر سيارتها الفارحة عندما تخرج للقيادة. وهو الآن مُصر على التحدث إلى الرجل الذي اكتشف هذه المؤامرة التي كانت تُحاك ضده. كان ماكجيفني عازفاً عن المخاطرة بتعريف بيتر على أي شخص، ولكن نيلس أكيroman كان من الرجال الذين تُعد كلمتهم قانوناً. في واقع الأمر، كان يُعد ربّ عمل بيتر؛ فقد كان هو من رصد مبلغاً كبيراً من المال للمهمة السرية التي يؤديها جوفي، ولم يكن جوفي أو أيٌّ من مسؤولي المدينة يجرّءون على محاولة خداعه.

قال بيتر: «لا بأس؛ فلن تُضرني مقابلته.»

قال ماكجيفني: «سوف يسألك عن هذه القضية، وسيحاول اكتشاف كل ما يمكنه اكتشافه. لذا، عليك أن تحمينا؛ عليك أن نخبره بأننا فعلنا كل ما في وسعنا. عليك أن تحسن صورتنا عنده.»

وعده بيتر بجدية أنه سيفعل، ولكن ماكجيفني لم يكن واثقًا من ذلك. كان خائفًا، فبدأ يضغط على بيتر مشددًا على أهمية التضامن مع الزملاء وعدم التفريط في الولاء لهم. بدا الأمر مشابهاً لما يقوله أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي فيما بينهم!

«قد تفكر في أن هذه فرصة للقفز فوق أكتافنا والتسلق نحو القمة، ولكن لا تنس، يا بيتر جادج، أننا مثل الآلة، وفي نهاية المطاف هذه الآلة هي التي تفوز دائماً. لقد حطّمنا كثيرين حاولوا التحايل علينا، وسنحطّمك أنت أيضاً. سيحصل نيلس العجوز على ما يريد منك، سوف يعرض عليك مبلغاً كبيراً، لا شك في ذلك، ولكنه سرعان ما سينسى أمرك، وعندئذ ستعود إلينا، وها أنا أحرّك، بحقّ الرب، إذا ما مارست علينا خدعةً قذرة، فسيلقي بك جوفي في الحفرة لشهر أو اثنين، وستخرج محمولاً على نقالة.»

أكد بيتر على ولائه مرةً أخرى، ولكنه رأى فرصةً سانحة أمامه، فأضاف:

«ألا تظن أنه يجدر بالسيد جوفي أن يفعل شيئاً من أجلي بعد تلك المؤامرة التي اكتشفتها؟»

قال ماكجيفني: «نعم، أظن ذلك. هذا مطلبٌ عادل.»

وبدأ يتفاوضان. فصلّ بيتر جميع المخاطر التي واجهها، والتقدير الكبير الذي حصل عليه الآخرون. ربما لم يحصل جوفي على التقدير في الصحف، ولكنه حصل عليه من أرباب العمل، دون أدنى شك، وسيحصل على المزيد إذا ما حسن بيتر صورته لدى ملك المدينة الأمريكية. قال بيتر إن ذلك يساوي ألف دولار، وقال إنه يجب أن يحصل عليها فوراً قبل أن يذهب لمقابلة الملك. تجهم ماكجيفني بغضبٍ شديد عندما سمع هذه الكلمات، وقال:

«اسمع، يا جادج! هل تجرؤ على تحميلنا مقابل مناصرة المؤامرة التي لفتتها أنت؟»

كان ماكجيفني يتعامل عمومًا مع بيتر من منطلق كونه جبانًا ومدعيًا أجوف، ولكنه تعلّم أيضًا أنه يحين وقتٌ يغيّر فيه الرجل التافه من طبيعته إلى نقيضها، وذلك عندما يتعلق الأمر بالحصول على بعض المال. وكانت تلك هي المسألة التي بين أيديهما الآن؛ وقابل بيتر تجهم ماكجيفني بالتجهم، وصاح غاضبًا: «إذا لم تُعجبك مؤامرتي، فإذهب واكشفها للصحف!»

عاد بيتر ليتصرف مثل كلب البولودوج مجددًا، وأنشَب أسنانه في أنف البولودوج الآخر، ولم يتركها. كان قد رأى الرجل ذا وجه الجرذ يخرج نقودًا من ملبسه قبل هذا، وكان

يدرك أن هذه المرة سيأتي ماكجيفني مستعدًا أكثر من جميع المرات السابقة. لذا، أصر على المبلغ الذي طلب، إما ألف دولار أو لا شيء، وكما حدث سابقًا، غاص قلبه بين قدميه عندما أخرج ماكجيفني رزمة النقود التي معه ورأى أن بها نقودًا أكثر مما طلبه بيتر! ومع ذلك، عزى بيتر نفسه بالتفكير في أن ألف دولار مبلغ لا بأس به من المال، وخرج قاصدًا منزل نيلس أكبرمان في حالة مزاجية رائعة. وقرّر بالتبعية أنه قد يكون من الحكمة عدم قول أي شيء لنيل عن هذه الألف الإضافية. فعندما تكتشف النساء أن معك مالا، فلن يهدأ لهن بال حتى يحصلن على كل قرش منه، أو على الأقل جعلك تُنفقه بالكامل عليهن!

القسم الحادي والخمسون

كان منزل نيلس أكيرمان يقع في مكانٍ بعيدٍ عن ضواحي المدينة على تلة تُحيط بها الغابة. وكان يبُعدُ بضعة أميالٍ من أقرب خط ترام، ما اضطر بيتر إلى السير في الشمس الحارقة. يبدو أن المصري العظيم لم يفكّر ولو لمرةٍ واحدةً أن أيّ شخص قد يرغب في الوصول إليه بدون سيارة عند اختيار موقع منزله. فكّر بيتر، أثناء سيره، أنه إذا استمر في تسلُّق السَلَم الاجتماعي وصولاً إلى تلك الطبقات الراقية، فسيكون لزاماً عليه أن ينضم إلى فئة مُلاك السيارات.

كان العقار محاطاً بسياجٍ برونزي كبيرٍ بارتفاعٍ عشر أقدام، مع أوتادٍ حادةٍ مدبّبةٍ نحو الخارج متوعدة من يقترب منها. كان بيتر قد قرأ عن هذا السياج منذ أمدٍ بعيدٍ في جريدة «تايمز» المدينة الأمريكية؛ كان طولُه يبلغ كذا ألف ياردة، وبه عددٌ كذا وتدّاً مُدبّباً، وكُلّف مبلغٌ كذا من عشرات الآلاف من الدولارات. كانت هناك بوابةٌ برونزية ضخمة مغلقة بإحكام، ولوحةٌ كُتِبَ عليها: «احذر من الكلاب!» وراء البوابة، كان هناك ثلاثة حُرّاسٍ يحملون بنادقٍ ويسيطرون نهاباً وإياباً، وجاء وجودهم نتيجةً لمؤامرة التفجير بالديناميت الأخيرة، ولكن لم يكن بيتر يدرك ذلك، بل ظن أنهم موظّفون دائمون في العقار، ورمز لأهمية الرجل الذي كان على وشك زيارته.

ضغط على زرٍ بجوار البوابة، وخرج أحد حُرّاس البوابة، وأبلغه بيتر، طبقاً للأوامر التي تلقّاها، أن اسمه «آرثر جي مكجيليكادي». عاد حارس البوابة إلى الداخل وتحدث في الهاتف، ثم عاد وفتح البوابة بانفراجةٍ تكفي فقط لإدخال بيتر. قال حارس البوابة: «سيتم تفتيشك»، ولم يتذمّر بيتر، الذي اعتقَل مراتٍ عديدة، من هذا الإجراء، بل اعتبّره دليلاً آخر على أهمية نيلس أكيرمان. فتشّ الحراس جيوبه، وفتشوه ذاتياً، ثم قاده أحدهم عبر مسارٍ

طويل مكسو بالحصى يُمر عبر الغابة، ثم سعد سلماً رخامياً يؤدي إلى القصر فوق التلة، وسلّمه إلى خادمٍ صيني يرتدي نعلاً مبطنّة.

لو لم يكن بيتر يعرف أن هذا منزل، لظن أنه معرضٌ فني. كانت ثمة أعمدة رخامية ضخمة، ولوحاتٌ أكبر حجماً من بيتر نفسه، وسجاجيدٌ جدارية في حجم خيولٍ حقيقية، وكانت ثمة مجسماتٍ لرجالٍ مرتدين دروعاً كاملة، وفئوسٍ معارك وأزياء شياطين رقص يابانية، والكثير من المناظر الغريبة الأخرى. كان بيتر في المعتاد سيهتم بمعرفة كيفية تزيين مليونيرٍ عظيم منزله، وكان سيطير فرحاً لوجوده وسط هذه الرفاهية. ولكن ذهنه كان مشغولاً بالكامل بالمهمة الحساسة التي يؤديها. كانت نيل قد أخبرته بما يجب أن يبحث عنه، وبدأ يبحث عنه بالفعل. فبينما كان يصعد السلّم المغطى بالسجاد المخملي، لاحظ ستاراً يمكن أن يتوارى رجلٌ خلفه، ولوحةً لفارسٍ إسباني معلقة على الحائط المقابل له. ربما سيتمكن من الاستفادة من هذين المنظرين.

سارا بعد ذلك عبر بهو يشبه أحد ممّرات فندق هوتيل دي سوتو، وفي نهايته طرق الخادم باباً بلطف، واقتيد بيتر إلى داخل جناحٍ كبير نصف مظلّم. انسحب الخادم دون صوت موصداً الباب خلفه ووقف بيتر في مكانه متردداً، وظل ينظر حوله ليتعرّف على المكان من حوله. سمع سعالاً خفيفاً لثلاث مرات آتياً من الجانب الآخر من الغرفة، الأمر الذي دلّ على وجود رجلٍ مريض. كان ثمة سريرٌ مصنوع من خشبٍ داكن ذو أربعة أعمدة، مغطى بظلة من فوقه وأسدلت ستائر على جانبيه، وكان ثمة رجل في السرير يجلس مستنداً على وسائد. سمع بيتر المزيد من السعال، ثم همساً خافتاً، يقول: «من هنا.» فتوجّه بيتر نحوه ووقف على بعد حوالي عشر أقدام من السرير ممسكاً بقبعته في يديه؛ لم يكن قادراً على رؤية الرجل الراقد في السرير جيّداً، ولم يكن يدري إذا كان من الذوق أن يحاول رؤيته جيّداً.

«إنه أنت إذن ... (سعال) ما اسمك؟»

قال بيتر: «جارج.»

«هل أنت الرجل ... (سعال) الذي يعرف خفايا الحُمر؟»

«نعم، يا سيدي.»

كان الرجل الراقد في السرير يسعل كل دقيقتين أو ثلاث دقائق طوال المحادثة التي تلت ذلك، ولاحظ بيتر أنه كان يرفع يده ليضعها على فمه في كل مرة كما لو كان يشعر بالخجل من الضجيج الذي يُحدثه. اعتادت عينا بيتر بالتدريج على إعتام الغرفة واستطاع

أن يرى أن نيلس أكيرمان كان رجلاً مسناً ذا وجنتين ممتلئتين وذقنٍ مترهل، وهالاتٍ سوداءٍ منتفخة تحت عينيه. كان رأسه أصلع تماماً تغطيه طاقة من الحرير الأسود المطرز، وسترة قصيرة مُطرَّزة فوق منامته. وبجوار السرير، كانت هناك طاولةٌ مغطاةٌ بالنظارات، والزجاجات، وعُلب الحبوب، بالإضافة إلى هاتف. كان هذا الهاتف يرنُّ كل بضع دقائق، وكان بيتر يجلس منتظراً في صبر حتى يحلُّ السيد أكيرمان بعض مشكلات العمل المعقدة. قال في ضيق: «لقد أخبرتهم بشروطي.» ثم سعل؛ ولاحظ بيتر، الذي كان يُراقب بانتباهٍ جميع تفاصيل سلوك الأغنياء، أنه كان مهذباً لدرجة أنه لم يكن يسعل في سماعه الهاتف، ثم كان يستطرد قائلاً: «إذا كانوا سيدفعون مائة وخمسة وعشرين ألف دولار على الحساب، فسأنتظر، ولكنني لن أقبل بسنتٍ واحدٍ أقل من ذلك.» أدرك بيتر ذاهلاً أنه وصل إلى ذروة جبل الأوليمب؛ لقد وصل إلى أعلى نقطةٍ يمكن أن يأمل في الوصول إليها قبل أن يذهب إلى الجنة.

ثبَّت الرجل المُسن عينيه الداكنتين على زائره، ثم همَس بصوته الأَجَس: «من أرسل إليَّ هذا الخطاب؟»

كان بيتر يتوقع هذا السؤال، فردَّ عليه قائلاً: «أي خطاب، يا سيدي؟»

«خطاب يطلب مني أن أقابلك.»

«لا أعرف شيئاً عنه، يا سيدي.»

«هل تعني ... (سعال) أنك لم ترسل إليَّ خطاباً من مجهول؟»

«لا، يا سيدي، لم أفعل.»

«لا بد إذن أن أحد أصدقائك هو من أرسله.»

«لا أعرف. ربما أرسله أحد أعداء الشرطة.»

«حسناً، ماذا عن وجود عميلٍ للحُمُر في منزلي؟»

«هل ورد ذلك في الخطاب؟»

«نعم.»

«سيدي، هذه مبالغة. لست متأكداً من ذلك، إنها مجرد فكرة راودتني، وستحتاج إلى الكثير من الشرح.»

«أنت الرجل الذي اكتشف هذه المؤامرة، أليس كذلك؟»

«نعم، يا سيدي.»

قال المصري: «اجلس على هذا الكرسي، هناك.» كان هناك كرسي بالقرب من السرير،

لكنه بدا لبيتر قريباً أكثر من اللازم على نحو يفتقر إلى التهذيب، فسحب له مسافة أبعد قليلاً،

وجلس على طرفه الأمامي، وهو لا يزال ممسكًا بقُبُعته في يديه ويُحرِّكها بتوتر. فقال المسن متهكمًا: «ضع تلك القبعة من يدك.» فألقى بيتر القبعة تحت كرسيه، وقال: «معدرةً، يا سيدي.»

القسم الثاني والخمسون

كان الرجل المُسنُّ الثري ضِعيفاً ومريضاً، ولكن كان ذهنُه متقدِّماً، وبدا أن عَيْنِيهِ تسبران أغوار بيتر. أدرك بيتر أنه سيتعين عليه أن يتعامل مع الرجل بحذرٍ شديد؛ فأَيُّ زلة، مهما كانت صغيرة، ستكون لها عواقبُ فادحة.

قال الرجل المسن: «والآن، يا جادج، أريد منك أن تُخبرني بكل شيء. بادئِ ذي بدء، كيف تمكَّنتَ من اختراق صفوف هؤلاء الحُمُر؟ احكِ لي منذ البداية.»

أخبره بيتر عن بداية اهتمامه بالحركة الراديكالية، مشدداً بشكلٍ خاص على خطورة هؤلاء الحُمُر، وعلى ولائه الشديد للطبقة التي تمثِّل النظام والتقدُّم والثقافة في البلاد. وصاح متظاهراً ببراعة بأنه منفعِل: «يجب أن يقفوا عند حدهم، يا سيد أكريمان!»؛ فأوماً المصري المُسنُّ برأسه. وقال موافقاً إنه يجب أن يقفوا عند حدهم!

قال بيتر: «قلتُ لِنفسي: «سأكتشف ما يُخفيه هؤلاء الرفاق.» فحضرتُ اجتماعاتهم، وتظاهرتُ بالتحول تدريجياً لأن أكون أحدهم، وأؤكد لك، يا سيد أكريمان، أن شرطتنا نائمة؛ إنهم لا يعرفون شيئاً عما يفعله هؤلاء المحرِّضون، وما يروِّجون له. إنهم لا يعرفون شيئاً عن مدى توغُّلهم بين صفوف الجماهير الغاضبة!»

واصل بيتر حديثه المفصَّل عن دعاية الثورة الاجتماعية، وعن المؤامرات التي تحاك لزعزعة القانون والنظام، ولتدمير ممتلكات الأثرياء، بل وحتى إنهاء حياتهم. لاحظ بيتر أن يد الرجل كانت ترتعش عندما كان يرشِفُ بعض الماء لدرجة أنه تمكَّن بمشقة من منع الماء من الانسكاب عليه، وعندما رن الهاتف مرَّةً أخرى، كان صوته حاداً ومتغطرساً، وهو يقول: «أعرف أنهم يطلبون خروج هؤلاء الرجال من السجن بكفالة. أنجوس، هذه فاجأة! لن نقبل ذلك أبداً! أريدك أن تذهب إلى القاضي على الفور وتتأكَّد من أن يظل هؤلاء الرجال محتجزين في السجن.»

دخل المصري المُسن في نوبة سُعالٍ أخرى، ثم قال: «والآن، يا جادج. إن ما أعرفه لا يختلف كثيراً عما أخبرتني به. ما أريدك أن تخبرني به يتعلق بتلك المؤامرة التي كانت تُحاك ضدي. أخبرني كيف اكتشفتها.»

وأخبره بيتر؛ ولكنه بالطبع نَمَقَ الأجزاء التي تتعلق بالسيد أكبرمان، فقال إن هؤلاء الرجال كانوا يتحدثون عن السيد أكبرمان طوال الوقت، وأنهم كانوا يُضَمِّرون له ضغينةً كبيرة.

صاح الرجل المُسن: «ولكن ما السبب؟ لماذا؟»

«إنهم يعتقدون أنك تُحاربهم، يا سيد أكبرمان.»

«ولكنني لا أُحاربهم! هذا ليس صحيحاً!»

«يقولون إنك رصدت أموالاً لشنق جوبر. ويطلقون عليك اسماً ... هل ستعذرني إن ذكرتُه؟»

«نعم، نعم، بالطبع.»

«يُطلقون عليك اسم «كبير شياطين المال». ويُطلقون عليك اسم ملك المال في المدينة

الأمريكية.»

صاح المصري: «ملك! ما هذا الهراء! عجباً يا جادج، هذه أخبارٌ صحفيةٌ غبية! أنا حالياً رجل فقير. هناك دُزِينتان من الرجال في هذه المدينة أكثر ثراءً مني، كما أنهم يملكون سلطةً أكبر مني. لماذا ...» ولكن الرجل المُسن دخل في نوبة سُعالٍ جديدة أتعبته لدرجة أنه رقد وسط وسائده حتى استعاد أنفاسه. التزم بيتر الصمت في وقار، ولكنه لم يقتنع بالطبع بما قيل له. كان بيتر قد دخل في مفاوضاتٍ مراتٍ عديدة في حياته وسمع الناس يزعمون أنهم فقراء وعاجزون.

استأنف الرجل المُسن حديثه قائلاً: «جادج، أنا لا أريد أن أُقتل؛ أقول لك إنني لا أريد

أن أُقتل.»

قال بيتر: «لا، بالطبع لن يحدث ذلك.» كان من الجلي أن السيد أكبرمان لا يريد أن يُقتل. ولكن بدا أن السيد أكبرمان يرى أنه من الضروري أن يطبع هذه الفكرة في ذهنه؛ فقد عاد ليُكرِّرها خلال المحادثة عدة مرات، وكان يقولها كل مرة بالجدية نفسها، كما لو كانت فكرةً جديدة تماماً، فكرة غير عادية ومدهشة. كان يقول: «لا أريد أن أُقتل، يا جادج؛ أقول لك إنني لا أريد أن أترك هؤلاء الرجال يصلون إليّ. لا، لا؛ يجب أن نراوِغهم، يجب أن نتخذ الاحتياطات، كامل الاحتياطات، أقول لك كامل الاحتياطات الممكنة.»

قال بيتر بجديّة: «لقد جئتُ لهذا الغرض، يا سيد أكيّرمان. سأتولى كل شيء. سنتولى كل شيء، أنا واثق من ذلك.»

سأله المصرفي: «لماذا قلتَ ذلك عن الشرطة؟ لماذا قلتَ ذلك عن قسم جوفي؟ هل تقول إنهم غير أكفاء؟»

قال بيتر: «حسنًا، سأخبرك، يا سيد أكيّرمان. إنه أمرٌ محرّجٌ إلى حدٍّ ما كما ترى، فهم رؤسائي...»

صاح أكيّرمان: «هراء! أنا رئيسك! أنا من يدفع راتبك، وأريد الحقائق! أريدها كلها.»

قال بيتر: «حسنًا، لقد أحسنوا إليّ كثيرًا...»

صرخ الرجل المُسن: «قلتُ أخبرني بكل شيء! ما مشكلتكم؟» كان رجلًا مسنًا عجولًا لم يستطع أن يصبر للحظة واحدة دون أن يحصل على ما طلب.

أجاب بيتر بأكثر ما يملك من تواضع: «يمكنني أن أخبرك بالكثير من الأمور التي ستفيدك كثيرًا، يا سيد أكيّرمان، ولكن عليك أن تحتفظ بها سرًّا بيننا.»

قال الآخر بسرعة: «حسنًا! ما الأمر؟»

قال بيتر بإصرار: «إذا ما ألمحتَ حتى لأحد عما سأقول، فسأطرد من عملي.»

«لن تُطرد، سأتكفّل بذلك. وإذا لزم الأمر، فسأعينك للعمل معي مباشرة.»

«أه، ولكنك لا تفهم، يا سيد أكيّرمان. إنهم مثلُ آلةٍ معقّدة، ولا يمكنك أن تصطدم بها؛ عليك أن تفهمها، وعليك أن تتعامل معها بالشكل الصحيح. أودُّ أن أساعدك، وأعرف أنني أستطيع أن أساعدك، ولكن عليك أن تدعني أشرح لك الموقف، وعليك أن تفهم بعض الأمور.»

قال المُسن: «حسنًا، هاتِ ما عندك، ما الذي تريد شرحه؟»

قال بيتر: «كل ما في الأمر أن رجال الشرطة هؤلاء وجميع رجال الشرطة يقصدون الخير، ولكنهم لا يفهمون ما يدور حولهم؛ إن الأمر شديد التعقيد، وهم لم يعيشوا وسط هذه الحركة لفترةٍ كافية. لقد اعتادوا على التعامل مع المجرمين، ولكن هؤلاء الحُمر، كما تعلم، متعصّبون. عادةً ما يكون المجرمون غير منظمين، ولا يتكاتفون معًا على الأقل، أما هؤلاء الحُمر، فيفعلون ذلك، وإذا ما دخلتَ في صراع معهم، فلن يقفوا مكتوفي الأيدي، كما أنهم يستخدمون ما يُسمونه «الدعاية». وتلك الدعاية شيءٌ خطير، فإذا أقدمتَ على خطوةٍ خاطئة، فقد تكتشف أنك قد جعلتَ موقفهم أقوى مما كان سابقًا.»

قال المُسن: «نعم، أعرف ذلك. ماذا أيضًا؟»

«أريد التأكيد مجددًا على أن الشرطة لا تُدرك مدى خطورتهم. وإذا ما حاولت أن تُخبرهم بأمورٍ تحدث، فإنهم لن يصدقوك. وصلتني منذ فترةٍ طويلة معلوماتٌ عن مجموعة كَوْنها هؤلاء الناس تهدفُ لقتل جميع الأثرياء، الأشخاص المهمين في جميع أنحاء البلاد. كانوا يتجسَّسون على هؤلاء الأثرياء ويتجهَّزون لقتلهم. إنهم يعرفون الكثير من المعلومات عنهم لدرجة أنك لا تستطيع تفسير كيفية حصولهم عليها. هذا ما جعلني أفكر في أنهم جندوا جاسوسًا داخل منزلك، يا سيد أكيroman.»

«أخبرني بما تعنيه. أخبرني فورًا.»

«حسنًا، يا سيدي، يلتقط سمعي، من وقتٍ لآخر، أجزاء من محادثات. ذات يوم سمعتُ

ماك ...»

«ماك مَنْ؟»

«إنه ماكورميك، الذي في السجن. إنه أحد قادة اتحاد العمال الصناعيين العالمي، وأظن أنه أخطرهم. سمعته يهمس بشيء لرفيقٍ آخر، وأرعبني ذلك؛ لأنه كان يتعلَّق بقتل رجلٍ ثري. كان يُراقب هذا الرجل الثري، وقال إنه سيطلق النار عليه في منزله! لم أسمع اسم الرجل؛ فقد سرْتُ مبتعدًا عنهما لأنني لم أرغب في أن يظن أنني كنتُ أحاول التنصُّت عليه. هؤلاء الأشخاص متشكِّكون للغاية؛ إذا ما واصلتَ مراقبة ماك، فسترى أنه ينظر حوله كل دقيقة أو اثنتين. سرْتُ مبتعدًا، ثم عدتُ مجددًا، وكان يضحك على شيءٍ ما، وسمعته يقول الكلمات الآتية؛ سمعته يقول: «كنتُ أختبئ خلف ستار، وكان هناك رجلٌ إسباني مرسوم على الجدار المقابل، وكلما ألقىتُ نظرةً من خلف الستار وجدتهُ ينظر نحوي، وتساءلتُ عما إذا كان سيحفظ سري.»»

صمت بيتر. كانت عيناه قد اعتادتتا على العتمة وأصبح قادرًا على رؤية عينيَّ المصري المُسنَّ تجحطان من بين الهالات الداكنة والمنتفخة تحتها. ثم همس نيلس أكيroman قائلاً:
«يا إلهي!»

قال بيتر: «كان هذا كل ما سمعت. لم أكن أعرف ماذا يعني. ولكن عندما رأيت ذلك المخطَّط الذي رسمه ماك لمنزلك، قلتُ لنفسي، يا إلهي، أراهن أنه كان يتحصَّن الفرصة لإطلاق النار على السيد أكيroman!»

ظل الرجل المُسن يهمس: «يا إلهي! يا إلهي!» وقبضت أصابعه المرتجفة على تطريز الغطاء. رنَّ جرس الهاتف فالتقط سماعته، وقال لشخصٍ ما إنه مشغول الآن ولا يمكنه التحدث، وأن يتصل به في وقتٍ لاحق. ثم دخل في نوبة سُعالٍ أخرى حتى ظن بيتر أنه

سيختنق، واضطُر إلى مساعدته في ابتلاع دواءٍ ما. كان بيتر مصدومًا لرؤية الخوف والمذلة باديين بهذا الوضوح على أحد الآلهة. كان سكان الأوليمب هؤلاء مجرد بشرٍ في نهاية المطاف، وهم عُرضةٌ للألم والموت مثل بيتر جادج نفسه!

كما فُوجئ بيتر برؤية كم كان السيد أكريمان «طبعًا». لم يتظاهر بأنه غير مبالٍ بالحُمر. ووضع نفسه طوعًا تحت رحمة بيتر ليستغله كما يحلو له. وسيغتنم بيتر هذه الفرصة إلى أقصى حد.

قال بيتر: «سيد أكريمان، بوسعي أن أرى أنك أصبحتَ تدرك أنه لا فائدة من إخبار الشرطة بمثل هذه الأمور؛ فهم لا يعرفون كيفية التصرف في مثل هذه المواقف؛ أصدُقكَ القول إنهم لا يأخذون هؤلاء الحُمر على محمل الجد. إنهم للقبض على لصٍ عادي على استعداد لدفع مبلغٍ من المال أكبر بعشرة أضعاف مما قد يدفعونه لمراقبة عصابةٍ كاملة على هذه الشاكلة.»

صرخ الرجل المُسن قائلًا: «كيف استطاعوا الدخول إلى منزلي؟»

«لقد تمكّنوا من ذلك بطرق لا تخطر لك على بال، يا سيد أكريمان. ثمة أشخاص يوافقونهم في الفكر. لن تعرف سبب ذلك أبدًا؛ فبعض الوعاظ ينتمون إلى الحُمر، وكذلك بعض أساتذة الجامعات، وبعض الأثرياء مثلك.»

قال أكريمان: «أعرف، أعرف ذلك، ولكن لا شك في...»

«كيف يمكنك أن تعرف؟ قد يكون ثمة خائنٌ وسط عائلتك نفسها.»

استمر بيتر في غرس الرعب من الحُمر في نفس هذا المليونيير العجوز الذي لا يريد أن يُقتل. قال مجددًا إنه لا يريد أن يُقتل وشرح سبب كراهيته لذلك ببعض التفصيل. ثمة كثيرون يعتمدون عليه لكسب رزقهم، عددٌ أكبر مما يمكن لبيتر أن يتخيل! ربما هناك مائة ألف رجل مع عائلاتهم هنا في المدينة الأمريكية تعتمد وظائفهم على الخطط التي ينفذها أكريمان، والتي لا يمكن لأحدٍ سوى أكريمان تنفيذها. كان الأرامل واليتامي يعتمدون عليه في حماية أموالهم، ثمة شبكةٌ ضخمة من المسؤوليات تتطلب قراراتٍ منه كل يوم، بل كل ساعة. وكالمتوقَّع، رن جرس الهاتف، وسمع بيتر نيلس أكريمان يعلن أنه يجدرٌ بالشركة المتحدة للأوراق المالية أن تؤجل اتخاذ القرار بشأن أرباحها حتى الغد لأنه مشغول حتى أذنيه في توقيع بعض الأوراق في ذلك الوقت. ثم وُضِع سماعة الهاتف وقال: «أتدري، أتدري! يجب ألا ندعهم يصلون إليّ، يا جادج!»

القسم الثالث والخمسون

وصل بهما مسار الحديث إلى مسألة الخطط العملية، وكان بيتر قد جهّز بعض المقترحات. بادئ ذي بدء، يجب ألا يُلمَح السيد أكرمان، سواء للمسئولين الشَّرْطِيِّين أو لجوفي، أنه غير راضٍ عما يبذلون من جهد. ويجب أن يوفَّر بعض الوقت للقاء بيتر من آن لآخر، ويجب أن يتخذ هو وبيتر، بشكلٍ سريٍّ للغاية، بعض الخطوات لتأمين السيد أكرمان تلك الحماية التي جعلتها أهميته للمجتمع ضرورية. أوّل ما يجب فعله هو اكتشاف إذا ما كان هناك خائنٌ داخل منزل السيد أكرمان أم لا؛ ولهذا الغرض يجب زرعُ جاسوس، محقِّق من الدرجة الأولى يعمل داخل المنزل بصفةٍ ما. تكمن العقبة الوحيدة في أن هناك عددًا قليلًا للغاية من المحققين المستحقين للثقة؛ فقد كانوا جميعهم تقريباً أوغادًا، وإن لم يكونوا أوغادًا، فذلك لأنهم لا يملكون الذكاء الكافي ليكونوا كذلك؛ جميعهم أغبياء، وأيُّ من المنتمين للحُمُر يمكنه أن يسبر أغوارهم في غضون خمس دقائق.

قال بيتر: «ولكنني سأخبرك بما فكَّرتُ به. إن زوجتي عبقرية، وبينما كنا نتحدث عن ذلك الآن، فكَّرتُ أنه لو استطعتُ إحضار إديث هنا لبضعة أيام، فسأكتشف كل شيء عن جميع مَنْ هم في منزلك، أقاربك وخدمك على حدِّ سواء.»
سأله المصري: «هل هي محقِّقة محترفة؟»

قال بيتر: «لا، يا سيدي. كانت ممثلة؛ اسمها إديث يوستاس؛ ربما سمعتَ عن عملها

في المسرح.»

قال السيد أكرمان: «لا، أنا مشغول لدرجة لا تمكِّني من ارتياد المسارح.»
قال بيتر: «بالطبع. حسنًا، لا أعرف ما إذا كانت ستكون مستعدةً للقيام بذلك؛ فهي لا تحب أن أختلط مع هؤلاء الحُمُر، وكانت تتوسَّل إليَّ أن أتوقَّف عن ذلك منذ فترةٍ طويلة،

وكنْتُ على وشك أن أَعِدّها بذلك. ولكن إذا أخبرْتُها عن مشكلتك فقد تفعل ذلك، فقط كمعروف.»

ولكن كيف يمكن إدخال زوجة بيتر إلى منزل أكيroman دون إثارة الشكوك؟ طرح بيتر هذا السؤال، مشيراً إلى أن زوجته من طبقة اجتماعية راقية ولا تصلح أن تتظاهر بأنها خادمة. وأضاف السيد أكيroman أنه لا يوظفُ خدَمه بنفسه، كما أنه لا يوظفُ محاسبي مصرفه بنفسه. وسيكون مثيراً للشكوك أن يقترحها على مدير منزله. ولكنه قال في نهاية المطاف إن لديه ابنةٌ أخٌ تأتي لزيارته أحياناً، وستأتي على الفور إذا طُلب منها ذلك، وستأتي إديث يوستاس متظاهراً بأنها خادمتها. كان بيتر واثقاً من أن إديث ستتعلم هذا الدُور بسرعة، فقد مثَّله مرات عدة على خشبة المسرح، وفي الواقع، كان هذا هو دورها المفضل. وعَد السيد أكيroman بإرسال رسالةٍ إلى ابنة أخيه لتلتقي إديث في فندق هوتيل دي سوتو في عصر اليوم نفسه.

ثم قَطَعَ المصرفي المُسن على نفسه وعداً مغلظاً بأنه لن ينبس بكلمة عن هذا الأمر إلا لابنة أخيه. وكان بيتر مُفْرِطاً في الإلحاح والتشديد، فأكد على الرجل ألا يقول شيئاً للشريطة، وألا يُخبر أي أحدٍ من أسرته، ولا حتى سكرتير السيد أكيroman الخاص. بعد أن تلقى السيد أكيroman ذلك التأكيد، بدأ بدوره يؤكد على بيتر الفكرة التي يعتبرها الأكثر أهمية في العالم: «لا أريد أن أقتل، يا جادج، أقول لك إنني لا أريد أن أقتل!» ووعد بيتر وعداً جاداً بأن يجعل شغله الشاغل الاستماع إلى جميع محادثات الحُمر التي تتعلق بالسيد أكيroman.

عندما همَّ بيتر بالانصراف، أدخل السيد أكيroman أصابعه المرتجفة في جيب معطفه وأخرج قسيمةً نقدٍ جديدة ولامعة، ثم فردّها، ورأى بيتر أنها قسيمةٌ بقيمة خمسمائة دولار، قسيمةٌ جديدة من إصدارات المصرف الوطني الأول للمدينة الأمريكية، الذي يتأسس السيد أكيroman مجلس إدارته. قال أكيroman: «تلك هديةٌ صغيرة من أجلك، يا جادج. أريدك أن تُدرك أنك إذا حميتني من هؤلاء الأشرار، فسأرعاك جيداً. أريدك من الآن فصاعداً أن تكون واحداً من رجالي.»

قال بيتر: «بالطبع، يا سيدي، سأكون كذلك، يا سيدي. أشكرك جزيل الشكر، يا سيدي.» ثم وَضَعَ القسيمة في جيبه وأحنى ظهره وهو يتراجع خطوةً بخطوة نحو الباب. قال المصرفي: «لقد نسيتُ قُبعتك.»

القسم الثالث والخمسون

قال بيتر وجسده يرتعش: «أوه، نعم.» وعاد مرةً أخرى إلى مقعده وأخذ القُبعة من تحته، وانحنى مرةً أخرى.
قال الرجل العجوز: «وتذكّر، يا جادج. لا أريد أن أُقتل! لا أريد أن يصلوا إليّ!»

القسم الرابع والخمسون

كان أول ما فعله بيتر عندما عاد إلى المدينة هو أن ذهب إلى مصرف السيد أكرمان لتغيير تلك القسيمة بقيمة خمسمائة دولار. نظر الصراف إليه متجهماً، وفحص القسيمة بعناية، لكنه أعطى بيتر خمس ورقات نقدية قيمة كل منها مائة دولار دون تعليق. أخفى بيتر ثلاثة منها في مكان آمن، ووضع الاثنتين الأخرين في محفظته، وذهب ليقابل نيل في الموعد المحدد.

أخبر بيتر نيل بكل ما حدث، وأين ستلتقي ابنة أخ السيد أكرمان. سألته نيل على الفور: «ماذا أعطاك؟» وعندما أخرج بيتر الورقتين النقديتين، صاحت: «يا إلهي! ذلك العجوز البخيل!» فقال بيتر: «قال إنه سيعطيني المزيد لاحقاً.» قالت نيل: «تلك الكلمات لم تكلفه شيئاً. يجب أن نضغط عليه.» ثم أضافت: «يجدر بك أن تدعني أعنتي بهذا المال من أجلك، يا بيتر.»

قال بيتر: «حسناً. يجب أن يكون معي بعض المال من أجل نفقاتي الخاصة.»
«ألم تتقاض راتبك؟»

«بلى، تقاضيته، ولكن...»

قالت نيل: «يمكنني أن أحتفظ به في أمان من أجلك. وعندما تحتاج إليه ذات يوم ستكون سعيداً عندما تجده في انتظارك. إنك لم تدخر شيئاً بمفردك؛ فهذه وظيفة المرأة.» حاول بيتر التفاوض معها، لكنه اكتشف أن أسلوب التفاوض الذي كان يتبعه مع ماكجيفني لم يكن يصلح معها؛ فقد رمقته بنظراتها الدافئة، الأمر الذي جعل رأس بيتر يدور، ولم يدر بنفسه إلا وهو يمد يده لها ويدعها تأخذ الورقتين النقديتين. ثم ابتسمت له ابتسامة ملؤها الحنان جعلته يجرؤ على تذكيرها قائلاً: «نيل، لعلمك، لقد أصبحت زوجتي الآن!»

أجابته نيل: «نعم، نعم، بالطبع. لكن علينا أن نتخلّص من تيد كروثرز بطريقةٍ ما. إنه يُراقبني طوال الوقت، وأواجه متاعبَ جمة لأقدّم له أعداءًا كلما أردتُ الخروج.»

سألها بيتر في شغف: «كيف ستتخلصين منه؟»

أجابت: «سنضطر إلى الهرب؛ بمجرد أن ننفّذ خطتنا الجديدة ...»

زفّر بيتر في حزن، وقال: «سنهرب مجددًا؟»

ضحكت الفتاة. ثم قالت: «تمهّل! سأحصل على الكثير من المال من نيلس أكيرمان هذه المرة! ثم عندما نحقق أرباحنا، سنهرب، وسنكون مستعدّين لأن نعيش حياتنا. تمهّل ... لا تتحدث معي عن الحب الآن لأن عقلي مشغول بالكامل بخططتي، ولا أستطيع التفكير في أي شيءٍ آخر.»

افترقا بعد ذلك، وذهب بيتر لمقابلة ماكجيفني في البيت الأمريكي. كانت نيل قد قالت له: «واجهه!» لكن هذا الأمر لم يكن سهل التنفيذ لأن ماكجيفني كان يسحبه ويجرّه ويقبله رأسًا على عقب ومن الداخل إلى الخارج لكي يُخبره بكل ما حدث بينه وبين نيلس أكيرمان. بحق الرب، كم كان هؤلاء الرجال مستميتين على مصدر رزقهم! أكّد بيتر وأصر على أنه لعب بشكلٍ عادل تمامًا، وأنه لم يُخبر نيلس أكيرمان بأي شيءٍ إلا الحقيقة مثلما فعل مع جوفي وماكجيفني. قال إن الشرطة فعلت ما عليها، وأن قسم جوفي لم يتوان عن مراقبة الحُمر طوال الوقت.

سأله الرجل ذو وجه الجرد: «ماذا يريد منك أن تفعل؟»

أجابه بيتر: «كل ما يريده هو التأكد من أن يعرف جميع الأحداث المهمة، وأراد مني أن أعدّه بأن تصله جميع المعلومات التي جمعتها بخصوص المؤامرة المحيكة ضده، ووعدهُ بالطبع بأننا سنُعطيه جميع هذه المعلومات.»

سأله ماكجيفني: «هل ستقابله مرةً أخرى؟»

«لم يقل شيئًا بخصوص ذلك.»

«هل حصل على عنوانك؟»

«لا، أظن أنه إذا أراد لقائي، فسيكون من خلالك كالمرة السابقة.»

قال ماكجيفني: «حسنًا، هل أعطاك أي أموال؟»

قال بيتر: «نعم، أعطاني مائتي دولار، وقال إن هناك المزيد من هذه الأموال؛ لذا يجدر بنا أن نعمل بكد لمساعدته. قال إنه لا يريد أن يُقتل، وكَرّر ذلك دُرّينة من المرات، على ما أظن. قضى أغلب وقت مقابلتنا يكرّر هذه العبارة. إنه مريض، وهو خائف للغاية.»

في نهاية اللقاء، تكرّم ماكجيفني بشكر بيتر على وفائه وبدأ يُملي عليه المزيد من الأوامر.

كان الحُمر بصدد إطلاق صيحةٍ عالية. فقد نجح أندروز، المحامي، في الحصول على أمر من المحكمة برؤية الرجال المعتقلين، وبالطبع أعلن السجناء جميعهم أن القضية مدبّرة. وأصبح الحُمر على استعداد لإرسال منشورات إلى زملائهم الحُمر في جميع أنحاء البلاد، يطلبون الدعاية والأموال لمجابهة ذلك «التلفيق».

كانوا يتحركون في سريةٍ تامة، وأراد ماكجيفني أن يعرف مصدر تمويلهم. كما أراد نسخة من المنشورات التي يطبعونها، ومعرفة من أين ومتى سترسل هذه المنشورات. كان جوفي قد ذهب للقاء مسؤولي هيئة البريد، واتفقوا على مصادرة هذه المنشورات وإعدامها دون أن يعلم الحُمر ذلك.

فرك بيتر يديه في سرور. لقد بدأ العمل الحقيقي! فقد كانت ملاحقة هؤلاء المجرمين هي الطريقة التي ما برح بيتر يحُث على اتباعها! قال الرجل ذو وجه الجُرذ إن هذا لا يُقارَن بما سيفعلونه في غضون بضعة أيام. فليواصل بيتر عمله، وسيرى! فهذا الوقت، بينما لا يزال العامة متأثرين بمؤامرة الديناميت هذه، هو الوقت المناسب لإنجاز الأمور.

القسم الخامس والخمسون

ركب بيتر الترام إلى منزل ميريام يانكوفيتش، وفي الطريق، قرأ الطبعة المسائية من صحيفة «تايمز» المدينة الأمريكية. كان من المؤكّد أن محرري هذه الصحيفة يتربصون بالحُمر، لا شك في ذلك! كانوا قد أخذوا كتاب ماكورميك عن التخريب، تمامًا كما تنبأت نيل، ونشروا فصلاً كاملة منه، مع طباعة الجمل الأكثر تهديداً بخط كبير، وإحاطة بعضها بإطاراتٍ صغيرة وبعثرتها في جميع أنحاء الصفحة حتى لا يغفل أحدٌ عنها. كما نشروا صورة لماكورميك التّقطت في السجن؛ كان قد ظل عدة أيام دون أن يحلّق لحيته، ويبدو أنه لم يكن يشعر بالسعادة بشأن التقاط صورته؛ على أي حال، بدا مخيفاً بما يكفي لإرهاب أكثر الناس تشكُّكًا، وتأكّد ما قاله بيتر إن ماك هو أكثر الحُمر خطورة على الإطلاق.

نشرت هذه الصحيفة أعمدةً كثيرة تتحدث عن القضية، وربطتها بطريقةٍ غير مباشرة بجميع حوادث التفجير والاغتيال الأخرى التي وقعت على مدار التاريخ الأمريكي، وبمؤامرات الجواسيس الألمان ومؤامرات التفجير بالقنابل. وقالت إن ثمة منظمة تضم هؤلاء القتلة على مستوى البلاد، ونشرت مئات الصحف التي يقرؤها الملايين، وجميعها يمولها الذهب الألماني. كذلك، نشرت الصحيفة مقالاً تحريراً من عمودين يدعو المواطنين لأن يهبوا لإنقاذ الجمهورية والقضاء على التهديد الأحمر إلى الأبد. قرأ بيتر كل هذا، ومثل أي أمريكيٍّ شريفٍ آخر، صدّق كل كلمة قرأها في الصحيفة وتميَّز غضبًا بكراهية الحُمر. وجد بيتر أن ميريام يانكوفيتش ليست في منزلها، وكانت والدتها منفعلة للغاية لأن مريم تلقت خبراً مفاده أن الشرطة كانت تستجوب السجناء «بعنف»، فذهبت إلى مقر مجلس الشعب في محاولة منها لتوحيد جهود الراديكاليين واتخاذ إجراءاتٍ فورية. لذا، توجه بيتر من فورهِ إلى المقر المذكور حيث وجد نحو خمسة وعشرين من الحُمر والمناهضين للحرب مجتمعين، وكانوا جميعهم في حالة الانفعال نفسها. كانت ميريام تذرّع

الغرفة جيئةً وذهاباً، وكانت تشبُّك يديها وتفكُّهما، وكانت عيناها تبدوان وكأنها كانت تبكي طوال اليوم. تذكَّر بيتر شكوكه في أن ميريام وماك كانا عشيقين. وعندما سألهما، أجابته بأنهم وضعوا ماك في «الحفرة»، وكان هندرسون، الحطَّاب، راقداً في المستشفى بسبب التجربة القاسية التي مر بها.

بدأت الفتاة اليهودية تقص عليه ما حدث بالتفصيل، ووجد بيتر نفسه يرتجف؛ فقد كانت لديه ذكرى حية عن استجوابه بعنف! لم يُحاول أن يتوقف عن الارتجاف، ولكنه بدأ يذرَع الغرفة مثل ميريام وأخبرهم بما يشعر به المرء عندما يُلوى رسغاه وتُجذَّب أصابعه للخلف، وكيف أن «الحفرة» رطبة ومروعة. كان يقصد بذلك أن يُدخلهم في حالة هستيرية، على أمل أن يُقدِّموا على فعلٍ متهور، كما أراد ماكجيفني تماماً. لمَ لا يقتحمون السجن ويُحررون السجناء؟

قالت أدا روث الصغيرة إن هذا محضُ هراء؛ ولكن ألا يجدرُ بهم أن يُحضروا لافقات، ويخرجوا في مسيرة أمام السجن احتجاجاً على تعذيب الرجال الذين لم يُدانوا بأي جريمة؟ لا شك في أن الشرطة ستهاجمهم، وقد يهاجمهم العامة أيضاً وربما يمزقونهم إرباً، ولكن يجب ألا يقفوا مكتوفي الأيدي. أجاب دونالد جوردون أن هذا لن يجعلهم قادرين على الاستمرار في إثارة الجماهير. ما يجدرُ بهم أن يُحاولوا فعله هو إضرابٌ عمالي. يجب أن يرسلوا برقيات إلى الصحافة الراديكالية، وأن يخرجوا ويجمعوا المال، وأن يُدعوا إلى اجتماعٍ جماهيري بعد ثلاثة أيام من الآن. كما يجب أن يتواصلوا مع جميع نقابات العمال ليروا إذا ما كان من الممكن أن يُعمِّموا فكرة الإضراب العام.

عاد بيتر، المحبَّب إلى حدِّ ما، إلى ماكجيفني وأبلغه بهذه النتيجة الضعيفة. ولكن ماكجيفني قال إنه لا بأس، وإن لديه شيئاً سيُعدُّ لها؛ وأخبر بيتر بخبرٍ مذهل. كان بيتر يقرأ في الصحف عن الجواسيس الألمان، ولكنه لم يأخذ الأمر بجديّة كبيرة؛ فقد كانت الحرب تدور في أراضٍ بعيدة، ولم يرَ بيتر أياً من ذلك الذهب الألماني الذي تحدثت عنه الصحف كثيراً؛ في الواقع، كان الحُمُر يعيشون في حالة فقرٍ دائم، فكان كلُّ منهم يحرم نفسه من مُتَع الدنيا بصورةٍ دائمة لكي يتمكَّن من تخصيص جزء من دخله المحدود لدفع تكاليف المطبوعات، والمنشورات، والمراسلات، وصناديق الدفاع، وجميع نفقات منظمةٍ دعائية نشطة. ولكن أعلن ماكجيفني أن كل هذا حقيقي، وأنه من المؤكَّد وجود عميل للقيصر الألماني في المدينة الأمريكية! أوشكت الحكومة أن توقع به، ومن بين الأمور التي أراد ماكجيفني فعلها قبل اعتقال الرجل هو جعله يُسهِم ببعض المال لصالح القضية الراديكالية.

لم يكن من الضروري أن يُوضَّح ماكجيفني لبيتر مدى أهمية هذه المعلومات. إذا ما تمكَّنت السلطات من إثبات أن الاضطرابات التي كان يدعو لها ماكورميك وبقية الحُمر ممولة بأموال ألمانية، فإن الشعب سيتقبل أي إجراءاتٍ تُتخذ لإنهائها. هل يمكن لبيتر أن يقترح على ماكجيفني اسم اشتراكي ألماني يمكن إقناعه بالتواصل مع عميل القيصر هذا، وجعله يُسهِّم بأمواله من أجل الدعوة لإضرابٍ عام في المدينة الأمريكية؟ كان العديد من المصانع الكبرى في المدينة تتركس إمكاناتها لأغراض الحرب، ولا شك في أن العدو سيستفيد كثيرًا من الإضرابات والاضطرابات العمالية. كان رجال جوفي يحاولون منذ فترةٍ طويلة جعل الألمان يُسهِّمون في صندوق الدفاع عن جوهر، ولكن هذه الفرصة كانت أفضل بكثير من أي فرصةٍ سابقة.

فكَّر بيتر في الرفيق أبفل، الذي كان أحد الاشتراكيين المتطرفين، ومناهضًا مؤقتًا للحرب مثل أغلب الألمان. كان أبفل يعمل في مخبز، وكان وجهه باهتًا مثل العجين الذي يعجنه، ولكن كانت لمحة من الحُمر تظهر على وجهه عندما كان يقف في المجلس المحلي لبيدين «الوطنيين الاجتماعيين»، أعضاء الحزب الذين كانوا يدعمون خطط بريطانيا للهيمنة على العالم. قال ماكجيفني إنه سيُرسل شخصًا إلى أبفل على الفور ويعطيه اسم عميل القيصر باعتباره شخصًا يمكن إقناعه بالمساهمة في صندوق الدفاع الراديكالي. ولن تكون لدى أبفل، بالطبع، أدنى فكرة عن كون هذا الرجل عميلًا ألمانيًا، وسيذهب لمقابلته، وسيطلب منه المال، وهنا يأتي دور ماكجيفني وزملائه المحققين. قال بيتر إنها خطةٌ رائعة وعرض أن يذهب إلى أبفل بنفسه، ولكن الرجل ذا وجه الجرد رفض العرض؛ فقيمة بيتر كبيرة للغاية عنده، ويجب عدم المخاطرة بتوجيه شكوك أبفل نحوه بأي حال من الأحوال.

القسم السادس والخمسون

تلقى بيتر رسالة قصيرة من نيل تخبره فيها بأن كل شيء على خير ما يُرام، وأنها استلمت وظيفتها الجديدة، وسوف تحقق نتائج قريباً. لذا، بدأ بيتر يزاوُل مبتهجاً مهامه المتعلقة بمحاولة قمع حملة احتجاج الراديكاليين. كان النجاح الذي يحققونه، رغم أنف جميع الجهود التي تبذلها السلطات، مرعباً للغاية. كانت كوماتٌ من المنشورات تظهر في تجمعاتهم بطريقة عجيبة، ثم تُؤخذ وتُوزع قبل أن تتمكن السلطات من اتخاذ أي إجراء. كل ليلة في معبد العمل؛ حيث يجتمع العمال، كان محرّضون يتحدثون صارخين بأعلى أصواتهم عن قضية ماكورميك. وما زاد الطين بله أن صحيفةً مسائيةً غامضة بقيمة سنتٍ واحد في المدينة الأمريكية استهدفت القراء من الطبقة العاملة، وأصرت على نشر أدلة تُثبت أن القضية «ملفّقة». اكتشف الحُر أن ثمة من يعترض بريدهم، وبدعوا يثيرون صحباً هائلاً حيال ذلك الأمر مُدّعين، بالطبع، أن ما كانوا يهتمون به هو «حرية التعبير»!

كان من المقرّر عقد الاجتماع الجماهيري هذا المساء، وقرأ بيتر مقالاً غاضباً في جريدة «تايمز» المدينة الأمريكية يدعو السلطات إلى قمع هذا الاجتماع. كان عنوان المقال «فليسقط العلم الأحمر!» ولم يستطع بيتر استيعاب كيف يمكن لأي أمريكي ذي دمٍ حار، أي أمريكيٍّ حقيقي بنسبة ١٠٠٪، أن يقرأ هذا المقال ولا يحفزه لأن يتحرك لفعل شيءٍ ما.

قال بيتر ذلك لماكجيفني، الذي ردّ عليه قائلاً: «سنفعل شيئاً ما، انتظر وسترى!» وبالفعل، في عصر ذلك اليوم، نقلت صحف أخباراً مفادها أن عمدة المدينة الأمريكية أبلغ مُلاك القاعة أنهم سيتعرضون للمساءلة القانونية بسبب جميع التصريحات المحرّضة والثائرة التي ستلقى في هذا الاجتماع؛ وبناءً على ذلك، ألغى مُلاك القاعة العَقد. علاوةً على ذلك، أعلن العمدة أن تجمهُر الحشود في الشارع ممنوع، وأن الشرطة ستكون حاضرةً لضمان ذلك، ولحماية القانون والنظام. هُرع بيتر إلى مقر مجلس الشعب، ووجد

الراديكاليين يروحوون ويجيئون في محاولة منهم للعثور على قاعةٍ أخرى؛ ومن وقتٍ لآخر، كان بيتر يذهب إلى الهاتف، ويُخبر ماكجيفني باسم القاعة التي يُحاولون الاجتماع فيها، وكان ماكجيفني يتواصل مع جوفي، وكان جوفي يتواصل مع سكرتير غرفة التجارة، وكان صاحب هذه القاعة يتلقى اتصالاً متوعداً من رئيس المصرف الذي يملك رهنًا لهذه القاعة، أو من رئيس مجلس إدارة الأوركسترا السيمفونية التي تُقدّم حفلاتها هناك.

ومن ثم، لم يُقم اجتماع جماهيري للحُمر تلك الليلة، وكذلك طوال الليالي التي تلتها في المدينة الأمريكية! كان قسم جوفي قد انتهى من إعداد قصة الجاسوس الألماني، وفي صباح اليوم التالي، كانت صفحة صحيفة «تايمز» المدينة الأمريكية بالكامل مخصّصة للكشف المذهل عن أن كارل فون ستروم، عميل الحكومة الألمانية، والذي يُعتقد أنه ابن أخي نائب المستشار الألماني، قد اعتقل في المدينة الأمريكية؛ حيث كان يتظاهر بأنه وكيل لاستيراد آلات الخياطة السويدية، ولكنه في الواقع كان يعمل على تمويل زرع قنابل الديناميت في مباني شركة «بايونير فاوندري» التي تُجهّز الآن لصنع الرشاشات. كما قبض على ثلاثة من المتعاونين مع فون ستروم في الوقت نفسه، ووقعت بين أيدي السلطات مجموعة كبيرة من الأوراق المليئة باكتشافاتٍ مهمة، لعل أكثرها أهمية حقيقة أن فون ستروم تواصل بالأمس فقط مع اشتراكي ألماني من الحُمر المتطرفين، وهو أحد مسؤولي اتحاد صنّاع الخبز والكعك رقم ٤٧٩، ويُدعى إرنست أبفل. وتملك الحكومة سجلاً للمحادثات التي أسهم بموجبها فون ستروم بمبلغ مائة دولار لصالح «جمعية الدفاع عن الحرية»، وهي منظمّة أنشأها الحُمر بغرض التحريض على إطلاق سراح أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي الذين اعتقلوا في مؤامرة قتل نيلس أكيرمان بالديناميت. وعلاوةً على ذلك، ثبت أن أبفل أخذ هذا المال ووزّعه على عدة ألمان من الحُمر، الذين تبرّعوا به بدورهم لصندوق الدفاع، أو استخدموه في دفع تكاليف المنشورات التي تدعو إلى الإضراب العام.

كان قلب بيتر ينبض بقوة في صدره من فرط الانفعال، ونبض بسرعة أكبر بعدما اشترى إفطاره وذهب ليتمشّى في الشارع الرئيسي. فقد رأى حشودًا مجتمعة، وأعلام أمريكا ترفرف من جميع المباني، وبدا الحال شبيهًا بموكب يوم الاستعداد الوطني. أدى ذلك إلى شعور بيتر بنوباتٍ خوفٍ غريبة، فتخيل انفجار قنبلةٍ أخرى، لكنه لم يستطع تفادي الجماهير بوجوههم المترقبة وحماستهم المعديّة. ثم وصلت فرقةٌ موسيقية تعزف موسيقى عسكرية رائعة، ومن خلفها، جاء الجنود يمشون مشيتهم العسكرية، ترامب، ترامب، صَفُّ تلو الآخر من الصبية الذين يرتدون بدلاتهم العسكرية باللون الكاكي ويحملون على ظهورهم حقائبَ ثقيلة وبنادقَ جديدة لأمعة. أولادنا! أولادنا! باركهم الرب!

كان الموكب مُكوّناً من ثلاثة أفواج من الفرقة ٢٢٣، قادمة من معسكر لينكولن لتُجهَّز للذهاب إلى الحرب. كان من الأفضل أن يذهبوا إلى معسكرهم بالطبع، ولكن كان الجميع يطالبون برؤية الجنود، وها هم أولاء مع موسيقاهم وأعلامهم، وحشودهم من المعجبين المتحمسين مصطفين في خطين من الناس لا نهاية لهما، مفعمين بحماسة وطنية، يصرخون، ويغنُّون، ويلوِّحون بالقبعات والمناديل، حتى أصبح الشارع كله كتلةً من الهياج الضبابي الجنوني. راقب بيتر صفوف الجنود المتلاصقة هذه، المستقيمة والسليمة، وأرجل الجنود التي تتحرك في توافق تام، والأقدام التي ترجُّ الأرض كهزيم الرعد. رأى الوجوه الصبيانية الشابة، ذات النظرات الجادة الفخورة، والأعين الثابتة نحو الأمام ولا تحيد أبداً، حتى وإن أدركوا أن هذه قد تكون النظرة الأخيرة التي يلقونها على مدينتهم الأم، وأنهم قد لا يعودون من هذه الرحلة أبداً. أولادنا! أولادنا! باركهم الرب! شعر بيتر بغصة في حلقه، وشعور بالامتنان للصبية الذين يحمونه وبلاده، فضمَّ يديه وجزَّ على أسنانه، وقد نما في داخله إصرارٌ جديد على معاقبة الأشرار رجالاً ونساءً، سواء كانوا هاربين من الخدمة العسكرية، أو متخاذلين، أو مناهضين للحرب، أو متمردين؛ جميع من فُشلوا في أداء أدوارهم في هذا المسعى المجيد.

القسم السابع والخمسون

ذهب بيتر إلى البيت الأمريكي والتقى ماكجيفني وكُفِّ بمهمة تناسبت تمامًا مع حالته المزاجية. قال الرجل ذو وجه الجرد إن وقت العمل قد حان. كانت اللجنة التنفيذية المحلية لاتحاد العمال الصناعيين العالمي قد صاغت التماسًا إلى المنظمة الرئيسية لمساعدتهم، وكان من المقرر أن تجتمع اللجنة التنفيذية في مساء ذلك اليوم، وكان على بيتر أن يتواصل مع جراي، أمين اللجنة، ويعرف منه أين سيُعقد الاجتماع، ويقترح عليه أن يُدعى إلى الاجتماع جميع أعضاء الاتحاد، والحُمُر الآخرون أيضًا. قال ماكجيفني إن رجال الأعمال في المدينة كانوا بصدد توجيه ضربتهم الكبرى في تلك الليلة، وكان أعضاء غرفة التجارة الأصغر سنًا وجمعية التجار والمصنعين قد اجتمعوا وأعدوا خطة سرية، وكان كل ما يريدونه هو أن يجتمع الحُمُر في مكان واحد.

ومن ثم، انطلق بيتر وعثُر على شون جراي، الصبي الأيرلندي الشاب الذي كان يحتفظ بقوائم عضوية المنظمة ووثائق أخرى في مكان سري للغاية لم يتمكّن بيتر نفسه من العثور عليه. أخبره بيتر بأحدث الأخبار عن معاناة ماك في «الحفرة»، وعن دخول جوس، البحّار، المستشفى مع هندرسون. بالغ بيتر في التعبير عن غضبه لدرجة أن جراي أخبره في نهاية المطاف بموعد اجتماع ذلك المساء ومكانه، وقال بيتر إنه يجدر بهم أن يجتمعوا بعض أصدقائهم ويعملوا على إيجاد طريقة لتوزيع منشوراتهم الاحتجاجية بسرعة؛ فقد أصبح من الجلي أنه لم يُعد بإمكانهم استخدام البريد. ما الفائدة من قرارات اللجان التنفيذية إذا كان المطلوب هو تحرك جميع الأعضاء؟ قال جراي حسنًا، سيُخطرون الأعضاء النشطين والمتعاطفين، وكُفِّ بيتر بمهمة إجراء الاتصالات الهاتفية والتنقل في أنحاء المدينة لنقل الخبر إلى دُزينة من الأشخاص.

في تمام السادسة من مساء ذلك اليوم، نقل بيتر النتائج إلى ماكجيفني، ثم تلقى صدمة. قال الرجل ذو وجه الجرد: «يجب أن تحضر ذلك الاجتماع بنفسك. يجب ألا تغامر بإثارة الشكوك حولك.»

صاح بيتر: «ولكن، يا إلهي! ماذا سيحدث هناك؟»
أجابه ماكجيفني: «ليس عليك أن تقلق بشأن هذا. سأؤكد من أنك محمي.»
كان من المقرر أن يُعقد الاجتماع في منزل أدا روث، الشاعرة، وكان من شأن ماكجيفني أن جعل بيتر يصف له هذا المنزل. خلف غرفة المعيشة كانت ثمة ردهة، وفي هذه الردهة كانت ثمة خزانة ملابس كبيرة. مع أول بادرة خطر، على بيتر أن يذهب إلى هذا المكان. وعليه أن يدخل الخزانة، وسيكون ماكجيفني حاضرًا، وسيُحاصرون بيتر ويتظاهرون بضره، ولكن في الواقع، سيحمونه مما يحدث للباقيين. بدأت ركبنا بيتر ترتعشان، واعترض على الفكرة غاضبًا؛ فما الذي يمكن أن يحدث له إن حدث شيء لماكجيفني، أو لسيارته، ولم يتمكّن من الوصول في الوقت المناسب؟ قال ماكجيفني لبيتر إنه لا داعي للقلق؛ فله قيمة كبيرة لديهم ولن يُغامروا بخسارته. سيكون ماكجيفني موجودًا، وكل ما على بيتر فعله هو الصراخ وإثارة الفوضى، وأخيرًا السقوط فاقدًا الوعي، وسيحملة ماكجيفني، وهاميت، وكومينجز إلى سيارتهم ويأخذونه بعيدًا!

كان بيتر خائفًا لدرجة أنه لم يستطع تناول العشاء وظل يتجول في الشارع يُحدث نفسه ويشد من أزرها. كان عليه أن يتوقف وينظر إلى الأعلام الأمريكية التي لا تزال ترفرف من المباني، وقراءة الطبعة المسائية من جريدة «تايمز» المدينة الأمريكية، لكي يشحذ حماسه الوطنية من جديد. عندما انطلق متجهًا إلى منزل المُسن المعاق الذي كتب القصيدة المناهضة للحرب، شعر وكأنه أحد الجنود الشباب الذين انطلقوا للمشاركة في الحرب.

كانت أدا روث حاضرة، وكذلك والدتها، تلك العجوز العجفاء التي لا تعرف شيئًا عن كل هذه التحركات العالمية المروعة، والتي لم يكن لتوسلاتها أي تأثير يُذكر على ابنتها المُلهمة؛ كانت ابنة عم أدا حاضرةً أيضًا، تلك المعلمة العجوز النحيلة سكرتيرة مجلس الشعب؛ وكانت هناك أيضًا ميريام يانكوفيتش، وسادي تود، ودونالد جوردون. في الطريق التقى بيتر بتوم دوجان، وأعلن له الشاعر الحزين أنه كتب قصيدة جديدة عن سجن ماك في «الحفرة». ثم وصل جرادي، السكرتير، بعدهما مباشرةً وجيوبه مكنظة بالأوراق. كان جرادي، الصبي الأيرلندي الطويل القامة، ذو العينين الداكنتين، والمزاج المتقلب، ما

يُسَمِّيهِ الاشتراكيون «جيمي هيجينز»؛ أي أحد الرجال الذين يؤدون العمل الشاق والمِمل للحركة، والذين دائماً ما تجدهم موجودين مهما حدث، ومستعدين دائماً لتحمل مسئولية جديدة على كاهلهم. لم يكن جرادي يهتم لأمر الاشتراكيين، بل كان يهتم فقط لأمر «الحراك الصناعي»، ولكنه لم يكن يمانع أن يُطَلَقَ عليه لقب «جيمي هيجينز»، وقال إن بيتراً أحدهم أيضاً، وابتسم بيتراً لنفسه مفكراً أن لقب «جيمي هيجينز» كان آخر لقب في العالم ينطبق عليه. كان بيتراً في طريقه إلى الاستقلال والازدهار، ولم يخَطُرُ بباله أنه قد يكون «جيمي هيجينز» بالنسبة «للبيض» وليس للحمُر!

أخرج جرادي أوراقه، وبدأ يتحدث مع دونالد جوردون عن مجريات الأمسية. كان قد تلقى برفقياً من المقر الوطني لاتحاد العمال الصناعيين العالمي تَعِدَ بتقديم الدعم، وكان وجهه النحيل المتطلع مشرقاً بالفخر بينما يعرضها على الناس. ثم أعلن أن «باد» كونور سيكون حاضراً؛ وهو منظمٌ أحداث معروف كان برفقة ماكورميك في بلاد النفط، وجلب معه أخباراً تفيد بأن العمال هناك يوشكون على إطلاقِ إضرابٍ كبير. ثم وصلت السيدة جينينجز، وكانت امرأةً ضئيلة الحجم معدّبة يقتلها السرطان ببطء، وطلّب زوجها الطلاق من المحكمة لأنها تبرّعت بالمال لاتحاد العمال الصناعيين العالمي. وجاء معها ليساعدها «أندي» آدمز، مُشغَّلٌ آلاتٍ كبير طُرِدَ من عمله بسبب كثرة حديثه عن «التحرك المؤثّر». أخرج من جيبه نسخة من جريدة «إيفينينج تليجراف»، وقرأ بضعة أسطر من أحد المقالات يدين «التحرك المؤثّر» واصفاً إياه بأنه يعني التفجير، ولم يكن يعني ذلك بالطبع، ويتساءل عن الفترة التي ستنتقضي قبل أن يستخدم المناصرون للقانون والنظام في المدينة الأمريكية القليل من «التحرك المؤثّر» من طرفهم.

القسم الثامن والخمسون

ظل الحضور يتوافدون حتى وصل عددهم إلى نحو ثلاثين شخصاً، ثم بدأ الاجتماع على الفور. كان من الواضح، كما قال جرادى، إن السلطات لَفَقَت متعمدةً مؤامرة التفجير من أجل امتلاك ذريعة للقضاء على منظمة اتحاد العمال الصناعيين العالمي؛ فقد أغلقوا المقر، وصادروا كل شيء، الآلات الكاتبة والأثاث المكتبي والكتب، بما في ذلك كتاب عن التخريب أعطوه لمحرر جريدة «التايمز المسائية»! أطلق الحضور صوتَ صفيرٍ غاضبٍ لدى سماعهم اسم الجريدة. كما كانوا قد بدءوا يعترضون بريد المنظمة، وكان على القائمين على اتحاد العمال الصناعيين العالمي أن يتخلصوا من كتبهم بأقصى سرعةٍ ممكنة. كانوا يُقاتلون في معركة بقاء، ويجب أن يعثروا على طرق لإيصال الحقيقة للناس. إذا كان هناك من يملك أي اقتراحاتٍ لتحقيق ذلك، فقد حان وقتُ الإفصاح عنها.

بدأت الاقتراحات تصدر الواحد تلو الآخر، وفي الوقت نفسه، كان بيتر يجلس كما لو كانت الدبابيس تملأ كرسيه. لماذا لم يأت الأعضاء الأصغر سناً في غرفة التجارة وجمعية التجار والمصنّعين ويفعلوا ما ينوون فعله دون مزيد من التأخير؟ هل يتوقعون أن يجلس بيتر في مكانه طوال الليل، يرتجف من الخوف، ودون أن يتناول عشاءه؟

فجأة، هبَّ بيتر من مكانه. فقد جاءت صرخة من الخارج، وصمت دونالد جوردون، الذي كان يُلقي خطاباً، فجأةً، وتبادل الحضور النظرات، وهبَّ بعضهم واقفين. ثم سمعوا المزيد من الصيحات التي تحوّلت إلى صرخات، وتوجَّه بعض الحضور نحو الأبواب الأمامية، وتوجَّه البعض الآخر إلى الأبواب الخلفية، وتوجَّه آخرون نحو النوافذ والدرج. لم يُضِع بيتر وقتاً، فغاص داخل خزانة الملابس في الردهة خلف غرفة المعيشة، وتحرك إلى الركن الأبعد من الخزانة، وغطَّى نفسه ببعض الملابس، وما جعله في أمانٍ أكثر أن عدة أشخاص كدَّسوا أجسامهم فوقه.

استمع بيتر من مكانه الآمن إلى الفوضى التي سادت المكان. امتلأ المكان بصرخات النساء، وشتائم الرجال المتقاتلين، وأصوات انقلاب الأثاث، والهراوات والمفاتيح الإنجليزية وهي تهوي على رؤوس الناس. كان الأعضاء الأصغر سنًا في غرفة التجارة وجمعية التجار والمصنّعين قد وصلوا بقوة تكفي لتأكيد تحقيق هدفهم. كان يُوجد عددٌ منهم يكفي للمء الغرفة، وسد جميع المداخل، واثنان أو ثلاثة لحراسة كل نافذة، وسرّب طائر مراقبة أي شخص يقفز من السطح أو يحاول الاختباء بين أشجار الحديقة.

ظل بيتر مختبئًا يستمع إلى الصخب الغاضب، وبعد فترة سمع صرخات الأشخاص المكسسين فوقه، وأدرك أنهم كانوا يُسحبون ويُضربون، ثم شعر بأيدٍ تمتد وتمسك به، فتكؤر على نفسه يبكي من الخوف، ولكن لم يمسه أحد، وبعد قليل، رأى رجلًا يرتدي قناعًا أسود ولكن يمكن تحديد هويته بسهولة؛ إذ كان ماكجيفني. لم يشعر بيتر في حياته بسعادة لرؤية وجه إنسان أكبر من سعادته لرؤية وجه الجرد المثلث هذا! كان ماكجيفني ممسكًا بهراوة في يده، وكان يوجّه ضرباتٍ قوية إلى الملابس المكوّمة حول بيتر. ومن خلف ماكجيفني، كان هاميت وكومينجز يتوليان مهمة إجراءات الضبط، وكانا من وقت لآخر يوجّهان ضربات من تلقاء نفسيهما.

انتهى أغلب القتال داخل المنزل وخارجه بسرعة؛ فكل من دخل قتالًا إما قبض عليه أو هُزم. ثم بدأ عددٌ من عملاء جوفي، الذين كانوا يدرسون هؤلاء الحُمُر طوال عام أو اثنين ويعرفونهم جميعًا، في انتقاء الأشخاص الذين يريدونهم بشكلٍ خاص، وتفتيشهم بحثًا عن أسلحة، ثم تكبيلهم. اقترب أحد هؤلاء الرجال من بيتر، الذي سقط مغشيًا عليه على الفور، وأغلق عينيه؛ فحمله هاميت من تحت إبطيه وكومينجز من قدميه، وسار ماكجيفني بجواره كحارسٍ شخصي، قائلاً من وقت لآخر: «نريد هذا الرجل، وسنتولى أمره.»

حملوا بيتر إلى الخارج، وفي الظلام، فتح بيتر عينيه بما يكفي ليرى أن الشارع مليء بالسيارات، وأنه كان يتم تحميل الحُمُر فيها. سار أصدقاء بيتر حاملين إياه إلى إحدى السيارات وانطلقوا بها مبتعدين، ثم استفاق بيتر، وجلس أربعينهم يضحكون حتى ألتهم جوانبهم، ويريبت بعضهم على ظهور بعض، وتحذّثوا عن المشاهد المرئية التي رأوها. هل رأى هاميت ذلك الجرح الذي أصيب به جرادي فوق عينيه، وكيف غرق في دمائه؟ حسنًا، أراد أن ينتمي إلى الحُمُر، فساعده في أن يكون منهم من الداخل والخارج! هل رأى ماكجيفني كيف أن «باك» ليس، أحد رجالهم، قد كسر أنف الشاعر المشرد؟ ولا شك في أن الشاب أوجدن، نجل رئيس غرفة التجارة، قد أظهر ما يشعر به تجاه تلك المشاية،

إنَّاءً كَنَّ أو ذكوراً؛ فعندما صفعته تلك العاهرة يانكوفيتش، أمسكها من ثدييها حتى كاد يخرجها من مكانهما، فصرخت وفقدت وعيها!
نعم، لقد أخرجوهم من جُرحهم. ولكن لم ينتهِ الأمر بعد؛ فسَيُنهون العمل بأكمله الليلية، بعون الله! سيذيقون المناهضين للحرب طعمها، وسيضعون حدًّا للإرهاب الأحمر في المدينة الأمريكية! يمكن لبيتر أن يرافقهم إذا أراد رؤية كيف يُنجزون عملهم؛ فهم في طريقهم إلى الريف، وسيكون الظلام مخيمًا، وإذا ارتدى قناعًا، فسيكون آمنًا تمامًا. وافق بيتر؛ فقد كان دمه فائرًا، وكانت روحه تتوق إلى الصيد، أراد أن يشهد الموت بعينيهِ، بغضِّ النظر عن أي شيء.

القسم التاسع والخمسون

كان المحرك يطلق هديرًا ناعمًا، وكانت السيارة تمضي بخفة مسرعةً كما لو كانت تطير بجناحين عبر ضواحي المدينة الأمريكية متجهةً نحو الريف الذي يليها. كانت هناك سياراتٌ أمامها، وسياراتٌ أخرى خلفها، وصنعت السيارات طابورًا طويلًا من الأنوار البيضاء يطير مخترقًا الريف. وصلت السيارات إلى بستان من أشجار الصنوبر الكبيرة، التي تتراوح سماكة جذوعها ما بين قدمين إلى ثلاث أقدام، صانعةً ما يشبه أقواس الكنائس، وغطت الأرض تحتها سجادةً بنيةً ناعمة. كانت مكانًا شهيرًا للتنزه تجتمع فيه جميع السيارات وفقًا لمواعيد مسبقة. كان من الجلي أن كل شيء كان مرتبًا بشكلٍ مسبق بتلك الكفاءة التي تُعد مصدر فخر الأمريكيين الحقيقيين بنسبة ١٠٠٪. كان رجل يرتدي قناعًا أسود على وجهه يقف في وسط البستان، ويُلقي تعليماته صارخًا عبر بوق، وكانت كل سيارة عندما تصل إلى المكان تصطف بجوار السيارة السابقة لها لتصنع دائرةً واسعة يبلغ قطرها أكثر من مائة قدم. كانت السيارات التابعة للأعضاء الأصغر سنًا في غرفة التجارة وجمعية التجار والمصنعين ملتزمة؛ كانوا معتادين على الوقوف بدقة في أماكنهم وفقًا لأوامر الرجل المسك بالبوق عندما يأتون لحضور الحفلات، أو عندما يأتي الأعضاء الأصغر سنًا وزوجاتهم وخطيباتهم مرتدين ملابسهم المصنوعة من الحرير الناعم والستان، يمشون الهوينى لحضور حفلات العشاء والرقص.

ظلت السيارات تتوافد حتى لم يُعد متبقيًا إلا مكان يكفي لوقوف سيارة واحدة. ثم صدر أمر بصوت عالٍ: «السيارة الرقم واحد!» خرجت مجموعة من الرجال من إحدى السيارات يجرون سجينًا مكبل اليدين. كان مايكل دوين، الخياط اليهودي الشاب الذي قضى خمسة عشر يومًا في السجن مع بيتر. كان مايكل طالبًا وحاملًا، وغير معتاد على مشاهد العنف، كما كان ينتمي إلى عرق يعبر عن مشاعره جهارًا؛ ولذلك كان يُعدُّ مزعجًا

للأمريكيين الحقيقيين بنسبة ١٠٠٪. صرخ مايكل وأنَّ بينما كان الرجال الملتئمون يفكُّون قيوده ويخلعون معطفه عنه ويمزِّقون قميصه من الخلف. ثم جرَّوه إلى شجرة في وسط الدائرة، شجرة أصغر حجمًا من بقية الأشجار تناسبت تمامًا مع التقاء معصميه من حولها وتكبيلهما مجددًا. وقف مايكل مقيدًا إلى الشجرة تحت الأنوار المبهرة لثلاثين أو أربعين سيارة، يتلوى ويتأوه، بينما كان أحد الرجال الملتئمين بالأسود يخلع عنه معطفه ويستعد للعمل. أخرج الرجل سوطًا أسود طويلًا، ثم تسمَّر مكانه للحظات، وبصوت عالٍ، صرخ الرجل الذي يحمل البوق: «ابدأ!» شق السوط الهواء مطلقًا صفيحًا ثم سقط على ظهر مايكل مسببًا جراحًا في لحمه نزفت منها الدماء. انطلقت صرخة ألم، وبدأ الضحية في التلوي والدوران والركل كما لو كان يُسلم روحه. صفَّر السوط مرةً أخرى، ومرةً أخرى سُمِعت الضربة بينما تمزَّق اللحم، وظهر شريطٌ أحمر آخر.

كان أعضاء الغرفة التجارية وجمعية التجار والمصنعين الأصغر سنًا جاهزين تمامًا لأعمال هذا المساء. لم يكونوا شاحبين ونحافًا، أو جائعين ومجهدين، كما كان سجنائهم، بل كانوا سمانًا ومتوردين، ومفعمين بالصحة. كأن آباءهم أدركوا مدى خطورة الحُمَر منذ سنواتٍ طوال، وكذلك الخطوات التي يجب الإقدام عليها للحفاظ على الأمريكيين الحقيقيين بنسبة ١٠٠٪، فاستورد الآباء لعبة تُمارس عبر ضرب كراتٍ بيضاء صغيرة في أنحاء ملعب باستخدام مضارب من أنواع وأحجام مختلفة. كما أنشئوا مقرات نوادٍ رائعة هنا في الضواحي، وخصَّصوا مئات الأفدنة من الأرض لهذه اللعبة، وكانوا يُنهبون أعمالهم تجارية كانت أو صناعية في ساعةٍ مبكرة من عصر كل يوم ليذهبوا إلى تلك الملاعب ويحافظوا على لياقتهم البدنية. كانوا ينظمون بطولات، ويتنافسون فيما بينهم، ويتبادلون قصصًا عن الضربات القوية التي حققوها باستخدام مضاربهم، وعن مئات الضربات التي تمكنوا من تحقيقها في عصر يومٍ واحد. لذا كان الرجل الذي يحمل السوط الأسود «لائقًا بدنيًا»، ولم يحتج إلى التوقف لالتقاط أنفاسه. وظل ينهال بالضربات الواحدة تلو الأخرى بحركة رائعة متناغمة، واستمر على هذه الحال دون تعب ينهال بالضربات مرارًا وتكرارًا. هل نسي؟

هل كان يظن أن هذه كرة صغيرة بيضاء يُورجج مضربه لضربها؟ استمر في الضرب حتى أصبح من المستحيل عدُّ الكدمات، حتى أصبح ظهر مايكل دوبين بأكملة كتلةً من اللحم النيء النازف. توقفت صرخات مايكل دوبين، وانتهت معاناته المتشنجة، وتدلَّت رأسه بلا حراك، وانخفض جسده أكثر فأكثر نحو قاعدة الشجرة.

في نهاية المطاف، تقدم منظّم المراسم وأمر بالتوقف، ومسح الرجل الذي يحمل السوط جبينه المتعرق بكُمّ قميصه، وجرّ الرجال الآخرون جسد مايكل دوبين، وسحبوه لبضع أقدام إلى ناحية ما وألقوه على وجهه بين أوراق أشجار الصنوبر.

نادى منظم المراسم قائلاً: «السيارة رقم اثنين!» كان صوته واضحاً وأمرًا، كما لو كان ينادي بأرقام رقصة الرباعيات، ومن سيارةٍ أخرى خرجت مجموعةٌ أخرى من الرجال تجرّ سجيناً آخر. كان هذا السجين هو بيرت جليكاس، رجلاً «قوي البنية» وأحد أعضاء اللجنة التنفيذية لاتحاد العمال الصناعيين العالمي كان قد فقد سنين في إضراب حصاد حدث قبل بضعة أسابيع. بينما كانوا يخلعون عنه معطفه، تمكّن من تحرير إحدى يديه، فطفق يهزّها في وجه المتفرجين خلف أضواء السيارات البيضاء، وصاح: «فليلعنكم الرب!» فقيّدوه، وتقدم رجلٌ آخر وأمسك بالسوط، وبصق على يديه لجلب الحظ، وبدأ يضرب بقوة مضاعفة، ومع كل ضربة، كان جليكاس يصرخ مطلقاً سباباً جديداً، كان يسب باللغة الإنجليزية في البداية، ثم بلغةٍ أجنبيةٍ ما، وكأنه يدخل في حالة هذيان. ولكن في نهاية المطاف، توقفت شتائمه، وفقد الوعي هو أيضاً، ففكّت قيوده وجرّ بعيداً وألقي بجوار الرجل الأول. نادى منظم المراسم: «السيارة رقم ثلاثة!»

القسم الستون

في ذلك الوقت كان بيتر جالسًا في المقعد الخلفي لسيارته مرتديًا القناع الذي أعطاه إياه ماكجيفني، والذي كان عبارة عن قطعة من القماش بها فتحتان لعينيّه وفتحةٌ أخرى ليتنفس من خلالها. كان بيتر يكره هؤلاء الحُمُر، وكان يريد معاقبتهم، ولكنه لم يكن معتادًا على رؤية الدماء، ووجد أنه لا يستطيع تحمّل صوت ارتطام السوط المتواصل على اللحم البشري. لماذا جاء؟ هذا ليس جزءًا من الدور الذي يؤديه في حفظ بلاده من الخطر الأحمر. كان قد أدى دوره في تحديد الأشخاص الخطرين، كان رجلًا يتعامل بالعقل، لا بالعنف. رأى بيتر أن الضحية التالية كانت توم دوجان بأنفه المكسور الدامي، وجفل بيتر في حزن رغماً عنه. وأدرك أنه أصبح معجبًا بتوم دوجان دون قصد. فعلى الرغم من غرابة أطواره، كان دوجان مخلصًا، وكنت ستجده رجلًا طيبًا إذا ما تمكّنت من تخطي أسلوب تعامله الواثق. لم يفعل شيئًا سوى التذمر، ونظّم تذمره في أبياتٍ شعرية، كان من الخطأ أن يُجلّد، وراود بيتر للحظات دافع جنوني للتدخل وإخبارهم بخطئهم.

لم يُصدر الشاعر أي صوت. ألقى بيتر نظرةً على وجهه في الضوء الأبيض الساطع، وعلى الرغم من أن وجهه كان محطّمًا وملطخًا بالدماء، رأى بيتر فيه عزم توم دوجان، كان يفضّل الموت على أن يخرج منه أي أنين. كلما سقط السوط على ظهره، كنت ترى جسده بالكامل يرتجف، ولكنه لم يُصدر أي صوت، وظل واقفًا محتضنًا الشجرة بقبضةٍ متشنّجة. ظلوا يجلدونه حتى بدأ السوط ينثر الدم عليهم، وحتى بدأ الدم ينسال على الأرض. كانوا قد أحضروا معهم طبييًا يحمل حقيبةً سوداءً صغيرة من باب الحَيطة، وتقدّم الطبيب خطوةً للأمام وهمس لمنظم المراسم. ففكّوا قيود دوجان، وأرغموه على تحرير ذراعَيْه من حول الشجرة، وألقوا به بجوار جليكاس.

ثم حان دور دونالد جوردون، الاشتراكي المنتمي إلى جماعة الأصدقاء، الذي أثار بعضاً من الدراما الرخيصة. كان دونالد يأخذ دينه على محمل الجد، وكان دائماً ما يصرح بمعارضته الحرب باسم يسوع، الأمر الذي جعله مزعجاً للغاية. وفي هذه اللحظة، رأى فرصة ذهبية لتقديم أحد عروضه المسرحية، فرفع يديه المكبَّلتين في الهواء كما لو كان يصلي، وصرخ بنبرة حادة: «يا أبتاه اغفر لهم؛ لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون!»

بدأت همهمة تنتشر وسط الحشد، وكان يمكنك سماعها تتصاعد متحوّلةً إلى هدير، ثم صرخوا: «تجديف! أحرسوا فمه القذرا!» كان هذا الفم نفسه هو الذي استمع إليه من قبل وهو يخطب على مئات المنابر، وهو يُدين الحرب ومن يتربّحون منها. ولكنهم موجودون الآن، أولئك الرجال الذين كان يُدينهم، الأعضاء الأصغر سناً في غرفة التجارة وجمعية التجار والمصنعين، أفضل من في المدينة، أولئك الذين كانوا يعملون على إنقاذ البلاد، ولا يطلبون مقابلًا لخدماتهم. لذا أطلقوا صرخة غضب ضد هذا المُجذف. تقدّم رجل، لم يتمكن قناعه من إخفاء هويته؛ فقد كان قوي البنية وجّهوري الصوت لدرجة أن جميع من في الحشد عرفوه، وأمسك بالسوط الملطّخ بالدماء. كان بيبي ناش، الأمين العام لـ «رابطة تحسين أمريكا» وصرخ الحشد: «هيا، يا بيبي! أحسنت، هيا يا صديقي!» قد يخبر دونالد جوردون الرب أن بيبي ناش لا يعلم ما يفعل، ولكن كان بيبي يعتقد أنه يعلم، وكان يريد أن يُقنع دونالد بأنه يعلم ما يفعل قبل أن يبدأ. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً؛ لأن شاب جماعة الأصدقاء لم يكن يملك شيئاً سوى صوته، فقد وعيه عند الضربة الرابعة أو الخامسة، وبعد الضربة العشرين تدخل الطبيب.

ثم جاء دور جرادي، الأمين العام لاتحاد العمال الصناعيين العالمي، وهنا حدث أمرٌ فظيع. كان جرادي يراقب ما يحدث من إحدى السيارات، وكان قد أصابه اليأس، وعندما فكّوا الأصفاد ليخلعوا عنه معطفه، دفعهم فجأة وتحرّر منهم، وتغلّب على الرجال الواحد تلو الآخر. كان قد نشأ في منطقة الخطّابين، وكانت قوّته مدهشة، وقبل أن يدرك الحشد ما يحدث، كان يقفز بين اثنين من السيارات. وقفز فوقه عشرات الرجال من جميع الاتجاهات، وسقط في خضم معركة شرسة. أمسكوا به مثبتّين وجهه في الأرض، صرخ الحشد وكأنهم وحوشٌ برية ليلية:

«اشنقوه! اشنقوه!» وجاء رجل يركض حاملاً حبلاً، ويصرخ: «اشنقوه!»

حاول منظم المراسم الاحتجاج عبر البوق، ولكن أسقط الجهاز من يده، ودُفِع جانباً، وفي لمح البصر، كان هناك رجل يتسلق شجرة الصنوبر ويعلق الحبل على أحد أغصانها.

اختفى جرادي بين المتزاحمين حوله، ثم تصاعدت فجأة صيحة من وسط الحشد، وظهر جرادي بوضوح تام، ورُفِعَ عاليًا في الهواء والحبل يلتف حول رقبته وكانت قدماه تتركلان بعنف في جميع الاتجاهات. وفي الأسفل، كان الرجال يرقصون ويصرخون ويلوِّحون بقبعاتهم في الهواء، وقفز رجل وقبض على إحدى القدمين اللتين تتركلان وتعلق بها.

بعد ذلك، صدر صوت من البوق يعلو كل ذلك الضجيج، يقول: «أنزلوه قليلاً! دعوني أصل إليه!» وتراجع مَنْ كانوا يمسكون الحبل، وهبط الجسد نحو الأرض وقدماه لا تزالان تتركلان يمنة ويسرى، وأخرج رجل سكيناً من طيات ملابسه، وقطع الملابس ليظهر الجسد، وقطع شيئاً من الجسد، وصدرت صيحاتٌ أخرى من الحشد، وضرب الرجال في السيارات ركبهم وأطلقوا صيحات الرضا. همس الرجال الذين كانوا في السيارة مع بيتر أن هذا هو أوجدن، نجل رئيس غرفة التجارة؛ وعلى مدار اليوم التالي ولأسابيع تالية، كان الرجال يلكزون بعضهم بعضاً في جميع أنحاء المدينة هامسين حول ما فعله بوب أوجدن لجسد شون جرادي، الأمين العام «لاتحاد العمال الصناعيين الملاعين». وكان كل من لكز وهمس حوله واثقاً من أن الإرهاب الأحمر قد قُمِعَ إلى الأبد عبر هذه الوسيلة، وأن الأمريكية الحقيقية بنسبة ١٠٠٪ قد تأكّدت، وأن الحل السلمي للمشكلة القائمة بين أصحاب رءوس الأموال والعمال أصبح مؤكداً.

قد يبدو الأمر غريباً، ولكن كان ثمّة عضوٌ واحد من أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي يتفق معهم. كان أحد ضحايا تلك الليلة قد تعلم الدرس! عندما تمكّن توم دوجان من الجلوس مجدداً، وكان ذلك بعد ستة أسابيع، كتب مقالاً عن تجربته، والذي نُشِرَ في جريدة اتحاد العمال الصناعيين العالمي، ثم نُشِرَ في هيئة كُتِيب قرأه مئات الآلاف من العمال. قال فيه الشاعر:

«يبدأ البيان الافتتاحي لاتحاد العمال الصناعيين العالمي بالتصريح بأن الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة ليس بينهما أي شيء مشترك، ولكنني تعلّمتُ من هذه الحادثة أن البيان الافتتاحي على خطأ. شهدتُ في هذه الحادثة أمراً واحداً مشتركاً بين الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة، وهذا الشيء كان سوطاً أسود. كان الجزء السفلي من السوط في أيدي الطبقة الرأسمالية، وكان الجزء العلوي من السوط على ظهور الطبقة العاملة، وهذا هو الرمز الأبدي الذي يمثل حقيقة العلاقة بين الطبقتين!»

القسم الحادي والستون

استيقظ بيتر صباح اليوم التالي ينتابه إحساسٌ قوي بالألم والرعب من الحياة. لقد كان فيما مضى يصرخ داعياً لمعاقبة أولئك الحُمُر، ولكنه كان يفكر في العقاب بطريقةٍ مجردة بشكلٍ ما، شيء يمكنك التعامل معه بتلويحة من يدك. ولكنه لم يكن يدرك بشكلٍ تام الجانب الفعلي منه، لم يكن يتخيل مدى فوضويته ودمويته. كان قد ظل يستمع طوال ساعتين وأكثر إلى صوت ارتطام السوط على الجلد البشري، وكانت كل ضربة بحد ذاتها مثل ضربة لأعصابه. كان بيتر قد تلقى جرعةً زائدة من الانتقام، ولكن حالياً، في صباح اليوم التالي، كان ضميره يؤنبه. كان يعرف كل واحد من أولئك الشباب، وجاءت وجوههم لتسكن مخيلته وتطارده. ماذا فعل أيُّ منهم ليستحق هذه المعاملة؟ هل يمكنه الجزم بمعرفته أن أيًّا منهم قد يقدم على فعل أمرٍ عنيف مثل ذلك الذي كابدوه جميعاً؟

لكن كان أكثر ما يُورق بيتر هو الخوف. أدرك بيتر، النملة، أن الصراع بين العمالقة يصبح أكثر فتكاً، وأدرك مدى خطورة موقعه تحت أقدام العمالقة. كانت شغف الجانبين يتصاعد، وكلما زاد كرههم، زادت فرص انكشاف أمر بيتر، وأصبح مصيره أكثر رعباً إذا ما انكشف أمره. كان من الجيد أن ماكجيفني طمأنه أن أربعة فقط من رجال جوفي يعرفون الحقيقة، وأنهم جميعاً جديرون بأن يستأمنهم على حياته. تذكّر بيتر تعليقاً سمعه من شون جرادي، جعله يفقد شهيته لأكثر من وجبة. قال الشاب الأيرلندي: «ثمّة جواسيس لهم بين صفوفنا. لا بأس، إن عاجلاً أو آجلاً سنتجسس عليهم نحن أيضاً!»

عادت هذه الكلمات تتردد في ذهن بيتر وكأنها صوت آتٍ من القبر. ماذا لو استأجر أحد الحُمُر الأثرياء شخصاً ليحصل على وظيفةٍ في مكتب جوفي! ماذا لو فعلت بعض فتيات الحُمُر ما فعله بيتر وأغويين أحد رجال جوفي؛ الأمر الذي ليس بالمهمة الصعبة على الإطلاق! لن يقصد هذا الرجل أن يكشف أن بيتر جادج كان عميلاً سرياً، ولكن قد يزل لسانه

بمعلومة، مثلما زلّ لسان الصغيرة جيني وقال الحقيقة عن جاك إبييتس! عندئذ سيعرفُ ماك هوية الشخص الذي لُقّق التهمة له، وماذا سيفعل ماك ببيتير عندما يخرج بكفالة؟ عندما يفكّر بيتير في أمور مثل تلك، كان يدرك ما يعنيه الذهاب إلى الحرب، وأدرك أنه لن يستفيد شيئاً من البقاء في الوطن، كان من الأفضل بالنسبة إليه أن يكون في خنادق الجبهة الأمامية! ففي حقيقة الأمر، كانت هذه حرباً، حرباً بين الطبقات، وفي جميع الحروب، عقوبة الجاسوس هي الموت.

كذلك كان بيتير يشعر بالقلق على نيل. كانت تعمل في وظيفتها الجديدة منذ ما يقرب من أسبوع، ولم يكن يعرف أي شيء عنها. كانت قد منعتته عن مراسلتها خوفاً من أن يكتب شيئاً قد يكشف أمرهما. لم يكن بيده شيء سوى الانتظار؛ فإديث يوستاس تعرف كيف تعتني بنفسها. وكان لا بأس بذلك؛ فلم يكن لدى بيتير ذرة شك في قدرة إديث يوستاس على الاعتناء بنفسها. ما كان يؤرقه هو معرفته أنها كانت تعمل على «تلفيق تهمة» أخرى، وكان جل ما يخشاه هو أن يأخذها خيالها بعيداً. ففي المرة الأخيرة عندما جمح خيالها، قدم له حقيبة مليئة بالديناميت. لم يكن يعرف ما الذي قد ينتج عنه في المرة القادمة، وكان يخشى التفكير في ذلك. قد تتسبّب نيل في أن يكشف جوفي أمره، وما سيحدث حينئذٍ سيكون مروّعاً بالقدر نفسه إذا ما كشف ماك أمره!

حصَل بيتير على نسخة من جريدة «تايمز» الصباحية، ووجد صفحة كاملة تتحدث عن جلد الحُمُر، وصوّرت العمل على أنه واجب وطني نُفِّذ بطريقة بطولية؛ الأمر الذي أسعد بيتير كثيراً بالطبع. ثم قلب الصفحات حتى وصل إلى صفحة المقالات، وقرأ «مقالاً رئيسياً» من عمودين لم يكن سوى صرخة ابتهاج. أفاد بيتير أكثر في تسكين آلام ضميره، وعندما واصل القراءة ووجد سلسلة من المقابلات مع مواطنين بارزين يؤيدون بشدة ما فعله «حُراس الوطن»، شعر بيتير بالخجل من ضعفه، والسعادة لأنه لم يكشفه لأي أحد. كان بيتير يبذل قصارى جهده ليصبح «رجلاً حقيقياً»، أمريكياً حقيقياً بنسبة ١٠٠٪، وكان يشتري جريدة «تايمز» مرتين كل يوم، صباحاً ومساءً، لتوجيهه ودعمه وإلهامه.

كان ماكجيفني قد أخبر بيتير أن يجهّز نفسه ويتظاهر بأنه أحد شهداء أحداث الليل؛ الأمر الذي راق لحس الدعاية عند بيتير. قص بيتير الشعر من جزء من رأسه، ولصق بعض القطن فوقه، ولصقه بشريط طبي لاصق. ثم لصق قطعة أخرى كبيرة من الشريط الطبي اللاصق بعرض جبينه، وشريطاً آخر متقاطعاً على وجنته، وربط معصمه بطريقة تدل بامتياز على التواء. وهكذا، توجّه إلى البيت الأمريكي حيث كافأه ماكجيفني بضحكة من

القلب، ثم بدأ يعطيه بعض التعليمات التي أعادت إلى بيتر نشاطه الروحي المعتاد. كان بيتر سيعود إلى جبل الأوليمب مجددًا!

شرح الرجل ذو وجه الجرد الأمر بالتفصيل. كانت ثمة سيدة فاحشة الثراء، بل قيل إنها تملك عدة ملايين، وكانت تعلن على الملأ أنها من الحُمُر، وأنها من أشد المناهضين للحرب. منذ اعتقال الشاب لاکمان، تقدّمت هذه السيدة وتبرّعت بالمال لتمويل «مجلس الشعب»، و«الرابطة المناهضة للتجنيد الإجباري»، وجميع الأنشطة الأخرى التي وُصفت بمصطلح «مؤيد لألمانيا» من باب تسهيل الأمور. كانت العقبة الوحيدة أن هذه السيدة كانت فاحشة الثراء، الأمر الذي صعب كثيرًا من فعل أي شيء لها. كان زوجها مديرًا لبعض من بنوك نيلس أكيرمان، وكان لها معارفٌ أقوياء آخرين. كان زوجها معاديًا شرسًا للاشتراكية، ومشتريًا لسندات الحرية، وكان دائم الشجار مع زوجته، ولكنه رغم ذلك لم يكن يريد أن تُسجن، الأمر الذي وضع الشرطة ومكتب المدعي العام في وضعٍ حرج، وكذلك السلطات الفيدرالية، التي لم تكن بطبيعة الحال ترغب في إزعاج أحد أتباع ملك المدينة الأمريكية. قال ماكجيفني: «ولكن يجب فعل شيءٍ ما. لا يمكن أن تستمر هذه الدعاية الألمانية المتخفية.» لذا كان على بيتر أن يحاول استدراج السيدة جود إلى ارتكاب «فعلٍ مكشوف».

قال بيتر: «السيدة جود؟» بدا له أنه من الصدَف الغربية أن يحمل أحد سكان جبل الأوليمب هذا الاسم. كانت السيدة العظيمة تعيشُ على قمة تل في الضواحي، ليست بعيدة عن قمة تل نيلس أكيرمان. كان من بين المغامرات التي يطمح لها الحُمُر والمناهضون للحرب خلال الأزمات هي الحَج إلى هذا القصر والحصول على بعض اللصقات الخضراء الطويلة لوضعها على جراحهم. قال ماكجيفني إن الوقت قد حان لتحرك بيتر. كان لدى بيتر العديد من الجراح التي يجب أن يُوضَع اللصق عليها، وستكون السيدة جود غاضبة من الأحداث التي وقعت الليلة الماضية، ولا شك في أنها ستعبّر عن ذلك دون قيود.

القسم الثاني والستون

لم يكن بيتر قد شعر بمثل هذه الحماسة منذ كان في انتظار لقاء الشاب لاكمان. لم يكن قد سَامَح نفسه بشكلٍ كاملٍ على هذا الفشل المكثَّف، وها هو قد تحصَّل على فرصةٍ أخرى. استقل بيتر الترام إلى الريف، ثم سار بضعة أميال نحو القصر على قمة التل، وصعد التل عابراً غابةً من الأشجار والحدائق الإيطالية الرائعة. وفقاً لتعليمات ماكجيفني، استجمع شجاعته، وتقدم نحو الباب الأمامي للقصر العريق ودق الجرس.

كان بيتر محترراً ومغبراً من سيره الطويل، ما جعل العرق ينساب مكوّناً خطوطاً على وجهه وأفسد بياض الشرائط الطبية اللاصقة الناصع. لم يكن مظهره لائقاً على الإطلاق، ووقف ممسكاً بقُبْعته القشبية المحطّمة بين يديه، وكان يبدو وكأنه مشرّد. ولكن، يبدو أن الخادمة الفرنسية التي فتحت الباب معتادة على الزوار ذوي المظهر الغريب. فلم تأمر بيتر بالذهاب إلى مدخل الخدم، أو تهدّده بالكلاب، بل قالت فقط: «تفضّل بالجلوس، من فضلك. سأخبر السيدة.» مع وضع تشديد اللكنة الفرنسية في نهايات الكلمات، اللكنة التي لم يكن بيتر قد سمعها من قبل.

وبعد قليل وصلت السيدة جود محاطة بهالة من إحسان قاطني جبل الأوليمب؛ كانت سيدةً ضخمةً وسمينة، خلقت خصوصاً لتأدية دور إلهة. شعر بيتر بالرهبة فجأة. كيف تجرأ على المجيء إلى هنا؟ لم يشعر بهذا القدر من الضآلة، سواء في فندق هوتيل دي سوتو بكل ما فيه من آلهة، أو في قصر نيلس أكيرمان، الملك، كما شعر عند رؤية هذه السيدة العظيمة الهادئة البطيئة الحركة. كانت تجسيدا حياً للثراء، كانت «ثرية حقيقية». على الرغم من نظرة اللطف المُطلة من عينيها الزرقاوين الواسعتين، فإنها تركت فيه انطباعاتاً بتفوقها الساحق. لم يكن يعرف أن من واجبه كرجل مهذب أن ينهض من كرسيه واقفاً

باحترام عندما تدخل المكان سيدة، ولكن غريزةً ما جعلته يقف ويرمش بعينيه أثناء توجُّهها نحوه من الطرف المقابل للغرفة الكبيرة.

قالت بصوتٍ خفيضٍ وواضح، وهي تحدِّق في وجهه بعينيهما الزرقاوين الواسعتين اللطيفتين: «كيف حالك؟» فتلعثم بيتر قائلاً: «ك... كيف حالك، يا س... سيدة جود.»

في واقع الأمر، أصيب بيتر بالخرس تقريباً من فرط حيرته. هل من الممكن حقاً أن تكون هذه الشخصية المهيبية أحد الحُمر؟ كان من بين الأمور التي تزعجه من جميع المتطرفين هي صخبهم وعدوانيتهم، ولكن كانت الشخصية التي تقف أمامه تتمتع بسكينة عظيمة في المظهر والأسلوب، فكان صوتها هادئاً ورزيناً، وكانت جميلة أيضاً، ذات بشرة ملساء، رغم كونها في منتصف العمر، وكانت تتوهج بالصحة والنظافة. كان لون بشرة نيل دولين يتوهج، ولكنها كانت دائماً ما تضع الكثير من مساحيق التجميل، ولكن عندما تنظر إليها عن كثب، كما فعل بيتر، ستكتشف بقعاً داكنة عند حواف شعرها وعلى رقبتها. ولكن بشرة السيدة جود كانت تلمع كما يُتخَيَّل أن تلمع بشرة الآلهة تماماً، وكان كل شيءٍ محيطٍ بها ينم عن الثراء والجازبية الإلهية. لم يتمكَّن بيتر من وصف الشيء الذي خَلَّف عنده هذا الانطباع الأخير الطاغي. لم يكن الأمر يتعلق بارتدائها مجوهراتٍ كثيرة، أو كبيرة؛ فقد كانت السيدة جيمس متفوقة عليها في ذلك، ولم يكن يتعلق بعطرها الرقيق؛ فقد كانت نيل دولين تنتثر عطرًا أكثرَ عذوبة في الهواء من حولها؛ رغم ذلك، شعر بيتر الفقير الجاهل، بطريقةٍ ما، بالفارق بينهما، فقد بدا له أن أياً من ملابس السيدة جود الغالية قد لُبس من قبل، وأن السجاجيد الثمينة المفروشة على الأرض لم تُوطأ من قبل، حتى المقعد الذي كان يجلس عليه لم يجلس عليه أحدٌ من قبل!

كانت الصغيرة أدا روث تطلق على السيدة جود لقب «أم العالم كله»، وفجأة أصبحت أم بيتر جادج نفسه. كانت قد قرأت الصحف ذلك الصباح، وتلقَّت نصف دُرَّينة من المكالمات الهاتفية من الحُمر المتلاعبين والمستائنين؛ لذا تطلب الأمر بضع كلمات فقط لكي تدرك معنى الضمادات واللصقات الطبية التي تغطي بيتر. مدت له يدها الجميلة الباردة، ومن دون مقدمات، اغرورقت عيناها الزرقاوان الكبيرتان بالدموع.

قالت: «أوه، أنت أحد أولئك الصبية المساكين! حمداً للرب أنهم لم يقتلوك!» وقادته إلى أريكةٍ ناعمة وجعلته يستلقي بين وسائدها الحريرية. لقد تحقق حلم بيتر بجبل الأوليمب بحذافيره! خطر له أنه إذا كانت السيدة جود على استعداد لأن تؤدي دور أم بيتر جادج بشكلٍ دائم، فسيكون على استعداد للتخلي عن دوره كعميل لمكافحة الحُمر بكل مخاطره

وأحداثه العصبية؛ سينسى الواجب، وسينسى صراعات العالم وكل ما يهم الجنس البشري، وسينضم إلى أكلة اللوتس، أولئك الذين يرشفون الرحيق على قمة جبل الأوليمب!

جلست السيدة جود تتحدّث إليه بصوتها الناعم اللطيف، وظلّت تراقبه بعينَيها الزرقاوين العطوفتين، وفكر بيتر أنه لم يشعر في حياته كلها بمثل هذه المشاعر الفردوسية. لا شك في أنه عندما ذهب لزيارة ميريّام يانكوفيتش، كانت السيدة يانكوفيتش العجوز على القدر نفسه من العطف، وترقرقت دموع الشفقة في عينَيها بهذه الطريقة نفسها تمامًا. ولكن في نهاية المطاف، لم تكن السيدة يانكوفيتش سوى يهوديةٍ عجوزٍ بدينة تعيش في مبنى سكني تفوح منها رائحة الصابون والغسيل نصف النظيف، وكانت يداها ساخنَتين ولزجتَين، وكان هذا هو سبب عدم شعور بيتر بالامتنان على لطفها معه على الإطلاق. ولكن كان تلقيه تلك المشاعر الرقيقة في هذه المناطق السماوية، والتحدّث إليه بتلك الطريقة الأمومية الحميمة من قبل السيدة جود الرائعة التي ترتدي الشيفون الأبيض الناعم الذي خرج من صندوقه للتو، أمرًا مختلفًا تمامًا!

القسم الثالث والستون

فقد بيتر الرغبة في خداع أم جبل الأوليمب هذه، وفقد الرغبة في استخراج أي أسرار منها. ووجد أنه لم يكن مضطراً لفعل ذلك، فقد أخبرته بكل ما تعرف على الفور، ومن دون أدنى تردد. كانت تتحدث مثلما يتحدث «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» في مقرهم، وعندما أمعن بيتر التفكير، أدرك أن ثمة نوعين من الناس يمكنهم أن يعبروا عن مكونات أنفسهم بمثل هذا الانفتاح، أولئك الذين ليس لديهم ما يخسرونه، وأولئك الذين لديهم الكثير جداً مما قد يخسرونه لدرجة أنه لا يمكن أن يخسروه بأي حال من الأحوال.

قالت السيدة جود إن ما تعرّض له الرجال الليلة الماضية يُعد جريمة، ويجب أن يُعاقب مرتكبوها مثلما يُعاقب مرتكبو أي جريمة، وإنها تودُّ توظيف محققين ليحصلوا على أدلة تدين الجناة. قالت أيضاً إنها تتعاطف حتى مع الحُمر الأكثر تطرفاً، وإذا كان هناك لونٌ أشد حمرة من الأحمر، فسيكون لونها. قالت كل هذا بصوتها الهادئ الناعم. وكانت الدموع تملأ عينيها من وقت لآخر، ولكنها كانت دموعاً مهذبة تختفي من تلقاء نفسها من دون أن تمسّ بشرة السيدة جود، أو يكون لها تأثيرٌ ظاهر على هدوئها.

قالت السيدة جود: «إنني لأعجب من أمر أولئك الراضين لأن يكونوا من الحُمر الذين جعلوا مهمهم في الحياة كشف ظلم المجتمع الحالي.» منذ بضعة أيام خلت، ذهبت لزيارة المدعي العام، وحاولت أن تجعله أحد الحُمر! ثم أخبرت بيتر عن ذلك الرجل الذي جاء لزيارتها وادّعى أنه راديكالي، ولكنها أدركت أنه لا يعرف شيئاً عن الراديكالية، وأخبرته بثقتها في أنه عميلٌ حكومي. وأقرّ الرجل بذلك في نهاية المطاف، وأظهر لها نجمته الذهبية، ثم بدأت السيدة جود تعمل على تحويله! قضت معه ساعة أو ساعتين تناقشه، ثم دعتُه للذهاب معها إلى الأوبرا. قالت السيدة جود بصوتٍ حزين: «وكما تعلم، رَفَضَ دعوتي! إنهم

لا يريدون أن يتحولوا، يا لهم من رجال؛ لا يريدون الاستماع إلى صوت العقل. أعتقد أن الرجل كان يخاف حقاً من أن أوثر عليه.»

قال بيتر مشفقاً: «لا أستبعد ذلك» فقد كان هو أيضاً يخشى ذلك إلى حد ما.

قالت السيدة جود: قلتُ له: «ها أنا أعيش في هذا القصر، وفي حي المدينة الصناعي ثمة الآلاف من الرجال والنساء الذين يعملون على الآلات طوال اليوم كالعبيد، وأصبحوا يعملون عليها طوال الليل أيضاً، منذ بداية الحرب. وأجمع أنا أرباح عمل هؤلاء الناس. وماذا فعلتُ لأجنيها؟ لا شيء على الإطلاق! لم أقم بأي عمل مفيد في حياتي.» فقال لي: «ماذا ستفعلين لو توقفت الأرباح؟» أجبتُه: «لا أعرف ماذا سأفعل. سأكون بائسة بالطبع؛ لأنني أكره الفقر، ولا أستطيع تحمُّله، إن التفكير فيه مفرع؛ انعدام الراحة، والنظافة، والأمان. لا أرى كيف تتحمل الطبقة العاملة ذلك. هذا تحديداً سبب انضمامي إلى الحُر؛ فأنا أعرف أنه من الخطأ أن يكون أي شخص فقيراً؛ فلا مبرر لذلك. لذا سأساعد في الإطاحة بالنظام الرأسمالي، حتى لو كان ذلك يعني أن أغسل الملابس لأجني قوت يومي!»

جلس بيتر يتأملها مسحوراً بنضارة الشيفون الأبيض الثلجي الذي ترتديه. استحضرت كلماتها صورة مروعاً إلى ذهنه، فتخيل نفسه وقد عاد فجأة إلى مطبخ المبنى السكني؛ حيث كانت السيدة يانكوفيتش السميننة تتصبب عرقاً وهي تعمل بكد والصابون يغمر ذراعها حتى مرفقها. كان بيتر على وشك أن يقول: «لو كنتِ عملت في غسيل الملابس ليوم واحد، يا سيدة جود، ما كنتِ ستتكلمين هكذا!»

لكنه تذكَّر أنه يجب أن يجارها، فقال: «إنهم رجالٌ فظيعون، أولئك العملاء الفيدراليون. لقد ضربني اثنان منهم على رأسي ليلة أمس.» ثم تظاهر بالضعف والألم، وظهرت الشفقة على وجه السيدة جود مجدداً، وبدأت تتكلم بالمزيد من الانفتاح.

أعلنت السيدة جود قائلة: «كل هذا بسبب هذه الحرب البشعة! لقد شاركنا في الحرب من أجل تجهيز العالم للديمقراطية، ولكن يجب علينا أن نضحّي في الوقت نفسه بجميع مظاهر الديمقراطية في بلادنا. سيخبرونك بأنه يجدر بك أن تصمت بينما يقتلون بعضهم بعضاً، ولكن دعهم يجربون جميع وسائلهم، فلن يستطيعوا إسكاتي أبداً! أعلم أن الحلفاء مذنبون بقدر الألمان، وأعلم أن هذه الحرب ستفيد المستثمرين والمصرفيين؛ يمكنهم أن يأخذوا أبنائنا ويَجبروهم على الانضمام إلى الجيش، ولكنهم لن يستطيعوا أخذَ معتقداتي وإجبارها على الانضمام إلى جيشهم. أنا مناهضة للحرب، كما أنني أُممية تريد أن ترى العمال ينهضون ويطردون هذه الحكومات الرأسمالية من الحكم، ويضعون حداً لمذبحة

البشر البشعة هذه. أنوي أن أستمر في قول ذلك ما دامت أنفاسي تتردد في صدري.» جلست السيدة جود ضامّة يديها البيضاوين الجميلتين معًا وكأنها تدعو، وكان هناك خاتمٌ ماسي كبير في إصبعها البنصر الأيسر يلمع ببريقٍ أخاذ، وارتسم على وجهها تعبيرٌ ينم عن قناعةٍ طفولية هادئة، وكانت ترى نفسها بعين عقلمها تُواجه جميع العملاء الفيدراليين، والمدعين العامين، والقضاة الرأسماليين، والدبلوماسيين، والجنرالات، وضباط الصف في العالم المتحضر.

واصلت السيدة جود حديثها ذاكرةً حضورها محاكمة ثلاثة رجال دين مناهضين للحرب قبل أسبوع أو أسبوعين. كم هو فظيع أن يُزج في السجن بمسيحيين في بلدٍ مسيحي لمجرد محاولة تكرار كلمات المسيح! قالت السيدة جود: «كنتُ أتميز غضبًا لدرجة أنني كتبتُ رسالةً للقاضي. قال زوجي إنني سأنتهم بازدراء المحكمة إذا ما أرسلتُ رسالةً إلى القاضي أثناء المحاكمة، لكنني رددتُ عليه بأن ازدرائي لتلك المحكمة لا يمكن التعبير عنه بكلماتٍ مكتوبة. مهلاً...»

ونهضت السيدة جود من مقعدها وتوجهت نحو مكتب بجوار الحائط، وأخذت نسخة من الرسالة، وقالت: «سأقرأها عليك.» استمع بيتر إلى بيان السيدة البلشفية الأولبية ...

إلى فخامة القاضي:

عندما دخلتُ قاعة المحكمة، رفعتُ بصري نحو قبعتها الزجاجية الملونة التي كُتبت عليها أربع كلمات: السلام. العدل. الحقيقة. القانون، ومنحتني تلك الكلمات شعورًا بالأمل. كان يقف أمامي رجال لم ينتهكوا أي حقوقٍ دستورية، ولم يُضَمروا في نفوسهم أي نزعةٍ إجرامية، بل إنهم مجرد معارضين للعنف بجميع صوره.

استمرت المحاكمة. ونظرتُ مرةً أخرى إلى القبة الزجاجية الملونة الجميلة، وهمستُ لِنفسي بتلك الكلمات ذات الوقع المجيد: «السلام. العدل. الحقيقة. القانون.» استمعتُ إلى مرافعات المدّعين العامين؛ كان القانون في أيديهم سكينًا صلبة حادّة قاسية تبحث بإصرار وبلا هوادةٍ عن نقطة ضعفٍ في درع ضحاياها. استمعتُ إلى الحقائق التي يعرضونها، وكانت في حقيقتها كذبًا. فكان سلامهم حربًا قاسيةً دموية، وكان عدلهم شبكةً لاقتناص ضحاياهم بأي ثمن، على حساب أي شيءٍ ما عدا مجد مكتب المدعي العام.

انفطر قلبي. ولم أتمكّن إلا من أن أطرح على نفسي السؤال الموغل في القدم: ماذا يمكننا، نحن الشعب، أن نفعل؟ كيف يمكننا أن نجلب السلام، والعدل، والحقيقة، والقانون إلى العالم؟ هل يجب أن نركع ونطلب من خدامنا العامّين أن يضمنوا العدالة لمن لا حول لهم ولا قوة، بدلاً من تلك المحاكمات التي لا تنتهي لأكثر نفوس العالم نبلاً! سنُقرّر أن هؤلاء الرجال مذنبون، وستحُكم عليهم بالسجن خلف القضبان الحديدية التي لا ينبغي أن تكون من أجل البشر، بغضّ النظر عما ارتكبوا من جرم، إلا إذا كنت تريد أن تصوّره كوحوش. هل هذا هو هدفك، يا سيدي؟ يبدو أنه كذلك، لهذا السبب أقول إنه يجب علينا أن نقلب النظام الذي يقسو على البشرية، بدلاً من مساعدتها ورفعها.

المخالصة لك من أجل تحقيق السلام. العدل. الحقيقة. القانون.
ماري أنجيليكا جود.

ماذا بإمكان المرء أن يفعل مع امرأة مثل تلك؟ كان بوسع بيتر أن يدرك حيرة القاضي، ومكتب المدعي العام، وقسم الخدمة السرية لشركة تراكشن تراست، وكذلك حيرة زوج السيدة جود! كان بيتر متحيراً أيضاً، ما الفائدة المرجوة من حضوره إلى هنا للحصول على المزيد من المعلومات؛ فقد ارتكبت السيدة جود بالفعل جريمة ازدراء المحكمة في رسالتها، وأباحث فيها بجميع المعلومات التي كان من الممكن أن تبوح بها لأي عميل فيدرالي؟ لقد أخبرت هذا الرجل بأنها تبرعت بعدة آلاف من الدولارات لمجلس الشعب، وأنها تعتزم التبرع بالمزيد. كما دفعت كفالة عددٍ كبير من الحُمُر ومناهضي الحرب، وكانت تعتزم دفع كفالة ماكورميك وأصدقائه فور اضطرار المحاكم الرأسمالية الفاسدة لإطلاق سراحهم بكفالة. قالت: «أعرف ماكورميك جيداً، إنه شابٌ رائع. لا أعتقد أن له أي علاقة بقنابل الديناميت.» ظل بيتر جالساً في مكانه طوال الوقت مسحوراً بالكامل بتأثير ثراء السيدة جود. كان بيتر يعيش بين أكلة اللوتس ناسياً صراعات العالم واهتماماته، كان مستلقياً على أريكةٍ حريرية يشرب الرحيق مع أولئك المتألقين من جبل الأوليمب. ولكن فجأةً عاد إلى بيتر حسّ الواجب، وشعر كما لو كان شخصاً يستيقظ من حلم على صوت منبّه. كانت السيدة جود صديقة لماك، وكانت تقترح أن تُطلق سراح ماك من السجن بكفالة! ماك، عضو جماعة الحُمُر الأكثر خطورة على الإطلاق! رأى بيتر أنه يجب أن يجد ما يُدين هذه المرأة على الفور!

القسم الرابع والستون

نهض بيتر فجأةً من رقدته بين الوسائد الحريرية، وبدأ يُخبر السيدة جود عن الخطة الجديدة للجماعة المناهضة للتجنيد الإجباري، لإعداد مجموعة من التعليمات الموجهة للمعارضين من الشباب ذوي الضمير الحي. قال بيتر إن الغرض من هذه التعليمات هو تقديم نصائح للشباب بشأن حقوقهم القانونية والدستورية. وكانت فكرة ماكجيفني أن يُدخل بيتر وسط هذه التعليمات بعض العبارات التي تنصح الشباب برفض الخدمة العسكرية، إذا طُبعت هذه التعليمات ووُزعت، فستجعل جميع أعضاء الجماعة المناهضة للتجنيد الإجباري عُرضة لقضاء عشرة أو عشرين عامًا في السجن. ونبه ماكجيفني بيتر لأن يفعل ذلك بحذرٍ شديد، ولكن رأى بيتر مرةً أخرى أنه لا حاجة إلى الحذر. فقد كانت السيدة جود على استعدادٍ تام لنصح الشباب برفض الخدمة العسكرية. وقالت إنها نصحت كثيرين منهم بذلك بالفعل، وفي ذلك أبنائها المتعطشون للدماء، للأسف، مثل والدهم.

حان وقت الغداء، وسألت السيدة جود بيتر عما إذا كان قادرًا على الجلوس إلى الطاولة، وتغلب فضول بيتر على حذره. كان يريد أن يرى أفراد عائلة جود وهم يرشفون الرحيق من الأكواب الذهبية. وتساءل، هل سيكون الزوج الراض لتصرفات زوجته والأبناء المتعطشون للدماء حاضرين؟

لم يكن أحد موجودًا سوى رفيقةٍ مُسنة، ولم يرَ بيتر أي أكوابٍ ذهبية. ولكنه رأى بعض الأواني الخزفية الرائعة التي كانت هشة لدرجة أنه كان يخشى لمسها، ورأى صفاً من الأدوات الفضية التي كانت ثقيلةً لدرجة أنه كان يُفاجأ كلما التقط إحداها. كما رأى أطحمةً معدة بطرقٍ غريبة ومُعقدة؛ فقد كانت مفرومةً تمامًا ومغطاةً بالصلصات لدرجة أنه لم يستطع أن يتعرف على أي شيءٍ مما أكل، باستثناء الخبز المدهون بالزبد.

كان يرتجف في داخله من الحرج أثناء الأكل، لكنه أنقذ نفسه باتباع وصفة السيدة جيمس التي تنص على مراقبة ما يفعله الآخرون ثم محاكاته. فكلما أحضر طبقاً جديداً، كان بيتر ينتظر، وعندما يرى السيدة جود تلتقط شوكةً معينة أو ملعقةً معينة، كان يلتقط مثلثتها، أو الأقرب منها شبهاً طبقاً لتخمينه. تمكّن من صبّ كامل تركيزه على هذه العملية، فلم يكن عليه أن يتحدث؛ فقد كانت السيدة جود تسكب تياراً مستمراً من الفتن والخيانة العظمى، ولم يكن على بيتر فعل شيء سوى الاستماع والإيماء برأسه. وتصوّرت السيدة جود أن فمه ممتلئ بالطعام لدرجة أنه لا يستطيع النطق.

بعد الغداء، خرجا إلى الشرفة الواسعة التي تطل على منظر طبيعي رائع. وأجلست المضيفة بيتر في كرسي شرفة ناعم وسط الكثير من الوسائد، ثم أشارت بيدها نحو المدينة البادية في الأفق بضبابها الأسود الكثيف.

قالت السيدة جود: «هذا هو المكان الذي يعمل فيه عبيدي لكي أجنبي أنا الأرباح. من المفترض أن يبقوا هناك، في «مكانهم» كما يُطلق عليه، وأن أبقى أنا هنا في مكاني. إذا أرادوا تبديل الأماكن، فسَيُطلق على ذلك اسم «ثورة»، أي «عنف». ما يثير العجب في نفسي هو أنهم يستخدمون القليل جداً من العنف، ولا يشعرون بالكثير. انظر إلى أولئك الرجال الذين يُعذبون في السجن! هل يحق لأحد أن يلومهم إذا ما لجئوا إلى العنف؟ أو إذا حاولوا الهروب؟»

أوحى ذلك بفكرةٍ سريعة ومثيرة لبيتر. ماذا لو دُفعت السيدة جود للتحريض على تحرير السجناء عنوة!

فقال بيتر مقترباً: «ربما يكون من الممكن أن نساعدهم على الهروب.»

سألته السيدة جود وقد ظهرت على وجهها أماراتُ الانفعال للمرة الأولى خلال المقابلة: «هل تظن ذلك؟»

قال بيتر: «ربما. أولئك السجّانون يقبلون الرشاوى، كما تعلمين. لقد التقيتُ أغلبهم عندما كنتُ في ذلك السجن، وأظن أنني قد أتمكّن من التواصل مع واحد أو اثنين منهم ممن يمكن أن يقبلوا الرشاوى. هل تريدان أن أجرب ذلك؟»

قالت السيدة جود في تردّد: «حسناً، لا أعرف. هل تظن حقاً أن...»

قاطعها بيتر قائلاً: «تعرفين أنه لم يكن يجب أن يُسجنوا من الأساس!»

قالت السيدة جود: «هذا صحيحٌ بالتأكيد!»

«وإذا كانوا تمكّنوا من الهرب دون إلحاق الأذى بأي شخص، وإذا لم يُضطروا لقتال السجّانين، فلن يقع أيُّ ضررٍ حقيقي...»

كان هذا هو أقصى ما تمكَّن عقل بيتر من ابتكاره في مؤامراته المفاجئة. ثم سمع فجأة صوتاً آتياً من خلفه يقول: «ماذا يعني ذلك؟» كان صوت رجلٍ جهوري يرتج من فرط الغضب، فنهض بيتر من وسط وسائده الحريرية، وأدار رأسه نحو مصدر الصوت، ورفع إحدى ذراعيه في حركةٍ دفاعية لا تصدر إلا من شخصٍ ظل يتعرض للضرب منذ طفولته المبكرة.

كان ثمة رجل يتقدم نحوه؛ ربما لم يكن الرجل ضخم الجثة بصورةٍ غير طبيعية، ولكن لا شك في أنه بدا كذلك في عيني بيتر. كان وجهه الحليق محمراً من فرط الغضب، وكان قد عقد حاجبيه بقوة، وكانت يداه مضمومتين في تعبير ينم عن خطورة. ثم قال بصوتٍ كالفحيح: «أيها القدر اللعين! يا لك من شيطان!»

صاحت السيدة جود بعجرفة: «جون!» لكن كان الأمر أشبه بصياحها في وجه عاصفةٍ رعدية تتقدم. وثب الرجل على بيتر، فابتعد بيتر، الذي تجنب المئات من الضربات على مدار حياته، عن الكرسي المريح بشقلبة، وهبَّ واقفاً، واتجه نحو سلم الشرفة. كان الرجل في إثره مباشرة، وعندما وصل بيتر إلى درجة السلم الأولى، ركل الرجل بيتر بقدمه وأصابه في مؤخرة سرواله مباشرة، وكانت درجة السلم الأولى هي الدرجة الوحيدة من بين عشر أو اثنتي عشرة درجة في سلم الشرفة التي لمسها بيتر خلال نزوله.

عندما وصل بيتر إلى قاعدة السلم، لم يتوقف لإلقاء نظرةٍ خلفه حتى؛ كان بوسعه أن يسمع صوت أنفاس السيد جود، وبدا أنه خلفه مباشرة، وركض بيتر في ممر الحديقة كما لم يركض في حياته من قبل. ومن وقت لآخر، كان السيد جود يوجه ركلةً أخرى، ولكن كان يُضطر إلى التوقف قليلاً ليفعل، الأمر الذي ساعد بيتر على الابتعاد لمسافة تكفي لعدم وصول الركلات إليه. في نهاية المطاف، استسلم المطارد، واندفع بيتر عبر بوابات ضيعة جود إلى الطريق الرئيسي.

ثم نظر خلفه، وعندما رأى أن السيد جود كان بعيداً عنه، توقف واستدار، وهز قبضته المضمومة بأحد تعبيرات الشارع الذي ينم عن التهديد، وصرخ: «تباً لك! تباً لك!» وانتابته عاصفةٌ جامحة من الغضب العاجز. فأطلق المزيد من السباب والتهديدات، ومن بينها بعض الكلمات الغريبة، بعض الكلمات غير المفهومة: «نعم، أنا من الحُمُر، فيلعن الرب روحك، وسأظل من الحُمُر!»

نعم، صرخ بيتر جادج، صديق القانون والنظام، بيتر جادج، الأخ الأصغر للأغنياء، قائلاً: «أنا من الحُمُر، وسنفجرك يوماً ما بسبب فعلتك هذه؛ أنا وماك سنضع قنبلةً تحتك!» استدار السيد جود وسار بفخرٍ مُحترقٍ ليبدأ الخلاف الآخر داخل منزله.

سار بيتر على الطريق مبتعدًا، يربّت على الأماكن التي تؤلّه وينتخب في نفسه. نعم، أصبح بيتر يفهم بالضبط ما كان يشعر به الحُمُر. في هذا المكان، تعيش هذه الطفيليات الثرية التي تستغل ما ينتجه العمال وتعيش في قصورٍ ضخمة بمفردها، ولكن ماذا فعلوا لكسب هذه الأموال؟ ماذا سيفعلون من أجل الفقراء، سوى احتقارهم، وركل مؤخراتهم؟ إنهم مجموعةٌ من الوحوش العنيدة! وفجأةً، رأى بيتر أحداث الليلة الماضية من منظورٍ جديد، وتمنى لو تمكّن من جمع كل الأعضاء الأصغر سنًا في غرفة التجارة وجمعية التجار والمصنعين بالإضافة إلى السيد جود حتى يتمكّن من إرسالهم إلى الجحيم دفعةً واحدة.

لم تكن تلك فكرةً عابرة سببها تعكّر مزاجه. كانت مؤخرة بيتر تؤلّه لدرجة أنه تحمل بمشقة رحلة العودة إلى المنزل مستقلًا الترام، وظل يخطط طوال الطريق لكيفية معاينة السيد جود. تذكر فجأةً أن السيد جود أحد شركاء نيلس أكرمان، وكان بيتر يملك جاسوسًا داخل منزل نيلس أكرمان، وكان يُحضر «تهمّة ملفقة!» سيرى بيتر إذا كان بوسعه العثور على طريقة لبدء مؤامرة تفجير بالديناميت ضد السيد جود! سيبدأ حملة ضد السيد جود داخل الحركة الراديكالية، وربما تمكّن من التوصل لطريقة لجعل مجموعة من «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» يحملونه ويقيّدونه ويضربونه بسوطٍ أسودٍ طويل!

القسم الخامس والستون

عاد بيتر إلى البيت الأمريكي مثقلًا بهذه التأمّلات؛ فقد وعده ماكجيفني بأن يلتقيه هناك في تلك الليلة. توجّه بيتر إلى الغرفة ٤٢٧، وكان متعبًا بعد ما لاقاه من انفعال الليلة السابقة، فاستلقى على فراشه وغفا سريعًا. وعندما فتح عينيه مرةً أخرى، لم يكن واثقًا مما إذا كان ما يراه كابوسًا، أو أنه قد مات أثناء نومه وذهب إلى الجحيم مع السيد جود. كان هناك شخصٌ يهزه، ويأمره بصوتٍ خشنٍ قائلاً: «استيقظ!» فتح بيتر عينيه، ورأى أن هذا الشخص هو ماكجيفني، وكان لا بأس في ذلك، فكان من الطبيعي أن يكون ماكجيفني هو من يوقظه. ولكن ما الأمر؟ كان صوت ماكجيفني غاضبًا، وكان وجه ماكجيفني مكفهرًا ومتجهّمًا، والأمر الذي لم يُصدّق بيتر أنه يحدث أن ماكجيفني كان يحمل في يده مسدسًا أشهره في وجهه!

كان من الصعب على بيتر أن يستيقظ؛ لأنه لم يستطع أن يصدق أنه مستيقظ؛ كما كان من الصعب على ماكجيفني أن يحصل منه على أي معلومات؛ فقد كان فاغرًا فمه، ويحدّق بعينين مذعورتين في فوهة المسدس.

«يا إلهي، سيد ماكجيفني! ما الأمر؟»

همس الرجل ذو وجه الجرذ بفحيح: «انهض!» وأطلق سبأً. أمسك الرجل بيتر من طيَّات معطفه وبدا وكأنه حملة حملاً ليقف على قدميه من دون أن يُبعد فوهة المسدس عن وجهه. وكان بيتر المسكين يحاول جاهدًا أن يستجمع رباطة جأشه، وممرت بخاطره نصف دُزينة من الأفكار الرهيبة واحدةً تلو الأخرى. هل سمعه ماكجيفني يسبُّ السيد جود ويعلن عن نفسه كأحد الحُمُر؟ هل لفق بعض الحُمُر تهمة ضد بيتر؟ هل جنُّ ماكجيفني، وأصبح بيتر عالقًا في الغرفة مع مجنونٍ مسلَّحٍ بمسدس؟

سأله ماكجيفني: «أين وضعت الأموال التي أعطيتك إياها أول أمس؟» وأطلق سباًً آخر.

اتخذ بيتر موقفاً دفاعياً على الفور، بالطبع. فبغض النظر عن مدى خوفه، لن يتخلى بيتر عن أمواله أبداً.

«أ... أ... أنفقتها، يا سيد ماكجيفني.»

«أنت تكذب!»

«... لا... لا.»

قال الرجل في إصرار: «أخبرني أين وضعت تلك الأموال!» وأصبح وجهه قبيحاً من فرط الغضب، وبدا كأن فوهة المسدس ترتجف من الغضب أيضاً. أصر بيتر على أنه أنفق هذه الأموال بالكامل. قال ماكجيفني: «اجعله يسعل، يا هاميت!» وأدرك بيتر للمرة الأولى أن ثمة رجلاً آخر في الغرفة؛ فقد كانت عيناه تركّزان على فوهة المسدس لدرجة أنهما لم تنظرا حولهما.

كان هاميت ضخم الجثة، وتقدم نحو بيتر وأمسك بإحدى ذراعيه، ولفها خلف ظهر بيتر ثم إلى أعلى بين لوحَي كتفيه. عندما بدأ بيتر يصرخ، وضع هاميت يده الأخرى على فمه، حينئذٍ أدرك بيتر أن أمره قد انتهى. لا يجدر به أن يحاول الاحتفاظ بالمال إذا كان هذا هو الثمن الذي سيدفعه. وعندما سأله ماكجيفني: «هل ستخبرني أين المال؟» أوماً بيتر برأسه أن نعم، وحاول أن يجيب عبّر فتحتي أنفه.

رفع هاميت يده عن فم بيتر، وقال: «أين المال؟» وأجاب بيتر: «في فردة حذائي

اليمنى.»

فك هاميت رباط الحذاء وخلعه من قدم بيتر، وأخرج النعل الداخلي، وكانت هناك حزمة صغيرة مسطحة مغلّفة بمنديل تحته، وداخل المنديل، كانت تقبع الألف دولار التي أعطها ماكجيفني لبيتر، بالإضافة إلى الثلاثمائة دولار التي ادخرها بيتر من هدية نيلس أكيرمان، ومائتي دولار ادخرها من راتبه. عد هاميت الأموال، ووضعها ماكجيفني في جيبه، ثم أمر بيتر بارتداء حذائه مرةً أخرى. نفذ بيتر الأمر بأصابع مرتجفة، وفي الوقت نفسه كان يركّز عيناً على فوهة المسدس، وعيناً أخرى على الرجل ذي وجه الجرد.

«... ما الأمر، يا سيد ماكجيفني؟»

جاءت الإجابة: «ستعرف في الوقت المناسب. والآن، سر أمامي إلى الطابق السفلي، وتذكّر

أني أصوب هذا المسدس نحوك، وبه ثماني رصاصات، وإذا حركت إصبعاً فسأضعها جميعاً داخل جسدك.»

ومن ثم، نزل بيتر وماكجيفني وهاميت في مصعد الفندق، ثم إلى خارج الفندق، ودخلوا سيارة. قاد هاميت السيارة، وجلس بيتر في المقعد الخلفي مع ماكجيفني الذي ظل ممسكًا بالمسدس في جيب معطفه، ولم يرفع إصبعه عن الزناد وكانت فوهة المسدس مصوّبة دومًا إلى وسط بيتر. أطاع بيتر جميع الأوامر دون نقاش، وتوقف عن طرح الأسئلة لأنه أدرك أنه لن يحصل على أي إجابات.

في الوقت نفسه، ظل يُعْمَل عقله المرتعب من أجل أن يجد حلًا للمشكلة. كان أفضل تخمين توصل إليه أن جوفي قرر أن يصدق قصة جو أنجيل بدلاً من قصة بيتر. ولكن ما سبب استخدام المسدسات مثلما يحدث في الأفلام؟ توقّف بيتر عن التفكير يائسًا، وكان لا بأس في ذلك؛ فما حدث حقيقةً كان يتجاوز قدرة عقل بيتر أو أي عقلٍ آخر على التخمين بأشواط.

القسم السادس والستون

ذهبوا إلى مكتب قسم الخدمة السرية لشركة تراكشن تراست، المكان الذي لم يُسمَح لبيتر بالذهاب إليه حتى هذه اللحظة. كان المكتب في الطابق الرابع عشر من مبنى مرشانتس تراست، وكانت ثَمَّة لافتة معلقة على الباب، كُتِبَ عليها: «شركة الأراضي والاستثمارات الأمريكية. تفضل بالدخول.» عندما تدخل، ترى مكتب عقارات تقليدياً، ولم تكن لتصل إلى الغرف السرية حيث يؤدي جوفي وفريقه أعمال الجاسوسية لصالح الشركات الكبرى في المدينة إلا بعدما تعبر الكثير من الأبواب.

ألقي بيتر داخل واحدة من هذه الغرف حيث كان جوفي يقف، وبمجرد أن رأى جوفي بيتر، هاجمه على الفور وهو يهزُّ قبضته أمام وجهه صارخاً: «أيها الجرو القذر! أيها الجرو البائس! أيها الكلب القذر المخادع!» وأضاف عدداً من الأوصاف الأخرى المستمدة من الكلاب.

كانت ركبتا بيتر ترتجفان، وأسنانه تصطك، وكان يراقب كل حركة من أصابع جوفي الغاضبة، وجميع قسمات وجه جوفي الغاضبة. كان بيتر على أتم الاستعداد لأن يتعرض لأقسى تعذيبٍ سيتعرض له في حياته، ولكنه أدرك بمرور الوقت أنه لن يتعرض للتعذيب، بل سيتعرض للتوبيخ وصَب الغضب فقط، ولم تكن ثَمَّة كلماتٍ يمكنها أن تصف موجة الراحة التي غمرت روحه. فعلى مدار حياته كصعلوك، تلقى بيتر إهاناتٍ أكثر مما يمكن أن يفكر جوفي وإن أمضى الشهر المقبل المقبل كاملاً في المحاولة. إذا كان كل ما سيفعله جوفي هو أن يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، وأن يهزُّ قبضته أمام وجه بيتر كلما مرَّ أمامه، وأن يقارنه بجميع أنواع الحيوانات المنزلية الأليفة، فيمكن لبيتر أن يتحمل طوال الليل دون أن يتدمر.

توقف عن محاولة معرفة ما حدث، فقد أدرك أن هذا يدفع جوفي إلى الدخول في نوبات غضب جديدة. لم يكن جوفي يريد التحدث إلى بيتر، ولم يكن يريد سماع صوت البيتر المنتحب كصوت جرو. كل ما كان يريده هو التنفيس عن غضبه، وأن يستمع إليه بيتر بإنعان تام، وهذا ما فعله بيتر. ولكن في الوقت نفسه، كان عقل بيتر يعمل بسرعة خارقة، وكان يحاول التقاط تلميحات من شأنها أن تُدله على ما يعنيه كل ما يحدث من حوله. كان ثمة أمرٌ وحيد واضح تمامًا، أن ثمة ضررًا، أيًا كان، قد وقع؛ لقد انتهى الأمر، لقد تم كل شيء ولم يتبق سوى الجنازة. لقد أخذوا أموال بيتر لدفع تكاليف جنازته، وكان هذا هو كل ما كانوا يأملون في الحصول عليه منه.

بمرور الوقت، وصلته تلميحات أخرى. صاح جوفي قائلاً: «إذن أنت تظن إذن أنك قادر على الاستقلال بعملك!» وكال لبيتر لكمّة صاعدة بقبضته التي كانت مستقرة تحت أنف بيتر كادت تطيح برقبته من على كتفيه.

فكّر بيتر: «أها! لقد كشف نيلس أكبرمان أمري!»

«ظننت أنك ستجني ثروة وتتقاعد مدى الحياة من ريعها!»

نعم، لا شك في أن هذا هو الأمر! ولكن ما الذي كشفه نيلس أكبرمان وكان سيئًا لهذه الدرجة؟

«كنت ستملك جاسوسك الخاص، وتُنشئ مكتبك الخاص، وربما تطردني!»

فكّر بيتر: «يا إلهي! من أخبره بذلك؟»

ثم فجأة توقف جوفي أمامه، وسأله: «هل هذا ما كنت تظن؟» وكرّر السؤال، وبدا أنه يريد إجابة بالفعل، فتلعثم بيتر وهو يقول: «ل... ل... لا، يا سيدي.» ولكن يبدو أن الإجابة لم تُرض جوفي لأنه أمسك بأنف بيتر ولواها بطريقة جعلت الدموع تنهمر من عينيه.

«ماذا كنت تظن إذن؟» ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه كبير المحققين، ثم نظر إلى بيتر مُطلقًا ضحكة ملؤها الحقد، وقال: «أعتقد أنك ظننت أنها أحببتك حقًا! هل هذا صحيح؟ ظننت أنها أحببتك حقًا؟» وضحك ماكجيفني، وهاميت، وجوفي معًا، وتخليهم بيتر شياطين تسخر منه في أعماق حفرة في الجحيم. قوضت تلك الكلمات جميع أعمدة قلعة أحلام بيتر وحولتها إلى أنقاض من حوله. لقد كشف جوفي أمر نيل!

خلال رحلاته بالسيارة إلى مكتب جوفي كان بيتر يذُكر نفسه مرارًا وتكرارًا بأوامر نيل: «التزم بقصتك، يا بيتر! التزم بقصتك!» كان بيتر ينوي الالتزام بقصته بغض النظر عما قد يحدث، ولكنه أدرك الآن أن كل شيء قد ضاع في لمح البصر. كيف يمكنه الالتزام بالقصة بعدما كشفوا أمر نيل، وبعدها لم تُعد نيل نفسها ملتزمة بها؟

رأى جوفي هذه الأفكار باديةً بوضوح على وجه بيتر، وتحوّلت ابتسامته الساخرة إلى عبوس، وقال: «إنك تفكر في إخباري بالحقيقة الآن، أليس كذلك؟ حسنًا، من سوء حظك أنه لم يتبقَّ شيء لتقوله!»

استدار مجددًا وعاد ليذرع الغرفة جيئةً وذهابًا. كان الضغط الذي تسبّب به الغضب في نفسه كبيرًا لدرجة أنه احتاج وقتًا أطول ليتخلص منه. ولكن جلس كبير المحققين إلى مكتبه في نهاية المطاف، وفتح درج مكتبه وأخرج ورقة، وقال: «أراك جالسًا تحاول التفكير في كذبة جديدة تخبرني بها.» ولم يحاول بيتر نفي ذلك؛ لأن أي نوع من النفي سيتسبب في نوبة غضب جديدة. قال جوفي: «حسنًا، سأقرأ عليك هذا، وسيمكنك حينئذ أن تدرك مدى صعوبة موقفك، ومدى حماقة كل ما فعلت.»

بدأ يقرأ الرسالة، وقبل أن يسمع بيتر جملة واحدة، عرف أن الرسالة من نيل، وأدرك أن قلعة أحلامه قد ذهب ت أدراج الرياح. لم تكن أنقاض سرجون ونيوى أكثر دمارًا من آماله المحطمة!

قالت الرسالة: «عزيزي السيد جوفي، تؤسفني هزيمتك، ولكن خمسون ألف دولار مبلغ ضخم من المال، ولقد تعبنا جميعًا من العمل ونحتاج إلى الراحة. أرسلت هذه الرسالة لأخبرك بأن تيد كروثرز قد سرق خزينة منزل نيلس أكيroman، وأصبح في حوزتنا بعض سندات الحرية وبعض المجوهرات التي نظن أنها تساوي خمسين ألف دولار، وأنت تعرف أن تيد بارع في تقدير قيمة المجوهرات.

لا شك في أنك ستكتشف أنني كنت أعمل في منزل السيد أكيroman وستطاردني بلا هوادة؛ لذا من الأفضل أن أخبرك بذلك، وأخبرك بأنك لن تستفيد شيئًا من القبض علينا، وذلك لأننا نملك جميع المعلومات الداخلية المتعلقة بتلفيق التهم لجوبر، وبجميع الأعمال الأخرى التي فعلها مكتبك في المدينة الأمريكية خلال العام الماضي. يمكنك أن تسأل بيتر جادج وسيخبرك. فأنا وبيتر من رتب مؤامرة التفجير بالديناميت، ولكن لا تلم بيتر؛ لأنه لم يفعل إلا ما قلّت له أن يفعله. إنه لا يملك الذكاء الكافي لأن يكون خطيرًا، وسيكون أحد أفضل عملائك إذا تعاملت معه بلطف وأبقيته بعيدًا عن النساء. يمكنك أن تفعل ذلك بسهولة إذا لم تدعه يحصل على أي أموال، فهو ليس حسن الطلعة كما تعلم، ولن تززع النساء أنفسهن معه إذا لم تدفع له الكثير من المال.

سيخبرك بيتر بكيفية تلفيقنا لعملية التفجير هذه، ولا شك في أنك لا ترغب في أن يعرف الحُمر شيئًا عن ذلك، وثق في أنه إن قبض عليّ أو على تيد، فسنعثر على طريقة

للوصول إلى الإعلام الأحمر وإخباره بجميع تفاصيلها. إذا ما التزمت الصمت، فلن ننسب ببنت شفه، وستحصل على مؤامرة تفجير سليمة تمامًا مع جميع الأدلة التي تحتاج إليها لإنهاء نشاط الحُمُر، ويمكنك أن تعتبر أنها كلفتك خمسين ألف دولار، وأن هذا الثمن كان رخيصًا؛ لأن نيلس أكيرمان دفع أكثر من ذلك بكثير مقابل عملك، ولكنك لم تحصل مطلقًا على مبلغ يبلغ حتى نصف هذا المبلغ. أعرف أنك ستستشيط غضبًا عندما تقرأ هذه الرسالة، ولكن فكر في الأمر وحافظ على هدوئك. أرسلت لك هذه الرسالة مع رسول حتى تتمكن من الوصول إلى نيلس أكيرمان سريعًا وتمنعه من إخبار الشرطة بشيء؛ لأنك تعرف إلام ستؤول الأمور إذا ما اكتشف هؤلاء الصغار ما حدث، فستتسرب الأخبار إلى الحُمُر والصحف، وستنتشر في جميع أنحاء المدينة، وهو ما سيضر بمؤامرتك الملققة. وأنت تعرف أنه بعدما ضُرب الحُمُر وعلّق شون جرادي، سيضرك كثيرًا أن تخرج شائعة تقول إن الديناميت زُرِع بيد رجالك. سأحتفي وتيد عن الأنظار، ولن نبيع المجوهرات إلا بعد فترة، وسيكون كل شيء على خير ما يرام.

مع فائق احترامي،

إديث.

ملاحظة: ليس من العدل أن نلوم بيتر على غيائه عندما يتعامل مع النساء، فقد كان سيخدمك على الوجه الأمثل لولا جمالي!»

القسم السابع والستون

كانت تلك هي الرسالة. عندما سمع بيتر فحوى الرسالة، أدرك أنه لم يعد هناك ما يُقال، وقال كل شيء. شعر وكأن وزنه أصبح فجأة أكبر مما يمكن لقدميه أن تتحملا، ورأى مقعداً قريباً فانزلق فيه، وجلس وعيناه المليئتان بالبؤس تنتقلان من جوفي إلى ماكجيفني، ومن ماكجيفني إلى هاميت، ثم تعودان إلى جوفي مجدداً.

كان كبير المحققين، رغم غضبه، رجلاً عملياً، لم يكن ليتمكن من إدارة عمل على هذا القدر من الأهمية والسرية لصالح شركة تراكشن تراست لو لم يكن كذلك. فدخل في صلب الموضوع. لن يمانع بيتر أن يخبره بكل شيء عن مؤامرة التفجير الملققة، كيف تمكنا من إدارتها ومن يعرف بأمرها. وبما أن بيتر رجل عملي أيضاً، كان يدرك ألا فائدة من محاولة إخفاء أي شيء. فقَصَّ القصة من بدايتها إلى نهايتها، وركَّز بصفة خاصة على توضيح أنه ونيل فقط من يعرفان السر، ولكن لا شك في أن نيل أخبرت حبيبها، تيد كروثرز، بالسر. ربما كان كروثرز هو من أحضر الديناميت. استنتج بيتر من الحوار التالي أن هذا الشاب الذي يشبه وجهه وجه كلب البولدوج كان أحد أخطر اللصوص في البلاد، ولا شك في أنه كان العقل المدبر للمؤامرة، وأنه من ورط نيل فيها، وأدار جميع خطواتها. تذكر بيتر فجأة جميع القبلات التي منحته إيها نيل في الحديقة، وشعر بالخجل يزحف على نفسه. نعم، لا شك في أنه ساذج عندما يتعلق الأمر بالنساء!

بدأ بيتر يدافع عن نفسه. لم يكن خطأه أن نيل تمكنت من خداعه. ففي معبد جيمجامبو، عندما كان حديث السن، كان مغرماً بها بشدة. فلم تكن جميلة فحسب، بل كانت ذكية للغاية؛ كانت أذكى امرأة عرفها على الإطلاق. علق ماكجيفني بأنها كانت تتلاعب ببيتر منذ ذلك الحين، فقد كانت تعمل لصالح جوفي حينئذ، وكانت تجمع الأدلة لإلقاء القبض على باشتيان الكالاندرا وتفكيك الطائفة الغرائبية اليوثرانية. لقد أدت الكثير

من المهام الماثلة لصالح الخدمة السرية لشركة تراكشن تراست في الوقت الذي كان فيه بيتر لا يزال يطوف البلاد مع بيريكليس بريام لبيع الأدوية المقلدة. استخدم جوفي نيل من قبل لإغواء قائد عمالي بارز في المدينة الأمريكية، وتمكنت من استدراجه إلى غرفة أحد الفنادق حيث قُبِض عليه، ومن ثم، وجهت ضربة قاصمة إلى أكبر إضراب عمالي معروف في تاريخ المدينة.

أدرك بيتر فجأة بأن لديه حجة دفاع جيدة. فلا شك في أن امرأة على هذه الشاكلة أصعب بكثير مما يستطيع التعامل معه! كان خطأ جوفي أن يوظف أشخاصًا على شاكلتها ثم يتركهم طلقاء! وبرقت في ذهن بيتر فجأة أنه لا بد أن نيل قد اكتشفت أنه بصدد لقاء لاكمان الصغير في فندق هوتيل دي سوتو، ولا بد أنها ذهبت إلى هناك متمعدة لتوريطه. عندما اعترف ماكجيفني أن هذا ربما يكون صحيحًا، شعر بيتر أن أصبح يمتلك دليل براءة، وبدأ في الدفاع عنه باستفاضة. لا شك في أنه كان أحق، بل كان الأحق الأكبر على الإطلاق، ولم يكن قادرًا على أن يقول شيئًا دفاعًا عن نفسه، ولكنه تعلم درسًا لن ينساه. لن يورط نفسه مع النساء مجددًا أبدًا، ولن ينعم بحياة الرفاهية، هذا إذا منحه السيد جوفي فرصة أخرى ...

بالطبع سخر منه جوفي. إنه لن يقبل بوجود أحق مثل بيتر جادج ولو على بعد عشرة أميال من مكتبه! لكن توسل إليه بيتر بشكل أكثر تذللًا. كان يعرف الكثير عن الحُمر، وأين يمكن أن يعثر السيد جوفي على شخص يعرفهم جيدًا مثله؟ كان الحُمر جميعهم يثقون به، فقد كان شهيدًا حقيقيًا، انظر إلى جميع تلك الشرائط اللاصقة على جسده! وقد أضاف لتوه إكليلاً أحمر آخر إلى جبينه. كان قد ذهب للقاء السيدة جود، وهناك تعرض لركلة من السيد جود، يمكنه أن يروي تلك القصة بالطبع، وربما يمكنه توريط بعض الحُمر في مؤامرة ضد السيد جود. على أي حال، كانت بين أيديهم قضية جيدة ضد ماكورميك وبقية أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي. وبما أن الأمور قد آلت إلى ذلك، لم يعد التراجع عن تلك القضية خيارًا مطروحًا! وكان الشيء الضروري الوحيد هو شرح الأمور للسيد أكيرمان ...

أدرك بيتر أن هذا التعليق لم يكن موفقًا. فقد نهض جوفي واقفًا مجددًا، وعاد يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا مُطَلِّقًا على بيتر أسماء جميع حيوانات المزرعة، وكشف دون أن يقصد أنه قد التقى السيد أكيرمان بالفعل، وأن السيد أكيرمان لم يتقبل بود خبر أن مكتب الخدمة السرية الذي يموله، والذي من المفترض أن يحميه، كان هو الطريق الذي دخل عبره مجرمان محترفان إلى منزله واخترقا خزنته وسرقا المجوهرات التي حسبًا أن قيمتها

تبلغ خمسين ألف دولار، ولكن قال السيد أكرمان إن قيمتها تبلغ خمسة وثمانين ألف دولار. قبل لبيتر أن من حُسن حظه أن جوفي لم يزوج به في الحفرة لما تبقى من حياته، أو يأخذه إلى سرداب ويمزقه إربًا إربًا. وفقًا للوضع الحالي، كان كل همه هو أن يتمكن من الخروج من مكتب جوفي، وأن يختفي من على سطح الأرض بأسرع ما يمكن. قال جوفي: «انهرب! أنا أعني ما أقول، اخرج!»

نهض بيتر وبدأ يسير مترنحًا نحو الباب. كان يفكر في نفسه: «هل أهددهم؟ هل أقول لهم إنني سأذهب إلى الحُمر وأخبرهم بما أعرف؟» لا، من الأفضل ألا يفعل ذلك؛ فأصغر تلميح بذلك قد يجعل جوفي يضعه في الحفرة! ولكن، كيف يمكن لجوفي أن يطلق سراحه، ويخاطر بأن يفشي السر؟ في هذه اللحظة، لا بد أن جوفي يفكر أن بيتر قد يرحل، وفي نوبة غضب أو يأس قد يكشف الحقيقة لأحد الحُمر، وحينئذ سيكون كل شيء قد انتهى إلى الأبد. لا، لا شك في أن جوفي لن يخاطر بذلك! سار بيتر ببطء شديد نحو الباب، وفتحه مترددًا، ثم وقف في مكانه مستندًا إلى الباب كأنه أصيب بضعف شديد ولم يعد قادرًا على الحفاظ على توازنه، وظل ينتظر، وينتظر ...

وبالفعل، تحدث جوفي، وقال: «عد إلى هنا، أيها الكلب!» فاستدار بيتر وبدأ يسير نحو كبير المحققين مادًا يده أمامه في دلالة على الخضوع، ولو كان في بلد شرقي، لكان قد خرَّ على ركبتيه ومرَّغ جبينه في التراب ثلاث مرات. صاح بيتر: «أرجوك، أرجوك، يا سيد جوفي! امنحني فرصة أخرى!»

قال جوفي في غضب: «إذا أعدتكَ إلى العمل مرة أخرى، هل ستفعل ما أقول لك، وليس ما تريد أن تفعله أنت؟»

«نعم، نعم، يا سيد جوفي.»

«ألن تلتق أي مؤامرات إلا ما أقوله لك؟»

«نعم، نعم، يا سيد جوفي.»

«حسنًا إذن، سأمنحك فرصة أخرى. ولكنني أقسم بالرب، إذا وجدتكَ تغمز لفتاة أخرى، سأقتلع أسنانك من فمك!»

رقص قلب بيتر في راحة. وقال: «أوه، شكرًا لك، شكرًا لك، يا سيد جوفي!» قال جوفي: «سأدفع لك عشرين دولارًا في الأسبوع فقط لا غير. أنت تستحق أكثر، ولكنني لا أستطيع أن أثق بك عندما تملك المال، ولك مطلق الحرية في قبول العرض أو رفضه.»

قال بيتر: «إنه مرضٍ تمامًا، يا سيد جوفي.»

القسم الثامن والستون

كانت هذه هي نهاية الحياة الرعدة بالنسبة إلى بيتر جادج. لم يعد بإمكانه أن يتنقل بين الطبقات السماوية لجبل الأوليمب. لم يرَ ثانيةً خادم السيد أكيرمان الصيني أو خادمة السيدة جود الفرنسية. لن يبتسم له بعد الآن المائتي وأربعة وعشرون صبي ملائكي المرسومون على سقف بهو فندق هوتيل دي سوتو. سيأكل بيتر وجباته الآن وهو جالس على مقعد صغير أمام منضدة المطعم، سيصبح بروليتاريًا متواضعًا حقيقياً، سيصبح «جيمي هيجينز» محاله. ألقى خلف ظهره أحلامه الوردية بمراكمة الكفاءات، وارتضى بعمله اليومي الشاق للتعرف على المرضى، وزيارة منازلهم ومراقبة أنشطتهم، والحصول على عينات من الكتب التي يتداولونها بينهم، وسرقة رسائلهم ودفاتر العناوين والملاحظات، وحمل كل هذا إلى الغرفة ٤٢٧ في البيت الأمريكي.

كانت هذه الفترة مشحونة. فعلى الرغم من الجلد والإعدامات والزج في السجون — أو ربما بسبب هذه الأمور تحديداً — كانت الحركة الراديكالية تغلي. فقد أعاد اتحاد العمال الصناعيين العالمي تنظيم صفوفه سرًا، وبدأ يجمع التمويل للدفاع عن سجنائه، كما كان الاشتراكيون سواء كانوا متطرفين أو معتدلين مشغولين، ولم يتوقف القادة العماليون مطلقًا عن التحريض فيما يتعلق بقضية جوبر. الفارق الوحيد هو أنهم ضاعفوا من أنشطتهم، فقد كانت السيدة جوبر عرضةً لأن يُحكَمَ عليها بالإعدام. في روسيا، تظاهر حشد من الفوضويين أمام السفارة الأمريكية، بسبب سوء معاملة رجل يطلقون عليه اسم «جوبا». على أي حال، هذا ما حملته البرقيات من أخبار، ونجحت جمعيات توزيع الأخبار في البلاد في منع التسريبات عن قضية جوبر لدرجة أن محرري الصحف في نيويورك لم يكونوا يعرفون أي أخبار أخرى، وطبعوا الاسم كما جاء، «جوبا!» الأمر الذي منح الراديكاليين فرصة جيدة للسخرية منهم، ولأن يتساءلوا عن مدى اهتمامهم بالعمال!

بدا أن الحُمر المتطرفين يديرون كل شيء في روسيا وفقاً لطريقتهم. ففي أواخر الخريف، أطاحوا بالحكومة الروسية، وسيطروا على البلاد، وبدءوا في عقد سلام مع ألمانيا؛ الأمر الذي وضع الحلفاء في مأزق رهيب، وأدخل كلمة جديدة إلى المفردات الشعبية، كلمة «بلشفي» المخيفة. بعد ذلك، إذا ما ادعى رجل ملكية البلدية لعربات الثلج، فكان كل ما عليك فعله هو أن تقول إنه «بلشفي» وسينتهي أمره.

ولكن جاء رد المتطرفين على حملة الإساءة هذه بأن اعتنقوا الاسم وحملوه بفخر. واعتمد الحزب الاشتراكي المحلي في المدينة الأمريكية وسط عاصفة من التصفيق قراراً بأن يطلق على نفسه اسم «الحزب البلشفي المحلي»، وكان كل شيء يسير وفق ما يريد «اليساريون» لبعض الوقت. كان قائد اليساريين رجل يدعى هربرت أشتون، محرر جريدة «كلاريون» المدينة الأمريكية، جريدة الحزب. كان أشتون صحفياً نحيلاً شاحباً ساخراً للغاية، وكان يبدو أن أشتون قد أمضى جل حياته في دراسة المؤامرات الرأسمالية الدولية، ولم يسمع أحد بحجة لم يتمكن من الرد عليها. كان يرى الحرب كصراع بين الأساليب التجارية التقليدية القديمة لبريطانيا العظمى، التي وصف حكومتها بأنها «مؤسسة تجارية ضخمة»، وأساليب التجارة الألمانية الحديثة الأكثر جرأة.

كان من شأن أشتون يأخذ الصيغ التي يستخدمها دعاة الحرب ويتعامل معها كما يتعامل كلب صغير مع جرد. إنها حرب من أجل الديمقراطية إذن! كان المصرفيون في باريس على مدار العشرين عاماً الماضية هم رعاة القياصرة الروس الذين نفوا مئة ألف شخص إلى سيبيريا لجعل العالم آمناً لإرساء الديمقراطية! دخلت الإمبراطورية البريطانية أيضاً الحرب حاملاً راية الديمقراطية؛ أولاً في أيرلندا، ثم في الهند ومصر، ثم في أحياء وايتشابيل الفقيرة! قال أشتون: لا، يجب ألا ينخدع العمال بهذا الهراء. لقد أقرضت شركات وول ستريت بضع مليارات من الدولارات للمصرفيين المتحدين، والآن يُطلب من الشعب الأمريكي أن يسفك دمه لتأمين العالم لاسترداد تلك القروض!

ظل بيتر يبحث ماكجيفني على وضع حد لهذا النوع من التحريض، وأخبره الرجل ذو وجه الجرد أن وقت العمل قد حان. كان من المقرر عقد اجتماع جماهيري كبير للاحتفال بالثورة البلشفية، ونبه ماكجيفني بيتر لأن يبقى بعيداً عن الأنظار خلال ذلك الاجتماع؛ لأنه قد تحدث بعض الاشتباكات خلاله. تخلى بيتر عن شارته الحمراء والزر الذي يحمل شعار اليمين المضمومتين وصعد إلى الرواق واختفى وسط الزحام. رأى بيتر الكثير من رجال «الشرطة السرية» الذين يعرفهم موزعين بين الحضور، كما رأى رئيس الشرطة

ورئيس مكتب المحققين في المدينة. عندما وصل هربت أشتون إلى منتصف خطابه، تقدم رئيس الشرطة إلى المنصة وأمر رجاله بالقبض عليه، وحال العشرات من رجال الشرطة بين السجين والجمهور الغاضب.

اعتقلت الشرطة إجمالاً سبعة أشخاص؛ وفي صباح اليوم التالي، عندما رأوا مدى الحماس الذي أثارته أفعالهم في الصحف، قرروا الذهاب لما هو أبعد من ذلك. فاقتمت مجموعة من رجال جوفي، بمشاركة مجموعة أخرى من مكتب المدعي العام، مكتب صحيفة أشتون «كلاريون»، وطرّدوا طاقم التحرير إلى الطابق السفلي أو ألقوا بهم من النوافذ، وبدءوا يحطمون الآلات الكاتبة وآلات الطباعة، واستولوا على قوائم الاشتراكات وأحرقوا طناً أو اثنين من «الكتب» في الفناء الخلفي. كما اقتحموا مقر الحزب «البلشفي المحلي»، وألقوا القبض على سبعة من أعضاء اللجنة التنفيذية، وحدد القاضي كفالة قيمتها خمسة وعشرين ألف دولار لكل منهم، وعلى مدار أسبوع أو أسبوعين، ظلت صحيفة «تايمز» المدينة الأمريكية ترسل رجلاً إلى مكتب جوفي يومياً، وكان جوفي يعطيه مواداً كثيرة من إعداد بيتر تظهر أن برنامج الاشتراكيين هو برنامج للإرهاب والقتل.

كان بيتر يقدم هذه الخدمة لبلاده بشكل يومي تقريباً. فقد اكتشف أين أخفى اتحاد العمال الصناعيين العالمي مطبعة كانوا يستخدمونها لطباعة الدوريات والمنشورات، وداهمت الشرطة هذا المكان، وصادرت المطبعة، وزجت بنصف دُرّينة من المحرضين الآخرين في السجن. أعلن هؤلاء الرجال إضراباً عن الطعام، وقرروا الموت جوعاً احتجاجاً على الضرب المبرح الذي نالوه، ثم التقت بعض النساء اللواتي كن في حالة هستيرية في منزل أدا روث، وأعددن منشوراً احتجاجياً، وكان بيتر يراقب توزيع هذا المنشور، وصودرت جميع نسخه في مكتب البريد، وبذلك أُحبطت مؤامرة أخرى. وأصبح لدى الخدمة السرية حالياً عدة رجال يعملون في مكتب البريد، يفتحون مراسلات المحرضين سراً، وكانوا يصدرون من وقت لآخر أمراً يمنع توصيل المراسلات إلى الأشخاص الذين لا يرون أن أفكارهم سليمة.

كما ألغت إدارة البريد الأمريكية امتيازات البريد من الدرجة الثانية لجريدة «كلاريون»، وفي وقت لاحق حظرت مراسلات الجريدة تماماً. بعد ذلك تولى بعض «الرفاق» توصيل نسخ الجريدة إلى البلدات المجاورة بالسيارة، فأرسل بيتر للتعرف على هؤلاء الرجال، وفي الليل دخل بعض رجال جوفي إلى المرآب، وعطلوا إحدى السيارات حتى يفقد سائقها السيطرة عليها وكادت تُكسر رقبتة. وهكذا أُحبطت مؤامرة أخرى!

القسم التاسع والستون

أصبح بيتر يشعر بسعادة غامرة لأن السلطات أصبحت مستنفرة بشكل كامل، وعندما كان يقدم لهم حقائق جديدة، كان يشعر بالرضا عندما يراهم يُقدِّمون على التصرف بناءً عليها. كانت الإجراءات تُتخذ بواسطة العملاء الفيدراليين، أو مكتب المدعي العام، أو شرطة المدينة والمحققين، ولكن كان بيتر يعرف أنه وبقيّة عملاء جوفي هم من يديرون الأمور من خلف الكواليس. كان جوفي يملك المال، فقد كان يعمل لصالح الرجال الذين ينتمون حقيقةً إلى المدينة الأمريكية، وهكذا كان جوفي هو الرئيس الحقيقي. وكان الحال على نفس المنوال في جميع أنحاء البلاد، فكان عملاء الغرف التجارية وجمعيات التجار والصناع، وكذلك «رابطة تحسين أمريكا»، ومنظمات مماثلة تعمل في الخفاء، يوقفون أعمال الحُمر.

كان يديرون كل شيء بأسلوبهم؛ لأن البلاد كانت في حالة حرب، وكان هياج الحرب يستعر كالنار في الهشيم في جميع أنحاء البلاد، وكان كل ما عليك فعله هو تدعي أن رجلاً مؤيداً للألمان أو أنه بلشفي، وأن تدعم ادعاءك بما يكفي من الحماسة، وستتمكن من جمع حشد من الناس والذهاب إلى منزله وجلده بالسوط أو تغطيته بالقطران والریش أو قتله. ظل رجال الأعمال الكبار يكرهون المحرضين لسنوات، وحاتت الآن أخيراً فرصتهم للتخلص منهم، فقد وضعوا في كل بلدة وفي كل متجر ومطحنة ومنجم شخصاً مثل بيتر جادج، «جيمي هيجينز»، ولكن من الجانب «الأبيض»، يتجسس و«يتلصص» على «جيمي هيجينز» من الجانب «الأحمر». وفي كل مكان، كان لديهم أشخاص مثل جوفي وماكجيفني لتنظيم هذه الأنشطة، وكان لديهم «رجال الذراع الطولى» بمسدساتهم المعلقة على أفخاذهم ويضعون شارات نواب الشرطة وشارات أخرى داخل معاطفهم كانت تمنحهم حقاً غير محدود في حماية البلاد من الخونة.

كان في معسكرات التدريب ثلاثة أو أربعة ملايين رجل، وكانت تصل كل أسبوع قوافل كبيرة من الموائى الشرقية، محملة بقوات زاهية إلى «الحرب». كانت ذخائر وإمدادات تُقدَّر بمليارات الدولارات تذهب، وكذلك كان كامل الشوق والحماسة الوطنية في البلاد يذهب أيضًا إلى «الحرب». قرأ بيتر المزيد من الخطب والعظات والمقالات، وكان فخورًا وسعيدًا، إذ كان يعلم أنه يلعب دورًا متواضعًا في هذه المغامرة العظيمة. عندما قرأ أن أكبر قادة الصناعة والمال كانوا يبيعون خدماتهم للحكومة مقابل دولار واحد في السنة، فبأي عين سيشتكى، وهو الذي كان يحصل على عشرين دولارًا كل أسبوع؟ عندما أعلن بعض الحُمُر في اجتماعاتهم أو في «منشوراتهم» أن قادة الصناعة والمال هؤلاء ليسوا سوى رؤساء الشركات التي كانت تفرض على الحكومة أسعارًا ضخمة وتحقق أرباحًا تتراوح بين ثلاثة وعشرة أضعاف الأرباح التي كانوا يحققونها قبل الحرب، كان بيتر يدرك أنه يستمتع إلى بلشفي خطير للغاية، وكان يحمل اسم الرجل إلى ماكجيفني، وكان ماكجيفني يجري بعض اتصالاته السرية، وكان الرجل يجد نفسه فجأة بدون وظيفة، أو قد يُلاحقه قسم الصحة في المدينة قضائيًا بتهمة ترك سلة قمامة بدون غطاء.

بعد إلحاح مستمر، نجح الراديكاليون في إقناع القاضي بإطلاق سراح ماكورميك وبقية المتأمرين بكفالة قدرها خمسون ألف دولار لكل منهم. تسبب هذا القرار في انزعاج كبير لبيتر، فقد كان من الجلي أنه عندما تزج بأحد الحُمُر في السجن، فإنك تجعل منه شهيدًا في نظر بقية الحُمُر، بل وتجعل منه شخصية بارزة في نظر المجتمع بأكمله، وإذا أطلقت سراحه مجددًا، تصبح خطاباته وتحريضاته أكثر تأثيرًا بعشر مرات من ذي قبل. فيتعين عليك إما أن تُبقي المحرضين في السجن إلى الأبد، أو ألا تزج بهم في السجن من الأساس. لكن القضاة لم يكونوا يرون ذلك، وكانت رءوسهم مليئة بالكثير من الهراء القانوني، وسمحو لديفيد أندروز وبقية المحامين الحُمُر بخداعهم. خرج هربرت أشتون وجماعته الاشتراكية أيضًا بكفالة، وكانت جريدة «كلاريون» لا تزال تُنشر وتُباع علنًا في أكشاك بيع الجرائد. وعلى الرغم من أنها لم تعد تجرؤ على معارضة الحرب، فإنها نشرت كل شيء غير مهذب أمكنها جمعه عن «المؤسسة التجارية العملاقة» المعروفة باسم الحكومة البريطانية، وأيضًا عن «المصرفيين الفرنسيين»، و«الإمبرياليين الإيطاليين». وطالبت بالديمقراطية لكل من أيرلندا ومصر والهند، ودافعت بلا حياء عن البلشفيين، أولئك المتأمرين الموالين لألمانيا والمعارضين لتحرير المرأة.

وهكذا مضى بيتر في جمع المزيد من الأدلة التي تدين طاقم جريدة «كلاريون»، وتدين اتحاد العمال الصناعيين العالمي. قرأ بيتر في وقت لاحق أخبارًا جيدة أفادت أن الحكومة

قد اعتقلت المئات من قادة اتحاد العمال الصناعيين العالمي في جميع أنحاء البلاد، وكذلك القادة الشيوعيين على مستوى البلاد، وسيحاكمون جميعهم بتهمة التآمر. ثم بدأت محاكمة ماكورميك، وهندرسون، وجوس ومن معهم، وأمسك بيتر بجريدة «تايمز» في صباح أحد الأيام، وقرأ على صفحتها الأولى بعض الأخبار التي حbst أنفاسه. كان جو أنجيل، أحد قادة مؤامرة التفجير، قد تحول إلى شاهد ملك! فقد أقر للمدعي العام بالدور الذي لعبه هو نفسه في خطة تفجير منزل نيلس أكيرمان، بل أقر أيضًا بكل ما فعله الآخرون؛ كيفية الحصول على الديناميت وتحضيره، وأسماء جميع المواطنين البارزين في المجتمع الذين كانوا سيشاركون نيلس أكيرمان مصيره! ظل بيتر يقرأ بشكل مستمر، وقد انقطعت أنفاسه في تعجب، وعندما انتهى من قراءة الخبر، انفجر ضاحكًا. يا إلهي، هذا لا يُصدّق! كان بيتر قد لفق تهمةً لأحد رجال جوفي، ولا شك في أن جوفي لم يستطع إرسال هذا الرجل إلى السجن؛ لذا حوِّله إلى شاهد ملك، وأطلق سراحه، مكافأةً له على الوشاية بالآخرين!

أصبحت روزنامة المحكمة مكتظة بقضايا «التجسس»؛ رجال الدين المناهضين للحرب الذين حاولوا إلقاء خطب، والقادة العماليين الذين حاولوا التحريض على إضرابات، وأعضاء الرابطة المناهضة للتجنيد الإجباري وتلاميذهم المتهربين من الخدمة العسكرية والمتكاسلين، والفوضويين والشيوعيين وأعضاء جماعة الأصدقاء، وأعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي، والاشتراكيين و«شهود يهوه». كانت هناك عدة محاكمات تجري في الوقت نفسه طوال الوقت، وكان لبيتر دور في كل قضية تقريبًا، كان يُطلب من بيتر الحصول على بعض الأدلة، أو التحقق من هيئة محلفين، أو تدبير تهديد بسيط لأحد شهود الدفاع. كان بيتر متورطًا في مصير كل قضية، وكان يعتبر كل إدانة نصرًا شخصيًا له. ولأنه كانت هناك دومًا إدانات، بدأ بيتر ينتفخ مجددًا بالحماسة الوطنية، وتوارت ذكرى نيل دولين وتيد كروثرز في غياهب ذاكرته. عندما حُكِم على «ماك» وزملائه المفجرين بالسجن عشرين عامًا لكل منهم، شعر بيتر أنه قد كَفَّر عن كل خطاياهم، وتجراً على التلميح لماكجيفني على استحياء بأن تكاليف المعيشة ترتفع طوال الوقت، وأنه أوفى بوعده بعدم النظر حتى لامرأة طوال ستة أشهر. قال ماكجيفني ألا بأس بذلك، وأنه سيرفع راتبه إلى ثلاثين دولارًا أسبوعيًا.

القسم السابع

بالطبع لم يكن تصريح بيتر ماكجيفني حقيقياً تماماً، فقد طالت عيناه عدداً من النساء، ولكن كانت المشكلة تكمن في ألا واحدة منهن قد التفتت إليه. بادئ ذي بدء، حاول التودد إلى ميريام يانكوفيتش، التي كانت ممتلئة الجسم وجميلة الطلعة، ولكن ميريام كانت مشغولة البال بالكامل بماكورميك السجين؛ وبعد تجربتها مع بوب أوجدن، دخلت ميريام المستشفى، ولم يرغب بيتر في التلاعب بمريضة. كان بيتر يتعامل بلطف مع بعض الفتيات الحُمر، وبدأ أنهن أُعجبن به، وكن يتعاملن معه كرفيق جيد، ولكن، بشكل أو بآخر، لم يبداً أنهن يتصرفن وفقاً لنظريات ماكجيفني عن «الحب المتحرر». قرر بيتر أن يعثر لنفسه على فتاة ليست من جماعة الحُمر، فهذا سيمنحه فترة راحة من حين لآخر، والقليل من المرح، فنادرًا ما كان الحُمر يمرحون، وكانت فكرتهم في المغامرة هي الانفراد بأنفسهم في غرفة وترديد النشيد الأممي أو نشيد العلم الأحمر همساً، حتى لا تتمكن الشرطة من سماعهم. عصر يوم السبت، ذهب بيتر إلى متجر ملابس يديره اشتراكي، واشترى لنفسه قبعة جديدةً وبدلةً جديدةً بالأجل. ثم خرج إلى الشارع، ورأى فتاةً صغيرةً أنيقةً تدخل إلى معرضٍ للصور، فتبعها، وبدأ يتعارفان وتناولوا العشاء معاً. كانت الفتاة ما يسميه بيتر «أنيقة الملبس»، وتبين أنها تعمل في صالون للعناية بالأظافر. كانت فكرتها عن المرح تتوافق مع فكرة بيتر عنه، وأنفق بيتر كل ما كان يملك من مال مساء ذلك السبت، وقرر أنه إذا استطاع الحصول على معلومات جديدة عن الحُمر خلال الأسبوع، سيطلب من ماكجيفني أربعين دولارًا.

كان صباح اليوم التالي هو أحد الفصح، والتقى بيتر بفتاته التي تعمل في صالون العناية بالأظافر وخرجا في موعد، وذهبا للتنزه في شارع بارك أفينيو، الشارع الراقي في المدينة الأمريكية ومكان «موكب الفصح». كانت الحرب دائرة، وكانت العديد من البيوت

تعلق الأعلام، وكان العديد من الرجال يرتدون الزي العسكري، وكانت جميع الخطب تدور حول الموضوعات الحربية. بدأ أن المسيح قد بُعث من جديد لتجهيز العالم للديمقراطية، ومنح جميع شعوب العالم حقها في تقرير مصيرها؛ وكان بيتر والأنسة فريسيي يرتديان أفضل ملابسهما، ويشاهدان الحشود في «موكب الفصح»، وكانت الأنسة فريسيي تدرس أزياء النساء وزينتهن، وكانت تستمع إلى أجزاء من محادثاتهن وتنقلها إلى بيتر، وجعلت بيتر يشعر أنه عاد إلى جبل الأوليمب مجددًا.

دخلنا إلى إحدى الكنائس الراقية في شارع بارك أفينيوي؛ كانت تُسمى كنيسة الرحمة الإلهية، وكان جوها «راقياً» للغاية بفضل استخدام الشموع والبخور، رغم أنك لن تتمكن من شم رائحة البخور في هذه المناسبة بسبب رائحة زهور الفصح وعطور النساء. اقتيد بيتر وصديقه إلى أحد الأرائك المغطاة بالجلد، واستمعا للقس دي ويلوبي ستوتربريدج، الخطيب الشهير، وهو يلقي واحدة من تلك الخطب الوطنية التي كانت تُنشر في جريدة «التايمز» صباح كل يوم اثنين تقريبًا. اقتبس القس دي ويلوبي ستوتربريدج بعضًا من نصوص العهد القديم التي تتحدث عن القضاء على أعداء الرب، وتغني بنصر الأسلحة الأمريكية، والتفوق الساحق للذخائر الأمريكية، وأدان البلشفيين وجميع الخونة الآخرين، وطالب بمجمعهم على الفور، لم يقل صراحةً أنه كان ضمن الحشد الذي جلد أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي وحطم مطابع الشيوعيين وآلاتهم الكاتبة، ولكنه أوضح بشكل لا لبس فيه أن هذا ما يريد، وانتفخ صدر بيتر بالفخر والسعادة. كان إدراك المرء أنه يخدم بلاده ويحافظ على علمها خفياً في السماء أمر عظيم، ولكن الأكثر عظمة هو إدراكه أنه مجند لخدمة الرب، وأن السماء وجميع سكانها في صفه، وأن كل ما فعله كان مقبولاً لدى قس مُرْسَم من السماء، ويتحدث داخل معبد الرب المقدس وسط النوافذ الملونة، والشموع المشتعلة، ورائحة البخور الساحرة، وروائح زهور الفصح وعطور الخزامى واللافندر التي تفوح من مناديل السيدات الرقيقات الرائعات من جبل الأوليمب. لا شك في أن هذا كان خلطاً للأساطير معاً، ولكن لم يهتم أحد بتعليم بيتر في صغره، ولا يمكن لوم بيتر على رؤية العظماء من الأرض على حقيقتهم، والإيمان بما علّموه إياه.

خرجت الجوقة بزيتها الأبيض، وخبّت موسيقى «تقدموا يا جنود المسيحية»، وخرج بيتر وفتاته من كنيسة الرحمة الإلهية وعادا يتجولان في الشارع، وعندما أركمت رائحة الخُبلاء أنفيهما، توجهتا إلى الحديقة، حيث كانت هناك أماكن خاصة للشباب المرتبطين. لكن للأسف، كانت الأقدار التي تحاول جاهدة إفساد محاولات بيتر للحب قد أعدت مقلبًا

قاسياً ذلك الصباح. عند مدخل الحديقة، التقى بيتر بالرفيق شنيتزلان، الجزار القصير البدين الذي ينتمي إلى «الحزب البلشفي المحلي» في المدينة الأمريكية. حاول بيتر أن ينظر في الاتجاه الآخر ويمر بجواره مسرعاً، ولكن لم يسمح الرفيق شنيتزلان بذلك. فقد تبعه راكضاً ماداً يده البدينة أمامه، وقد رسم ابتسامة مشرقة على وجهه الوردي ذي الملامح الجرمانية. وصاح: «أه، رفيق جادج! كيف حالك هذا الصباح؟»

قال بيتر ببرود: «أنا بخير، شكراً لك.» وحاول أن يمضي قدماً. لكن الرفيق شنيتزلان أمسك بيده، وقال: «حسناً! كنت تشاهد موكب عيد الفصح! ما رأيك؟ إذا استطعنا أن نجعل جميع عبيد الرواتب يأتون ويشاهدون الموكب، سنحولهم جميعاً إلى البلشفية سريعاً! ما رأيك، أيها الرفيق جادج؟»

قال بيتر ببرود أكبر: «نعم، أظن ذلك.»

قال الرفيق شنيتزلان ضاحكاً: «سنريهم فيم يُنفق المال، أليس كذلك، أيها الرفيق جادج!» فقال بيتر بسرعة: «حسناً، إلى اللقاء.» ودون أن يُعرّفه بفتاته، جذبها من ذراعها ومضى مسرعاً.

ولكن، الضرر كان قد وقع بالفعل، للأسف! كانا قد سارا دقيقةً أو اثنتين في صمت ثقيل. ثم فجأة، توقفت الفتاة التي تعمل في العناية بالأظافر عن السير، وواجهت بيتر وسألته: «يا سيد جادج، ماذا يعني ذلك؟»

وبالطبع لم يستطع بيتر الإجابة. لم يجرؤ على النظر في عينيها البراقتين، وظل يداعب حجارة الطريق بطرف حذائه، فقالت الفتاة في إصرار: «أريد أن أعرف ماذا يعني ذلك. هل أنت أحد هؤلاء الحُمُر؟»

ماذا كان بوسع بيتر المسكين قوله؟ كيف يمكنه أن يشرح صلته بذلك الرجل ذو الملامح واللكنة الجرمانية؟

ضربت الفتاة الأرض بقدمها في غضب ونفاد صبر، وقالت: «إذن أنت أحد هؤلاء الحُمُر! أنت أحد أولئك الخونة الموالين لألمانيا! أنت محتال، جاسوس!»

كان بيتر عاجزاً عن الحركة من فرط الحرج والذهول، فحاول التحدث قائلاً: «آنسة فريسيبي، لا يمكنني أن أشرح لك...»

«لماذا لا يمكنك أن تشرح؟ لماذا لا يستطيع رجل صادق أن يشرح موقفه؟»
 «لكن - لكن - أنا لست ما تظنين - هذا ليس صحيحاً! أنا - أنا - كان بيتر على وشك أن يقول: «أنا وطني! أنا أمريكي حقيقي بنسبة ١٠٠٪، أنا أحمي بلدي من هؤلاء الخونة!»

لكن الشرف المهني أجبره على الصمت، فضربت الفتاة الصغيرة الأرض بقدمها مرة أخرى، واتقدت عيناها في غضب.

«لقد تجرأت على التعرف إليّ! وتجرأت على أخذي إلى الكنيسة! لو كان يوجد شرطي في الجوار، كنت سأبلغ عنك، كنت سأرسلك إلى السجن!» وبدأت تدير عينيها حولها بحثاً عن شرطي بالفعل! لكن من المتعارف عليه أنك لن تعثر على شرطي في الجوار عندما تبحث عن أحدهم، فضربت الأنسة فريسبي الأرض بقدمها مرة أخرى وصاحت في وجه بيتر قائلة: «وداعاً، أيها الرفيق جادج!» كان التشديد الذي وضعته على كلمة «رفيق» كافياً لتجميد أكثر أرواح الحُمُر اتقاداً، واستدارت سريعاً وأصدر فستانها فحيحاً وسارت مبتعدة، ووقف بيتر في مكانه ينظر بحزن إلى كعبها الفرنسي الصغير وهو يبتعد مُطِطِطاً: طراك، طراك، كراك على الطريق الحصوي. وعندما اختفى الكعب تماماً عن الأنظار، بحث بيتر عن الكرسي الأقرب منه وجلس دافئاً وجهه بين يديه، في تجسيد حي للبؤس. هل هناك رجل في العالم تعس الحظ مع النساء باستمرار كحاله؟

القسم الحادي والسبعون

كان العالم يتعذب خلال تلك الفترة، فقد كان الناس يشترون الصحف عدة مرات كل يوم، وحينما كانت الجموع تحتشد أمام اللوحات الإعلانية، تنظر إلى الخرائط الكبيرة التي تحمل أعلامًا صغيرة، وتتساءل، هل سيصل الألمان إلى باريس؟ هل سيصلون إلى القناة الإنجليزية ويخرجون فرنسا من الحرب؟ ثم فجأة، وجه الأمريكيون ضربتهم الأولى، وصدوا الألمان إلى الخلف في شاتو تيري، ونهضت أمريكا بالكامل مطلقاً صيحة نصر جماعية!

قد تظن أن هذا كان وقتاً غير مناسب للتحريض على مناهضة الحرب، ولكن لم يكن أعضاء «رابطة مكافحة التجنيد الإجباري» يملكون ما يكفي من التمييز، الأمر الذي دفعهم إلى اختيار تلك اللحظة تحديداً لنشر كتيب يصف تعذيب رافضي الخدمة العسكرية في السجون العسكرية ومعسكرات التدريب! كان بيتر أحد نشطاء هذه المنظمة منذ بدايتها، وساعد في كتابة عبارة حاسمة معينة في الكتيب كانت من اقتراح ماكجيفني. وصادرت الحكومة الفيدرالية الكتيبات، واعتقلت جميع أعضاء «رابطة مكافحة التجنيد الإجباري»، بما في ذلك سادي تود، وأدا روث الصغيرة، ودونالد جوردون! كان بيتر يشعر بالأسف حيال سادي تود، على الرغم من أنها سبته من قبل. ولكنه لم يستطع أن يشعر بالكثير من الأسف حيال أدا روث؛ لأنها كانت متعصبة للغاية، ومصرة على الوقوع في المشاكل. أما دونالد جوردون، فإذا لم يكن قد تعلم الدرس من تلك الضربة، فلا يلومن إلا نفسه.

كان بيتر عضواً في هذه الرابطة المناهضة للتجنيد الإجباري، فتظاهر بأنه يختبئ، ومثلّ مسرحيةً صغيرةً على ابنة عم أدا روث، وهي امرأة إنجليزية أخفته في منزلها في الريف. شعر بيتر بعدم الراحة لربيع الساعة عندما أُفْرِجَ عن دونالد جوردون بكفالة؛ لأن الصبي من جماعة الأصدقاء أصر على أن العبارة الحاسمة التي أوقعتهم جميعاً في المشاكل كانت قد حُذِفَت من المخطوطة قبل أن يسلمها إلى بيتر جادج ليأخذها إلى المطبعة. لكن

بيتر أصر على أن دونالد كان مخطئاً، ويبدو أنه نجح في إقناع الآخرين، وبعد أن خرجوا جميعاً بكفالة، تجرأ على الخروج من مكان اختبائه، وحضر اجتماع احتجاج أو اثنين في منازل خاصة.

ثم بدأت مغامرة جديدة تُعد في بعض جوانبها الأكثر رعباً على الإطلاق. كانت المغامرة تتعلق بفتاة أخرى، وكانت البداية في منزل أدا روث حيث اجتمع عدد من المناهضين للحرب الأكثر تحفظاً لمناقشة مسألة جمع الأموال لدفع تكاليف الدفاع القانوني عنهم. وحضرت ميريام يانكوفيتش هذا الاجتماع، وكانت شاحبة الوجه بعدما خضعت لجراحة سرطان الثدي، ولكن هذا لم يؤثر بالسلب على إخلاصها للحُمُر قلباً وعقلاً. أحضرت ميريام صديقتها معها لمساعدتها لأنها لم تكن قوية بما يكفي لتتمكن من السير، وكانت هذه الصديقة التي جعلت بيتر يبدأ مغامرته الجديدة.

كان اسمها روزي ستيرن، وكانت فتاة يهودية عاملة ضئيلة الحجم قوية البنية ذات عينين سوداوين جريئتين، وكتلة من الشعر الأسود اللامع، ووجنتين متوردتين وابتسامة مشرقة. كانت ملابسها تنم عن إدراكها لمدى جمالها وتقديرها له، لهذا السبب لم يُفاجأ بيتر عندما قالت ميريام، عند تقديمها له، أن روزي لا تنتمي إلى الحُمُر ولا تحبهم، ولكنها أتت لمساعدتها فقط ولرؤية ما يدور في اجتماعات المناهضين للحرب. ربما يمكن لبيتر أن يساعد في تحويلها إلى عضوة في جماعة الحُمُر! وكان بيتر سعيداً بهذا حقاً؛ لأنه أصبح الآن أكثر ملأاً من تدمير المناهضين للحرب الآن بعدما صد أبناؤنا هجوم الألمان على مارن وسطروا أسماءهم على صفحات التاريخ السرمدية.

كانت روزي من نوع جديد لم يألّفه بيتر، فتبعها، ولم تُمر فترة طويلة قبل أن يدرك مسروراً أنها مهمة به. كان بيتر يعرف، ولا شك، أنه أفضل من كامل هذه المجموعة، ولكنه لم يعتقد أن يقر أحد بهذه الحقيقة، وكعاداته عندما تبتمس له امرأة، يرتفع مقياس ثقته بنفسه إلى أعلى النقطة الآمنة. كانت روزي واحدة من أولئك الأشخاص الذين يتعاملون مع العالم كما هو ويحصلون على بعض المرح منه؛ لذا، وبينما كان اجتماع المناهضين للحرب مستمرًا، جلس بيتر معها في أحد الأركان وقص عليها بصوت خفيض مغامراته المضحكة مع بيريكليس بريام وفي معبد جيمجامبو. لم تستطع روزي كبت ضحكاتها، ولعت عيناها السوداوان، وقبل أن تنتهي الأمسية، تلامست أيديهما عدة مرات. ثم عرض بيتر مرافقتها وميريام، ولا حاجة بنا إلى قول إنهما أوصلا ميريام إلى منزلها أولاً. كانت شوارع الأحياء السكنية خالية في هذه الساعة المتأخرة، الأمر الذي وفر لهما فرصة لعناق سريع، وعاد بيتر إلى منزله وهو يكاد يطير فرحًا.

كانت روزي تعمل في مصنع لصناديق الكرتون، وفي مساء اليوم التالي، اصطحبها بيتر لتناول العشاء، واستمرت مغازلاتهما المشوقة. ولكن روزي أظهرت ميلاً للتراجع عن ذلك، وعندما ضغط عليها بيتر، أخبرته بالسبب. لم تكن لديها أي نية للارتباط بأحد الحُمر، فقد ملت من سماع لغوهم الذي لا ينقطع؛ لذا لن ترتبط بأحدهم أبداً. انظر إلى ميريام يانكوفيتش، كم أفسدت حياتها! كانت فتاة جميلة، وكانت متزوجة من رجل ثري، ولكنها أصبحت الآن مضطرة لأن تُقَطَّعَ إِرْبًا إِرْبًا! وانظر إلى سادي تود، لقد جعلت من نفسها عبدة حتى أوشكت على الموت، وأدا روث بقصائدها التي تصيب من يسمعها بالملل. سخرت روزي منهم جميعاً، وأصابتهم بسهام ذكائهما، ولا شك في أن بيتر كان يتفق مع كل ما قالت في داخله، ولكن كان على بيتر أن يتظاهر بالاختلاف معها، الأمر الذي أغضب روزي وأفسد متعتهما، وكادا يتشاجران.

في ظل هذه الظروف، كان من الصعب على بيتر عدم التلميح عن مشاعره الحقيقية. بعدما أنفق كامل أمواله على روزي والكثير من وقته ولم يحرز أي تقدم معها، قرر أن يقدم لها بعض التنازلات، فأخبرها بأنه سيتوقف عن محاولة ضمها إلى الحُمر. عندئذ، مطت روزي شفيتها، وقالت: «هذا لطف كبير منك، يا سيد جادج! ولكن ماذا عن محاولتي أن أضمك إلى «البيض»؟» وأكملت حديثها بأن قالت إنها تريد رجلاً يستطيع كسب المال والاعتناء بها. أجابها بيتر أنه يكسب مبلغاً لا بأس به من المال. فسألته روزي كيف يكسب المال. لم يخبرها بيتر، ولكنه كان يكسب المال، وسيثبت لها ذلك عن طريق اصطحابها إلى المسرح كل ليلة.

وهكذا استمرت العلاقة بينهما، ليلة تلو الأخرى. أصبح بيتر أكثر هيماً بجميلته ذات العينين السوداوين، وأصبحت هي أكثر دلالاً، وأكثر تمللاً من ميوله المتطرفة. كان والد روزي قد جاء بها إلى أمريكا من كيشينيف منذ نعومة أظفارها، ولكنها كانت أمريكية حقيقية بنسبة ١٠٠٪، كما قالت له عن نفسها؛ وكان هؤلاء الصبية الذين يرتدون الملابس العسكرية ويكيلون الضربات للهونيين، هم الصبية المقدرين لها، وكانت تنتظر عودة أحدهم. ماذا كان خطب بيتر لكيلا يؤدي دوره؟ هل يتهرب من الخدمة العسكرية؟ لم تكن روزي تحترم الكسالي، ولم تكن ترغب في مرافقة رجل لا يمكنه الدفاع عن نفسه. في ذلك اليوم نفسه، كانت تقرأ في الصحيفة عن الفضائع التي ارتكبتها الهونيون. كيف يمكن لرجل تجري في عروقه دماء حرة أن يتعاطف مع المناهضين للحرب والخونة؟ وإن لم يكن بيتر يتعاطف معهم، لماذا كان يتنقل برفقتهم ويمنحهم دعمه المعنوي؟ عندما أقدم بيتر على محاولة ضعيفة لذكر بعض حجج المناهضين للحرب، كان كل ما قالت روزي هو:

«أوه، محض هراء! أنت أذكي كثيراً من أن تخبرني بمثل هذه الأمور.» لا شك في أن بيتر كان يدرك أنه ذكي للغاية، وكان من الصعب منع روزي عن إدراك ذلك. لقد خسر فتاة منذ فترة قصيرة بسبب علاقاته مع الحُمُر. هل يجب أن يخسر فتاة أخرى؟

ظلا على مدار بضعة أسابيع يتشاجران ويتعاركان. كانت روزي تسمح لبيتر بتقبيلها، وكان رأس بيتر يدور من فرط رغبته فيها. قرر أنها أروع فتاة عرفها في حياته، حتى نيل دولين لم تكن شيئاً مقارنَةً بها. ولكن بعد ذلك، كانت تضغط على بيتر بسبب علاقته بالحُمُر، فكانت ترفضه، وتعزف عن رؤيته مرة أخرى. في نهاية المطاف، اعترف بيتر لها بأنه فَقَدَ تعاطفه مع الحُمُر، وأنها أقنعتَه، وأصبح يحقرهم. فردت روزي بأنها سعيدة، وأنهما سيذهبان على الفور لرؤية ميريام يانكوفيتش، وسيخبرها بيتر بذلك، وسيحاول تحويلها هي أيضاً. وضع ذلك بيتر في مأزق، واضطر إلى أن يصر على أن تبقى روزي أمر تحوله سراً. لكن روزي غضبت، وزمت شفيتها وقالت إن التحول الذي يجب أن يبقى سراً لا يُعد تحولاً من الأساس، بل مجرد خدعة دنيئة، وإن بيتر جادج جبان، وقد مَلَّت منه! فانصرف بيتر المسكين مكسور القلب ومشوش الذهن.

القسم الثاني والسبعون

كانت هناك طريقة واحدة فقط ليتمكن بيتر من الخروج من هذا المأزق، وهي أن يخبر روزي بالحقيقة. ولم لا يفعل ذلك؟ كان يحبها بجنون، وكان يعلم أنها تحبه بجنون، وكان هناك شيء واحد فقط يقف عقبةً في طريق سعادتهما المثالية، سره العظيم. إذا أخبرها بذلك السر العظيم، سيكون بطلاً مغواراً في نظرها، وسيكون أكثر روعة حتى من الرجال الذين يصدون هجوم الألمان على مارن ويكتبون أسماءهم على صفحات التاريخ السرمدية! فلم لا يخبرها؟

كان في غرفتها في إحدى الأمسيات، وكان يحيطها بذراعيه، وكانت قد استسلمت له إلى حدٍ ما، ولكن ليس تماماً. فتوسلت له قائلة: «أرجوك، أرجوك، يا بيتر. تخلّ عن انتمائك لأولئك الحُمُر المريعين!» ولم يستطع بيتر أن يتحمل المزيد، فأخبرها أنه لم يكن ينتمي إلى الحُمُر حقاً، بل عميل سري يعمل لحساب أكبر رجال الأعمال في المدينة الأمريكية لتتبع الحُمُر وإفشال أنشطتهم. وعندما أخبرها بذلك، حدقت روزي في وجهه مشدوهة، ورفضت تصديقه، وعندما أصر على ما قاله، سخرت منه، ثم غضبت في نهاية المطاف. كانت قصة سخيفة، وهل كان يتصور أنه يمكن أن يخدعها بهذه الطريقة؟

لذا بدأ بيتر، منزعجاً، في محاولة إقناعها، فأخبرها بأمر جوفي وشركة الأراضي والاستثمارات في المدينة الأمريكية، وأخبرها بأمر ماكجيفني، وكيف كان يلتقي بماكجيفني بانتظام في الغرفة ٤٢٧ في البيت الأمريكي. كما أخبرها عن الثلاثين دولاراً التي حصل عليها أسبوعياً، وكيف سيزيدها قريباً إلى أربعين، وسينفقها بالكامل عليها. وربما تتظاهر بأنها تحولت بفضلها، وأصبحت تنتمي إلى الحُمُر هي أيضاً، وإذا ما استطاعت إقناع ماكجيفني بصدقها، فقد يدفع لها أجراً هي الأخرى، وسيكون ذلك أفضل بكثير من العمل لعشر ساعات ونصف يومياً في مصنع إيزاك وجولدشتاين لصناديق الكرتون.

أخيراً نجح بيتر في إقناع الفتاة. كانت مستسلمة ومرعوبة، ولم تكن مستعدة لشيء مثل هذا، فقالت إنها تحتاج إلى بعض الوقت للتفكير. ثم بدأ بيتر يشعر بالقلق بدوره. وقال لها إنه يأمل ألا ترفض، وبدأ يشرح لها مدى أهمية عمله، وأنه يؤديه بمباركة من أفضل الناس في المدينة؛ ليس كبار المصرفيين ورجال الأعمال فحسب، بل أيضاً العمدة والمسؤولين الحكوميين ومحرري الصحف ورؤساء الجامعات، وكبار رجال الدين في بارك أفينيو على غرار القس دي ويلوبي ستوتربريدج من كنيسة الرحمة الإلهية. وقالت روزي إن كل ذلك جيد بالطبع، ولكنها كانت تشعر ببعض الخوف وتحتاج إلى التفكير في الأمر. ثم أنهت لقاءهما في تلك الليلة فجأة، وعاد بيتر إلى المنزل وهو مرتبك للغاية.

بعد ساعة أو نحوها، سمع طرقةً قويةً على باب غرفته في المنزل المستأجر، فتوجه نحو الباب، ووجد نفسه وجهًا لوجه مع ديفيد أندروز، المحامي، ودونالد جوردون، وجون دوراند، العامل العملاق ورئيس اتحاد البحارة. لم يقولوا له حتى «كيف حالك»، ودخلوا الغرفة، وأغلق دوراند الباب خلفه، ووقف مولياً ظهره له، وعقد ذراعيه أمام صدره ووقف ينظر إلى بيتر وكأنه تمثال حجري لأحد زعماء الأرتيك. وقبل أن يتفوه أحدهم بكلمة واحدة، أدرك بيتر ما حدث. أدرك أن الأمور انتهت هذه المرة نهائياً، لقد انتهت مسيرته كمنقذ للأمة. ومرة أخرى، حدث كل هذا بسبب امرأة، حدث ذلك لأنه لم يأخذ بنصيحة جوفي بشأن تجاهل النساء!

ولكن طردت جميع الأفكار الأخرى من ذهن بيتر بواسطة إحساس وحيد، الرعب. بدأت أسنانه تصطك وكأنه فأر جبلي غاضب، وأبت ركبته أن تحمله، فجلس على حافة الفراش ينقل بصره بين هذه الوجوه الأرتيكية الحجرية الثلاثة. قال أندروز أخيراً: «حسناً، يا جادج. أنت إذن الجاسوس الذي كنا نبحث عنه كل هذا الوقت!»

تذكر بيتر تعليمات نيل: «أصّر على قصتك، يا بيتر! أصّر عليها!»

«ماذا تعني، يا سيد أندروز؟»

قال أندروز: «توقف عن ذلك، يا جادج. لقد تحدثنا للتو مع روزي، وكانت روزي

جاسوستنا.»

صاح بيتر: «إنها تكذب عليكم!»

لكن أندروز قال: «هراء! لسنا على هذا القدر من السذاجة! كانت ميريام يانكوفيتش

تتنصت من وراء الباب، وسمعت حديثك.»

وهكذا أدرك بيتر حينئذ أن قضيته خاسرة، ولم يتبق شيء سوى تحديد مصيره. هل

جاءوا ليعاتبوه ويخاطبوا ضميره؟ أم أنهم يخططون لأخذه وشنقه وتعذيبه حتى الموت؟

كان هذا الرعب هو الذي يطارد بيتر منذ بداية مسيرته، وعندما تبين تدريجياً أن الأزيكيين الثلاثة لا ينوون عفاً، وأن كل ما يريدون منه هو أن يخبرهم بكم المعلومات التي نقلها إلى أرباب العمل، ضحك بيتر في نفسه، ثم انهار راکعاً وذرّف دموع الخزي الحارقة، وقال إن كل ذلك حدث بسبب تلك الكذبة القاسية التي قالها ماكورميك عنه وعن الصغيرة جيني تود. كان قد صمد أمام الإغراءات طوال عام كامل، ولكنه خسر عمله بعد ذلك، ورفضت لجنة الدفاع عن جوهر إعطائه أي وظيفة، وكان يتضور جوعاً، وهكذا قبل في نهاية المطاف عرض ماكجيفني بأن ينقل له أخبار الأنشطة الثورية للحُمُر المتطرفين. لكنه لم يقل شيئاً عن أي شخص لم يخالف القانون، ولم يخبر ماكجيفني بأي شيء سوى الحقيقة.

ثم واصل أندروز استجوابه. ونفى بيتر نقل أي أخبار تتعلق بقضية جوهر. ونفى بشدة أن له أي علاقة بـ «تلفيق» التهم لماكورميك. وعندما حاولوا ربطه بقضايا أخرى، استجمع كرامته فجأةً وقال إن أندروز لا يملك الحق في استجوابه، فهو أمريكي وطني بنسبة ١٠٠٪، وكان يحاول إنقاذ بلاده وربّه من العملاء الألمان والبلشفيين الخونة.

كاد دونالد جوردون يفقد أعصابه عندما سمع ذلك. وقال: «ما كنت تفعله هو أنك كنت تدس أشياء في كُتبيّاتنا عن رافضي الخدمة العسكرية لكي تجعلنا جميعاً متهمين!» صرخ بيتر: «هذا كذب! لم أفعل قط شيئاً من هذا القبيل!»

«أنت تعلم تمام العلم أنك محوت تلك العلامات بالقلم الرصاص التي رسمتها فوق تلك الجملة في الكتيب.»

صرخ بيتر، مراراً وتكراراً: «لم أفعل ذلك مطلقاً!»

وفجأةً، ضم جون دوراند الضخم قبضتيه، واكفهر وجهه بغضب مكبوت. وقال هامساً: «أنت جبان وضعيف! ما يجدر بنا أن نفعله بك هو أن نقتلع لسانك الكاذب من فمك!» ثم تقدم خطوة كما لو كان ينوي حقاً أن يفعل ذلك.

ولكن ديفيد أندروز حال تدخل. فقد كان محامياً، وكان يعرف الفرق بين ما يمكن أن يفعله وما يمكن لرجال جوفي أن يفعلوه. قال أندروز: «لا، لا، يا جون. لن نفعل شيئاً من هذا القبيل. أظن أننا حصلنا على كل ما يمكننا الحصول عليه من هذا الرجل. سنتركه لضميره وربّه وعصبيه القومية. هيا، يا دونالد.» وجذب الصبي ذا الوجه الأبيض الذي ينتمي إلى جماعة الأصدقاء بيد، والعامل العملاق باليد الأخرى، وأخرجهما من الغرفة، وسمع بيتر خطاهم وهم يهبطون درجات منزله، فرقد على فراشه ودفن وجهه بين الوسائد، وشعر بتعاسة شديدة؛ لأنه تعرض للخداع مجدداً، وكالعادة كانت امرأة هي من فعل ذلك.

القسم الثالث والسبعون

تمكن بيتر من رؤية كل شيء بوضوح عندما أمعن التفكير في الأمر، ورأى أنه كان في غاية الغباء. كان يجدر به أن يعرف أنه كان يتعين عليه أن يكون حذرًا في ذلك الوقت تحديدًا بعدما أصبح موضعًا للشكوك في أنه من محاميات القلم الرصاص التي وضعها دونالد جوردون. كانوا قد اختاروا فتاة لم يرها بيتر من قبل، كانت قد جاءت وادعت أنها صديقة لمiriam، وبدأت في جر بيتر من أنفه وقادته إلى حافة الهاوية ثم دفعته في داخلها. لا شك في أنها تسخر منه حاليًا وتحكي لجميع أصدقائها عن انتصارها، وعن الثلاثين دولارًا أسبوعيًا التي لن يراها بيتر مجددًا.

قضى بيتر جزءًا كبيرًا من الليل في تأليف القصة التي سيقصها على ماكجيفني في صباح اليوم التالي. لن يذكُر شيئًا عن روزي ستيرن، بالطبع؛ سيقول إن الحُمر تعقبوه حتى وصل إلى الغرفة ٤٢٧، ولا بد من أن جاسوسًا يعمل لصالحهم في مكتب جوفي. ظل بيتر يكرر على نفسه هذه القصة واجمًا، وأدرك متأخرًا هذه المرة أيضًا أنه جعل من نفسه أحمقًا. لم تكد تضي أربع وعشرين ساعة حتى كان جميع الحُمر في المدينة الأمريكية يعرفون التاريخ السري الحقيقي لكشف بيتر جادج جاسوس شركة تراكشن تراست. احتلت القصة صفتين كاملتين في عدد هذا الأسبوع من جريدة «كلاريون»، وتضمنت القصة صورة لبيتر، وتفصيل الدور الذي لعبه في العديد من التُّهم الملققة. كانت القصة في مجملها صحيحة، ولم يستفد بيتر من حقيقة أنها كانت تخمينًا من جانب دونالد جوردون. وبالطبع، قرأ ماكجيفني وجوفي وجميع رجالهما القصة، وعرفوا حقيقة غباء بيتر التي كان بيتر يعرفها عن نفسه.

قال له ماكجيفني: «أنت لا تصلح إلا للعمل بمعول ومجرفة.» وانصرف بيتر حزينًا. لم يكن يملك في جيبه إلا بضعة دولارات لم تدم في مكانها طويلًا، ولم يكن يملك إلا النكلة

الأخيرة، وأصبح يواجه ذئب الجوع مجددًا، عندما دخل ماكجيفني غرفته المستأجرة حاملاً عرضاً جديداً. كانت ثمة مهمة واحدة متبقية، وقد يحصل عليها بيتر إذا كان يظن أنه قادر على تحمل تبعاتها.

كانت مهمة شاهد ملك. كان بيتر قد تعرف على حركة الحُمر كاملةً، كان يعرف جميع أولئك المناهضين للحرب، والاشتراكيين، والنقابيين، وأعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي الذين أصبحوا سجناء حالياً. في بعض الحالات، كانت الأدلة التي تملكها الحكومة غير كافية؛ لذا قد يحصل بيتر على راتبه مرة أخرى إذا كان مستعداً للجلوس على منصة الشهود وقول ما يُملئ عليه، وإذا تمكن من الجلوس في قاعة المحكمة دون أن يقع في حب إحدى النساء من هيئة المحلفين، أو إحدى جاسوسات الدفاع. لم تؤثر تلك التعليقات الساخرة اللاذعة في بيتر لأنه كان خائفاً للغاية من العرض الذي قدمه له ماكجيفني. أن يخرج إلى العلن ويواجه الوهج الساطع لكراهية الحُمر! أن يضع نفسه، وهو مجرد نملة، بين قبضات العمالقة المتصارعين الهائلة!

قال ماكجيفني إن هذا الأمر قد يبدو خطيراً حقاً في نظر جبان رعديد مثله، ولكن كثير من الرجال امتلكوا ما يكفي من الجرأة لفعله، وما زالوا على قيد الحياة. لم يزعم ماكجيفني نفسه أنه يهتم كثيراً بما إذا كان بيتر سيؤدي المهمة أم لا، فقد قدم له العرض بناءً على أوامر من جوفي. تلك المهمة أجرها أربعين دولاراً في الأسبوع، ويمكنه أن يقبلها أو يرفضها.

جلس بيتر في مكانه، ولم يكن في جيبه سوى خمسة سنتات وبضعة بنسات، وكان قد تأخر عن سداد إيجار غرفته لأسبوعين، ومالكة المنزل تنتظره في الردهة مثل هندي أحمر يحمل فأسه. اعترض بيتر ذاكراً كل تلك الأمور السيئة في سجل حياته القديمة، بيريكليس بريام ومعبد جيمجامبو، وهي الأمور التي كانت قد أفسدت ظهوره كشاهد في قضية جوبر. أجاب ماكجيفني بجفاف أنه لن يستخدم هذا كعذر للاستسلام؛ سيُستدعى بيتر للشهادة باعتباره «عضواً مُقوِّماً في اتحاد العمال الصناعيين العالمي»، وكلما زاد عدد الجرائم في سجله، زادت قناعة هيئة المحلفين بأنه كان «عضواً حقيقياً في اتحاد العمال الصناعيين العالمي».

سأله بيتر، متى من المتوقع ظهوره؟ وأجاب ماكجيفني، الأسبوع القادم. كانوا يحاكمون سبعة عشر فرداً من «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» بتهمة المؤامرة، والمطلوب من بيتر أن يجلس على منصة الشهود ويروي ما سمعه منهم من دعوات للعنف،

وتفاخر بإضرام النيران في الحظائر وحقول القمح، ووضع قنابل الفوسفور في أكوام القش، ومسامير نحاسية في أشجار الفاكهة، وأوتاد في الأخشاب المعدة للنشر، ومسحوق الصنفرة في بطانات المحركات. لا داعي لأن يقلق بيتر بشأن ما سيقوله، فسيخبره ماكجيفني بكل شيء، وسيؤكد من إطلاعه على كل شيء، وسيجد نفسه قد نُصّب بطلاً في الصحف التي ستوضح أنه فعل كل هذا من منطلق دوافعه الوطنية الأمريكية بنسبة ١٠٠٪، وأن الخدمة التي أداها للبلاد لا تقل خطورة عن خدمة الجنود المشاركين في الحرب.

بدا لبيتر أنهم قد يقولون ذلك دون أن تؤنبهم ضمائرهم. ولكن واصل ماكجيفني القول إنه لا يجب أن يخاف، فلم يكن في نية جوفي أن يمنح الحُمر فرصة إخراج شاهده الرئيسي من الصورة. سيوضع بيتر في مكان آمن، وسيرافقه حارس شخصي طوال الوقت. وأثناء وجوده في المدينة للإدلاء بشهادته، سيكون محل إقامته فندق هوتيل دي سوتو. كان هذا ما حسم الأمر بلا شك. فقد كان بيتر المسكين جالساً ولا يملك إلا نكلة واحدة وبنسين في جيبه، ثم وُضعت أمامه عربة من النار تجرها خيول سحرية، وكان كل ما عليه فعله هو ركوبها، ومن ثم سَيُنقَل إلى جبل الأوليمب. وركبها بيتر!

القسم الرابع والسبعون

اصطحب ماكجيفني بيتر إلى مكتب جوفي، ولم يضع جوفي وقتاً في المقدمات، بل استدار نحو مكتبه، وأخرج وثيقةً طويلةً مطبوعةً بالآلة الكاتبة عبارة عن تقرير كامل عما يحاول الادعاء إثباته على أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي السبعة عشرة. أولاً، قص بيتر ما رآه وسمعه بنفسه، لم يكن قد سمع الكثير، ولكنه كان بدايةً جيدة، حاملاً لتعليق قصته عليه. كانت قاعة اتحاد العمال الصناعيين العالمي مكاناً لاجتماع العمال المؤقتين والمشردين من جميع أنحاء البلاد، «العمال الجائئين» الذين تعرضوا لأقوى الضربات من العالم، والذين ردوا الصاع صاعين في بعض الأحيان. لم يكن هناك ظلم لم يتعرض له هؤلاء الرجال، وكانوا يردون الضربة بمثلتها في بعض الأحيان. كما كان هناك ثنائون بينهم، أولئك الذين يعبرون عن مشاعرهم بتهديد أعدائهم بالانتقام. وكان يندس بينهم من وقتٍ لآخر مجرم حقيقي، ومن وقتٍ لآخر محرض مأجور، مثل بيتر جادج أو جو أنجيل. قص بيتر أسوأ ما سمع، وكل ما يعرفه عن الرجال المعتقلين، وكتب جوفي كل كلمة قالها، ثم بدأ عمله وفقاً لتلك الكلمات. ثمة رجل يُدعى ألف جينيس تشاجر مع مزارع في مقاطعة ويتلاند، وأُحرقت حظيرة بالقرب من مكانه، وسيرسل جوفي سيارة وبعض المحققين مع بيتر، وسيزورون موقع الحريق والقرية المجاورة، وسيتعرفون على المنطقة، وسيشهد بيتر أنه كان مع جينيس عندما أُضرم هو ونصف دُرّينة من المدعى عليهم النار في تلك الحظيرة.

لم يكن بيتر ينوي المشاركة في أمر خطير لهذا الحد، ولكن جوفي كان جاداً للغاية، وتعامل مع الأمور وكأنها طبيعية لدرجة أن بيتر خشي أن يظهر بمظهر الجبان. ففي نهاية المطاف، كان هذا زمن حرب، وكان مئات من الرجال يضحون بحياتهم كل يوم في غابة أرجون، فلم لا يخاطر بيتر قليلاً ليبحث أعداء بلاده الأخطر من جذورهم؟

وهكذا انطلق بيتر واثنان من المحققين في رحلة ممتعة عبر الريف. ثم أُعيد بيتر وأُعدت له إقامة مريحة في غرفة في الطابق الثاني عشر من فندق هوتيل دي سوتو، حيث كرس وقته كاملاً لدراسة الوثائق المطبوعة بالآلة الكاتبة التي جلبها له ماكجيفني، وحفظ القصة التي سيرويها عن ظهر قلب. كان أحد رجال جوفي يتجول باستمرار جيئةً وذهاباً في المر خارج الغرفة رابطاً مسدسه على فخذه؛ كانوا يُحضرون لبيتر ثلاث وجبات كل يوم، فضلاً عن زجاجة بيرة وعلبة سجائر. وكان بيتر يقرأ في الصحف عن الأفعال البطولية لأبنائنا المشاركين في الحرب مرتين يومياً، وكان يقرأ أيضاً عن أحدث مخططات التفجير التي تُكتشف في جميع أنحاء البلاد، وعن المحاكمات المختلفة بموجب قانون التجسس.

كان بيتر يشعر بالحماسة عندما يقرأ خبراً عن نفسه في جريدة حقيقية. حتى الآن، لم يكن قد ذُكر اسمه إلا في الصحف العمالية، والصحف الاشتراكية مثل «كلاريون»، التي لا تُحتسب، ولكن نشرت جريدة «تايمز» المدينة الأمريكية قصة طويلة عن كيفية «زرع» مكتب المدعي العام لعميل سري داخل اتحاد العمال الصناعيين العالمي، وكيف ظل هذا الرجل، الذي يُدعى بيتر جادج، يعمل كواحد منهم طوال السنتين الماضيتين، وأنه سيكشف قصة اتحاد العمال الصناعيين العالمي المخزية كاملةً على منصة الشهود.

قبل يومين من المحاكمة، اصطحب ماكجيفني ومحقق آخر بيتر إلى مكتب المدعي العام، وأمضى القسم الأكبر من اليوم في اجتماع مع السيد بورشارد ونائبه، السيد ستانارد، اللذين سينظران القضية. أخبر ماكجيفني بيتر أن المدعي العام ليس ضالِعاً في عملهما السري، وأنه يعتقد حقاً أن قصة بيتر حقيقية بالكامل، ولكن بيتر تشكك في أن ما أخبره به كان تمويهاً لحفظ ماء وجه السيد بورشارد، ولحمايته في حال حاول بيتر «إسقاطه». لاحظ بيتر أنه كلما ترك فجوةً في قصته، كان المدعي العام والنائب يطلبان منه أن يملأها، وكان يتمكن من تخمين ما يجب ملؤها به.

كانت أصول هنري كلاي بورشارد تعود إلى أقصى جنوب البلاد، وكان يستخدم أسلوب الخطابة الذي عفا عليه الزمن منذ فترة طويلة. كان يطيل شعره الأسود الثقيل قليلاً، وعندما يصعد إلى المنصة، كان يطلب من الحضور إيقاف الضوضاء، ويمد يديه ويقول بنبرة عاطفية متهدجة: «النساء، بارك الله فيهن!» وكان يقول أيضاً: «أنا صديق للإنسان العادي. ينبض قلبي بالتعاطف مع أولئك الذين يشكلون العمود الفقري الحقيقي لأمريكا، عمال المتاجر والمزارع.» ثم كان جميع الحاضرين في غرفة التجارة وجمعية التجار والصُناع يصفقون، ويرسلون شيكاتهم إلى صندوق الحملة الانتخابية لصديق البسطاء

هذا. كان نائب السيد بورشارد، السيد ستانارد، ثعلبًا قانونيًا يخبر رئيسه بما عليه أن يفعل وكيف يفعله، وكان رجلًا ضئيل الحجم نحيلًا يبدو كدودة كتب، وكان يجلس مثبتًا عينيه الحادثتين عليك لتسيرا أغوارك وتراقبنا نقاط ضعفك مع الاستعداد لطعنك بواحد من سيوفه القانونية. فيما عدا ذلك، كان رجلًا ودودًا قد يمازحك خلال راحة الظهر، على افتراض أنك ستفهم أن كل ما يفعله من لوازم عمله، ولم يقصد به أن يتسبب في أي أضرار.

القسم الخامس والسبعون

استمع الرجلان إلى قصة بيتر وعدلاها قليلاً، ثم استمعا لها مرة أخرى وأعلنا أنها أصبحت على ما يرام، وعاد بيتر إلى غرفته في الفندق وانتظر في قلق لحظة ظهوره. عندما اصطحب إلى المحكمة كانت ركباته ترتجفان، ولكنه شعر في الوقت نفسه بحماسة كونه شخصاً مهماً حقاً، فقد كانوا قد زدوه بحراسةٍ شخصيةٍ من أربعة رجال أقوياء، كما رأى اثنين من «الثيران» لاحظهما في المر خارج قاعة المحكمة، بالإضافة إلى ثيران آخرين كثيرين موزعين بين الحضور. كان المكان مكتظاً بالمتعاطفين مع الحُمر، الذين فُتِّشوا جميعهم قبل السماح لهم بالدخول، وكانوا يُراقبون عن كثب طوال الوقت أثناء المحاكمة.

عندما صعد بيتر إلى منصة الشهود، شعر بما شعر به توم دوجان ودونالد جوردون في تلك الليلة عندما كان الوهج الأبيض لثلاثين أو أربعين سيارة موجه نحوهما. شعر بيتر بكراهية الحُمر المركزة الصادرة من مائتين أو ثلاثمائة متفرج، وكانت قيود الغضب المكبوت تنكسر بين فينة وأخرى، فيصدر تدمر احتجاج، أو موجة من الضحك الساخر، ثم كان حاجب المحكمة يضرب سطح المنضدة بمطرقة الخشبية، وينهض القاضي بنصف انحناء ويقول إنه إذا حدث ذلك مجدداً، فسيأمر بإخلاء قاعة المحكمة.

على مسافة غير بعيدة أمام بيتر، كان السبعة عشرة متهمًا جالسين إلى طاولة طويلة، وكانوا يبدوون كفتران محاصرة، وكانت كلُّ من الأربع والثلاثين عين فأر مثبتة على وجه بيتر، ولم تُشَح عنه ولو للحظة. نظر بيتر في ذلك الاتجاه مرة واحدة فقط، فأظهروا أسنانهم الشبيهة بأسنان الفئران، فأشاح بنظره سريعاً نحو اتجاه آخر. ولكنه رأى في ذلك الاتجاه أيضاً وجهاً أرَّقه، فهناك كانت تجلس السيدة جود، مرتديةً ملابسها الشيفونية البيضاء الناصعة، وعيناها الزرقاوان الجاحظتان مثبتتان على وجهه، وكان وجهها مغمماً بالحزن والعتاب. كانت تبدو وكأنها تقول له: «سيد جادج! كيف جرؤت على ذلك؟ سيد

جادج، هل هذا هو شعار السلام ... العدل ... الحقيقة ... القانون؟» وأدرك بيتر متأماً أنه قد عزل نفسه إلى الأبد عن جبل الأوليمب، وعن كرسي الشرفة ذي الوسائد الحريرية الناعمة! أشاح بنظره نحو المنصة التي كان يجلس عليها أعضاء هيئة المحلفين الاثنا عشر. ابتسمت له عجوزٌ ابتسامَةً حنونة، ومنحه مزارعُ شابٍّ غمزةً خفية، فأدرك بيتر أن له أصدقاء في ذلك الاتجاه، وهم، في نهاية المطاف، أصحاب السلطة الفعليون في هذه المحاكمة. كانت السيدة جود عاجزة مثل أي من «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» في حضرة هيئة المحكمة الموقرة هذه.

سرد بيتر قصته، ثم بدأ الاستجواب، ومَن أبرع من ديفيد أندروز، ذلك الرجل اللبِق المرح الفتاك، في أداء هذه المهمة. لطالما كان بيتر يخاف من أندروز، فجفل في هذه اللحظة. لم يخبره أحد أنه سيواجه محنةً مثل هذه! لم يخبره أحد أنه سيُسَمَح لأندروز بالتحقيق معه بشأن تفاصيل الجرائم التي قال إنه شهدها، وجميع الحوارات التي حدثت، ومن كان حاضرًا، وماذا قيل أيضًا، وسبب حضوره هذه الحوارات، وماذا فعل بعد ذلك، وماذا أكل على الإفطار ذاك الصباح. أمران فقط أنقذا بيتر، الأول، الاعتراضات المستمرة التي كان ستانارد يقدمها لمنح بيتر وقتًا كافيًا للتفكير، والثاني، الملجأ الذي قدمه له ستانارد مسبقًا. فقد قال له نائب المدعي العام: «يمكنك دائمًا أن تقول إنك لا تتذكر، ولا يمكن لأحد أن يعاقبك على نسيان شيء ما.» وهكذا، كان بيتر يذكر تفاصيل دقيقة من محادثة قال ألف جينيس خلالها إنه أحرق الحظيرة، ولكنه لا يتذكر إذا كان أحدٌ آخر قد سمع المحادثة، ولا يتذكر ماذا قيل غير ذلك، ولا يتذكر تاريخ المحادثة.

ثم جاءت ساعة استراحة الظهر المباركة التي وفّرت فرصةً لبيتر للاستعداد مجددًا قبل استئناف أعمال المحاكمة في الساعة الثانية. تعرض للاستجواب مرة أخرى من قبل ستانارد الذي أغلق جميع الثغرات في شهادته، وعاد ليُدعي عدم تذكر بعض الأمور مرة أخرى، الأمر الذي جنبه الوقوع في الفخاخ التي نصبها له أندروز. قيل له إنه «أدى بشكل جيد»، واصطُحِب مجددًا إلى فندق هوتيل دي سوتو مزهواً بالنصر، وبقي هناك لمدة أسبوع بينما كان الدفاع يحاول دون جدوى الرد على شهادته. قرأ بيتر في الصحف الخطب الطويلة التي ألقاها المدعي العام ونائبه اللذان أشادا به بوصفه وطني يحمي بلاده من «أعدائها الداخليين»؛ كما قرأ إشارةً قصيرةً إلى «السباب» الذي قاله ديفيد أندروز، فقد وصفه بأنه «واشي» و«يهودا الخائن». لم يكن بيتر يهتم بذلك بالطبع، فقد كان كل ذلك جزءًا من اللعبة، والسباب دلالة أكيدة على العجز.

ولكن ما كان من الصعب تقبله بهدوء كان شيئاً وصل إلى بيتر في اليوم نفسه؛ رسالة من السيدة جود! لم تكن موجهة له، ولكنه رأى هاميت وأحد «الثيران» يضحكان معاً، وسألهما عما يضحكان، فأخبراه أن السيدة جود كشفت أمر جوفي بطريقة ما، وأرسلت له رسالة مليئة بالإمانات، وأن جوفي استشاط غضباً. سألهما بيتر عما ورد فيها، فأخبراه، وأحضرها له ليقرأها في وقت لاحق بعد إلحاح منه، واستشاط بيتر غضباً هو الآخر. على ورقة خطابات فاخرة مع شعار رسمي عند قمته، كتبت أم جبل الأوليمب بخط كبير ورقيق وأنيق رأيها في الرجال «الذين يعملون متخفين» وأولئك الذين يكلفونهم بتلك المهام: «إنك تجلس كعنكبوت كبير تنسج شبكةً لصيد الرجال وتدميرهم. فتدمر ضحاياك ومستخدميك على حدٍ سواء. ذلك الصبي المسكين، بيتر جادج، الذي أرسلته إلى منزلي - لا يزال قلبي ينزف دماً عندما أتذكره، وأتذكر العبء الذي ألقيته على كاهله! ما هو إلا ضحية بائسة ضعيفة العقل للجشع، ويجب أن يُرسل إلى مستشفى للأرواح المشوهة، لقد أخذته ولقنته كلمات شريرة لينطق بها حتى تتمكن من زج مجموعة من المثاليين الحقيقيين في السجن.»

اكتفى بيتر بقراءة هذه الكلمات! ووضع الرسالة جانباً، فهو لن يُشرف مثل هذه الأشياء بقراءتها. أدرك أنه يجدر به إمعان التفكير في مشكلة السيدة جود مجدداً. فامرأة واحدة على شاكلتها، في مثل موقعها من السلطة، أخطر من جميع «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» السبعة عشر الذين يُحاكمون. سأل بيتر عن الأمر، وعلم أن جوفي ذهب بالفعل لرؤية نيلس أكيroman بشأنها، وأن السيد أكيroman قد ذهب لمقابلة السيد جود، وأن السيد جود قد ذهب للقاء السيدة جود. كما نشرت جريدة «التايمز» مقالاً يتحدث عن «عش البلشفية» على جبل الأوليمب، وكان جميع أصدقاء السيدة جود يبتعدون عن حفلات الغداء التي تنظمها، وهكذا كانت تعاني بسبب وقاحتها مع بيتر جادج! إنها «مستشفى للأرواح المشوهة» بلا شك! كان بيتر منزعجاً لدرجة أنه لم يستعد فرحته في الحياة حتى بعد أن وصله خبر أن هيئة المحلفين وجدت المدعى عليهم مذنبين في التصويت الأول. قال لماكجيفني إن ضغوط هذه المحاكمة أكثر مما تتحملة أعصابه، وإنهم يجب أن يعتنوا به، فأعدوا له سيارة نقلته إلى مكان سري في الريف ليتعافى.

ذهب هاميت معه، وكان هاميت بارعاً في استخدام السلاح، وكان بيتر يلازمه طوال الوقت، وكان يقضي المساء في الطابق الثاني من المزرعة كل يوم خشية أن يأخذ أحد «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» شهادة بيتر حول اعتيادهم على إطلاق النار على

أعدائهم تحت جناح الظلام حرفياً. كان بيتر يعرف مدى كراهيتهم له، وقرأ في الجريدة أن القاضي استدعى المذنبين أمامه وأصدر حكمه عليهم، واضطروا إلى الاستماع إلى خطاب قاسٍ منه، نُشر بالكامل في صحيفة «التايمز». كان القانون ينص على عقوبة تتراوح ما بين سنة واحدة وأربع عشرة سنة، وحكم القاضي على ستة عشر منهم بأربع عشرة سنة، وحكم على واحد بعشر سنوات، عملاً بمبدأ مزج العدل بالرفأفة.

ثم في أحد الأيام، أرسل ماكجيفني سيارة، ونُقِل بيتر إلى مكتب جوفي الذي كشف عن الخطة الجديدة التي سيكلف بها. كانوا قد اعتقلوا مجموعة أخرى من «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» في مدينة إلدورادو المجاورة، وكان بيتر مطلوباً هناك لتكرار شهادته. فقد تصادف أنه كان يعرف أحد المتهمين، وسيكون هذا كافياً للاستعانة بشهادته وقصصه الثمينة عن حرق الحظائر والقنابل الفسفورية. وسيتم الاعتناء به بنفس القدر من قبل مكتب المدعي العام لمقاطعة إلدورادو، وربما أكثر، سيرسل جوفي رسالة إلى صديقه ستيف إلمان، الذي كان يعمل متحريراً لصالح «جمعية البيت والمدفأة»، وهي المؤسسة التجارية الأكبر في تلك المدينة.

أرغى بيتر وأزبد. كانت هذه النوعية من العمل صعبة وخطرة للغاية، فهي تضغط بشدة على أعصاب المرء وتجبره على الجلوس في غرفة الفندق طوال اليوم دون أن يفعل شيئاً سوى تدخين السجائر وتخيل «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» يلقون القنابل عليه. كما أنه عمل لن يدوم طويلاً، ويجب أن يكون أجره أكبر. أجب جوفي بأنه لا داعي لأن يقلق بيتر حيال استمرار وظيفته، فإذا وافق على الإدلاء بهذه الشهادة، سيطوف البلاد من أقصاها إلى أقصاها في رحلة ممتعة، وسينعم بخيرات الحياة أينما ذهب، وستمجده الصحف باعتباره بطلاً.

ولكن بيتر ظل يرغى ويزبد. كان قد عرف من جريدة «تايمز» المدينة الأمريكية مدى أهميته كشاهد، فجازف بطلب زيادة في الأجر من جوفي المخيف، وأصر عليه على الرغم من عبوس جوفي، وكان النتيجة أن جوفي قال، حسناً، إذا وافق بيتر على القيام بالرحلة فسيحصل على خمسة وسبعين دولاراً في الأسبوع بالإضافة إلى النفقات، وسيضمن جوفي أن يحصل على هذا الأجر لمدة لا تقل عن ستة أشهر.

القسم السادس والسبعون

وهكذا، ذهب بيتر إلى إلدورادو، وساعد في زج أحد عشر رجلاً في السجن لفترات تتراوح بين ثلاثة إلى أربعة عشر عامًا. ثم ذهب إلى فلاجلاند، وأدى بشهاداته في ثلاثة محاكمات مختلفة، وأضاف سبعة ضحايا آخرين إلى قائمة ضحاياه. بحلول هذا الوقت، أدرك أن أسوأ ما يمكن أن يفعله الحُمر هو أن يعبسوا في وجهه ويظهروا له أسنانهم الشبيهة بأسنان الفئران الواقعة في الفخ. كما تعلم أن يأخذ مهنته ببساطة أكبر، وكان في بعض الأحيان يجازف بالخروج لقضاء أمسيات ممتعة من دون حراسه. وأثناء اختبائه في الريف، كان يخرج في نزعات طويلة بغض النظر عن آلاف الحُمر المتعطشين لدمه الذين قد يلتقيهم في طريقه.

وبينما كان بيتر يدلي بشهادته في فلاجلاند وصلت أخبار رائعة من أوروبا، وجنود المدينة فرحًا. وخرج الجميع، أطفال وعجائز، إلى الشوارع ورفعوا الأعلام، وطرقوا العلب المعدنية، وهتفوا من أجل السلام مع النصر. وعندما عرفوا أن الصحف كانت قد خدعتهم، انتظروا ثلاثة أيام، ثم خرجوا وكرروا الأمر نفسه مرة أخرى. شعر بيتر بالقليل من القلق في البداية، فقد كان يخشى من أن إحلال السلام قد ينهي وظيفته في إنقاذ البلاد، ثم أدرك أنه لا داعي للقلق، فالهجوم على الحُمر كان مستمرًا.

حدثت بعض الغارات على الاشتراكيين بينما كان بيتر في فلاجلاند، وأخبره المحققون أنه قد يأتي معهم من أجل المتعة. فتسلح بيتر بعضا سوداء ومسدس، وساعد في اقتحام مقر الاشتراكيين. لقد انتهت الحرب، ولكن بيتر شعر بأنه لا يزال رجلاً عسكرياً وكأن الحرب لا تزال مستمرة، وعندما حاصر منسقاً يهودياً ضئيلاً للحزب المحلي في ركن خلف مكتبه وبدأ يضربه على رأسه، أدرك بيتر ما كان يشعر به أبناؤنا في غابة أرجون. وعندما

اكتشف الإثارة النابعة من تحطيم مفاتيح الآلات الكاتبة بحذائه، أدرك ما كان يشعر به الهونيون.

انضمت إلى المحققين مجموعة من الشباب الجامعيين الذين استمتعوا بذلك النوع من الأمور بسعادة غامرة. وعندما فارت الدماء في رءوسهم، قرروا أنهم قد يقضون على حركة الحُمُر عن بكرة أبيها، فأغاروا على مكان يُدعى «المكتبة الدولية»، وكان يديرها رجل من هاواي. تفادى المالك الهجوم واختبأ في مطبخ مطعم صيني مجاور، وارتدى مئزرًا، ولكن لم يرَ أحد من قبل صينيًا بشارب أسود، فهاجموه وكسروا عدة مقالي صينية فوق رأسه. ثم أخذوا محتويات «المكتبة الدولية» إلى الفناء الخلفي وأضرموا النار فيها، وأمسك المحققون والشباب الجامعيون أيدي بعضهم بعضًا وبدعوا يرقصون حول النار محاكين رقصة الهولا هولا الهاوايية.

وهكذا عاش بيتر حياةً سعيدةً لعدة أشهر. ربما لم تثمر واحدة أو اثنتان من رحلاته شيئًا لأن قاضيًا عنيدًا رفض الاعتراف بأن أي شيء مما قاله أو فعله أي من أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي في أي وقت خلال السنوات العشر الماضية لا يُعتد به كشهادة تصلح للإدلاء بها لإقناع المحكمة بإدانة أي من أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي. ولكن كان أغلب القضاة مستعدين للتعاون مع كبار رجال الأعمال بهدف القضاء على خطر الحُمُر، وتخطى إجمالي ضحايا بيتر المائة قبل أن تنتهي الفترة المتفق عليها، ثم أرسل إليه جوفي الشيك الأخير وأطلق سراحه.

كان ذلك في مدينة ريتشبورث، وكان يضع في جيب سترته الداخلي أكثر من ألف دولار ادخرها، وشعر بأنه يستحق الاستمتاع بوقته. خرج ليتنزه في الطريق الأبيض المبهج في المدينة، وأمام إحدى دور السينما ابتسمت له فتاة ذات شعر ذهبي. كان ذلك خلال حقبة البيرة التي كانت نسبة الكحول فيها ثلاثة أرباع، فدعا بيتر الفتاة إلى كأس في إحدى الحانات، وعندما فتح عينيه مرة أخرى كان الظلام قد حل، وكان يعاني من صداع شديد، وبدأ يتحسس المكان من حوله واكتشف أنه يرقد في ركن مظلمة من أحد الأزقة. انتابه الرعب، ووضع يده على الجيب الداخلي حيث توجد محفظته، ولم تلمس يده إلا الفراغ. لقد فُتِكَ ببيتر مرة أخرى، وكالعادة كانت امرأة هي من فعل ذلك!

توجه بيتر إلى قسم الشرطة، لكنهم لم يجدوا المرأة أبدًا، وحتى إن وجدوها، لتقاسموا المال معها وليس مع بيتر. بدأ بيتر يتوسل إلى الرقيب في المكتب، ونجح في إقناع الرقيب بأنه كان جزءًا من آلية الدفاع عن البلاد، ووافق الرقيب على إرسال رسالة من عشر كلمات إلى جوفي. جلس بيتر ممسكًا بقلم رصاص وورقة، فيما يريد قوله، وتمكن من صياغته

في عشر كلمات، جاءت على النحو الآتي: «امرأة أخرى أفلسنتني أريد عملاً كالسابق ادفع رسوم هذه البرقية.» ويبدو أن جوفي جلس هو الآخر ممسكاً بقلم رصاص وورقة وحسب عدد الكلمات أيضاً؛ لأن الرد جاء في عشر كلمات، على النحو الآتي: «أيها الأحمق راسلتُ الأمين العام لغرفة التجارة سيجهد لك تذكرة.»

وهكذا ذهب بيتر من فوره إلى مقر غرفة التجارة الفخم، وأرسل الأمين العام رجل الأعمال الشاب النشيط الكُفء حاجبه ليشتري لبيتر تذكرةً ويضعه على متن القطار. في الأوقات العصيبة مثلما مرَّ به الآن، أدرك بيتر ما يعنيه أن تملك دعم منظمة عظيمة وقوية، مع مقرات فخمة وأموال جاهزة من أجل جميع الحالات الطارئة، حتى وإن أُخطروا عبر التلغراف. فقطع على نفسه تعهدًا جديدًا بالعفة والاستقامة، حتى يحافظ على بقاء قوى القانون والنظام هذه إلى جانبه.

القسم السابع والسبعون

تعرض بيتر لتوبيخ شديد، وكُفِّ بالعمل في «وظيفة مكتبية» براتبه القديم الذي يُقدَّر بعشرين دولارًا في الأسبوع. كانت مهامه تشمل التشاور مع العديد من «عملاء» جوفي ليخبرهم بكل ما يعرفه عن أعضاء حركة الحُمُر أو منظماتها. كما كان يستخدم معرفته المؤكدة بالشخصيات والمعتقدات والتحركات للمساعدة في تليفيق الشهادات، والمساعدة في نصب الفخاخ للمعرضين المتحمسين أكثر من اللازم. لم يعد بإمكانه التظاهر بأنه تابع للحُمُر، ولكن في بعض الأحيان كانت ثمة حالات يمكنه خلالها عمل تحريات من دون أن الكشف عن هويته؛ على سبيل المثال، عند الاشتباه في حصول أحد المحلفين على رشوة، أو التحقيق في صلاحية أعضاء اللجان.

توقف نشاط اتحاد العمال الصناعيين العالمي بالكامل في المدينة الأمريكية، لكن لم يتوقف نشاط الاشتراكيين على الرغم من المحاكمات والإدانات. وكان ثمة خطر جديد يلوح في الأفق؛ كان الجنود يعودون من الحرب، وكان كثيرون منهم ناقمين وعازمين على تقديم شكاوى تتعلق بأساليب التعامل معهم في الجيش، وبنقص الوظائف الجيدة في الوطن، وحتى بمعاهدة السلام التي كان الرئيس يجري محادثات تتعلق بشأنها في باريس. لقد قاتلوا من أجل تجهيز العالم للديمقراطية، ولكنهم، على حد قولهم، عادوا ليجدوا الوطن أصبح جاهزًا للاستغلايين. كان هذا يُعد بلشفية صريحة، وفي أخطر صورها، فهؤلاء الرجال تعلموا كيفية استخدام البنادق، ولم يكن من المتوقع أن يصبحوا متحيزين للسلام فجأة.

كانت الحرب قد تسببت في نقص كبير في العمالة، وكانت بعض النقابات الأقوى قد استغلت الارتفاع العام في الأسعار ذريعة للمطالبة بأجور أعلى. الأمر الذي أثار، بالطبع، غضب أعضاء غرفة التجارة وجمعية التجار والصُّناع، ولكنهم رأوا في هؤلاء

الجنود العائدين فرصةً لتحطيم الإضرابات وكسر شوكة المنظمات العمالية. فبدءوا في تنظيم صفوف الجنود لهذا الغرض، وساهمت غرفة التجارة في المدينة الأمريكية بخمسة وعشرين ألف دولار لتأثيث صالات أندية من أجل إقامتهم، وعندما أُضرب سائقو الترام عن العمل، قادها جنود عائدون يرتدون الزي العسكري.

اعترض أحد المحاربين القدامى، يدعى سيدني، على هذا البرنامج. وكان مسئولاً عن نشر جريدة تُسمى «صديق المحاربين القدامى»، وبدأ في استخدام الجريدة للاحتجاج على أفعال رفاقه الذين جعلتهم تصرفاتهم في نظره «خونة». أرسل أمين سر جمعية التجار والصُّناع في طلبه وحاول إقناعه صراحةً بالعدول عما يفعل، ولكنه استمر في حملته، وترتب على ذلك تكليف مكتب جوفي بمهمة إسكاته. وعلى الرغم من أن بيتر لم يستطع أن يشارك في المهمة بصورة مباشرة، فقد كان هو من يقودها من خلف الكواليس. بدءوا في زرع جواسيس في مكتب سيدني، وزرعوا عددًا كبيرًا للغاية منهم حتى تحول الأمر إلى مزحة، فكانوا يمزحون قائلين إنهم يدوسون على أصابع أقدام بعضهم بعضًا. كان سيدني فقيرًا، ولم يكن يملك ما يكفي من المال لاستمرار نشر جريدته؛ لذا كان يقبل أي عمل تطوعي يصادفه. وأرسل إليه جوفي الكثير من المتطوعين — ليس أقل من سبعة من عملائه — أحدهم ينظم كتب سيدني، وآخر يهتم بمراسلاته، واثنان آخران يساعدان في جمع التبرعات من النقابات العمالية، وآخرون يمرون به كل يوم أو يومين لتقديم النصائح له. ومع ذلك، استمر سيدني في برنامجه في إدانة جمعية التجار والصُّناع، وإدانة الحكومة لعدم توفيرها المزارع والوظائف لقدامى المحاربين.

كان أحد عملاء جوفي «السرّيين» — كان هذا هو المصطلح الفني لبيتر جادج وجو أنجيل — رجلًا يُدعى جوناس. كان جوناس يطلق على نفسه لقب «الفوضوي الفلسفي»، ويتظاهر بأنه الأكثر انتماءً للحُمر في المدينة الأمريكية، وكان معتادًا على الوقوف في الاجتماعات الراديكالية واستجواب من يلقون الخطابات، ويحاول إغواءهم لتبرير العنف والتمرد و«إثارة الجماهير». وإذا ما نبذ أي منهم هذه الأفكار، كان جوناس يصمه بأنه «متردد»، أو «اشتراكي وهمي»، أو «عُمالي زائف». وكان آخرون بين الجمهور يصفقون، الأمر الذي كان يكشف لرجال جوفي هويات المتعاطفين الحقيقيين مع الحُمر.

ظل بيتر يشتهه في أمر جوناس لفترة طويلة، وها هو الآن ذاهب للقاءه في الغرفة ٤٢٧ في البيت الأمريكي حيث تعاونوا معًا من أجل تليفق اتهام لسيدني. كتب جوناس رسالة من المفترض أنها مُرسلة من «رفيق» ألماني حوت أسماء بعض الجرائد في أوروبا

التي يجدر بالمرح أن يرسل إليها عينات من إصدارات مجلته. أُرسل هذا الخطاب إلى سيدني، وفي صباح اليوم التالي دخل جوناس المكتب، وعرض سيدني الرسالة عليه، فأخبره جوناس أن هذه صحف عمالية، ولا شك في أن المحررين سيهتمون بمعرفة مشاعر الجنود الأمريكيين بعد الحرب. جلس سيدني لكتابة رسالة، ووقف جوناس بجواره وأملى عليه ما يجب أن يكتبه: «إلى أعدائي السابقين في الحرب، أرسل إليكم تحية من أخ، وأرحب بكم كإخوة في الرابطة التعاونية الجديدة التي سترى النور قريباً»، وما إلى ذلك من الثثرة المعتادة للمؤمنين بالدولية التي كان هؤلاء المحرضون يتشددون بها ليلاً ونهاراً، والتي كانت تناسب من أعلامهم تلقائياً. أرسل سيدني هذه الخطابات، وعينات إصدارات المجلة، عبر البريد، وأخطر مكتب جوفي سلطات البريد التي تحفظت على الخطابات. ذهب أمين المكتبة، الذي كان أحد عملاء جوفي، إلى المحامي الفيدرالي وشهد تحت القسم أن سيدني كان يدبر مؤامرة مع العدو خلال الحرب، فأصدر مذكرة ضبط، ودوهم مقر المجلة، وصودرت قوائم الاشتراكات، وأُلقيت جميع محتويات المقر في وسط الأرضية.

كانت تلك المهمة البسيطة تخص بيتر وحده، ولكن ادعى جوناس اللئيم أنها تخصه هو، وحاول أن يحرم بيتر من الفضل! لذا كان بيتر سعيداً عندما تغاضت السلطات الفيدرالية عن القضية وقالت إنها عمل غير قانوني، وإنها لن تتدخل. ولكن، أُحيلت الأدلة إلى المدعي العام بورشارد الذي لم يتعامل بتدقيق مماثل، وداهم عملاؤه المجلة مرة أخرى، ودمروا مقرها مرة أخرى، وزجوا بالجندي العائد من الحرب في السجن. وحدد القاضي كفالاته بخمسة عشر ألف دولار، ونشرت صحيفة «تايمز» المدينة الأمريكية القصة تحت عناوين مُبالغ فيها ملأت صفحاتها الأولى بالكامل؛ من قبيل «القبض على رئيس تحرير مجلة «صديق قدامى المحاربين» وهو يتآمر مع العدو»، مع صورة فوتوغرافية من رسالة خيانتها، ونسخة من رسالة المتآمر الألماني الغامض الذي كان على علاقة به! أمضوا أكثر من عام يحاكمون ذلك الصحفي، وعلى الرغم من أنه خرج من السجن بكفالة، فقد تأكد جوفي من عدم حصوله على عمل في أي مكان في المدينة الأمريكية، ودُمّرت جريدته وكادت عائلته تموت جوعاً.

القسم الثامن والسبعون

كان بيتر قد أمضى ستة أو ثمانية أشهر يعمل بإخلاص، وطوال تلك الفترة، حافظ على وعده لجوفي بعدم الارتباط بأي امرأة. لكن هذه الحياة لم تكن طبيعية لرجل، وكان بيتر يشعر بالوحدة، كانت أحلامه تزدهم بوجوه نيل دولين وروزى ستين، وحتى الصغيرة جيني تود. وذات يوم، زاره في أحلامه وجه آخر، وجه الأنسة فريسبي، الأنيقة التي رفضته لأنه كان منتمياً إلى الحُمر. أدرك بيتر فجأة أنه لم يعد محسوباً على الحُمر! بل على النقيض تماماً، كان بطلاً، ونُشرت صورته في جريدة «تايمز» المدينة الأمريكية، ولا شك في أن الأنسة فريسبي رأتها. كانت الأنسة فريسبي فتاةً مهذبة، فتاةً مستقيمة، وكان لا بأس من أن يكون على صلةٍ بها!

وهكذا ذهب بيتر إلى صالون العناية بالأظافر، وبالفعل، كانت السيدة الضئيلة ذات الشعر الذهبي موجودة، وبالفعل، كانت قد قرأت كل شيء عنه، وكانت تحلم بأنها قد تلتقي به مجدداً ذات يوم، فدعاها بيتر لمشاهدة فيلم. وفي طريق العودة إلى المنزل أصبحا صديقين مقربين، وقبل أن يمر أسبوع واحد كانا يبدوان وكأنهما صديقان منذ الطفولة. عندما سأل بيتر الأنسة فريسبي عما إذا كان يمكنه تقبيلها، وافقت خجلة، ولكن بعد أن قبلها عدة مرات أوضحت له أنها امرأة تعول نفسها، امرأة وحيدة وعاجزة في هذا العالم، ولا يوجد من يتحدث نيابة عنها إلا نفسها، ويجب أن يعرف أنها امرأة محترمة، وأنها تريد منه أن يدرك ذلك قبل أن يقبلها مجدداً. وفكر بيتر في الأمر وقرر أنه قد اكتفى من العلاقات العابرة في هذه الحياة، وأنه أصبح مستعداً للاستقرار، وخلال لقائه التالي بالأنسة فريسبي أخبرها بذلك، وقبل أن تمر الأمسية كانا مخطوبين.

ثم ذهب بيتر للقاء جوفي، وجلس على حافة الكرسي المجاور لمكتب جوفي، وأمسك قبعته يديرها بين يديه، وكان وجهه مخضباً بالحمرة، وبدأ يتلعثم بينما يُلقى اعترافه.

كان يتوقع أن يتلقى سيلاً من السخرية، ولكنه شعر براحة لا مثيل لها عندما قال جوفي إنه إذا كان بيتر قد عثر بالفعل على فتاة جيدة وأراد الزواج منها، فإنه، أي جوفي، سيسانده. لا يوجد ما يماثل تأثير المرأة الصالحة على الرجل، وكان جوفي يفضل أن يكون عملاؤه متزوجين ويعيشون حياة مستقرة ومحترمة. فحينئذ، سيكونون أهلاً للثقة، وفي بعض الأحيان عندما يحتاج إلى جاسوسة، فستكون هناك شريكة جاهزة للمساعدة. ولو أن بيتر كان قد تزوج منذ فترة، لكان يمتلك حالياً مبلغاً كبيراً من المال في المصرف.

تجرأ بيتر على الإشارة إلى أن عشرين دولاراً في الأسبوع لن تكون راتباً كافياً للزواج، في ظل ارتفاع تكاليف المعيشة الحالية. رد جوفي بأن هذا صحيح، وبأنه سيرفع راتب بيتر إلى ثلاثين دولاراً على الفور، ولكن اشترط أن يتحدث إلى خطيبة بيتر أولاً، وأن يحكم بنفسه إذا ما كانت جديرة. كان بيتر سعيداً، وحصلت الأنسة فريسيبي على موعد لمقابلة خاصة وسرية مع رئيس بيتر في العمل. ولكن انحسرت سعادة بيتر بعد ذلك، فقد أدرك ما فعله جوفي. أخبر جوفي زوجة بيتر المستقبلية بكل شيء عن نقاط ضعف بيتر، وأن رئيس بيتر يعتمد عليها في رعاية زوجها وجعله يسير على الصراط المستقيم. لذا، بعد أسبوع واحد من دخول بيتر في روابط الزواج المقدسة، وعندما حدث خلال أسري بسيط بينه والسيدة جادج للمرة الأولى، اكتشف بيتر فجأةً لمن ستكون الكلمة العليا في تلك الأسرة. لقد تعرّف على وضعه إلى الأبد، وتقبّله، بل تحوّل إلى ذلك الزوج الذي يصف شئونه الأسرية بقول إنه ينسجم مع زوجته بصورة رائعة، وإنهما توصّلا إلى اتفاق أن يكون له الحق في اتخاذ القرارات بشأن جميع الشؤون الرئيسية، وكان لها هي الحق في اتخاذ القرارات بشأن جميع الشؤون الثانوية، وحتى هذه اللحظة لم تظهر أي شؤون رئيسية.

ولكن في واقع الأمر، كانت هذا أمراً جيداً للغاية؛ لأن جلاديس فريسيبي جادج كانت مديرة ممتازة، وبدأت بكل نشاط تجهز عشاءً لنفسها مثل أنثى قندس. لم تترك عملها كفنّية عناية بالأظافر؛ لأنها ارتأت أنه لا بد وأن حركة الحُمر قد دُمرت عن بكرة أبيها، ولن يمر وقت طويل قبل أن يجد بيتر نفسه بدون عمل. في مساء كل يوم، كانت تبحث عن منزل، وفي الظهر، وبدون استشارة بيتر، كانت تختار الأثاث وورق الجدران، واشترت تقريباً كامل مخزون متجر الخمسة والعشرة سنوات لتجهيز عش القنادس.

كانت جلاديس فريسيبي جادج قارئة دءوب لمجلات الموضة، وكانت تتقف نفسها باستمرار بأحدث صيحاتها، كما أنها ثقفت نفسها بكتاب عن قواعد السلوك، وحفظته عن ظهر قلب بالكامل من الغلاف إلى الغلاف، ثم تولت مهمة تعليم بيتر. لم يجب أن يكون «جيمي هيجينز» من «البيض» دائماً؟ لم لا يكتسب مفردات رجل مثقف، وفنون

وأناقة الأثرياء؟ كانت جلاديس تعرف أن هذه التفاصيل هي التي تحدد راتبك على المدى الطويل، فكانت صباح كل أحد تلبسه قبعةً بنيةً جديدةً وزوجًا جديدًا من القفازات البنية، وتأخذه إلى كنيسة الرحمة الإلهية، وكانا يستمعان إلى الخطبة الوطنية للقس دي ويلوبي ستوتربريدج، وكانت جلاديس تحني رأسها أثناء الصلاة، وكانت تنظر بزاوية عينها إلى زي السيدة في صف المقاعد المجاور. ثم كانا ينضمان إلى موكب الأحد، وكانت جلاديس تلفت انتباه بيتر إلى دلالات على ما تسميه «الأناقة». وفي المساء، كانا يذهبان للتمشي، وكانت تتوقف أمام نوافذ المتاجر الكبيرة، أو تأخذه إلى أروقة الفنادق حيث يمكن رؤية الأغنياء مجانًا. وعندما كان بيتر يجوع، كان يرغب في الذهاب إلى مطعم رخيص وملء جوفه بطعام حقيقي، ولكن كانت جلاديس، التي تمتلك شهية طائر، تصر على أن تأخذه إلى مطعم فندق هوتيل دي سوتو حيث يتناولان وجبة مكونة من كوب من الحساء وبعض الخبز والزبد؛ فقط لكي يشاهدا الأناقة ومراقبة كيفية تناول «الأنيقين» طعامهم.

القسم التاسع والسبعون

مثلاً كانت جلاديس فريسيبي جادج تعشق الأغنياء بحماسة، كانت تمقت الفقراء بالحماسة نفسها، وإذا ما أجبرتها على الاعتراف بذلك، ستقر بأنه يجب أن يكون هناك فقراء؛ فلا يمكن أن تظهر الأناقة، إلا على أساس وجود طبقة كبيرة من الأشخاص غير الأثريين. لا بأس من وجود الفقراء ضمن طبقاتهم، ولكن ما كانت جلاديس تعارضه هي محاولاتهم للخروج من طبقاتهم، أو انتقاد من هم أفضل منهم. كانت ثمة كلمة تستخدمها لتلخيص كل ما تحتقره في العالم، وتلك الكلمة هي «عادي»، فكانت تستخدمها لوصف الأناث الذين ترفض مقابلتهم، وكانت تستخدمها لتصحيح أساليب تعامل بيتر وذوقه في القبعات. أن تكون «عاديًا» يعني أن تكون ملعونًا، وعندما كانت جلاديس ترى أناسًا «عاديين» بصورة مؤكدة وظاهرة، يتظاهرون بأنهم أفضل من ذلك أو يضعوا لأنفسهم معايير خاصة بهم، كانت تعتبر ذلك إهانة لشخصها، وتتعامل معهم بعداء وغضب شديدين. وكان كل منهم أصبح عدوًا شخصيًا لها، عدوًا لشيء أعلى قيمة من شخصها، عدوًا للشيء الذي تطمح لأن تصبح عليه، عدوًا لمثلها الأعلى.

كان بيتر أيضًا على هذه الشاكلة في الماضي، ولكنه أصبح مرتاحًا الآن، كان لديه ميل لأن يصبح كسولًا وبسيطًا. لذا كان من الجيد أن تكون لديه جلاديس لتحفزه، وتبقيه في عمله. في البداية، لم تقابل جلاديس أي من الحُمر وجهًا لوجه، كانت تعرفهم فقط من القصص التي كان يقصها عليها بيتر عندما يعود من عمله في نهاية اليوم. ولكن أصبحت كل مجموعة جديدة يطاردها في نظر جلاديس تجمعا للأشرا المتجسدين، وبينما كانت تجلس تلمع أظافر سيدات المجتمع البدينات اللواتي الناعسات لدرجة عدم القدرة على تبادل أطراف الحديث، كان عقل جلاديس المشغول يعمل على وضع خطط لإحباط هؤلاء الأشرار.

كانت تراودها أفكار رائعة للغاية في بعض الأحيان. فقد كانت تمتلك حدس المرأة، وإلمامًا بعيوب البشر، وجميع التعقيدات الدقيقة في الحياة العاطفية؛ فكانت تقدم لبيتر برنامجًا للقضاء على بعض الشاب الراديكاليين، وكان متكاملًا وكأنها كانت تعرف هذا الرجل أو هذه المرأة طوال حياتها. كان بيتر ينقل أفكارها إلى ماكجيفني، الذي ينقلها بدوره إلى جوفي، وكانت النتيجة أنهم أدركوا مدى جودة مواهبها، وعندما منحوا بيتر راتبًا سخياً بفضلها، تحررت من العمل في صالون العناية بالأظافر. أرسلها جوفي لتتعرف على الخدم في منزل ثري معين كان دائم التبرع لجمعية الانتخابات الأولية المباشرة وغيرها من المنظمات المتعاطفة مع الحُمر، والذي كان يُعتقد أن ثمة فضيحة في حياته الخاصة. أحرزت جلاديس نجاحًا مبهرًا في هذه المهمة لدرجة أن جوفي أسند إليها مهمة أكثر حساسية وهي زيارة السيدات الثريات، وإعلامهن بمدى خطورة الحُمر، وإقناعهن بتحمل التكاليف المتزايدة باستمرار لمكتب جوفي.

كانت تلك الفترة مزدحمة في الحملة ضد الحُمر. فقد مر ما يقرب من عامين على اندلاع الثورة البلشفية في روسيا، وكان ثمة انقسام في الحركة الاشتراكية يزداد تدريجيًا، وكان عملاء شركة تراكشن تراست «السريون»، بالإضافة إلى عملاء مكتب المدعي العام والحكومة الفيدرالية، يعملون بجد لتوسيع فجوة هذا الانقسام وتطوير الخلافات داخل المنظمة. كان يوجد بعض الاشتراكيين ممن يؤمنون بالجوء إلى السياسة، وكانوا على استعداد لتكريس حياتهم لعملية إنشاء حزب الملة والبطيئة. بينما كان هناك آخرون لا يملكون نفس درجة الصبر، وكانوا يبحثون عن طريق مختصرة، إضراب عام وإما انتفاضة جماعية للعمال من شأنها أن تضع حدًا لاستعباد الرأسمالية لهم. كانت لعبة السياسة بكاملها فاسدة، كما تقول هذه المجموعة؛ فيمكن للسياسي أن يعثر على طرق لخداع العمال في خلال دقيقة أكثر مما يمكن للعمال أن يحبطوا في خلال عام كامل. وكانوا يشيرون إلى الاشتراكيين الألمان، الذين خانوا الحركة الأممية. وكان هناك أشخاص يدعون أنهم اشتراكيون هنا في المدينة الأمريكية يريدون جذب الحركة إلى الفخ نفسه!

لم يُجر هذا النقاش بصورة مجردة؛ فقد كان جناح الحركة يهاجم أحدهما الآخر بقوة. كان «السياسيون» يدينون «المستحييلين»، ويقولون إنهم «فوضويون»؛ وكان الطرف الآخر، الغاضب، يتهم أعداءه بأن الحكومة استأجرتهم. كان بيتر يزود ماكجيفني بفضائح كان العملاء «السريون» ينشرونها بين صفوف «اليساريين»، وبينما كانت الصراعات الطويلة دائرة داخل الحزب المحلي، كانت هذه التهم تخرج إلى النور. كان هربرت آشتون

يذكرها بسخريته اللاذعة، أو كان «شورتي» جونتون يصيح بقولها خلال أحد نوبات غضبه؛ «يلقيها في وجوه خصومه»، على حد تعبيره.

كان «شورتي» جونتون عامل طباعة متسكعًا، محرضًا متجولًا كل همه هو بدء التحرك، ولم يكن يهتم بمن قد يكتشف الأمر. كان يقول: «العنف؟ لِمَ ألف سنة علينا أن نظل خاضعين لعنف الحكومات الرأسمالية، من دون أن نملك حق الرد؟» وكان يقول تارةً أخرى: «العنف؟ نعم، بالطبع يجب أن ننكر العنف، حتى نحصل على ما يكفي منه!» كان بيتر قد سمع نوبات غضب «شورتي» عن «المساومين» و«تجار السياسة»، وكان يرى أنه أحد أخطر الرجال في المدينة الأمريكية. ولكن في وقت لاحق، بعد حادثة جو أنجيل التي فتحت عيني بيتر على حقيقة الأمور، قرر أن «شورتي» لا بد أن يكون عميلًا سرّيًّا أيضًا.

لم يتأكد الأمر لبيتر بشكل قاطع، ولكنه ظل يجمع الحقائق من هنا ومن هناك، وربطها معًا، ولم تمر فترة طويلة قبل أن تتحول شكوكه إلى يقين. انشق الاشتراكيون «اليساريون» عن الحزب، ودعوا إلى مؤتمر خاص بهم، وانقسم هذا المؤتمر على نفسه أيضًا إلى جزء يمثل الحزب الشيوعي، وجزء آخر يمثل الحزب الشيوعي العمالي. بينما كان المؤتمران منعقدين، جاء ماكجيفني إلى بيتر، وقال إن الحكومة الفيدرالية لديها عميل داخل لجنة سياسات الحزب الشيوعي، وأنهم يريدون كتابة بعض العبارات التي ستجعل من عضوية ذلك الحزب جريمة بحد ذاتها، ومن ثم، يمكن إرسال كل من يحمل بطاقة عضوية إلى السجن من دون الحاجة إلى أدلة أخرى. ولا بد أن تكتب هذه العبارات بلغة شيوعية أصيلة، وكانت معرفة بيتر المتخصصة في هذا السياق مطلوبة.

وهكذا كتب بيتر العبارات، وبعد يومين قرأ في الصحف تقريرًا عما حدث في المؤتمر. قدمت لجنة السياسات تقريرها، وقدم «شورتي» جونتون تقرير أقلية، وألقى خطابًا ناريًا خلال المؤتمر، الأمر الذي أدى إلى تمرير تقرير الأقلية بفارق ضئيل. احتوى هذا تقرير الأقلية هذا على جميع العبارات التي كتبها بيتر. وبعد بضعة أشهر، بعدما أصبحت الحكومة جاهزة لرفع قضيتها، وبدأت الغارات على عموم الشيوعيين، اعتقل «شورتي» جونتون، ولكنه فر من السجن بعد بضعة أيام بطريقة درامية بعدما شق طريقه عبر سطح السجن!

القسم الثمانون

عاد اتحاد العمال الصناعيين العالمي للظهور مرة أخرى في المدينة الأمريكية، بل وتجراً على افتتاح مقر آخر له. لم يجرؤ بيتر على الذهاب إلى المكان بنفسه، ولكنه دَرَبَ بضعة شباب أحضرهم له ماكجيفني، وعلمهم المصطلحات التي يستخدمها الحُمر، وكيفية التسلل إلى الحركة. ولم تمر فترة طويلة قبل أن يصبح أحدهم أميناً للحزب للمحلي، وكان بيتر، الذي كان يشرف على أنشطتهم، يتلقى تقاريرهم مرتين أسبوعياً عن كل ما يخطط له «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» ويفعلونه. كان بيتر وجلايس يفكران في كيفية تليفق مؤامرة تفجير أخرى للفت الانتباه إلى هؤلاء الرجال الخطين، عندما كان بيتر يتصفح الجريدة الصباحية ذات يوم، واكتشف أن العناية الإلهية قد سلمت له العدو لقمة سائغة. في منطقة الخطابين في أقصى الشمال الغربي، في بلدة صغيرة تدعى سنتراليا، تعرض مقر «اتحاد العمال الصناعيين العالمي» للتفتيش ودُمر تماماً، مثلما حدث في المدينة الأمريكية. فحددوا لأنفسهم مكاناً آخر ليجمعوا فيه، ومرة أخرى عقد أعضاء غرفة التجارة وجمعية التجار والصُّناع اجتماعاً سرياً وقرروا القضاء عليهم. تواصل «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» مع السلطات طلباً للحماية، وعندما رفضت السلطات حمايتهم، طبعوا منشوراً يناشد الجمهور أن يحميهم. ولكن هذا لم يثن رجال الأعمال عن الاستمرار في تنفيذ خططهم، فنظموا موكباً للجنود العائدين في ذكرى يوم الهدنة، وأعادوا توجيه هذا الموكب خارج مساره حتى يمر أمام مقر اتحاد العمال الصناعيين العالمي. حمل بعض الأعضاء الأكثر حماسة حبلاً، الأمر الذي كان يرمز لما كانوا ينوون فعله، ثم أوقفوا الموكب أمام المقر، وأطلقوا صيحةً وبدءوا في اقتحام القاعة. تمكنوا من تحطيم الباب، وكانوا قد قطعوا نصف الطريق عبره عندما فتح «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» النار من الداخل، الأمر الذي أدى إلى مصرع عدد من المشاركين في الموكب.

وبالطبع، اندفع الحشد بغضب جارف، وضربوا الرجال في القاعة ففقد بعضهم الوعي؛ ثم زجوا بهم في السجن، وضربوهم وعذبوهم، وأخرجوا أحدهم من السجن وأخذوه في سيارة، وبعدها شوهوه كما شوهوا شون جرادي، علقوه من أحد الجسور مشنوقاً. ولا شك في أنهم تأكّدوا من أن القصص التي تنشرها صحف سنتراليا في تلك الليلة هي القصص التي يريدونها، وفي صباح اليوم التالي، قرأ الشعب الأمريكي بالكامل أن مجموعة من «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» قد سلحوا أنفسهم بالبنادق، واختبئوا على سطح مقر اتحاد العمال الصناعيين العالمي، وأطلقوا النار عمداً وبدم بارد على موكب سلمى لقدامى المحاربين غير المسلحين.

وبالطبع، عمّ الغضب أنحاء البلاد، وأدرك أمثال جوفي وماكجيفني وجادج في جميع أنحاء الولايات المتحدة أن فرصتهم قد حانت. أمر بيتر الأمين العام المحلي لاتحاد العمال الصناعيين العالمي في المدينة الأمريكية أن يعقد اجتماعاً ذلك المساء بغرض إصدار بيان يعلن أن القصص التي نشرتها صحف سنتراليا كاذبة. في الوقت نفسه، دعا رجل آخر من رجال جوفي، وكان ضابط جيش سابق لا يزال يرتدي زيه الرسمي، إلى عقد اجتماع للفيلق الأمريكي، وألقى خطاباً غاضباً على الجنود، وفي تمام التاسعة من تلك الليلة، خرج نحو أربعين منهم من سياراتهم مسلحين بمفاتيح إنجليزية ضخمة، وداهموا مقر اتحاد العمال الصناعيين العالمي، وضربوا أعضائه على رؤوسهم بالمفاتيح الإنجليزية، الأمر الذي أدى إلى قفز بعضهم من النوافذ وانكسار أرجلهم. في صباح اليوم التالي، نشرت جريدة «تايمز» المدينة الأمريكية خبراً عن الحادث مصحوباً بعبارات الاستحسان، وأصدر المدعي العام بورشارد بياناً عاماً يفيد بأنه لن تُبذل أي جهود لمعاينة هؤلاء الجنود، لقد كان «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» يريدون «تحرّكاً مباشراً»، وها هم قد حصلوا عليه، ومن المفترض أنهم راضون.

بعد ذلك واصل جنود الفيلق الأمريكي، بعدما شجعهم هذا الاحتفاء، وبتحريض من ضابط الجيش السابق التابع لجوفي، غزو وتدمير جميع أماكن تجمعات الراديكاليين في المدينة. فدمروا مكتب مجلة «كلاريون» ومقر الحزب الاشتراكي مجدداً، وصادروا أطناناً أخرى من الكتب. كما دمروا بعض المكتبات، ثم قسموا أنفسهم إلى مجموعات صغيرة وفحصوا جميع أكشاك بيع الجرائد في المدينة، وأينما وجدوا مجلات تابعة للحزب مثل «الأمّة» أو «الجمهورية الجديدة»، كانوا يمزقون نسخها ويهددون البائعين بالاعتقال. أغاروا كذلك على مقر جمعية أدبية تسمى نادي راسكين، يرتادها في الغالب سيدات

مسنات لطيفات، الأمر الذي تسبب في إصابة بعض من تلك السيدات المسنات بالهستيريا. ثم اكتشفوا «نادي الشعب الروسي» الذي لم يكونوا قد التفتوا إليه حتى تلك اللحظة لأنه كان مؤسسة تعليمية. ولكن لا شك في أنه لا يمكن الوثوق في أي روسي في تلك الأيام، فقد كانوا جميعهم إما بلشفيين، وإما في طريقهم لأن يصبحوا بلشفيين، ولا فارق بين الحالتين، فرتب جوفي لمداهمة لهذا المبنى، وُضرب نحو مائتي روسي بالهراوات وألقوا على الدرج أو من النوافذ، وكُسرت جمجمة مدرس رياضيات مسن، وُضرب مدرس موسيقى وحُطّم بعض أسنانه.

كان ثمة عدة ملايين من الشباب الأمريكي الذين أُجبروا على ارتداء الزي العسكري، ووُضعت البنادق في أيديهم، ودُربوا على الرماية واستخدام الحراب، ولكنهم لم يشاركوا في أي معركة. كان هؤلاء الشباب، كما يُقال، «يتحرقون للقتال»، وكانت هذه فرصتهم. كان الأمر ممتعًا مثل حرب الخنادق تمامًا، بل وكان يتميز عنها بانعدام خطورته. عندما عادت فرق المداهمة، لم يكن هناك أعضاء مفقودين، ولا ضحايا لإرسال خبر وفاتهم تلغرافيًا إلى آبائهم المفجوعين. اجتمعت بضع نساء حمقاوات وحاولن تنظيم موكب للاحتجاج على الحصار المفروض على روسيا، فهاجم المداهمون أولئك النساء، وحطموا راياتهن، ومزقوا ملابسهن، واعتقلت الشرطة ما تبقى منهن وزجت بهن في السجن. وحدث أن رجلًا شهيرًا من «هواة الرياضة»، رجلًا دائم التردد على مضمار السباق، ظهر مرتديًا ربطة عنق حمراء، وظن المداهمون أنه بلشفي، فأنهالوا عليه ضربًا حتى كادوا يودون بحياته. بعد ذلك احتج أناس يعتقدون أنه من غير المناسب انتهاك الكثير من القوانين أثناء الدفاع عن القانون والنظام، فرتب مكتب المدعي العام تعيين الجنود الشباب نوابًا للشرطة، ومنحهم شارات قانونية ونظامية.

القسم الحادي والثمانون

كان بيتر جادج يذهب عادة مع فرق الصيد هذه. وبشكل غريب للغاية، اكتشف بيتر في نفسه «التعقيد» نفسه الذي يحتل نفوس الجنود الشباب المحبطين. ظل بيتر يقرأ أخبار الحرب طوال خمس سنوات، لكنه لم يُصَبَ حظاً من القتال، ولكنه اكتشف الآن أنه يحب القتال. وكان ما حال بينه والاستمتاع بالقتال في الماضي هو خطر التعرض لإصابة، ولكن الآن، وبما أنه لم يكن ثمة خطر من هذا القبيل، كان قادراً على الاستمتاع به. كان الناس ينعتونه بالجبن في الماضي، وظل يسمع هذا الوصف يناله حتى صدّقه، ولكنه أدرك الآن أن هذا ليس صحيحاً، فقد كان شجاعاً مثل أي شخص آخر في المجموعة.

في واقع الأمر، لم يقض بيتر وقتاً سعيداً في شبابه، فلم يتعلم ضرب كرة بيضاء صغيرة في أنحاء ملعب بمضارب مختلفة الأشكال والأحجام، مثلما تعلم الأعضاء الأصغر سناً في غرفة التجارة وجمعية التجار والصُّناع. كان بيتر أشبه برجل أعمال فاتته طفولته، ثم في السنوات اللاحقة بدأ يشعر بالحاجة إلى الاستجمام، وبدأ في ممارسة بعض أنواع الرياضة بأوامر من طبيبه. أصبحت الرياضة التي يهواها بيتر هي وضع مسدس أوتوماتيكي في جيبه، والإمساك بهراوة في يده، والاندفاع إلى داخل غرفة اجتمع فيها ثلاثين أو أربعين روسياً أو «يهودياً» من جميع الأعمار وأطوال اللحي ليحاولوا جاهدين تعلم تعقيدات هجاء اللغة الإنجليزية. كان بيتر يطلق صيحة، ويرى هذا التجمع يقفز ويتفرق في جميع الاتجاهات، فكان يطاردهم في أنحاء المكان ويكيل ضربة على الرأس عندما يلمح أحدهم، ثم كان يقفز بين حشد من الناس جُمِعوا معاً مثل الأغنام محاولين حماية رءوسهم، ويكيل لهم الضربات على الأماكن المكشوفة من أجسامهم حتى يتفرقوا مجدداً. كان يهوى إلقاء الكثير منهم على الدرج ليتدحرجوا رأساً على عقب، أو إذا ما تمكن من جعلهم يقفزون من النوافذ، فقد كان ذلك أكثر إمتاعاً، وكان يصيح ويصرخ في وجوههم. كما

تعلم بعضاً من صيحاتهم، رغم أنها بلغة غريبة غير مفهومة، وكان يسبهم بلغتهم. لا بد أن أسلافه كانوا من القروء، فبعدهما أصبح يعرف هؤلاء الناس على نحو أفضل، تمكن من تقليد سلوكياتهم وأمارات الرعب التي تظهر عليهم، وكان يجعل أفراد غرفة كاملة مليئة بـ «الثيران» ينفجرون ضحكاً حتى تؤلمهم جنوبهم. كان ثمة ممثل «أفلام» كوميدى شهير بقدمين كبيرتين، وكان بيتر يقلد هذا الرجل، ويميل نحو عامل مسكين غارق في عرقه ويركله في مؤخرته، أو يدهس أصابع قدميه، أو ربما يبصق في عينه. وهكذا أصبح ذا شعبية كبيرة بين «الثيران»، وكانوا يصرون على أن يذهب معهم أينما ذهبوا.

في وقت لاحق، عندما شرعت الحكومة في تفكيك الحزب الشيوعي وحزب العمال الشيوعي، ازداد شعبية ومكانة بيتر أكثر فأكثر. فقد أصبحت الشرطة والمحققون الآن يجمعون السجناء ويعتقلونهم بالئات، بدلاً من مجرد المداهمة والتحطيم، ثم ينقلونهم ويخضعونهم لـ «فحوصات». وكان بيتر مطلوباً دائماً لهذا الغرض، فمعرفة الخاصة بهم جعلته لا غنى عنه، وأصبح عملياً رئيس هذه الإجراءات. رتب «شورتي» جونتون والعملاء «السيرون» الآخرون أن يُعقد اجتماعاً الحزب الشيوعي وحزب العمال الشيوعي في الليلة نفسها؛ وحدث نفس هذا الأمر في جميع أنحاء البلاد، وفي صباح اليوم التالي صدم العالم بالأخبار التي تفيد بأن جميع هذه الاجتماعات دوهمت في الوقت نفسه، ووضِع آلاف الشيوعيين رهن الاعتقال. وفي المدينة الأمريكية، استأجرت الحكومة الفيدرالية نحو عشرة غرف متاخمة لمكتب جوفي، ولم يتوقف جلب دفعات من السجناء طوال الليل وحتى صباح اليوم التالي، حتى بلغ عدد السجناء نحو أربعمائة إجمالاً. كُدس هؤلاء السجناء في تلك الغرف، ما منحهم مساحة تكفي بالكاد للجلوس، ولا شك في أنه كان هناك ضجيج رهيب، وصراخ وأنين أولئك الذين تعرضوا للضرب، ورائحة تفوق سوءاً قفص القروء في حدائق الحيوان.

احتُجز السجناء في هذا المكان لعدة أسابيع، وكان يُجلب المزيد منهم طوال الوقت، وكان عددهم كبيراً للغاية بدرجة دفعتهم إلى احتجاج النساء في المراحيض. ومرض العديد من السجناء، أو ادعوا المرض، وجُنَّ العديد منهم، أو ادعوا الجنون، وتوفي عديدون، أو تظاهروا بالموت. ولا شك في أن الشيوعيين والمتعاطفين كانوا في الخارج منشغلين بإثارة جلبة فظيعة حول الأمر. لم تعد بحوزتهم صحف أخرى، ولم يتمكنوا من عقد المزيد من الاجتماعات، وعندما حاولوا توزيع منشوراتهم، كانت سلطات البريد تصادرها، ولكنهم تمكنوا بطريقة ما من الحصول على بعض الدعاية، وكان عملاء بيتر «السيرون» يبلغونه بهوية من يؤدي هذا العمل، وكان بيتر يرتب المزيد من المداهمات وجلب مزيد من السجناء.

خلال أحد «مؤامرات التفجير» التي اكتُشفت في شرق البلاد، اكتشفوا ورقًا وريديًا، إما كان يُستخدَم في طباعة المنشورات، وإما لإخفاء المتفجرات، لم يتمكن أحد من معرفة ذلك يقينًا. على أي حال، وزعت الوكالات السرية التي كان جوفي على اتصال بها عينات من هذا الورق في جميع أنحاء البلاد، وعندما كانت الشرطة ترغب في التخلص من أحد هؤلاء الشياطين المساكين، كانوا يعثرون على هذا «الورق الوردي» القاتل في حوزته، وكانت الصحف تصفه بأنه أحد أعضاء مجموعة المتآمرين الذين يرسلون المتفجرات عبر البريد.

القسم الثاني والثمانون

كان بيتر مشغولاً في تلك الأيام لدرجة أنه لم ينل أي قسط من النوم لعدة ليالٍ، ولم يكن يتوفر له إلا وقت قليل جداً لتناول الطعام. حصل على غرفة خاصة به، حيث كان يجلب السجناء لفحصهم، وكانت نصف دُرّينة من الرجال تحت إمرته لأداء مهام «اليد الطولى». كانت مهمته هي استخراج اعترافات من هؤلاء السجناء من شأنها تبرير إرسالهم إلى السجن إذا كانوا مواطنين، أو ترحيلهم إذا كانوا أجنباً. وبالطبع، كانت طرق التمييز بين المواطنين والأجانب نادرة، فكان عليك أن تجرب حظك مستنداً إلى اليقين بأن الجميع خطرون. منذ سنوات طوال، عندما كان بيتر يعمل لصالح بيريكليس بريام، كانوا قد قضاوا عدة أشهر في بيت ضيافة، وكان بإمكانك معرفة متى ستكون شرائح اللحم ضمن وجبة العشاء؛ لأنك كنت تسمع الطباخ يدقها بمهراس البطاطس من أجل «ترقيقها»، وتعلم بيتر هذه العبارة، وأصبح يطبق العملية نفسها على الحُمُر الأجنب. عندما كانوا يدخلون الغرفة، كان رجال بيتر يهاجمونهم ويضربونهم ويكبلونهم، ثم ينهالون عليهم باللكمات. وإذا كانوا عنيديين ورفضوا «التعاون»، كان بيتر يتولى أمرهم بنفسه متذكراً كيف كان جوفي يستطيع الحصول على ما يريد منه عبر لي رسغه وثني أصابعه إلى الخلف.

كان ذكاء بعض هؤلاء الرجال وبراعتهم مدهشاً. ربما كانوا مجرد عمال أجنب بئسين، ولكنهم كانوا يقضون كامل أوقات فراغهم في القراءة، وكنت تجد مجموعات كبيرة من الكتب في غرفهم عندما تداهمها؛ كانوا يعرفون ما تريد تحديداً، وسيتمكنون من تفادي أسئلتك. كان بيتر يقول: «أنت فوضوي، أليس كذلك؟» فيأتي الرد كالاتي: «أنا لست فوضوياً بالمعنى الذي تقصده للكلمة،» كما لو أن هناك معنيان لكلمة «فوضوي!» فكان بيتر يقول: «أنت تؤمن بالعنف، أليس كذلك؟» فكان الرجل يرد بوقاحة: «أنت من يؤمن بالعنف؛ انظر إلى وجهي الذي حطمته.» أو كان بيتر يقول: «لا تعجبك هذه الحكومة،

أليس كذلك؟» فكان الرد كالآتي: «كانت تعجبني دومًا حتى بدأت معاملتها السيئة لي.» كانت كل أنواع التهرب على هذه الشاكلة، وكان ثمة كاتب يسجل كل شيء، وما لم يتمكن بيتر من الحصول على شيء يُكتَب في السجل على أنه اعتراف، لن يتمكن من ترحيل أولئك الحُمر. فكان بيتر ينهال عليه ضربًا و«يرققه» حتى يجيب عما يُطلب منه الإجابة عنه؛ أو ربما كان بيتر يلفق استجوابًا كما يريد أن يكون، وكان المحققون يسكنون بيد الرجل ويجعلونه يوقع عليه، أو كان بيتر يوقع عليه بنفسه.

كانت هذه الأساليب قاسية، ولكن لم تكن ثمة طريقة لتفادي استخدامها، فقد كان الحُمر ماكرين للغاية. كانوا يقوضون الحكومة سرًا، وهل من الممكن أن تستسلم الحكومة وتتعترف بعجزها؟ وجاء الرد من الأمريكيين الحقيقيين بنسبة ١٠٠٪ يتردد صداه من كل غابة وتل معبد في البلاد، وكذلك من جميع مقرات الصحف. كان هذا الرد: «لا!» سيعثر الأمريكيون الحقيقيون بنسبة ١٠٠٪ على طريقة لحماية أنفسهم من سفسطة البلشفية الأوروبية، ووضع الأمريكيون الحقيقيون بنسبة ١٠٠٪ قاعدتهم الخاصة: «إذا لم يعجبهم هذا البلد، فليعودوا إلى حيث جاءوا.» ولكن بالطبع كانوا يعرفون في داخلهم أن أمريكا هي أفضل بلد في العالم، ولن يرغب أي منهم في العودة، فكان من الضروري إجبارهم على المغادرة.

كانت هذه مهمة بيتر، وكانت زوجته المخلصة تسانده، وتحرضه بعنادها الأثوي. كانت جلاديس دائمًا ما تصف هؤلاء الناس بأنهم «بهائم»، وعندما شمت رائحتهم بعد تكديسهم معًا في هذه المكاتب لعدة أسابيع، أيقنت أنها كانت محقة، وأنهم يستحقون مصيرهم مهما كان بشعًا. كانت قد اكتشفت مؤامرة تفجير أخرى، بمساعدة بيتر، وكانت موجهة هذه المرة إلى النائب العام للبلاد، والذي كان يشرف على هذه المداهمات الجماعية. قُبِضَ على أربعة فوضويين إيطاليين في المدينة الأمريكية، واحتُجزوا في غرف خاصة بعيدًا عن بقية السجناء، وعمل بيتر معهم لمدة شهرين لكي يحصل على اعتراف منهم. وعندما ظن بيتر أنه نجح، أفسد أحدهم جهوده عندما قفز من النافذة. كانت الغرفة في الطابق الرابع عشر، ومن ثم لم يعد هذا الفوضوي الإيطالي متاحًا كشاهد على نفسه. أثار الحادث غضب البلشفيين في جميع أنحاء البلاد، وأدى إلى حصول ديفيد أندروز على أمر زجري من المحكمة، وتسبب في الكثير من المتاعب لإدارة جوفي.

ومع ذلك استمر العمل؛ جرى تصنيف الحُمر تدريجيًا، وأُطلق سراح من ثبت أنهم ليسوا حُمرًا، ووُضِع آخرون على متن قطارات خاصة للحُمر ونُقلوا إلى الموانئ القريبة. رحل بعضهم بوجوه واجمة، بينما رحل آخرون دون أن تتوقف ألسنتهم على السباب

الغاضب، وكان آخرون ينوحون ويصرخون، فقد كان للكثير منهم عائلات، وتجروا على مطالبة الحكومة بأن تتعهد بترحيل عائلاتهم أيضًا، أو على الأقل الاعتناء بها! وبطبيعة الحال، أعلنت الحكومة أنها لن تتحمل هذه المسؤولية. كان الحُمر يملكون الكثير من المال الذي استخدموه في طباعة المنشورات التحريضية، فليستخدموه في الاعتناء بأنفسهم!

خلال هذه الغارات والتحقيقات العديدة، التقى بيتر بالطبع بالعديد من الحُمر الذين كان يعرفهم في السابق كأصدقاء ومقربين. لم يكن بيتر يتخيل أن يلتقي بهم، بل كان يرتعد لمجرد مرور تلك الفكرة بخاطره، ولكنه أصبح يستمتع بها في الحقيقة. لقد تحرر تمامًا من خوفه منهم، ذلك الخوف الذي كان سابقًا يُفسد شهيته ويقض نومه. تعلم أن الحُمر كائنات مسكينة لا تُقاوم، فهم لا يملكون أسلحة، والكثير منهم لا يملك عضلات حتى؛ لم يكونوا يملكون شيئًا في الواقع إلا الكلام. وكان بيتر يدرك أن قوة المجتمع المنظم تسانده، الشرطة والمحاكم والسجون، وإذا لزم الأمر، الجيش ببنادقه الآلية وطائراته وغازه السام. لم يكن ضرب هؤلاء الناس ودهس أصابع أقدامهم والبصق في عيونهم أمرًا فحسب، بل كان من الآمن أيضًا تليفق أي اتهام لهم، فالصحف ستدعمك دائمًا، والجمهور سيصدق بالطبع كل ما يقرؤه في الصحف.

لم يعد بيتر يخشى الحُمر! بل قرر أنه لم يعد يخشى حتى ماك، أكثر الحُمر خطورة على الإطلاق. كان ماك سيقضي في السجن عشرين عامًا، وعلى الرغم من أن الحكم في قضيته كان قد استئنّف، رفضت المحكمة وقف تنفيذ الحكم أو حتى السماح له بالخروج بكفالة. كانت روح بيتر قد مرت بما تمر به روح ماك في السجن، وأدرك أن حتى هذه الروح الفخورة والقاسية ستتكسر. كتب ماك رسالة من السجن موجهة إلى أحد رفاقه الحُمر في المدينة الأمريكية، واعترضت سلطات البريد الرسالة، وعرضها جوفي على بيتر. كتب ماك متوسلاً: «راسلنا! بحق الرب، راسلنا! إن أكثر ما يثير الرعب في السجن هو أنك منسي. دعنا نعرف على الأقل أن هناك من يفكر فينا!»

أدرك بيتر أنه الفائز، وأنه صاحب «اليد العليا». وعندما التقى بهؤلاء الحُمر الذين كان فيما مضى يخاف منهم، كان يستمتع بجعلهم يشعرون بطغيان سلطته، وأحياناً بطغيان قبضته. كان من الممتع رؤية أساليب تعاملهم المختلفة معه. فكان بعضهم يحاول التوسل إليه، وتذكيره بصدافتهم القديمة، وكان بعضهم يتذمر ويشكو له، وكان البعض يحاولون التحدث معه بعقلانية، والتأثير على ضميره. ولكن كان أغلبهم يتعاملون معه بتعالٍ، وكانوا يحدقون في وجهه بكرهية، أو يرسمون الاحتقار على وجوههم. فكان بيتر يأمر «ثيرانه» ببدء العمل على تحسين أخلاقهم، وكان لي إبهام اليد ولي المعصم يؤدي المطلوب.

القسم الثالث والثمانون

كانت ميريام يانكوفيتش من أوائل الحُمر الذين التقاهم. كانت ميريام عضوة في الحزب الشيوعي، وكانت من مواليد روسيا، وكان هذا كافيًا في حالتها. كان بيتر يعرف، بالطبع، أن ميريام هي من سلطت روزي ستيرن عليه وأدت إلى كشف أمره. ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن التأثر بمظهرها. كانت تبدو متعبة ومسنة، وكانت تعاني من السعال، وكانت عيناها جامحتين ومجنونتين. كان بيتر يتذكر أنها كانت فخورة وسريعة الغضب، ولكن ذهب كامل فخرها، فقد خرت راکعة على ركبتَيها أمامه، وتشبّثت بمعطفه باكية بشكل هستيري. تبين أنها تعول أمها وأشقائها الخمسة الصغار من راتبها، وأتت مصروفات المستشفى على كل ما كانت تملك من مال، وإذا رُحلت إلى روسيا، ماذا سيحدث لأحبائها؟ سألتها بيتر عما يمكنه أن يفعل؟ لقد انتهكت القانون، وهناك بطاقة عضوية باسمها في الحزب الشيوعي، كما أقرت بأنها وُلدت في الخارج. حاول أن يبتعد عنها، لكنها تشبّثت به، وواصلت البكاء والتوسل. كانت تريد على الأقل أن تحصل على فرصة للتحدث إلى والدتها العجوز لتخبرها بما يجب عليها فعله، وإلى أين تذهب لتحصل على المساعدة، وكيف يمكنها التواصل مع ميريام في المستقبل. كانوا يبعدونها عن وطنها دون السماح لها بالتحدث إلى أحبائها، حتى من دون فرصة لإحضار ملابسها!

كان بيتر، كما نعلم، رقيق القلب تجاه النساء دائمًا؛ لذا شعر بالحرج في هذه اللحظة. فيما يتعلق بالتعامل مع هؤلاء البهائم، كان ينفذ أوامر رؤسائه، ولم يكن يملك القدرة على منح أي امتيازات لأي شخص، وظل يخبر ميريام بذلك مرارًا وتكرارًا، ولكنها لم تستمع لما يقول، وكانت تقول: «أرجوك، يا بيتر، أرجوك! بحق الرب، يا بيتر! أنت تذكر أنك كنت تحبني يومًا ما، يا بيتر... أنت من أخبرني بذلك...»

نعم، كان ذلك صحيحًا، ولكنه لم يصب في مصلحة بيتر. فقد كانت ميريام مهتمة بماك؛ ماك، ذلك الشيطان الأخطر على الإطلاق، والذي جعل بيتر يعيش ساعات طوال في توتر! كانت قد أزاحت بيتر جانبًا، ولم تكن مستعدة حتى للاستماع إلى ما يريد قوله، وها هي الآن تحاول استغلال ذلك الحب الذي رفضته!

أمسكت ميريام بيده، ولم يستطع أن يخلصها من بين يديها دون اللجوء للعنف، وصرخت قائلة: «إذا كنت شعرت في حياتك بلوعة حب امرأة، فلن تستطيع رفض مثل هذا المعروف، هذا المعروف الصغير! أرجوك، يا بيتر، لأجل الأوقات الخوالي!»

جفل بيتر فجأة، وكذلك فعلت ميريام. فقد صدر صوت من ناحية الباب يقول: «هذه إذن واحدة من صديقاتك، أليس كذلك؟» كانت جلاديس تقف عند الباب تحرق في وجهه وقد تصلب جسدها من فرط الغضب، ويدها الصغيرتان مضمومتان في قوة، وقالت: «هذه إذن واحدة من حبيبائك من الحُمر، واحدة من نساءك الأمميات؟» ثم ضربت الأرض بقدمها، وقالت: «قفي، أيتها الفاجرة! قفي، أيتها العاهرة!» وبينما كانت ميريام لا تزال راكعة، وقد سمرتها الدهشة، هجمت عليها جلاديس، وأنشبت يديها في شعرها الأسود الثقيل وجذبتة، فسقطت ميريام على الأرض. صرخت جلاديس: «سأعلمك درسًا، أيتها المتحررة! سأعلمك كيف تقيمين علاقة غرامية مع زوجي!» وظلت تجر ميريام في أنحاء الغرفة من شعرها الأسود، وركلتها وخذشت بشرتها، حتى اضطر عدد من الثيران للتدخل في نهاية المطاف لإنقاذ حياة الفتاة.

في الواقع، كانت جلاديس قد أُخبرت عن الماضي المخزي لبيتر قبل أن تتزوجه؛ وكان جوفي هو من أخبرها، وأخبرت بيتر أن جوفي أخبرها، وذُكرت بيتر بذلك مرارًا وتكرارًا. ولكن أدخلتها رؤية واحدة من هؤلاء «النساء الأمميات» في حالة من الهياج، ومر أسبوع كامل قبل أن يعود السلام إلى عائلة جادج. وخلال تلك الفترة، واجه بيتر المسكين تقلبات عاطفية عاصفة، سواء في المنزل أو في المكتب. كانوا يجهزون قطار الحُمر الأول، وشعر بيتر وكأن جميع الحُمر الأجانب الذين عرفهم يحاصرونه محاولين الوصول إليه وتعذيب روحه وضميره. وُضِعَ ابن عم سادي تود، الذي وُلِدَ في إنجلترا، على متن هذا القطار الأول، وكذلك الحطاب الفنلندي الذي تعرف عليه بيتر في اتحاد العمال الصناعيين العالمي، وعامل مصنع السيجار البوهيمي الذي أكل بيتر في منزله عدة مرات، وأخيرًا مايكل دوبين، الصبي اليهودي الذي قضى بيتر معه خمسة عشر يومًا في السجن، والذي كان أحد ضحايا الجلد بالسوط الأسود.

لم يتوقف مايكل عن النواح، فقد كان يعول زوجةً وثلاثة أطفال، وادعى أن «الثيران» سرقوا كل مدخراته عندما داهموا منزله، وكانت مائتي أو ثلاثمائة دولار. وبالطبع، أصر بيتر على أنه لا يستطيع فعل شيء، فقد كان دويين أحمر وأجنبيًا، وعليه أن يرحل. عندما كانوا يضعونهم على متن القطار، كانت زوجة دويين وخمسون امرأة أخرى يصرخن ويشبكن أيديهن وحاولن اختراق صفوف الحراس للوصول إلى أحبائهن. اضطرت الشرطة إلى ضربهن في بطونهن بالهراوات لمنعهن من فعل ذلك، وعلى الرغم من كل هذه الضربات، نجحت السيدة دويين المحمومة في اختراق صف الحراس، وألقت نفسها تحت عجلات القطار، وتمكنوا من سحبها في آخر لحظة لينقذوا حياتها. لا شك في أن مشاهد مثل تلك لها تأثير سيء على الرأي العام؛ لذا اتصل جوفي بمحرري جميع الصحف، وحصل على موافقتهم جميعًا بعدم نشر أي تفاصيل.

القسم الرابع والثمانون

كانت قطارات الحُمُر في جميع أنحاء البلاد تتحرك شرقًا محملةً بـ «أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي» والشيوعيين، والمناهضين للحرب والفضويين، ومئات الأنواع الأخرى من البلشفيين. كانت القطارات محملة بهم بكامل سعتها، وبدأت رحلتها إلى روسيا؛ كان يُطلق عليها اسم «سفينة الحُمُر»، وأثار خطباء الشارع الشيوعيون ضجةً هائلة، وقارن أحد رجال الدين الشيوعيين «سفينة الحُمُر» بسفينة مايفلور! كما كان هناك مسئول منتم للحُمُر في واشنطن، أثار ضجةً وألغى مجموعة كاملةً من أوامر الترحيل، بما في ذلك بعض القضايا التي كان يتابعها بيتر. وكان هذا، بطبيعة الحال، مزعجًا لبيتر وزوجته؛ وفوق ذلك وقع حادث آخر كان أكثر إزدلالًا.

كان هناك اجتماع جماهيري «للمتعاطفين مع الحُمُر» عُقد في المدينة الأمريكية للاحتجاج على عمليات الترحيل. قال جوفي إنهم على الأرجح سيدهمون الاجتماع، ويجب أن يذهب بيتر معهم حتى يتمكن من تحديد الشيوعيين للثيران. كانت العملية تجري تحت إشراف محقق شرطة يدعى جاريتي، وكان رئيس ما يُطلق عليه «فرقة القنابل»، ولكن لم يكن هذا الرجل يعرف شيئًا، وكان معتادًا على اللجوء إلى بيتر للحصول على النصيحة. ولكنه كان يحمل المسؤولية الكاملة عن هذا الاجتماع، وطلب من بيتر أن يذهب إلى المنصة معه، فذهب بيتر. كان هناك حضور ضخم، وكان كل غضب الحُمُر المكبوت منذ عدة أشهر ينفجر في صورة عاصفة من الانفجالات. كان ثمة خطباء، رجال متأنقون ويبدون محترمين، ولم يكن من الممكن التفرقة بينهم وبين حكام البلاد الأصليين، وكانوا يتقدمون على المنصة ويقولون جملاً تُصنَّف في أعلى درجات الخيانة، ويدينون الحكومة، ويدينون الحصار المفروض على روسيا، ويمدحون الحكومة البلشفية في روسيا، ويعلنون أن من ذهبوا إلى هناك على «السفينة السوفييتية» هم المحظوظون؛ لأنهم كانوا ينجون من أرض

الطغيان إلى أرض الحرية. كل بضع جمل، كان الخطيب يُجَبَّر على التوقف بسبب عاصفة من التصفيق تندلع بين الحضور.

وماذا كان بيد محقق شرطة أيرلندي كاثوليكي مسكين أن يفعل أمام عرض كهذا؟ كان أحد الخطباء يقف معلناً: «عندما تصبح حكومة من أي نوع مدمرةً لهذه الغايات، يحق للشعب تغييرها أو إبطالها، وإنشاء حكومة جديدة تُرسي أسسها على هذه المبادئ، وتنظم سلطاتها بالشكل الذي يراه الشعب أكثر ملائمةً لتحقيق سلامته وسعادته.» التفت جارييتي إلى بيتر، وقال له ووجهه الأيرلندي الطيب ممتقع من الذعر: «ما رأيك في ذلك؟» رأى بيتر أن هذا يكفي. كان بيتر يعلم أن الآلاف من الرجال في جميع أنحاء أمريكا أُرسِلوا إلى السجن لقول أشياء أقل خطورة من ذلك. كان بيتر قد قرأ الكثير من كتيبات التعليمات الصادرة من مكتب النائب العام للولايات المتحدة، وكان يعلم بصورة رسمية أن هذه الكلمات تحديداً هي التي لا يُسَمَح لك بأي حال من الأحوال أن تتفوه بها، أو أن تكتب عنها، أو حتى أن تراود تفكيرك. قال بيتر لجارييتي: «لقد تمادى هذا الرجل بما يكفي. يجب أن تعتقله.» تحدث جارييتي إلى رجاله الذين اعتلوا المنصة، وأوقفوا الخطيب ووضعوه وجميع زملائه الخطباء رهن الاعتقال، وأمروا الحضور بالخروج من المبنى. كان هناك مائتا رجل شرطة ومحقق تحت إمرة جارييتي، فشكّلوا صفّاً حاملين هراواتهم، وساقوا الحشد أمامهم، وألقوا بالخطباء في عربة دورية. عاد بيتر بعد ذلك إلى مكتب جوفي، وأخبره بما فعل، واستقبل بتصرف نكّرهُ بتلك المرة التي واجهه فيها جوفي برسالة نيل دولين! صاح جوفي: «هل تعلم من يكون ذلك الرجل الذي اعتقلته؟ إنه شقيق أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي! وماذا تعتقد أنه كان يقول؟ كانت تلك جملة مقتبسة من وثيقة إعلان الاستقلال!»

لم يستطع بيتر أن «يستوعب»: كان بيتر زاهلاً تماماً. هل يحق لرجل أن يخالف القانون لمجرد أنه شقيق أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي؟ وما الفارق الذي يحدثه كون هذه الكلمات مقتبسة من إعلان الاستقلال إذا كانت تثير الفتن، وإذا لم يكن من المسموح قولها؟ أدى هذا الحادث إلى تلقي جوفي وسلطات الشرطة في المدينة الكثير من التوبيخ، حتى إن جوفي جمع جميع رجاله وألقى عليهم محاضرةً شرح لهم فيها حدود الأنشطة المناهضة للحُمُر، ومن هم الأشخاص الذين لا يمكن اعتقالهم، وما الذي لا يمكن منع الناس عن قوله. على سبيل المثال، لا يمكن اعتقال رجل لاقبائه كلمات من الكتاب المقدس.

اندفع أحد الرجال قائلاً: «ولكن، يا إلهي، يا جوفي. هل يجب علينا جميعاً أن نحفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب؟»

انفجر الجميع ضاحكين، فقال جوفي مُقِرّاً: «لا. ولكن على الأقل تعامل بحذر، ولا تعتقل أي شخص يقول أي شيء يبدو كما لو أنه مقتبس من الكتاب المقدس.»
تدخل رجل آخر كان قساً في السابق: «اللعنة! هذا سيكبل أيدينا أكثر من الحكم بالسجن! فلتستمع لما يوجد في الكتاب المقدس!»

وبدأ في اقتباس بعض الجمل، وأدرك بيتر أنه لم يسمع أي حوار بلشفي أكثر فظاعة مما سمع الآن. جعل ذلك المرء يدرك أكثر من أي وقت مضى مدى تعقيد مشكلة الحُمر؛ فقد أصر جوفي، بغض النظر عن كل شيء، أن كل كلمة من الكتاب المقدس محصنة، وقال: «في وينيبيج، وجهوا لرجل دين تهمةً بسبب اقتباسه لمقطعين من سفر إشعياء، لكنهم لم يتمكنوا من مواجهة العواقب، وكان عليهم أن يطلقوا سراح الرجل.» وينطبق الأمر نفسه على وثيقة إعلان الاستقلال؛ يمكن لأي شخص أن يقتبس منها، بغض النظر عن مدى تحريض الكلمات. وينطبق الأمر نفسه أيضاً على الدستور، حتى وإن كان الجزء المسمى بوثيقة الحقوق ينص على أن كل شخص في أمريكا من حقه أن يفعل جميع الأمور التي كان مكتب جوفي يزج بالناس في السجن بسبب فعلها!

بدأت هذه الفكرة جنونية تماماً، ولكن جوفي وضحا لرجاله على أنها مسألة سياسية بحتة. وإذا تبادوا، فسيخرج هؤلاء من السجون ويستميلون المصوتين، وربما يحكمون البلاد رغماً عنهم، حينئذ، أين سيذهبون؟ لم يكن بيتر قد أولى السياسة أي اهتمام في السابق، لكنه وجلاديس أدركا بعد هذه المحاضرة أنه يجدر بهما أن يوسعا من منظورهما. لم يكن زج الشيوعيين في السجن وكسر جماجمهم كافياً، فكان يجب عليك أن تحافظ على تعاطف الجمهور مع ما تفعل، وأن تجعل الجمهور يستوعب ضرورته، وأن تستخدم ما يسمى «الدعاية»، لتبقي الجمهور على دراية بمدى بشاعة هؤلاء البهائم، والطبيعة اليائسة لغاياتهم.

كان الرجل الذي أدرك هذه الحقيقة بوضوح هو النائب العام للبلاد، وأشار جوفي في محاضراته إلى الطبيعة المزدوجة لأنشطته. لم يكن النائب العام يعمل على تفكيك الحزب الشيوعي وحزب العمل الشيوعي وإرسال أعضائهما إلى السجن فحسب، بل كان يستخدم أموال إدارته لإرسال تيار لا نهائي من الدعاية هدفه إبقاء البلاد في حالة خوف دائم من مؤامرات الحُمر. لقد كلف رجالاً في المدينة الأمريكية بالعمل على تحليل البيانات التي

جمعها جوفي، كما أنه سيُلقي خطابًا كل أسبوع أو أسبوعين في مكان ما، أو سيصدر بيانًا للصحف يتحدث عن مؤامرات تفجير جديدة ومؤامرات جديدة للإطاحة بالحكومة. وكما كان بارعًا في ذلك! كان يحمل معه صورًا لأقبح الحُمر، صورًا التَّقَطت بعد أن سُجنوا لأسابيع بدون حلاقة لحاهم، وبعد تعذيبهم لتعكير مزاجهم، وستُطبع هذه الصور على أوراق تحت عنوان: «رجال مثل هؤلاء قد يحكمون بلادك». ثم سترسل هذه الأوراق إلى عشرة آلاف جريدة ريفية في جميع أنحاء البلاد، وستنشرها تسعة آلاف وتسعمائة جريدة، وسيغرب تسعة وتسعون مليون أمريكي في قتل الشيوعيين في صباح اليوم التالي. كانت هذه الخطة ناجحة لدرجة أن النائب العام كان يتوقع أن تساعد على الترشح للرئاسة، وكانت جميع وكالات وقسمه تعمل لتحقيق تلك الغاية.

كانت جميع وكالات الشركات الكبرى الأخرى في جميع أنحاء البلاد تطبق العملية نفسها. نشرت «رابطة تطوير أمريكا» في المدينة الأمريكية إعلانات على صفحات كاملة في جريدة «تايمز»، وفعلت «جمعية البيت والموقد» في إلدورادو الأمر نفسه في جريدة «تايمز» إلدورادو، وفعلت «فرقة الدفاع الوطني» الأمر نفسه في جريدة «بانر» فلاجلاندا. كانوا يحققون في سجلات جميع المرشحين السياسيين، وإذا أظهر أي منهم أدنى ظل من اللون الوردى، كان مكتب جوفي يبدأ في التنقيب في سجلاته والتوصل إلى فضائح عنه، ثم يمول رجال الأعمال صندوق حملة كبير، ومن ثم يحل هؤلاء المرشحين في قاع استطلاعات الرأي. كانت هذه هي طريقة عملهم، وكان يجب على جميع عملاء جوفي أن يضعوا في اعتبارهم مدى أهمية هذه العملية، ويجب ألا يُقدِّموا على أي فعل من شأنه أن يعرقل هذه الحملة السياسية، تلك الدعاية التي تصب في صالح القانون والنظام.

القسم الخامس والثمانون

خرج بيتر من هذا الاجتماع رجلاً جاداً، وأصبح يُدرك للمرة الأولى مسؤولياته باعتباره ناخباً، وراعياً للناخبين الآخرين. وافق بيتر على رأي جلاديس بأن منظوره كان محدوداً للغاية؛ فقد كان تصوُّره لواجباته باعتباره عميلاً سرياً لا يزال التصوُّر الذي يعود إلى ما قبل الحرب. كان عليه أن يدرك أن العالم قد تغير، ففي هذا العالم الجديد الذي أصبح جاهزاً للديمقراطية، كان العميل السري هو الحاكم الحقيقي للمجتمع، والمدير الحقيقي لشئون البلاد، وإن صح القول، الوصي على الحضارة. يجب على بيتر وزوجته أن يتقبَّلا هذا الدور الجديد وأن يُهيئاً أنفسهما له. كما يجب عليهما ألا يتأثرا بالاعتبارات الشخصية، ولكن يجب أن يُقرَّرا في الوقت نفسه بحقيقة أن هذا الدور الأكبر سيحمل أفضلية أكبر لهما؛ سيمكّنهما من التقدم في العالم، ولقاء أفضل الناس. على مدار خمس أو ست سنوات من شبابها، كانت جلاديس تجلس لتلمع أظافر النساء المتأنقات وتداعب أيديهن البيضاء، وكانت تستعر دوماً نار في صدرها محفزةً إياها لأن تنتمي ذات يوم إلى عالم الأناقة هذا، وستلتقي بهؤلاء النساء نداءً لهن، وليس مجرد عاملة لديهن، ولن تمسك بأيديهن فقط، بل سيمسكن هن أيضاً بيدها.

ها هي ذي قد حانت الفرصة. دخلت في مناقشة قصيرة مع جوفي، وقال جوفي إنها ستكون فكرة جيدة، وسيتحدث إلى بيبي ناش، الأمين العام لـ «رابطة تطوير أمريكا»، وقد فعل، وفي الأسبوع التالي أعلنت جريدة «تايمز» المدينة الأمريكية أن صف دراسة الكتاب المقدس للرجال في كنيسة بيت لحم سيعقد اجتماعاً مهماً. وسيدير الاجتماع عميل حكومي «سري» كان منتمياً إلى الحُمر سابقاً ظل سنواتٍ عديدةً أحد أخطر المحرضين، ولكنه أدرك خطأه، وكفَّر عنه عبر تقديم خدماته للحكومة خلال المحاكمات الأخيرة لأعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي.

لم تكن كنيسة بيت لحم تعني الكثير، فقد كانت طائفة غامضة مثل الرولرز المقدسة؛ ولكن كانت جلاديس حكيمة، وأصرت على أنه لا يجدر بالمرء أن يحاول الصعود إلى قمة الجبل في خطوة واحدة. ويجب على بيتر أن «يجرب الأمر على شيء أقل أهمية» أولاً، وإذا فشل، فلن تكون الخسارة كبيرة.

ولكن عملت جلاديس بجد لإنجاح هذه المحاضرة كما لو كانوا يدخلون إلى المجتمع الحقيقي. فأمضت عدة أيام في تجهيز زيتها وزى بيتر، وأمضت يوماً كاملاً في وضع مساحيق تجميلها، وقبل أن يخرجها، أمضت ساعة كاملة على الأقل في وضع اللمسات الأخيرة على نفسها أمام المرآة، والتأكد من كمال جميع تفاصيل بيتر. عندما قدمها السيد ناش شخصياً إلى القس زيديا موجينز، وعندما خرج هذا الرسول من القдом الثاني إلى المنصة وقدم زوجها للحضور الكبير من الطبقة العاملة، كانت جلاديس ترتجف من فرط السعادة لدرجة أن الأمر تحول إلى ألم أكثر من كونه متعة.

لم يكن إلقاء بيتر للمحاضرة مثالياً بالطبع. فقد نسي ما عليه قوله في بعض الأحيان، وتلعثم وتأتأ، ولكنه تذكّر نصيحة جلاديس عندما قالت له إنه إذا علق، فليبتسم ويقول إنه لم يتحدث أمام جمهور من قبل. سار الأمر بعد ذلك بصورة جيدة، وصُعق الجميع في صف دراسة الكتاب المقدس للرجال من التجليات المذهلة لذلك الرجل الذي كان منتمياً للحُمر سابقاً والعميل السري الحالي للقانون والنظام. دُعي بيتر مرة أخرى في الأسبوع التالي، وجاءت الدعوة هذه المرة من رابطة القديسين الشباب، وعندما أبلى بلاءً حسناً هناك أيضاً، دعته جمعية الرجال المعلنين، ثم نادي البسكويت والجبين. بحلول ذلك الوقت، كان قد اكتسب ما أسمته جلاديس «الذكاء الاجتماعي»، وانتشرت شهرته كالنار في الهشيم، ثم جاءت اللحظة الفارقة أخيراً، فقد استدعي إلى بارك أفينيو لمخاطبة أعضاء جمعية الرفاهية، وهي منظمة رعية تابعة لكنيسة الرحمة الإلهية!

كان هذا هو الهدف الذي وضعت جلاديس نُصب عينيهما. كانت هذه هي اللحظة المهمة بالفعل، التي أُعدَّ بيتر ودُرّب من أجلها. كان منزلها على بُعد بضعة شوارع فقط من الكنيسة، لكن أصرت جلاديس على أنهما يجب أن يصلا إلى هناك في سيارة أجرة، وعندما دخلا قاعة الأبرشية وجاء القس دي ويلوبي ستوتربريدج، ذلك السيد الراقي الذي يشبه الإنجليز، وصافحهما، أدركت جلاديس أنها حققت أخيراً ما كانت تصبو إليه. رافقها القس بنفسه إلى المنصة، وبعد أن قدم بيتر، جلس بجوارها، الأمر الذي أكد تأكيداً راسخاً مكانتها الاجتماعية.

كان بيتر قد حفظ محاضراته عن ظهر قلب، وعرف منها الأجزاء التي تثير الضحك والتي تثير الدموع والتي تثير تصفيق الوطنيين، وأصبح نجاحه مضموناً. بعد المحاضرة، أجاب بيتر عن الأسئلة التي طُرحت عليه، وورّع اثنان من كتّبة بيبي ناش بطاقات عضوية «رابطة تطوير أمريكا» على الحضور، وكانت رسوم عضويتها خمسة دولارات في السنة، والعضوية الدائمة تساوي خمسة وعشرين دولارًا في السنة، والعضوية مدى الحياة تساوي مائتي دولار نقدًا. صافح بيتر أعضاء من الطبقة الاجتماعية الأرقى في المدينة الأمريكية، وطلبوا منه جميعًا مواصلة العمل، فبلاده في حاجة إليه. في صباح اليوم التالي، نُشر موضوع عن محاضراته في جريدة «التايمز»، وفي صباح اليوم الذي يليه، نُشر مقالٌ حول تجلياته، مع وسم: «انضم إلى رابطة تطوير أمريكا».

القسم السادس والثمانون

في صباح اليوم الثاني، عندما وصل بيتر إلى مكتبه، وجد في انتظاره رسالةً مكتوبةً على ورقٍ مكتبيٍّ غاليٍّ ومميّزٍ، بخط امرأةٍ طويلٍ ذي حوافٍّ حادة. فتح بيتر الرسالة وجفل؛ فقد كان في أعلى الرسالة شعاعٌ من نوعٍ ما ونقشٌ باللاتينية يقول: «جمعية بنات الثورة الأمريكية». أبلغته الرسالة التي خطتها أمينة الجمعية بأن السيدة وارينج سامي تطلب من السيد بيتر جادج أن يتكرم بزيارتها في تمام الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم. فحص بيتر الرسالة، وحاول معرفة أي نوع من الحُمر تمثله. كان معجباً بالورق المكتبي والنبرة الملكية، ولكن كلمة «الثورة» تلك كانت واحدة من الكلمات المحظورة. لا بد أن السيدة وارينج سامي واحدة من «حُمر الصالونات» مثل السيدة جود.

أخذ بيتر الرسالة إلى ماكجيفني، وقال متشككًا: «ما نوع مؤامرة الحُمر هذه؟»

قرأ ماكجيفني الرسالة، وقال: «مؤامرة حمراء؟ ماذا تعني؟»

قال بيتر موضحًا: «أنظر. مكتوب عليها «بنات الثورة الأمريكية»».

حدّق ماكجيفني في وجهه؛ فقد كان يظن في البداية أن بيتر يمزح، ولكن عندما رأى أمارات الجدية على وجهه، تبسم في وجهه، وقال: «أيها الأحمق! ألم تسمع من قبل عن الثورة الأمريكية؟ ألا تعرف شيئاً عن الرابع من يوليو؟»

في تلك اللحظة رن الهاتف وقاطع حديثهما، وأعطى ماكجيفني الرسالة لبيتر قائلاً: «اسأل زوجتك عنها!» عندما دخلت جلاديس الغرفة، أعطاهها بيتر الرسالة، وبدأت عليها الحماسة الشديدة. يبدو أن السيدة وارينج سامي سيدة مجتمع راقية للغاية في المدينة الأمريكية، وأن هذه الثورة الأمريكية التي كانت ابنة لها كانت ثورة محترمة حدثت منذ أمد بعيد، وأن أفضل الناس هم من ينتمون إليها، وكان من القانوني والمناسب الكتابة عنها، بل ووضع اسمها على رأس الورق الخاص بك. يجب أن يعود بيتر إلى منزله على

الفور لارتداء أفضل ملابسه، والاتصال بأمانة الجمعية وإبلاغها بأنه سيكون سعيدًا بزيارة السيدة وارينج سامي في الموعد المحدد. كانت هناك بعض الأمور الأخرى التي يجب على بيتر دراستها. يجب أن يحصل على نسخة من سجل المجتمع، «سجل الشخصيات البارزة في المدينة الأمريكية»، ويجب أن يتعرف على تاريخ بلاده، ويتعلم إعلان الاستقلال، والفارق بين ثورة حدثت منذ وقت طويل وأخرى تحدث الآن.

وهكذا، ذهب بيتر للقاء سيدة المجتمع العظيمة في قصرها المبني بالحجر الرمادي، ووجدتها فاحشة الثراء مثل السيدة جود تمامًا، ولم تتفوق عليها إلا في احترامها لمكانتها الاجتماعية؛ فلم ترتكب خطأ التعامل مع بيتر كندٍّ لها؛ ومن ثم لم يخطر ببال بيتر أنه قد يستقر على الدوام في منزلها. كان الهدف من طلبها من بيتر أن يزورها هو أن تخبره بأنها سمعت عن محاضراته حول خطر الحُمُر، وأنها كانت رئيسة مجلس إدارة راعيات المنزل المخصص للمحاربين القدامى المعاقين في المدينة الأمريكية، وكانت ترغب في أن يلقي بيتر محاضرة على المحاربين القدامى. فقال بيتر، الذي كان قد تلقى تعليماتٍ مسبقة من جلاديس، إنه سيكون سعيدًا للغاية بالتبرع بهذه المحاضرة مساهمةً وطنيةً. شكرته السيدة وارينج سامي بجدية باسم بلاده، وقالت إنها ستعلمه باليوم المحدد للمحاضرة.

عاد بيتر إلى المنزل، ورأى أمارات الاستياء على وجه جلاديس، فكان من المفترض أن تُلقى المحاضرة على مجموعة من الجنود عديمي الفائدة في قاعةٍ مجهولة، بينما كانت تأمل في أن تُلقى المحاضرة في مقر جمعية بنات الثورة الأمريكية نفسه، وفي منزل السيدة وارينج سامي. ومع ذلك، كان اهتمام السيدة وارينج سامي بأي شيء يُعد نجاحًا في حد ذاته. لذا سرعان ما عادت إلى جلاديس غببتها، وأخبرت بيتر عن حياة السيدة وارينج سامي، ويبدو أنها حصلت على هذه المعلومات القيمة من النميمة التي تدور في صالونات العناية بالأظافر.

ثم تحدثت جلاديس إلى بيتر عن نفسه وهي في مزاجٍ جيد. كانا قد وصلا إلى نقطة يمكنهما النظر منها إلى الماضي ورؤيته جملةً واحدة، وبفضل الثقة والألفة التي تميزت بها حياتهما الزوجية، كانا قادرين على التعلم من أخطائهما والتخطيط لمستقبلهما بحكمة. لقد ارتكب بيتر العديد من الأخطاء، وعليه أن يقر بذلك بلا شك. هل أقر بيتر بذلك؟ نعم، لقد فعل. ولكن واصلت جلاديس حديثها قائلةً إنه كافح بشجاعة، وكان محظوظًا للغاية أن أنعم الرب عليه بواحدة من أعظم نعم الحياة، تعاون امرأةٍ صالحة وقادرة. كانت جلاديس حاسمة تمامًا عندما قالت تلك الكلمات الأخيرة، ووافقها بيتر على قولها.

كما وافقها أيضًا عندما قالت إنه من واجب الزوجة الصالحة والقادرة أن تحمي زوجها من أجل تحقيق التوازن في حياتهما الزوجية، حتى يتمكن من تجنب الفخاخ التي يضعها أعداؤه تحت قدميه. كان بيتر قد تعلم بالطريقة الصعبة ألا يجذبه وجه جميل مرة أخرى أبدًا، حتى لا يستيقظ في صباح اليوم التالي ويجد جيوبه فارغة. أقر بيتر بذلك أيضًا. مع استمرار هذه الحادثة، أدرك أن الانتصارات المتتالية التي أصبح يشهدها في حياته كانت بفضل زوجته وحدها، أو على الأقل، أدرك أنه لن تفيده محاولة تغيير قناعة زوجته بشأن هذا الموضوع. وقَبِلَ بكل تواضع نبوءاتها بشأن سلوكه المستقبلي، فكان سيحضر راتبه لها نهاية كل أسبوع، وستستخدم زوجته هذا الراتب، بالإضافة إلى راتبها، لتحسين مظهرهما وأسلوبهما، ولتساعدتهما في الترتي إلى مكانة اجتماعية أعلى.

بتطبيق بيتر تعليمات زوجته بحذافيرها، أصبح حديثه أكثر رقيًا، وحركاته أكثر وقارًا. كانت تجربته باستمرار أن مستقبل المجتمع يعتمد على معرفته ومهارته، ووافقها على ذلك أيضًا. فتعلم ما يجدر به فعله وما لا يجدر به فعله، فلن يتجرأ على عبور الخط الفاصل نحو الجريمة مجددًا أبدًا، أو يخاطر بتجربة حظوظه مع الابتزاز. ولن يتجرأ مرةً أخرى على العمل الحر تحت تأثير كائنٍ دنيء على غرار نيل دولين، ولكنه سيساند «النظام»، وسيضع في اعتباره أن النزاهة أفضل سياسة. ومن ثم سيتقدم بثبات، وسيلتقي بأهم الرجال الكبار في البلاد، وسيذهب لزيارتهم، ليس متذللًا تداعب أصابعه قبعته في توتر، بل بهدوء واثق. سيقابل وكلاء النائب العام الذين يطمحون لأن يصبحوا رؤساء للدولة، وسيزودهم بمعلومات يستخدمونها في جرعة الرعب الأسبوعية من الحُمر. وسيقابل المشرعين الذين يريدون الإطاحة بالاشتراكيين المنتخبين من مناصبهم، والمحافظين الذين يرغبون في سجن قادة الإضرابات «غير القانونية». سيقابل الكتاب الصحفيين الذين يكتبون المقالات، والروائيين المحليين الذين يبحثون عن أحد الحُمر المحليين.

ولكن تكمن أفضل فرص بيتر في كونه محاضرًا، فمساعدته ذلك في السفر إلى جميع أنحاء البلاد محدثًا جلبة. هل كان يعرف السبب في ذلك؟ أجاب بيتر بالنفي، فلم يكن يعرف. لا بأس، يمكن لجلاديس أن تخبره؛ السبب في ذلك أنه رومانسي. لم يكن بيتر يعرف ماذا تعني هذه الكلمة بالضبط، لكنها بدت مجاملة، فابتسم بغباء كاشفًا عن أسنانه المعوجة، وسأل جلاديس كيف عرفت أنه رومانسي. فجاء الرد في صورة أمر مفاجئ له بأن ينهض واقفًا ويدور حول نفسه ببطء.

لم يحب بيتر النهوض من كرسيه الوثير المريح، لكنه فعل ما طلبته زوجته التي فحصت جميع جوانبه، ثم صاحت: «بيتر، يجب أن تتبع نظامًا غذائيًا؛ لقد أصبحت

في حجم الخرتيتا! كانت تتحدث بجزع، فشعر بيتر بالخوف، فقد حسب أنه مريض. ولكن جلاديس أضافت: «لا يمكنك أن تكون شخصيةً رومانسيةً تقف على منصة تلقي محاضرات إذا كان بطنك يكاد يُلامس الأرض!»

وجد بيتر أن الحديث عنه أمر مثير للاهتمام، فسأل جلاديس مرة أخرى عن السبب الذي جعلها تظن أنه رومانسي. قالت إن ذلك كان لعدة أسباب، ولكن السبب الرئيسي هو أنه كان مجرمًا خطيرًا، ثم اعتزل الجريمة، الأمر الذي أسعد المتدينين، ثم جاءت نهاية حكايته سعيدةً بالزواج، الأمر الذي أسعد قراء الروايات.

قال بيتر ببراءة: «هل هذا صحيح؟» فأكدت له أنه كذلك. فسألها: «وماذا أيضًا؟» فشرحت له أنه كان يعرف عن كتب أولئك الأشرار الخطرين وجميع تفاصيلهم، غيلان العالم الحديث، البلشفيين الذين لم يعرف عنهم عموم الناس شيئًا إلا عبر الصحف. كما أنه لم يرو قصة مثيرة فحسب، بل أنهاها أيضًا بدرس ذي عائد مادي. وكان الدرس هو «تبرع لجمعية تطوير أمريكا. أصدر شيكاتك لجمعية البيت والموقد. يعتمد وجود بلادك على دعمك فيلق الدفاع الوطني.» لهذا السبب ستذيع شهرة محاضرات بيتر، وسيتوق أمثال جوفي وبيلي ناش من كل مدينة وبلدة في أمريكا لأن يذهب إليهم، وعندما يفعل، ستنشر الصحف صورته، وسيُرحَّب قادة أرقى المجتمعات به وبزوجته. سيصبحان من أبرز شخصيات المجتمع، وسيزوران منازل الأغنياء، وسيصبحان تدريجيًا من الأغنياء.

تفحصت جلاديس زوجها مرةً أخرى أثناء توجههما نحو غرفة نومهما. نعم، كان بلا شك يزداد «وزنًا»، وسيتعين عليه ممارسة الجولف. كان يضع علمًا أمريكيًا صغيرًا يتدلى من سلسلة ساعته، وتساءلت عما إذا كان ذلك فجًا إلى حد ما. كانت جلاديس أيضًا ترتدي خاتمًا من الماس الحقيقي، وتعلمت كيف تقول «تُحَف» و«دورة مياه». تئاءبت بطريقة جذابة بينما كانت تخلع «ثوبها المُفصل» البني الأنيق، وفكرت في أن الحصول على هذه الأشياء أصبح سهلًا وأمنًا.

أصبحت وبيتر يمتلكان جميع هذه الأشياء بلا استثناء. لم يعودا يخشيان أن يجدا نفسيهما ذات يوم عاطلين. ووصلا إلى قناعة بأنه ليس من السهل القضاء على الخطر الأحمر؛ إنه بمثابة سرطان متأصل في دم المجتمع، ويظهر من وقت لآخر في صورة طفح جديد. كانت جلاديس تتفق مع الحُمُر على نقطة واحدة، وهي أنه ما دامت هناك طبقة من الأغنياء والمزدهرين، فسيظل الاستياء الاجتماعي قائمًا على الدوام، وستظل هناك دائمًا مجموعة من الأشخاص تتكسب من التحريض والإدانة والنداء بالتغيير. المجتمع أشبه

بحديقة عندما تزرع خضراواتك فيها كل عام، تنبت معها الأعشاب الضارة، وعليك أن تذهب إليها مباشرةً وتقطع رءوس هذه الأعشاب. وكان زوج جلاديس خبيراً في البستنة يعرف جيداً كيف يجث الأعشاب من جذورها، ويعرف أن المجتمع لن يتمكن أبداً من الاستغناء عن خدماته. وما دامت البستنة مستمرة، فسيظل بيتر رئيساً لمجثي الأعشاب، ومعلماً لصفوف من مجثي الأعشاب الشباب.

كان من الرائع أن تتزوج رجلاً مثله! كانت هذه الجائزة التي تحصل عليها المرأة الصالحة مقابل مساعدة زوجها وجعله مواطناً صالحاً ووطنياً ومدافعاً عن القانون والنظام؛ هذا لأنه من المعتاد، بالطبع، أن يتأكد أولئك الذين يمتلكون الحديقة من أن ينعم رئيس مجثي الأعشاب الذي يعمل لصالحهم بحياته، وأن يحصل على حصة من أفضل مما تنتجه الحديقة. وقفت جلاديس أمام مرآتها تضفر شعرها قبل النوم، وتفكر في الأشياء التي ستطلب الحصول عليها من هذه الحديقة. إنها تستحق وبيتر الزهور الأجمل، والفواكه الألد، وسيطلبانها. فردت جلاديس ذراعيها عن آخرهما فجأة بعدما شعرت بنشوة الإدراك، وقالت: «لقد نجحنا، يا بيتر! لقد نجحنا! سنملك المال وكل الأشياء الجميلة التي يمكنه شراءها! هل تدرك يا بيتر مقدار ما حققت من نجاح؟»

رأى بيتر وجهها المشرق بالسعادة، ولكنه كان يشعر بالقليل من الخوف والتردد بسبب هذا التقاسم غير المعتاد للشرف. كانت جلاديس مدفوعة بالحنان المزوج بالشفقة. فمدت ذراعيها نحوه، وقالت: «يا عزيزي بيتر المسكين! لقد عاش حياة صعبة! من حظه العسر أنه لم يلتق بي في وقت مبكر من حياته لأساعده!»

ثم أطرقت جلاديس للحظات، واندفعت الكلمات من فمها مجدداً قائلة: «فكّر في الأمر فحسب، يا بيتر، من الرائع أن تكون أمريكياً! في أمريكا، يمكنك دائماً الازدهار إذا أديت واجبك! أمريكا أرض الأحرار! إنك مثال حي على نجاح فتى فقير من شأنه أن يُقنع حتى الحُمُر الأغبياء بأنهم مخطئون. يمكن لأي فتى أن يتقدم إذا ما عمل بجِد! يُقال إنه في أمريكا يمكن حتى لأفقر الصبية أن يصبح رئيساً! هل تؤدُّ أن تصبح رئيساً، يا بيتر؟»

تردد بيتر. فقد كان يشك في قدرته على تحمّل هذا العبء الكبير، لكنه أدرك أنه جلاديس ستستاء لو قال ذلك. فهمس: «ربما، يوماً ما ...»

واصلت زوجته حديثها قائلة: «على أي حال، يا بيتر، أنا مع هذا البلد! أنا أمريكية!» وهذه المرة لم يتردد بيتر، وقال: «بالطبع أنتِ كذلك!» وأضاف صيغته المفضلة: «أمريكية حقيقية بنسبة ١٠٠٪!»

مُلْحَق

جعل الكاتب بعض الناس يقرءون مخطوطة «١٠٠٪» واكتشف أن الجميع تتزاحم في أذهانهم سلسلة من الأسئلة التي يرغبون في طرحها على الفور: ما مقدار الجانب الحقيقي من الرواية؟ إلى أي مدى اضطر رجال الأعمال في أمريكا إلى تولي الكشف عن الراديكالية ومنعها؟ هل لجئوا إلى تلك الإجراءات المتطرفة التي سردتها الرواية أثناء القضاء على خطر الحُمُر؟

بعض أحداث رواية «١٠٠٪» خيالية، على سبيل المثال قصة نيل دولين ونيلس أكيرمان، ولكن جميع الأحداث التي تحمل أهمية اجتماعية، حقيقية تمامًا، وهُيئت لتتوافق مع الحقائق التي يعرفها الكاتب بشخصه أو وصلته من أصدقائه. جميع شخصيات رواية «١٠٠٪» تقريبًا تمثل أشخاصًا حقيقيين. بيتر جادج شخصية حقيقية، وتلقى الكاتب منه عدة زيارات أثناء مزاولته أنشطته المهنية؛ وجوفي وماكجيفني شخصان حقيقيان، وكذلك بيبي ناش، وكذلك جلاديس فريسيبي.

بادئ ذي بدء: «قضية جوبر» تماثل في سماتها الرئيسية قضية توم موني. إذا كنت ترغب في معرفة المزيد عن هذه القضية، أرسل خمسة عشر سنتًا إلى لجنة الدفاع عن موني، صندوق بريد ٨٩٤، سان فرانسيسكو، للحصول على كتيب عنوانه «هل يجب أن يُعَدَم موني»، من تأليف روبرت ماينور. تبرع رجال الأعمال في سان فرانسيسكو بمليون دولار لإنقاذ المدينة من الاتحادات العمالية، وكانت قضية موني هي الطريقة التي استخدموها لتحقيق ذلك. ولكن ضَعُفَ القاضي الذي كان أُدين أمامه موني، وكتب إلى النائب العام للدولة بأنه أصبح مقتنعًا بأن موني أُدين بشهادة زور. ولكن في الوقت نفسه كان موني في السجن، ولا يزال هناك حتى الآن. كتب فريمونت أولدر، رئيس تحرير جريدة «كول» في سان فرانسيسكو، الذي يجري تحقيقًا عن هذه القضية، إلى المؤلف منذ فترة قريبة رسالة

تقول: «إنها أغرب قصة حققتُ فيها على الإطلاق. وعندما تتكشف جميع الحقائق التي أظن أنه يمكن كشفها، سيرى الجميع أن الدولة قادرة على قتل رجل أمام أعين المجتمع مستخدمةً الأدوات التي قدمها لها الشعب لتحقيق العدالة. كانت جميع الشهادات المأخوذة في كلٍ من قضيتي موني وبيلينجز شهادات زور، باستثناء الرجل الذي رسم مخططات شارع ماركت.»

إلى أي مدى انتقلت عملية الكشف عن الراديكالية وعقابها في أمريكا من أيدي السلطات الحكومية إلى أيدي «الشركات الكبرى»؟ لا شك في أن أي رجل أعمال لن ينكر أنه عندما تتعلق الأمور بحماية مصالح «الشركات الكبرى»، فلا بد أن تحميها، بل وستحميها. وستستغل السلطات الحكومية قدر الإمكان، ولكن عندما لا تعود ثمة فائدة من السلطات الحكومية بسبب الفساد أو الخوف من السياسة، تصبح «الشركات الكبرى» مجبرة على التصرف بنفسها. خلال إضراب عمال الفحم في كولورادو، جمعت شركات الفحم المال لدفع رواتب لقوات الولاية غير النظامية، وجندت فيالق جديدة من القوات غير النظامية عبر محققها الخاصين. وصف الحُمر هذا الفعل باسم «الحكم تحت تهديد السلاح»، وألف الكاتب أثناء سعيه لفضح الأوضاع رواية عنها بعنوان «مملكة الفحم». كان قائد القوات غير النظامية خلال هذا الإضراب رجلاً يدعى إيه سي فلتس من وكالة بالدوين وفلتس للتحريات، قُتل مؤخرًا أثناء حكمه لعدة مقاطعات للفحم في ولاية ويست فرجينيا.

ستجد الوضع نفسه في مناطق الحطابين في ولايتي واشنطن وأوريجون، وفي مناطق النفط في ولايتي أوكلاهوما وكانساس، وفي مناطق النحاس في ولايات ميشيجان ومونتانا وأريزونا، وفي جميع مناطق مناجم الفحم الكبرى. في منطقة صناعة الصلب في غرب بنسلفانيا، ستجد أن جميع المسؤولين المحليين هم في الأصل مسئولين في شركات الصلب. وإذا ذهبت إلى بريستول في ولاية رود أيلاند، ستجد أن شركة الهند الوطنية لصناعة المطاط قد وافقت على دفع رواتب ثلثي قوة الشرطة في المدينة.

في كل مدن أمريكا الكبرى، تبرعت جمعيات أصحاب العمل بالمال بغرض تحجيم الاتحادات العمالية وسحق الحُمر، وتُنْفَق هذه الأموال بالطريقة التي صورتها رواية «١٠٠٪». في لوس أنجلوس، جمعت جمعية أصحاب العمل مليون دولار، وكانت النتيجة هي قضية سيدني آر فلاورز، التي ذُكرت بإيجاز في هذه الرواية تحت اسم «سيدني». على القارئ الذي يرغب في قراءة تفاصيل عن هذه القضية أن يقرأ الفصل السادس والستين من رواية «جراًة مطلقة». حوكم فلاورز مرتين، ومن المقرر أن يُحاكم للمرة الثالثة، ويُقل

عن مدعينا العام أنه قال إنه سيُحاكم لنصف دُزينة من المرات إذا لزم الأمر. خلال المحاكمة الأخيرة، شهد ما مجموعه خمسة وعشرين شاهداً ضد فلاورز، ومن بينهم إما أمثال بيتر جادج وماكجيفني، أو محققو شرطة، أو موظفون في النظام السياسي المحلي. أخبرني أحد نواب المدعي العام الأمريكي أثناء حديثنا عن القضية، أنه رفض القضية لأنه أدرك أن «رسالة بول» التي تم الضبط على أساسها، كانت ملفقة، وأنه كان متأكداً تماماً من هوية من كتبها. كما أخبرني أن لجنة سرية سُكِّلت في لوس أنجلوس تتألف من خمسين من أكثر أثرياء المدينة نشاطاً، ولكنه لم يتمكن من معرفة ما يفعلون، لكنهم جاءوا إلى قسمه وطلبوا الاطلاع على السجلات السرية للحكومة، وعندما رفض مقاضاة فلاورز، كانوا يملكون نفوذاً كبيراً مكنهم من إجبار حاكم كاليفورنيا على إرسال برقية احتجاج إلى واشنطن. وعندما خضعت للاستجواب على منصة الشهود، كررت هذه التصريحات، فاستُدعي نائب المدعي العام الأمريكي إلى المنصة الذي نسب مزاعمي إلى «خيالي الجامح».

في الإمبراطوريتين الروسية والنمساوية القديمتين، كانت تقنية استدراج المرضين متقدمة للغاية، وكان استخدام الجواسيس والعملاء «السريين» المكلفين بتوريث الحُمُر في الجرائم عملاً مكتمل الجوانب. لا نملك في اللغة الإنجليزية ما يكافئ عبارة «عميل محرّض»، ولكن خلال السنوات الأربع الأخيرة، وضعنا الآلاف منهم قيد العمل في أمريكا. في القضية المرفوعة ضد فلاورز، شهد ضده ثلاثة شهود كانوا يعملون بين أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي لتحريضهم على ارتكاب جرائم، وحصلوا على أموال مقابل الشهادة لصالح الدولة. أقر أحد هؤلاء الرجال بأنه أحرق بنفسه قرابة أربعين حظيرة، وأنه أصبح يتقاضى حالياً ثلاثمائة دولار شهرياً بالإضافة إلى النفقات. في محاكمة ويليام بروس لويد في شيكاغو، المتهم بعضوية الحزب الشيوعي، أُحضر شاهد مماثل. اتهم سانتيري نورتيغا، من مكتب الاتحاد السوفييتي في نيويورك، لويس سي فراينا، رئيس تحرير مجلة «عصر الثورة»، بأنه عميل حكومي، وكتب فراينا في برنامج الحزب الشيوعي البنود التي استُخدمت في ملاحقة وترحيل أعضائه. في ٢٧ ديسمبر ١٩١٩، أرسل رئيس مكتب التحقيقات في وزارة العدل في واشنطن برقية إلى رئيس مكتبه المحلي في بوسطن تحتوي على الجمل الآتية: «ينبغي أن ترتب مع المخبرين السريين لعقد اجتماعات الحزب الشيوعي وحزب العمال الشيوعي في الليلة المحددة. أخبرني بعض المسؤولين أن هذه الترتيبات ستتم.» قُدِّم الكثير من الأدلة على نشاط المرضين أمام القاضي الفيدرالي جي دبليو أندرسون فأعلن الآتي: «لقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الحكومة تمتلك جزءاً من الحزب الشيوعي وتديره.»

يبدو أن القاضي أندرسون لم يكن مقتنعًا بالنظرة المحترمة للعملاء «السرّيين» التي صورها مؤلف رواية «١٠٠٪». يقول القاضي أندرسون: «لا يمكنني أن أجزم بأن جواسيس الحكومة أكثر جدارة بالثقة، أو أقل ميلاً للتسبب بالمشكلات بغرض التريح منها، من الجواسيس الصناعيين. باستثناء أوقات الحروب، عندما يمكن لثان هيل أن يكون جاسوسًا، دائمًا ما يُنتقى الجواسيس من الطبقات غير السوية وغير الموثوقة. إن الرجل ذو العقل الراجح سيرفض هذه الوظيفة. فالشر الذي أحدثه نظام التجسس في مجال الصناعة على مدار عقود من الزمان لم يعد من الممكن حصره. وحتى يُقضى عليه، لن يكون ممكنًا إنشاء علاقات إنسانية لاثقة بين أصحاب العمل والموظفين، أو حتى بين الموظفين وبعضهم. فهو يدمر الثقة والطمأنينة، ويقتل التعاطف في نفوس البشر، وينشر الكراهية.»

إلى أي مدى اضطرت السلطات الحكومية في أمريكا إلى حرمان الحُر من الحقوق المدنية المكفولة للمواطنين الأمريكيين الصالحين بموجب القانون والدستور؟ يمكن للقارئ الذي ينتابه الفضول بشأن هذه النقطة أن يرسل مبلغ خمسة وعشرين سنًا إلى الاتحاد الأمريكي للحقوق المدنية، ١٣٨ غرب شارع ١٣، نيويورك، ليحصل على كتيب بعنوان «تقرير عن الممارسات غير القانونية لوزارة العدل الأمريكية»، وقّع عليه اثنا عشر محاميًا بارزًا في البلاد، من بينهم عميد كلية الحقوق في جامعة هارفارد، ومدع عام أمريكي استقال من منصبه بسبب أفكاره عتيقة الطراز عن القانون. هذا الكتيب مكون من ستة وستين صفحة، مع العديد من الأمثلة والصور. سُردت الممارسات المذكورة تحت ستة عناوين رئيسية: العقوبات القاسية وغير المعتادة؛ الاعتقالات من دون مذكرات ضبط؛ البحث والمصادرة من دون سببٍ وجيه؛ العملاء المحرضون؛ إجبار الأشخاص على أن يشهدوا ضد أنفسهم؛ الدعاية الموجهة من وزارة العدل. يمكن للقارئ أيضًا أن يطلب الكتيب بعنوان «مذكرة بشأن اضطهاد الحركة العمالية الراديكالية في الولايات المتحدة»؛ وكذلك الكتيب المعنون «المحاكمات في زمن الحرب وعنف الغوغاء»، الذي يعود تاريخ نشره إلى مارس ١٩١٩، والذي يقدم قائمة بالقضايا في أربعين صفحة مطبوعة بخط صغير. كما يمكنه أن يقرأ كتيب «قضية مدرسة راند»، الذي نشرته مدرسة راند للعلوم الاجتماعية، ٧ شرق شارع ١٥، نيويورك، والكتيبات التي نشرها المكتب الوطني للحزب الاشتراكي، ٢٢٠ جنوب أشلاند بوليفار، شيكاغو، التي تتحدث عن المحاكمات التي خضعت لها هذه المنظمة.

إلى أي مدى كان من الضروري تعذيب الحُر في السجون الأمريكية؟ يُنصح الأشخاص المهتمون بهذا الموضوع بكتابة رسالة إلى هاري واينبرجر، ٣٢ يونيو سكوير، نيويورك،

للحصول على الكتيب الذي يحمل عنوان «عشرون عاماً في السجن»، والذي يتناول قضية مولي ستايمر وثلاثة آخرين حُكم عليهم بالسجن بسبب توزيع منشورات تحتج على الحرب على روسيا؛ كما يُنصح بإرسال رسالة إلى الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية للحصول على الكتيب الذي يحمل عنوان «السجناء السياسيون في السجون العسكرية الفيدرالية»، وكذلك كتيب «العم سام: السجن»، بقلم وينثروب دي لين، الذي أُعيد طبعه من كتيب «الاستفتاء»، كما يوجد الكتيب الذي يحمل عنوان «سوفييت جزيرة الغزلان، ميناء بوسطن»، الذي نشره فرع الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية في بوسطن، بالإضافة إلى المطبوعات التي تصدرها الشركة الأمريكية للصناعات، ومؤسسة الحرية الأمريكية، ١٦٦ غرب شارع واشنطن، شيكاغو.

قد يكون هناك بعض القراء الذين يملكون روح الدعاية ويسألون عن اعتقال شقيق أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي لقراءته فقرة من إعلان الاستقلال. كان هذا السيد هو شقيق السيناتور الأمريكي فرانس عن ولاية ماريلاند، والغريب في الأمر أن الاعتقال وقع في مدينة فيلادلفيا، حيث أُقر إعلان الاستقلال. وقد يكون هناك بعض القراء الذين يتساءلون عن اتهام رجل دين في وينيبج واعتقاله لاقترابه من سفر إشعياء. جاء نص الاتهام المذكور كالآتي: «أن جي إس ودزورث، في شهر يونيو أو نحوه، في سنة ألف وتسعمائة وتسعة عشر، في مدينة وينيبج، في مقاطعة مانيتوبا، نشر بطريقة غير قانونية وتحريضية كتابات تائره بالكلمات والمعاني الآتية: «وَيْلٌ لِلَّذِينَ يَقْضُونَ أَقْضِيَةَ الْبُطْلِ، وَلِلْكَتَبَةِ الَّذِينَ يُسْجَلُونَ جَوْرًا، لِيَصُدُّوا الضُّعْفَاءَ عَنِ الْحُكْمِ، وَيَسْلُبُوا حَقَّ بَائِسِي شَعْبِي، لِتَكُونَ الْأَرَامِلُ غَنِيمَتَهُمْ وَيَنْهَبُوا الْأَيْتَامَ ... وَيَبْنُونَ بُيُوتًا وَيَسْكُنُونَ فِيهَا، وَيَغْرِسُونَ كُرُومًا وَيَأْكُلُونَ أَثْمَارَهَا. لَا يَبْنُونَ وَآخِرٌ يَسْكُنُ، وَلَا يَغْرِسُونَ وَآخِرٌ يَأْكُلُ. لِأَنَّهُ كَأَيَّامِ شَجَرَةِ أَيَّامِ شَعْبِي، وَيَسْتَعْمَلُ مَخْتَارِيَّ عَمَلِ أَيْدِيهِمْ.»»

أشير في هذه الرواية إلى قضية سنتراليا. لا يمكن لأحد أن يدعي فهمه تقنية القمع المستخدمة ضد الحُمُر حتى يدرس هذه القضية؛ لذا يجب على كل صديق «للشركة الكبرى» أن يرسل خمسين سنتاً، إما إلى مقر اتحاد العمال الصناعيين العالمي، ١٠٠١ غرب شارع ماديسون، شيكاغو، أو إلى جريدة «المحرر»، بنيويورك، أو إلى مجلة «مناجاة العقل»، جيرارد، بكانساس، للحصول على كتيب «مؤامرة سنتراليا»، بقلم رالف تشابلين، الذي حضر محاكمة سنتراليا، وجمع كامل تفاصيلها وعرضها مدعومة بالصور والوثائق. سُردت العديد من القصص الأخرى عن اتحاد العمال الصناعيين العالمي في سياق رواية «١٠٠٪».

سيرغب القارئ في معرفة إذا ما كان هؤلاء الرجال شديدي الخطورة حقًا، وما إذا أُجبر رجال الأعمال في أمريكا على التعامل معهم كما ذُكر في الرواية. يمكن للقارئ أن يراسل المقر الوطني لاتحاد العمال الصناعيين العالمي للحصول على المنشور المكون من أربع صفحات تحت عنوان غريب هو «كُتِبَ تاريخ العمال الصناعيين في العالم بقطرات من الدم». على الرغم من أنه سجل بسيط للقضايا، فإن هناك الكثير من الرجال الذين يقضون فترات طويلة في السجن في الولايات المتحدة بتهمة حيازة نسخة من هذا المنشور، «بقطرات من الدم». ولكنني أثق في أن قراء هذا الكتاب، الذين اعتبرهم جميعًا أمريكيين حقيقيين بنسبة ١٠٠٪ يتعلمون تقنية سحق الحُمر، لن يتعرضوا للتدخل من قبل رجال الأعمال. كما أثق أن رجال الأعمال لن يعترضوا على إعادة طبعي بعض الفقرات من المنشور من أجل جعل الجمهور يدرك كيف يمكن لكتابات هؤلاء الحُمر أن تكون خطيرة. سأقتبس بالطبع، ولكنني لن أتبع مثالهم المحرّض وألطح صفحاتي بقطرات كبيرة من الدم المقلّد. سأقتبس الآتي:

«إننا ندفع بأن أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي قد تعرّضوا للقتل، ونذكر هنا بعض الأشخاص الذين فقدوا حياتهم:

أطلقت النار على جوزيف ميكاليش من قبل حشد من المواطنين المزعومين ولقي حتفه. ضُربَ مايكل هوي حتى الموت في سان دييجو. ضُربَ صموئيل تشين بوحشية في سجن المقاطعة في سبوكان، واشنطن، ومات متأثرًا بجراحه. قُتل جوزيف هيلستروم قضائيًا داخل أسوار السجن في مدينة سولت ليك، يوتاه. أُطلقت النار على أنا لوبيزا، عاملة النسيج، وقُتلت، وقُتل عاملان آخران خلال الإضراب في لورانس، ماساتشوستس. سُبق فرانك ليتل، المعاق، من قبل أجراء شركة النحاس في بوت، مونتانا. قُتل كلُّ من جون لوني، وإيه روبينوفيتز، وهوجو جيرلوت، وجوستاف جونسون، وفيليكس بارون، وآخرون بأيدي حشد من مطلقي النار التابعين لشركة الأخشاب على متن الباخرة فيرونا أثناء رسوها في المرفأ في إيفريت، واشنطن. اعتُقل جيه إيه كيلى ثم اعتُقل مجددًا في سياتل، بواشنطن، ثم توفي في نهاية المطاف بسبب المعاملة الرهيبة التي تلقاها. قُتل أربعة من أعضاء اتحاد العمال الصناعيين في جرابو، لويزيانا، حيث أُطلقت النيران على ثلاثين شخصًا ومُنوا بجراح خطيرة. وسُجل عضوان حتى الموت خلف سيارة في كيتشيكان، بألاسكا.»

هؤلاء ليسوا سوى غيض من فيض من فقدوا حياتهم على مذبح الجشع، وضُحي بهم خلال النضال الذي استمر عبر العصور من أجل تحقيق الحرية الصناعية.

كما ندفع بأن عدة آلاف من أعضاء هذه المنظمة قد سُجنوا، وفي أغلب الأحيان كانوا يُعتقلون من دون مذكرة ضبط ويُحتجزون دون تهمة. للتحقق من هذا التصريح، يكفي أن تقرأ تقرير لجنة العلاقات الصناعية الذي جمع شهادات أولئك الذين يعرفون الأوضاع في لورانس، ماساتشوستس، حيث زُج بما يقرب من ٩٠٠ رجل وامرأة في السجن خلال إضراب عمال النسيج في تلك المدينة. يذكر هذا التقرير نفسه أنه خلال إضراب عمال الحرير في باترسون، نيوجيرسي، زُج بما يقرب من ١٩٠٠ رجل وامرأة في السجن بدون تهمة أو سبب. في جميع أنحاء الشمال الغربي، تُجرى هذه الاعتداءات باستمرار ضد أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي. إن سجون المقاطعات والمدن في جميع الولايات المتحدة تقريباً احتجزت أو تحتجز أعضاءً من هذه المنظمة.

ندفع بأن أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي قد غُطيت أجسامهم بالقطران والريش. غُطي فرانك إتش مايرز بالقطران والريش من قبل عصابة من المواطنين البارزين في نورث ياكима، واشنطن. غُطي دي إس ديتز بالقطران والريش من قبل حشد بقيادة ممثلين عن شركة الأخشاب في سيدرو، وولي، واشنطن. غُطي جون إل ميتزن، محامي اتحاد العمال الصناعيين العالمي، بالقطران والريش وتلقى ضرباً مبرحاً من قبل حشد من المواطنين في ستونتون، إلينوي. في تولسا، أوكلاهوما، جمع حشد من المصرفيين ورجال الأعمال الآخرين سبعة عشر عضواً في اتحاد العمال الصناعيين العالمي، ونقلوهم في سيارات، وأخرجوهم من المدينة إلى وسط الغابة، وهناك غطوهم بالقطران والريش وضربوهم بالحبال.

ندفع بأن أعضاء في اتحاد العمال الصناعيين العالمي قد رُحّلوا، ونستشهد بحالات في بيسيبي، أريزونا، حيث سُحبَ ١١٦٤ عاملاً من عمال المناجم، العديد منهم أعضاء في اتحاد العمال الصناعيين العالمي، وأصدقاؤهم، من منازلهم، وتحميلهم في عربات ذات صندوق، وإرسالهم خارج المخيم. احتُجزوا لعدة أشهر في كولومبوس، نيو مكسيكو. حالياً يُوجد العديد من القضايا التي لم يُحكَم فيها ضد شركات النحاس ورجال الأعمال في بيسيبي. أُبعد عددٌ كبير من الأعضاء من جيروم، أريزونا. وأُبعد سبعة أعضاء من اتحاد العمال الصناعيين العالمي من فلورنسا، أوريجون، وتاهوا لأيام وسط الغابات، اختُطف توم لاسيتر، بائع الأخبار المعاق، من منزله في منتصف الليل وضُرب ضرباً مبرحاً من قبل حشد لبيعه مجلة «المحرر» وغيرها من الصحف الراديكالية.

ندفع بتعرض أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي للضرب بوحشية وبطريقة غير إنسانية. يمكن لمئات الأعضاء أن يُظهروا الندوب على أجسادهم التي حدثت لهم عندما

أُجبروا على الركض في ممرات السجون. عومل جو ماركو وآخرون بهذه الطريقة في سان دييجو، كاليفورنيا. وكاد جيمس روان يفقد حياته بسبب الضرب في إيفريت، واشنطن. في لورانس، ماساتشوستس، ضرب بلطجية شركة النسيج الرجال والنساء الذين اضطروا إلى الإضراب للحصول على حياة أفضل. تسببت الصدمة والجلد القاسي الذي تلقتته امرأة إيطالية شابة في ولادة طفلها مبكرًا. في ريد لودج، مونتانا، اقتحم منزل أحد الأعضاء وشُنق من عنقه أمام زوجته وأطفاله الصارخين. في فرانكلين، نيو جيرسي، في ٢٩ أغسطس ١٩١٧، أخذ جون أفيللا، أحد أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي، في وضح النهار من قبل رئيس الشرطة ورجال أعمال يركبون سيارة إلى غابة قريبة من البلدة حيث علّق في شجرة. تلقى جسده الكثير من الجروح وتُرك ليموت، كما أنه ضُرب ضربًا مبرحًا. مرت خمس ساعات قبل أن يستعيد أفيللا وعيه، بعد ذلك حكم عليه «قاضي» البلدة بالسجن ثلاثة أشهر مع الأشغال الشاقة.

ندفع بتعرّض أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي للتجويع. يمكن التحقق من صحة هذا الادعاء عبر فحص حالة أي سجن مقاطعة يحتجز أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي. من بين الحالات التي وقعت مؤخرًا، حالة وقعت في تويكا، كانساس؛ حيث اضطّر الأعضاء إلى بدء إضراب عن الطعام وسيلةً للحصول على الطعام الذي يمكن أن يُحافظ على حياتهم. يُضطر الأعضاء إلى اللجوء للإضراب عن الطعام وسيلةً للحصول على طعام أفضل في العديد من الأماكن. نطلب منك قراءة القصة التي كتبها وينثروب دي لين، والتي ظهرت في العدد الصادر في ٦ سبتمبر ١٩١٩ من جريدة «ذا سيرفاي». هذه القصة عبارة عن وصف تصويري لسجون المقاطعات في كانساس.

ندفع بأن أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي حُرِموا من حق الحصول على الجنسية، وفي كل حالة، كان القاضي يخبر المتقدمين صراحةً بأنهم رُفضوا بسبب عضويتهم في اتحاد العمال الصناعيين العالمي، مرفقًا ذلك بتعليقات مسيئة، كما حُرِم الأعضاء من الحصول على أوراق الجنسية بواسطة القاضي هانفورد في سياتل، واشنطن، والقاضي بول أوبويل في سكرانتون، بنسلفانيا.

ندفع بأن أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي حُرِموا من حق الدفاع عن أنفسهم. من منطلق كونها منظمة للعمال الذين يملكون القليل من المال أو لا يملكون أي أموال، كان من الضروري الاعتماد على العضوية والطبقة العاملة عمومًا للحصول على الأموال لتوفير دفاعٍ مناسب. مَنَعَت السلطات البريدية، التي تعمل بناءً على أوامر من وزير البريد العام

في العاصمة واشنطن، نقل طلباتنا للاستئناف، وقوائم اشتراكاتنا، وصحفنا عمداً. جميع هذه المراسلات مكدّسة في مكاتب البريد ولم نتلق مطلقاً مرتجعاً للطوابع التي تُلصق على المراسلات.

ندفع بأن أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي كانوا يُحتجزون بكفالات مبالغ فيها. تُعد قضية بيترو بيير الذي احتُجز في سجن المقاطعة في توييكا، كانساس، مثلاً على ذلك. فقد حُدّت له كفالة مقدارها ٥٠٠٠ دولار، وعندما قُدّم لهم المبلغ، رُفِع على الفور إلى ١٠٠٠٠ دولار. هذه حالة واحدة فقط من بين حالات كثيرة يمكن تسجيلها.

ندفع بأن أعضاء اتحاد العمال الصناعيين العالمي اضطُروا إلى الاستسلام للسخرة. لا يتعلق ذلك بالأعضاء المحتجزين في السجون، ولكنه يجذب انتباه القارئ إلى عضو اتحاد العمال الصناعيين العالمي الذي كان رهن الاعتقال في برمنجهام، ألاباما، والذي أُخْرِج من السجن ووضِع كمعرضة في مهرجان مقام في تلك المدينة حيث كان على الناس دفع رسوم دخول قدرها خمسة وعشرون سنتاً لرؤية عضو اتحاد العمال الصناعيين العالمي.»

وأخيراً، لفائدة القارئ الذي قد يسأل كيف يمكن ألا تكون هذه الحوادث معروفة عموماً للجمهور، سأقتبس الآتي من الصفحات ٢٨٢-٢٨٣ من رواية «جراً مطلقاً»، التي تتحدث عن جريدة «نيويورك تايمز»، وتعاملها مع مؤلف الرواية الكاتب «جيمي هيجينز»: «في الفصول الأخيرة من هذه القصة، يُصوّر جندي أمريكي يتعرض للتعذيب في سجن عسكري أمريكي. تقول جريدة «تايمز»:

«يجب على السيد سنكلير أن يقدم الأدلة التي يعتمد عليها في اتهاماته الخيالية، إذا كان يملك أيّاً منها. إن كل ما كتبه يعتمد ببساطة على أقوال مُرسلة، أو، وهو الأسوأ، أنه ترك هواه يوجهه نحو تحقيق رغبته في إثارة القلاقل؛ ومن ثم فإنه لن يُعرّض نفسه للنقد فحسب، بل للعقاب أيضاً.»

رداً على ذلك، أرسلتُ إلى جريدة «تايمز» رسالة شديدة الاحترام تقص حكايات عشرات الحالات، وتخبر جريدة «تايمز» بالمكان الذي يمكن فيه العثور على مئات الحالات الأخرى. أعادت جريدة «تايمز» هذه الرسالة دون تعليق. ثم مرت بضعة أشهر، ونتيجة للتحريض المستمر من الراديكاليين، أُجري تحقيق في الكونجرس، وأُجبرت الصحف على نشر الأدلة على الوحشية الصارخة التي استُخدمت. نشرت جريدة «تايمز» مقالاً بعنوان «وحشية معسكر السجن»، وجاءت العبارة الأولى من المقال كالآتي: «يمكن الآن اعتبار تعرض الجنود الأمريكيين المحتجزين في معسكرات السجن لمعاملة وحشية قاسية أمراً مثبتاً.»

فأرسلتُ رسالةً مهذبةً أخرى إلى جريدة «تايمز» مشيراً فيها إلى أنني أعتقد أنهم مدينون لي باعتذار. كيف تعاملت جريدة «تايمز» مع الأمر؟ لقد غيّرت فحوى رسالتي من دون إذني. ومحت منها طلبي منهم أن يعتذروا، وكذلك اقتباسي من كلماتهم التي تُطالب بعقابي! إن جريدة «تايمز»، التي لا تعرف ما عليها أن تفعل، ترفض أن تدعني أُذكر قراءها أنها أرادت أن «أعاقب» لأنني قلت الحقيقة! «جميع الأخبار مناسبة للنشر!»

